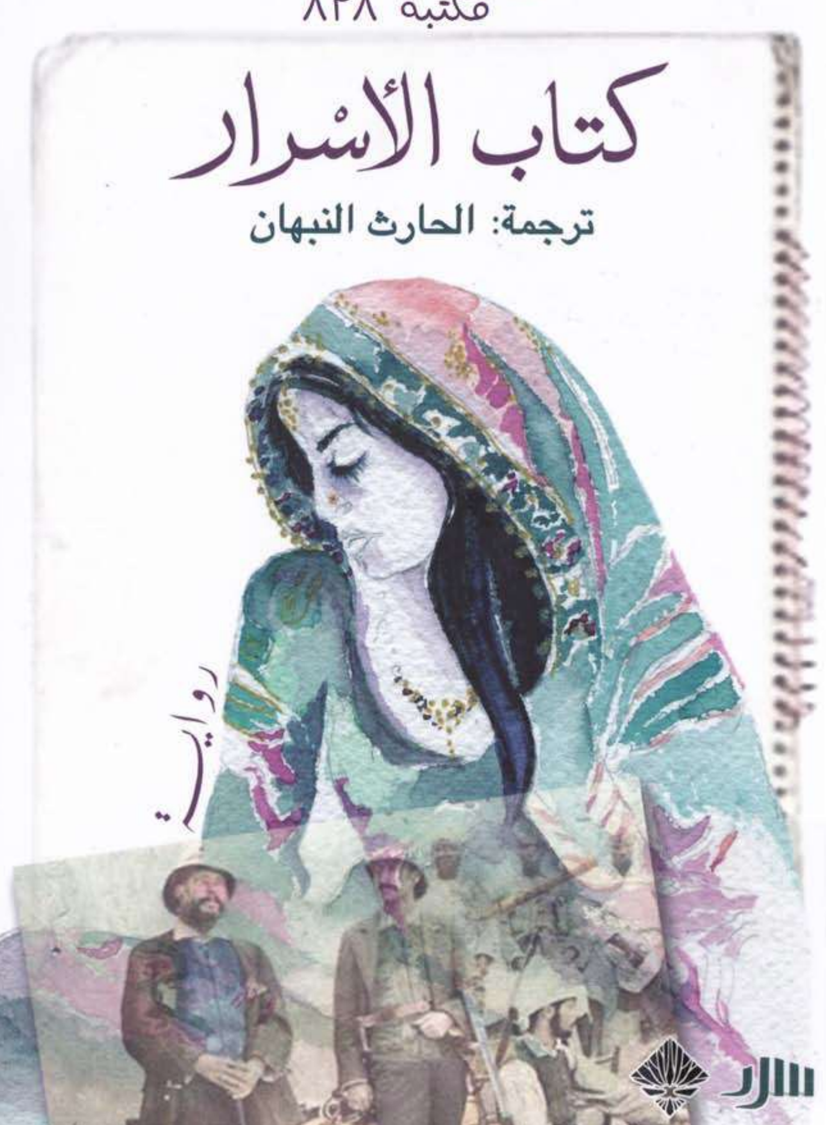
م.ج. ڤاسانجي

كتاب الأسرار

ترجمة: الحارث النبهان



كتاب الأسرار

كتاب الأسرار - رواية
تأليف: م. ج. ڤاسانجي
ترجمها عن الإنكليزية: الحارث النبهان

The Book of Secrets
M. G. Vassanji

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 16 - 0
الطبعة الأولى: 2020



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH



دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing



م.ج. ڤاسانجي

كتاب الأسرار

رواية

ترجمها عن الإنكليزية:
الحارث النبهان

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts for this translation.




mohamed khatab

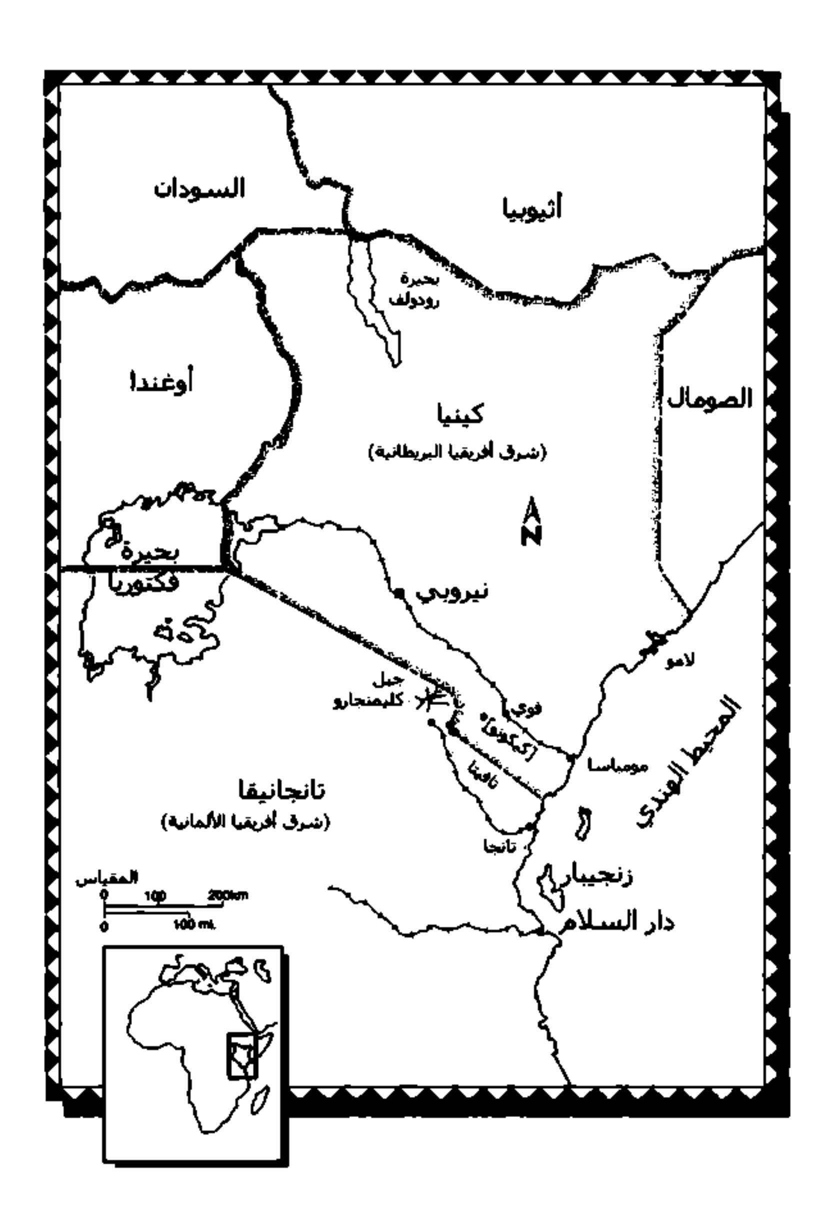
إلى كَبير...

الذي لم يُرد الانتظار!

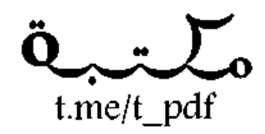
مررت أمس بخزّاف يدقّق في
صنع الثَّرى دائباً من دون إنصاف
شاهدت إن لم يشاهد غير ذي بصرٍ
ثرى جدودي بكفَّي كلّ خزّاف.

- من «**رباعيات الخيّام**»(*).

(*) أُخذت هذه الأبيات من الترجمة العربية التي أنجزها أحمد الصافي النجفي لرباعيات الخيام. (المترجم).


السودان
أثيوبيا
بحيرة
رودولف
أوغندا
الصومال
كينيا
(شرق أفريقيا البريطانية)
N
بحيرة
فكتوريا
نيروبي
لامو
جبل
كليمنجارو
فوي
المحيط الهندي
مومباسا
تانجانيقا
(شرق أفريقيا الألمانية)
تانجا
المقياس
0
100
200km
100 mi.
زنجبار
دار السلام

مقدَمة



7 تموز 1988

كانوا يدعونه: كتاب الأسرار، «كتابو تشا سيري زيتو». وكانوا يقولون عن كاتبه: لقد سرق أرواحنا وحبسها؛ هذا الكتاب قارورة سحرية ملأتها أرواح حبيسة؛ انظروا كيف يُبقي عينيه محجوبتين! هذا المزونغو†(*)، يراقب كلّ ما نفعله؛ انظروا إلى شدّة اعتناء هذا الساحر عندما يكتب فيه، وكيف يهتمّ به دائماً اهتماماً يفوق اهتمامه بالطبيعة، وكيف يهيم به أكثر مما قد يهيم رجلٌ بامرأة! يأخذه معه إلى الغابة، وإلى الجبل، وفي الحرب، وفي السلم، وعندما يصطاد الأسود أو عندما يجلس للقضاء، تظلّ عينه متعلّقة به عندما ينام، ويغمض العين الأخرى. نعم، علينا أن نسرق هذا الكتاب، إن استطعنا، وأن نستعيد منه أرواحنا وأسرارنا. لكن عقوبة سرقة كتاب كهذا شديدة -آي!- نحن لم نرَه.

وقد كانوا مُحقّين في نهاية المطاف، محقّين جزئياً، أولئك الوازّي† -الكهول- الذين كانوا يعبّرون عن ريبةٍ وشكٍّ ملؤهما العجب إزاء الكتاب

(*) إن هذه العلامة (†) إحالة إلى القائمة الواردة في آخر الكتاب. وهي قائمة تضمّ كلماتٍ محليّة كثيرة يوردها الكاتب على امتداد الرواية مشروحةً في المتن أحياناً، وغير مشروحة أحياناً أخرى. (المترجم).

وإزاء كاتبه، المفوّض الأوروبي الأبيض، كلّيّ القدرة، الذي ظهر وسطهم لكي يحكمهم. ما كانوا يعرفون أن هذا المزونغو قد حبس نفسه، أولاً وقبل أيّ شيء آخر، في هذا الكتاب - القارورة؛ وبعد أن تركه الكتابُ وما عاد إلى جانبه -تركه آخذاً معه جزءاً منه- واصل حبسَ أرواحٍ أخرى مع أسرارها، وواصل إملاء مشيئته عليها. وحتى الآن، لا يزال الكتاب يجعل من يقرّرون مصيره في عداد أبطاله.

وذلك لأنه ما من نهايةٍ له، هذا الكتاب، فهو يبتلعنا ويحملنا معه، وهكذا يكبر.

لكن قصة هذا الكتاب بدأت بداية بسيطة، فكانت اكتشافاً غير معتاد وقع بين يدَي شخصٍ كان معلّم مدرسة، شخص وجد فيه ضالّته، وبدأ العمل عليه بحماسة وجِدّ لم يعرفهما منذ أن كان معلّماً متمرّناً.

أنا هو ذلك المعلّم السابق. ففي زماني علّمت جيلاً من تلامذة المدارس، أو أكثر من جيل. تابعت تطوّر هذا المكان من مستوطنة صغيرة إلى هذه المدينة الضاجّة بالحركة التي صارها الآن. ذهب كثيرٌ من طلابي، سافروا إلى الخارج، إلى أنحاء العالم المختلفة. وهم الآن أساتذة ورجال أعمال ومهندسون، رحلوا خلال الأيام الصعبة التي أطبقت علينا في العقد الماضي، بل ذهب بعضهم قبل ذلك. لقد تجاوزوني؛ تجاوزني كثيرٌ منهم. لكني لست آسفاً على هذا لأنه برهانٌ على نجاحي. أتمنّى أحياناً، تمنّياً حزيناً، لو أن ولادتي تأخّرت عن زمانها حتى أكون قادراً على القيام بتلك القفزة من هذا الهامش إلى المركز، فكلّ ما هو مهمّ، وكلّ ما هو مثير، يبدو لي أنه يحدث هناك. وأما في حقيقة الأمر، فإن الرحيل لم يكن يوماً واحدةً من أمنياتي!

يسخر فيروز مني عندما أشتكي (ومن عساه لا يشتكي؟! قلت إننا

مررنا بأوقاتٍ صعبة!)، وعندما أشير إلى شوقي إلى موريس العجوز الذي كان يتجوّل بي هنا وهناك، يجيبني فيروز قائلاً لي بمنطق صاحب الدكّان: «سيّدي، لو أنك رحلت لصار عندك عشرُ سيارات، بفضل موهبتك وخبرتك!».

لا يزالون يخاطبونني بكلمة «سيّدي»، أو «السيد فيرنانديز».

انتبهت جماعة الموظفين إلى وضعي منذ ثلاث سنين، واكتشفت أنني تجاوزت سنّ التقاعد. لم يُتَح لي أيُّ خيارٍ آخر. فصرت أمضي أيامي متبطّلاً منذ ذلك الوقت، وما كان هذا عليّ سهلاً؛ ما كان سهلاً في هذه المدينة حيث لا أسرة لي ولا أصدقاء مقرّبين... ثم إنني، بعد كلّ حساب، مهاجرٌ هنا. منذ بضعة شهور، في بداية شهر آذار، وجدت نفسي سائراً في دروبٍ ضيّقة في الأزقة الخلفية في دار السلام، عندما التقيت فيروز مصادفةً. لم تكن تلك أولَ مرّةٍ يخفّ فيها إلى مساعدتي واحدٌ من طلابي القدامى. لست أعتبر فيروز نجاحاً من نجاحاتي؛ وهو يعرف هذا (كثيراً ما أشير خفيةً إلى إنجازاتي الكبيرة). صار جسده الذي كان مفتول العضلات في يوم من الأيام منتفخاً الآن، وصار فمه المرتخي يمنحه مظهراً وديّاً أشكّ في أنه يخفي أسناناً منخورة وقدراً من العصبية في ما يقوله. لكن ما حقّقه من الناحية المالية ليس سيّئاً. ممتزجاً بذلك الاحترام الشرقي إزاء «الأستاذ»، أعرف أن فيه أيضاً شيئاً من ازدراء صاحب الدكّان تجاه المعلّم منخفض الدخل، المفكّر الذي هو نسيج وحده... ذلك الذي لا يبدو عليه، آخر المطاف، أنه يساوي الكثير! لكنه أتى إليّ وساعدني. ولا بدّ لي من الاعتراف بأن بؤس أحوالي في ذلك الوقت جعلني أذهب باحثاً عن زوجٍ من الأحذية في المنادا[1] في شارع الكونغو. كان ذلك عندما خرجت من جنون المنادا شاقّاً طريقي عبر حشد المتسوّقين الكثيف، والبائعين

الصاخبين، واللصوص الكثيرين، حاملاً علبة الحذاء، أغذّ الخُطا مبتعداً خِفيةً في اتجاه شارع أوهورو، فصادفته. تبيّن لي أنه قد أوقف سيارته حتى يقلّني معه، ثم خرج من السيارة وراقب جولتي المحزنة بين المتاجر الرخيصة.

سمع فيروز قصتي فتأذّى إحساسه باللياقة. ثار غضبه. وفي اليوم التالي، أخذني في جولة لرؤية بعض الأشخاص من ذوي الثراء والنفوذ في المدينة؛ بل إنه اتصل هاتفياً بعددٍ من الأشخاص في المناطق الداخلية من البلاد، وأقرضني مالاً أيضاً. وعندما فشل آخر الأمر في أن يعثر لي على عمل من النوع الذي يعتقد أنني جدير به، عرض عليّ شقّةً لأعيش فيها، هنا، عند تقاطع شارعي أوهورو وفيونغوزي.

كيف يكون الأمر عندما يعود المرء إلى قبر؟ كان اسم هذا المبنى الذي وُضعتُ فيه: «بناية أمين 1951». في الأسفل، أمام المتجر الذي عند الزاوية، كانت لافتة «دكّان بيبا» المطموسة جزئياً، عند التقاطع المسمّى «زاوية بيبا»، تذكّرني بصورةٍ ممكنة واحدة عندما أفكّر في ذلك الاسم، بيبا: رجل ممتلئ الجسم، لاهث الأنفاس، في قميصٍ داخليّ وسروال تحتيّ قصير، داخل دكّان يعرض سلعاً متنوّعة كثيرة، وهو جالسٌ على مقعد من إطارات السيارات وسط سلعه كلّها، وأصابعه منشغلةٌ دائماً بَبسط قطعٍ مربّعة من الورق لا يلبث أن يطويها من جديد، فتصير مظاريفَ للتوابل يُسقطها من بين يديه بحركةٍ انسيابية في سلّة إلى جانبه... شخصٌ يقيس الزمن بحبّات الكُركم والكزبرة والفلفل... رجلٌ شاع عنه بخلُه وقذارته، قذارة شخصه ودكّانه؛ فضلاً عن ريبة كانت تكتنف تعاملاته التجارية. إنه الآن متجر فيروز الذي يستخدمه مقرّاً ثانوياً لعمله، ويبيع فيه أحذيةً وأجهزة راديو وساعات، وذلك لأن ميدان نشاطه الأول هو منطقة مزيمبازي الحيوية، تماماً خلف شارع الكونغو حيث وجدني.

أمرٌ حسن أن يصير للمرء راعٍ كان تلميذاً لديه... هذا إن تركَ لمحاتٍ عارضةً من الازدراء تنزلق بعيداً من غير أن يتوقف طويلاً عندها، أو عند شيء من قلّة الاعتبار في نكتة يسمعها، أو عند قدرٍ من الوقاحة يلمسه في التبسّط غير المعهود، من غير إهمال ملاحظة اللطف والاحترام الحقيقيين الموجودين أيضاً. تعرّفت على غموض هذا النوع من أصحاب المتاجر بطريقةٍ مفاجئة إلى أقصى حدّ عندما كنت، أحد الأيام، جالساً مع فيروز نشرب الشاي في متجره.

سألني: «ما التاريخ، يا سيّدي؟».

بحذر، ضغطت الفنجان على صحفته حتى لا يهتزّا في يدي، ثم رفعت رأسي ونظرت إليه. التعبير الذي رأيته في وجه هذا التلميذ السابق: ابتسامة نصفُها حرجٌ ونصفها شقاوة خالصة!

«لقد كنت تعلّمنا التاريخ، يا سيّدي، فهل أنت قادر على كتابته؟».

«أنت تعني...»، بدأت قول هذا متلمّساً، متمهّلاً، من غير جدوى، لعلّني أعثر على فكرة مختلفة أستطيع أن أخلّص بها نفسي من نظرته المعتذرة، المحرجة، الماكرة، التي حاصرتني.

«دعني أُريك شيئاً، يا سيدي! تعال، يا سيدي!».

تبعتُه إلى تلك الغرفة الخلفية المشهورة منذ أيام بيبا، الغرفة التي كان يُعتقد في ذلك الوقت أن ظُلمتها تضمّ أسراراً وأدلّة كثيرة على تعاملات مشبوهة لم تستطع الشرطة ضبطها أبداً. إنها الآن غرفة تنيرها مصابيح النيون الساطعة، وتكسو جدرانها رفوفٌ ملأتها علب الأحذية، غرفة يعبق هواؤها برائحة حادّة للفينيل والمطّاط ومواد التغليف. وفي وسط الغرفة طاولة عليها مفرشٌ بلاستيكيّ لامع، ممسوح قبل قليل، مخطّط بالأبيض والأحمر. على تلك الطاولة، رأيت شيئاً غريباً كلّ الغرابة عن المشهد

المحيط به، شيئاً جعلني هدوء رفيقي المترقّب إلى جانبي أحسُّ أنه الغاية من دخولنا هذا المعتزَل القديم. كان ذلك مغلّفاً جلدياً بُنّياً قديماً من النوع الذي كان مستخدماً لوقاية جوازات السفر في الأيام الخوالي.

«ألقِ نظرةً عليه، يا سيدي!»، تقدّم خطوةً وانحنى، ثم فتح المغلّف وتنحّى من أمامي. اقتربت لأنظر إلى الكتاب الذي صار الآن ظاهراً.

قلّبت صفحاته فانبعث منها أثر رائحة غير لطيفة. لقد عرف هذا الكتاب أماكن شديدة القذارة - فأيّ مكان يمكن أن يكون أكثر قذارة من غرفة بيبا الخلفية المظلمة؟!

قال فيروز من خلفي: «وجدتُه في المستودع، يا سيّدي!».

تساءلت عن القيمة التي كان بيبا العجوز يراها في هذا الكتاب. هل هو جزءٌ من سقط المتاع الذي كان يجمعه بصبرٍ على مرّ السنين ويبيعه في متجره المزدحم؟ وهل بقيت هذه القطعة، مصادفةً، فلم تبرح مكانها ولم يكن نصيبها نصيبَ ما لا حصر له من الأوراق التي صارت مغلّفات للتوابل، أو التي استُخدمت لإشعال النار؟ أم أن بقاءه سالماً كان أمراً مقصوداً؟

استدرت ونظرت إلى فيروز.

قال لي مترقّباً، محاولاً استفزاز المؤرّخ فيّ: «أهو مهمّ، يا سيّدي؟!».

أجبته: «ربّما».

خلال عقدٍ ونصف العقد من السنين المنصرمة، وَجدَتْ آثارٌ كثيرة طريقها إلى أكوام القمامة في هذه المدينة، عندما لم يكن الناس يتردّدون كثيراً قبل رمي تذكارات حياتهم القديمة وبقاياها، في غمرة اندفاعهم الأهوجِ إلى التماس حياة جديدة في الخارج. جوازات السفر، ورخص قيادة السيارة، وكتب من أنواع كثيرة، ومجلّات، ورسائل، ومخطوطات

كُتبت باليد... تعفّنت كلّها في القمامة المتروكة، أو أُلقيت في النار، أو بيعت في المزاد مع غيرها من سقط المتاع. وفي وقت لاحق، جرت محاولات محمومة، لكن أكثرها عقيم، لإنقاذ هذه النُّتف من حياة متروكة.

قلت لفيروز: «أَخبِرني! أين وجدتَه؟ كيف؟».

لكن خادماً أتى في تلك اللحظة وناداه. لقد وصلَت إلى المتجر شحنة أحذية، وكان تاجر السوق السوداء الزنجيباري ينتظر استلام نقوده. استدار فيروز ذاهباً، وقال لي: «في ما بعد». أسرعت من خلفه، وأخذت الكتاب معي. توقف فيروز عندما رأى الكتاب تحت إبطي؛ فقلت له: «يجب أن ألقي عليه نظرة متأنّية». وعدته بأن أحافظ عليه بكلّ ما أستطيع. ما كان هناك وقتٌ للمجادلة؛ وكان القلق الظاهر على وجه فيروز عندما جعلني أقدّم هذا التعهد أمراً أثار استغرابي.

لقد كان الكتاب مفكّرة! كان مفكّرة من إصدار «ليتس»، سنة 1913. واحدة من تلك المفكّرات التي يستخدمها «المستكشفون» بحيث يمكن استخدامها في السنة التالية من قِبَل من قد يكون مضطراً إلى العيش في تلك المناطق من غير أن تتيسّر له سبل الوصول إلى معلومات. خمسة إنشات بثماني إنشات؛ وفي كل صفحة ثلاثة أيام. غلاف من الورق المقوّى الطريّ، وطباعة بالأسود على أرضية بلون بيج... ما عدا كلمة «مستكشف» المطبوعة قطرياً بحروف حمراء كبيرة. وكانت الصفحات الأخيرة مليئة بإعلانات من تلك الأيام -شركة التلغراف المحدودة الهندوأوروبية؛ وشركة التأمين الملكية؛ وشركة إينوس فروت سالت- «طريق ممتع إلى الصحة قبل الإفطار، الطريق الطبيعي». ثم صفحتان فيهما مواعيد شروق الشمس وغروبها في سنة 1913 في كيب تاون وبلومفونتين، وبولاوايو، وبريتوريا؛ وكذلك التعرفة البريدية في جنوب إفريقيا، وتعرفة البرقيات،

والتعرفات الجمركية لجنوب إفريقيا لسنة 1913. وبعد هذه المعلومات أتت صفحة غير مطبوعة كُتب في وسطها، بخط اليد، اسم صاحب المفكّرة وعنوانه.

آلفرِد كوربين

كيكونو، شرق إفريقيا البريطانية

كُتب في تلك الصفحة الجزءُ الأول من عبارة باللغة اللاتينية: «لكننا يجب أن...»؛ إلا أن بقية العبارة كانت مطموسة غير مقروءة.

وفي داخل المفكّرة صفحاتٌ مصفرّة، هشّة، تزيّنها محافِظ من بيوض الصراصير الجافة؛ وفيها بقايا حشرات، رقيقة كالأحافير، تنبعث منها رائحةُ غبارِ تَحلُّلها اللاذعة. صفحات كثيرة منتزعة، وصفحات كثيرة مبقّعة، وأقسام فتحتْ فيها العثّة الفضية أنفاقاً كثيرة.

كان الحبر قد بَهت لونه، وصار أكثر الكتابة غير مقروء. وكان أكثر ما هو مسجّل مؤلّفاً من ملاحظات يومية مكتوبة على عجل، وعبارات ملغّزة، وملاحظات وتذكرات بأمور لا بدّ منها (مثلاً، ما كُتب عند اليوم المؤرخ 27 شباط 1913: «اجتزت خط الاستواء، نزهات، عشاء، حفل راقص؛ طقس رائع حتى الآن...»). ثم تأتي، من حينٍ إلى آخر، مقاطعُ صحفية طويلة مكتوبة بعناية أكبر بخطٍّ مائل انسيابي. استنتجت أن كوربين هذا يجب أن يكون كاتب رسائل متمكناً؛ ولعلّه كان يُطلع المراسلين الصحفيين على ملاحظته هذه.

وبالطبع، كان هو نفسه السير آلفرِد كوربين، حاكم أوغندا في أواخر الأربعينيات، الذي تقاعد بعد ذلك فترك «الخدمة في المستعمرات»، لكنهم استدعوه في وقت لاحق لتقديم المشورة إلى الحكومة البريطانية في ما يخص استقلال تلك المستعمرة وغيرها من المستعمرات في إفريقيا. لقد

خدم زمناً طويلاً في الإدارة البريطانية في تلك الأنحاء، بل إنه عمل أيضاً على تلك السياسة التي حملت اسم «الحكم غير المباشر». كانت المفكّرة التي بين يديّ سجلاً لمنصب أقدم عهداً، فكانت شذرةً منسية من جزء تابع لتاريخ موثّق توثيقاً حسناً. وبما أنها كذلك، فما الذي أثار اهتمامي بهذه الملاحظات الشخصية، والكلمات التي خربشتها يد ضابط شاب في المستعمرات، ومسودات رسائله إلى أبيه وأمه، وعبارات لعلّها ملاحظات سجّلها من أجل كتابة مذكّراته في ما بعد؟

هكذا صرت أتصوّره: منذ خمسة وسبعين عاماً، في سنة 1913، الرجل الأبيض الوحيد في قرية إفريقيّة، جالساً إلى طاولة فظّة معوجّة في بيت خشبي خشن. وفوقه مصباح لوكس كيروسيني معلّق بعارضةٍ في السقف. وفي الخارج، ظلمة دامسة تتخلّلها أضواء بضعة مصابيح وشموع. يضع الرجل الجالس إلى الطاولة كأسه التي يرتشف منها، ويمسك قلم الحبر، ويخطّ شيئاً في مفكّرته. وبهذه الكتابة، يبدأ غزلَ الخيط الذي سيربطه بي.

حتى قبل أن أبدأ قراءتي المتأملة لملاحظات كوربين اليومية التي ستأسرني أسراً شديداً بعد ذلك، لم أكن قادراً على أن أُبعد عني ذلك الإحساس بأن تلك المفكّرة تمسّ حياتنا بطريقة غامضة ما؛ الإحساس بأنها «كتابنا». أحسست أن فيها ما يتجاوز كثيراً محتوى صفحاتها؛ فهناك قصة المفكّرة نفسها! لقد كُتبت هنا، بيننا، ولعلّها خُبِّئت بعد ذلك، ثم وُجدت الآن بيننا من جديد. ولا بدّ أنها خلّفت وراءها أثراً طويلاً غامضاً، أثراً من شأنه -إن اقتُفي- أن يكشف الكثير عن الأزمنة والحيوات التي كان شاهداً عليها، وأن يخبرنا بالسبب الذي جعل المفكّرة تظهر آخر الأمر، حيث ظهرت.

أتذكّر، بالضبط، لحظة قراري – هذه المفكّرة، هذا العبء الذي

ينتظرني. كنت جالساً أتأمّلها، فرأيت أن لها هيئة مدخل، هيئة بوّابة؛ فهل أدخُلها وأهبها أيام تقاعدي؟ كتبت رسالة إلى طالبٍ سابق أعزّه كثيراً كان قد أرسل لي بطاقة بريدية منذ شهور، وذهبت إلى لقاء مع قيّم على مكتبة، وأقنعته بأن يفتح لي خزانة مقفلة في مكتبة دار السلام. وجدت نفسي في علاقة وثيقة مع تلك المفكّرة!

قلت لنفسي إنني سأعيد خلق عالم تلك المفكّرة. سأبثّ الحياة في الأرواح الكثيرة المحبوسة بين صفحاتها منذ زمن طويل جداً، وسأحكي قصص تلك الأرواح. سأُحيي روح المفكّرة نفسها، وأحكي حكايتها. وهكذا، سأُنشئ تاريخاً، نسيجاً غنيّاً حيّاً يصل بين الماضي والحاضر، ويعصي زحمة حياة المدينة المندفعة في الخارج الذي يجعلنا كلّنا زائلين.

اكتشفت في الأسابيع التالية السرّ القاتم المتوقّد، سرّ رجلٍ بسيط صارت حياته مرتبطة ارتباطاً مؤلماً لا انفصام له بحياة ضابط إنكليزي في المستعمرات. ورأيت أن الصلة المؤقتة الزائلة بينهما (الشابة ذات المصير المأسوي، مريامو) ستصير أكثر الصلات ثباتاً. رأيت عالماً قديماً متردّداً يلد عالماً جديداً، ليس أقلّ هشاشةً من الأول؛ وتتبّعت درب هذا الكتاب، من قلم رجل متوحّد، إلى الهاجس الذي استحوذ على رجل آخر، ومن حيوات عتيقة وجدت أنفسها عالقة في مشروع استعماري وفي حرب عالمية، إلى حيواتنا نحن، في زماننا نحن... درب أوصلني آخر الأمر إلى نفسي، وإلى أوجاع التوق الخبيئة في زماني الذي مضى. وفي نهاية الأمر كلّه، وجدت نفسي شديد الانكشاف أمام بحثي، فصرتُ أيضاً واحداً من أسرى هذا الكتاب.

القسم الأول

I

مفوّض الناحية

نحمل داخلنا العجائب التي نبحث عنها خارجنا؛
فإفريقيا كلّها فينا، وألغازها فينا.

– سير توماس براون (Sir Thomas Browne)

والآن، يا سيّدي، أتيتُ إلى إفريقيا...

– ويليام بيت (William Pitt)
(في مجلس العموم)، 1791.



1

كتب آلفرِد كوربين في الأول من آذار سنة 1913: «الظاهر أننا نرى موماسا أخيراً». كان على متن السفينة الألمانية بريتزريغنت. أردف هذه العبارة الوجيزة بتذكرة لنفسه بأن يطلب مزيداً من تبغ الغليون في رسالته التالية إلى موطنه. خرج بعد ذلك ومضى إلى سطح السفينة. كان المسافرون متجمهرين على ميمنة السفينة حتى ينظروا إلى المشهد الجديد الذي ظهر أمام أعيُنٍ أنهكها طول النظر إلى البحر، وإلى لمحاتٍ نائية شبحية من اليابسة.

عندئذٍ، فكّر في هذا المشهد الإفريقي معجَباً بأسلوبه اللطيف في تحية القادمين؛ كيف يجعلك ترى، على الفور، قوّته وطبعه البرّيّ وألوانه الحارّة وقوته الجاذبة، على نحو ميلودرامي بعيد عن أيّ ادّعاء. أحدث هذا في نفسه انطباعاً قوياً، وأكّد ما كان لديه من توقّعات، أيام كان تلميذ مدرسة، توقّعات غذّتها قصصُ مشاهير المغامرين والمستكشفين. كان يُجهِد عينيه مقلّباً النظر في البحر، منذ أن غادروا مرسيليا بصحبة حمولة جديدة من المسافرين القادمين من الجزر البريطانية. وأما هو فقد استقلّ السفينة بريتزريغنت في هامبورغ. كان ذلك يومه السادس عشر في البحر؛ وكانت السفينة قد استدارت ناحية الجنوب حتى تلتف من حول تلك المدينة

القائمة على جزيرة، فظهرت له المدينة بأقصى بهائها تحت ضياء الشمس. حتى في ذلك الوقت، عرف أنه لن ينسى هذا المشهد أبداً. ساحل إفريقيا، وميناء مومباسا. تواضُع الميناء، والغرابة المتحفّظة لطابعه الشرقي، تبقيان في ذهنك مثلما تبقى الخطوط القوية لعملٍ فنّيٍّ كبير ذي بساطة خدّاعة. بانت بيوتٌ بيضاء على تلّة مكتسيةٍ خضرةً لامعة. صفٌّ من نخلات يزيّن الشاطئ، وطريقٌ أبيض نازل إلى الضفة التي اجتمع عندها حشدٌ من الناس يلوّحون بأيديهم من غير انقطاع. كانت المياه داكنة الزرقة، لكنّها متلاطمة الأمواج؛ وسماء صافية في ذلك اليوم. حتى قبل دخولهم الميناء الجنوبي، تقاطرت إليهم زوارق الداو[†] والباغالا[†]، ومراكب أصغر حجماً أتت كلّها مسرعة مترقّبةً إنجاز صفقاتٍ مربحة.

وعلى السفينة، كان بقية المسافرين قد لاحظوا ذلك الرجل معتدل البنية متوسط الطول، صاحب الشعر الأشقر والشارب الكثيف والعينين الكئيبتين. كان ممكناً أن يجده الناظر إليه وجِلاً بعض الشيء.

***

كان آلفِرد كوربين قد أمضى أيام طفولته مع المربّيات وفي مدارس داخلية في ستوكهولم وبراغ وهامبورغ؛ وكان يتكلّم لغات هذه البلاد الأجنبية، أيام فتوته، على الأقل، بأحسن مما يتقن لغته الأم. كان أبوه، تشارلز، قد استقرّ في وظيفة في الخدمة القنصلية، بعد فترة من العمل في تربية الماشية في الأرجنتين. كان للأسرة بيتٌ في ديفون، وكان التميّزُ الوحيد الذي تستطيع الأسرةُ ادّعاءَه قرابةً تربطها بالسير جورج كوربين براون، في البنجاب، فضلاً عن قرابةٍ غامضة –عن طريق أمّه ذات الأصل السكوتلندي– بدنونداس الذي كان وزيراً للحرب في حكومة ويليام بيت.

كان لديه شقيقان اثنان، روبرت الذي كان ضابطاً في جيش الهند،

وكينيث الذي يعمل مفوّضاً إقليمياً في نياسالاند. أراد تشارلز كوربين أن يتخذ ابنُه الأصغر اتجاهاً مختلفاً، فعثر آلفرِد على وظيفة لدى وكلاء شركة «يونيون ميل شيتنغ لاينز» في هامبورغ. كان في هذه الوظيفة ما يثير اهتمام آلفرِد، وظيفة في ميناء هامبورغ، حيث رأى أول مرة أفارقة كانوا عمّالاً على السفن آتين من ساحل إفريقيا الغربي - إلّا أن آلفرِد سرعان ما صار يبحث لنفسه عن مجالاتٍ أخرى. وقد سنحت له فرصة عندما كان عائداً من لندن مروراً بباريس.

بعد سنين كثيرة، وصف في مذكّراته التي نشرها كيف كان دخوله إلى «الخدمة في المستعمرات». قيل له في باريس إن السيد ونستون تشرتشل، نائب سكرتير المستعمرات، كان يستريح في فندق محلّي بعد عودته من رحلة إلى شرق إفريقيا. ومن غير تردّد، ذهب آلفرِد إلى الفندق، وقدّم هناك بطاقته قائلاً إنه من أقارب السير جورج. أتته الإجابة: «إن كان من أقارب كينيث كوربين، فأرسِلوه إليّ!». الظاهر أن السيد تشرتشل كان قد التقى شقيقه في شرق إفريقيا البريطانية (هكذا كان اسم كينيا في ذلك الوقت). وفي غرفة تناثرت فيها الصحف، وملأها دخان السجائر، استقبل نائبُ السكرتير، الذي كان منهمكاً في تناول فطورٍ متأخر، آلفرِد كوربين، ووافق على طلبه وظيفةً في المستعمرات قائلاً إن تلك الوظيفة تقتضي منه - هكذا عبّر عن الأمر: «روحَه وحياته كلّها».

صحيح أن بضع سنين انقضت قبل أن يستفيد آلفرِد من هذا العرض (كان على علاقة بامرأة في ذلك الوقت)، إلا أنه كان يرى دائماً أن من المواتي له أن يبدأ عملاً في المستعمرات مستنداً إلى هذه المؤهّلات التي ستزداد قيمتها على مرّ السنين. ثم لم يترك الخدمة في المستعمرات إلا وقت تقاعده.

2 آذار 1913

أخذونا في زوارق خشبية يسمّى الواحد منها «أنغالاوا». وراح يجذّف بنا صوبَ الشاطئ نوتيّةٌ صاخبون يتبادلون الأغاني بأصوات صافية. وفور أن وطئت أقدامُنا اليابسةَ، هاجمَنا حشدٌ مندفع من الحمّالين المرتدين تلك الأثواب السواحيلية القطنية البيضاء التي هي شائعة جداً هنا، أثواب يسمّونها: «كانزو»[†]. كان معي مسافرٌ يعمل مسّاحاً اسمه كرانستون؛ وكان يثرثر من غير كلل منذ أن انطلقنا من بور سعيد إلى مومباسا... عينٌ في محجرها، مخبأ تكتنفه الأشجار لا بدّ أن السندباد مرّ به، بل لعلّه المكان الذي رأى فيه بيضة الرخ... والآن، بدأ كرانستون يتحدّث عن مغارة «الأربعين حرامي»، ويقول: «آبانا – آبانا، إندا – إندا»، وأشياء من هذا القبيل. كان شرطيان هنديان لهما لحيتان هائلتان وعمامتان حمراوان يراقبان المشهد بهدوء؛ وكانت جماعةٌ من رجالٍ هنود، يكادون لا يرتدون شيئاً من الثياب، تبحث متوترة بين المسافرين الواصلين من أبناء جلدتهم ممّن صعدوا إلى متن السفينة في ميناء عدن. كان لكثيرٍ من الأوروبيين الواصلين على متن السفينة من يستقبلهم، أو أنهم كانوا يعرفون طريقهم. الحَرُّ غير محتمل، وكذلك الضجيج؛ وكان الهرج والمرج حالة معدية، مزعجة. نظرت من حولي حائراً، فانصبّت عليّ دعواتٌ متنافرة الأصوات، ثم شقّ هنديٌّ طريقه عبر الحشد وقدّم نفسه بابتسامة متحفّظة.

قال لي بصوت لطيف: «سيّدي، اسمح لي، من فضلك!».

متردّداً، تركت هذا الرجل القصير ذا البشرة الداكنة يحمل حقيبتي القماشية. كان مرتدياً سترةً قصيرة سوداء، وقد لفّ رقبته بشال. قال إن اسمه ثوماس، وطلب مني أن أتبعه. كان له صوتٌ موسيقيّ، نوعاً ما، وعادة غريبة أيضاً: يدير رأسه إلى هذا الجانب وذاك وهو يتكلّم. سار

الرجل، فتبعتُه مثبّتاً عينيّ على مؤخّر رأسه الأسود اللامع. لم أدرك إلا بعد أن انقضى ذلك اليوم كلّه أن ذلك الرجل ربما كان يحاول معالجة زكامه بذلك الشال الصوفي ذي المظهر السخيف... وذلك أن رائحة كافور واهية كانت في الهواء من حوله(*)».

***

قاده توماس إلى سقيفةٍ من ألواحٍ حديدية مموّجة كانت مكاناً أشبه بفرنٍ متوقّد. كان ذلك «مكتب الجمارك» حيث وجد صفاً طويلاً من الأوروبيين في انتظار التفتيش، ومعهم بضعة صيّادين أميركيين. كان موظّفٌ هنديّ جالساً إلى طاولة يملأ استمارات على أربع نسخ؛ ومن حينٍ إلى آخر، يُخلي سبيل مسافرٍ غاضب أو ضجر بكلمة: «التالي!» خشنةً وبختمٍ على جواز السفر. رأى الموظف توماس، وأظهر ما يشير إلى أنه يعرفه. كانت قطرات ظاهرة من العرق تسقط من حاجبه على الأوراق التي يكتب فيها. ومن حين إلى آخر، كان يمسح جبهته بسبابة يده فيتساقط مطرٌ من عرقه إلى الأرض الترابية.

سأله توماس: «ألديك سلاح، يا سيّدي؟».

«معي بندقية...».

«لا مشكلة!».

أشاح توماس بوجهه وقد بدا عليه مظهر شخصٍ مستعدّ للانتظار إلى ما لا نهاية، وراح كوربين ينظر عبر النافذة ذات القضبان الحديدية إلى الأرض المشمسة في الخارج. كان مستعدّاً للانتظار مثله، لكنْ بقدرٍ أقلّ من تمالُك النفس.

(*) إن زيت الكافور مستخدَمٌ في بعض وصفات الطبّ التقليدي لتعزيز المناعة ومقاومة الفيروسات، لأن له خصائص مطهّرة. (المترجم).

قال توماس فجأة: «من فضلك، أشِر إلى أمتعتك، يا سيّدي!».

فعل كوربين ما قيل له. ثم، وبفعل سحرٍ غير مرئيّ، ظهرت حوائجه كلّها عند أول الصفّ، واستُدعي إلى الطاولة باحترامٍ جعل المسافرين الأوروبيين الآخرين غير قادرين على الاعتراض. سُجِّلت بندقيته وذخيرته، وأُخرِج من مكتب الجمارك «كما تُخرَج الشعرة من العجين»، ووضع حمّالٌ أمتعته على عربةٍ يدوية، ثم انطلقوا في اتجاه نادي مومباسا.

لم يخطر على ذهن كوربين قبل تلك اللحظة أن يستفسر عن الرجل الذي وضع نفسه بين يديه؛ ذلك الرجل الذي كان الآن يسير إلى جانبه بخطوات ثابتة. قال له الرجل: «لا بأس، يا سيّدي!»، إلا أن المعاملة الخاصة في المكتب الجمركي كلّفته خمسَ روبيات.

ساروا عبر المستوطنة المقتصر سكّانها على الإنكليز؛ مستوطنة تحمل اسم «النقطة». كان ذلك الحيّ مبرقشاً، من غير أيّ اعتبارٍ للاقتصاد أو التناسب الهندسي، بفيلّاتٍ بديعة المظهر، وسط حدائق غنّاء متصلة واحدتها بالأخرى بطُرقٍ لا تعدو أن تكون دروباً ضيّقة. كانت القبّعة الواقية من الشمس ثقيلة على رأسه؛ لكنه أدرك أنه سينهار من غيرها. كانت الحرارة تسعين درجة(*)، فأحسّ أنه سابح في عرقه؛ وكانت النسمة الخفيفة الآتية من المحيط أضعف من أن تنعشه. وبعد وقت لم يبدُ له قصيراً، ظهر مبنى النادي الأبيض. طغى الارتياح على كوربين فكاد يجري صوب ظلاله الفسيحة.

استقبله هانينغ، مدير النادي. كان رجلاً ضخم الجسم، أحمر الوجه، له شعرٌ أصفر غير كثيفٍ وشاربٌ معقوف؛ وكان مرتدياً قميصاً أبيض وربطة عنق لامعَين أكثر مما يناسب تلك الساعة من النهار. وكان ظاهراً

(*) 90 فارنهايت = 33 درجة مئوية تقريباً. (المترجم).

عليه أنه ذهب إلى السباحة، ثم استحمّ بعد ذلك. انصرف ثوماس قائلاً إنه سيعود. جلس كوربين إلى طاولة صغيرة داخل البار، بالقرب من المدخل الذي كان قادراً على النظر من خلاله إلى الشرفة والحديقة. كان للبار مدخلان آخران، أحدهما مُفضٍ إلى صالة الطعام، حيث كان خدمٌ سود في «كانزو»[†] وطرابيش حمر يقدّمون الطعام. وعلى الجدار، رأى تذكارات من الحروب ورحلات الصيد. وفي كوةٍ في الجدار، كان هناك إبريقٌ نحاسيّ عربيّ عُلّق فوقه خنجران. ومن خلف البار، الذي كان عنده عامل يبدو عليه الانشغال، كانت هناك ثلاث مجموعات من الصور لرجالٍ مع طرائد أو أسماك اصطادوها. وكان الممرّ الواقع خلف صالة السنوكر مفضياً إلى عددٍ صغير من غرف النزلاء التي لم يمضِ إلا وقتٌ قصير قبل أن تُخصَّص واحدةٌ منها لكوربين. كانت نافذته مطلّة على الجهة الخلفية؛ ومن نافذتها، كان يرى جزءاً من الطريق المنحدر صوب البلدة القديمة.

3 آذار

الغرفة كبيرة، حسنة التهوية، فيها سريران، وكرسيّان، وصندوق دروج، ومرآة... ولا شيء غير ذلك أبداً. لا سجّادة في الغرفة. قال لي مسافرون كثيرون على السفينة إنه النادي الأفضل في إفريقيا!

4 آذار

يقول هانينغ: «فينيسيا لها جندولها؛ وللندن سيارات التاكسي؛ وأما في مومباسا، فلدينا الغاري[†]... كما أقول دائماً». إنه رجل جوّال، بحسب وصفه، استجاب لإعلانٍ نشره النادي في صحيفة «كيب تاون تايمز»، فجاء لكي يرى المكان. والغاري، نوع من الترام يسير على سكّة ويجرّه واحدٌ أو اثنان من أهل البلاد. قالوا لي إنه الوسيلة الوحيدة للارتحال في الجزيرة.

المفوّض الإقليمي مسافر، ولي أن أستمتع بوجودي في العاصمة ما دمتُ قادراً على الاستمتاع، وذلك قبل أن يعيّنوني في مكان أكون فيه محظوظاً إن حظيت بسقفٍ فوق رأسي. أعطاني هانينغ قائمة بالأماكن التي يمكن أن أزورها. كان في النادي دليلٌ صغير للمنطقة أعارني إيّاه حتى أتصفّحه. القلعة البرتغالية القديمة واجبة الزيارة. كان الاسم القديم لمومباسا «مفيتا»، ويعني هذا الاسم «حرب». ثم الجامع العتيق، والميناء الشمالي حيث ترسو قوارب الداو، والبوابة البحرية. على أنّ أيّ زائر في مومباسا لا يفوّت على نفسه متعة الرحلة بالقارب من حول الجزيرة.

***

شرفة النادي مطلّة على حديقة كثيفة متألقة الألوان ممتدّة طيلة المسافة حتى حافة الجرف المعلّمة بسياج من الأسلاك وبحجارةٍ بيضاء. ومن خلف الحديقة ترى المحيط الواسع بأفقه الذي يلوح بعيداً غارقاً في الضباب. منظرٌ ملائم لأن يجلس مهاجرٌ أو سائح أو موظف في المستعمرات ويتأمل وهو يحتسي كأساً من الكوكتيل.

بدأ زيارة معالم المدينة في اليوم نفسه. استُدعي الترام من أجله؛ وقد ظهر الآن خارجاً من ظلّ أجمة من الجهنمية. وبصخب، دفعوا بالترام حتى صار على سكّته واستقرّ عليها. وبعد ذلك، جلس على المقعد الخشبي تحت المظلة، ودُفع الترام، أو تُرك يجري نازلاً، على امتداد طريق كيلينديني الظليل الذي تحفّ الأشجار به من الجانبين.

إن كانت في «النقطة» مناظر تثير التأمل (أجمات حالمة، وحدائق بهيجة الألوان، والمحيط الواسع، والجروف المرجانية)، فإن مدينة مومباسا نفسها تهاجم حواسّ المرء جميعاً! روائح ثمار الأناناس والمانغو التي تجاوزت مرحلة النضج، والمصارف المكشوفة، وروث الحيوانات...

وأزياء من بلاد كثيرة، وكلام غير مفهوم بلغات لا تقلّ عنها كثرةً. كان كوربين يلعب التنس كلّ يوم في «النادي الرياضي»، ويُمضي أيامه منتظراً عودة المفوّض الإقليمي. وفي ملعب الكريكيت المليء بالحفر، شاهد مباراةً وديّة في أول يوم أحد هناك: هنود مقابل إنكليز، قبيلة مقابل قبيلة، واحدة في هذا الجانب من الملعب وواحدة في ذاك. كان التغلّب على الهنود المهلهلين في غاية السهولة، لأن أكثرهم لم يحمل مضرباً من قبل، ولأنهم لم يُجمعوا في فريق إلا لتسلية الإنكليز. كانت حفلات العشاء في النادي تنقلب إلى حفلات سكر صاخبة لا بدّ بعدها من مساعدة كلّ واحد من أعضاء النادي حتى يصل إلى الترام الذي سيعود به إلى بيته. وفي يوم الأحد الثاني من إقامته، كانت مشاركته الأولى في نزهة على الشاطئ لجمع المحار، أعقبتها «حفلة كوكتيل» كان هدف كلّ شخصٍ فيها مزجَ كمية من المشروبات كافية لأن تذهب بصوابه.

كان على الجدار المقابل له رأسُ أسد. رأسٌ ضخم، مخيف، فاتحٌ فمَه على اتساعه، وكان تأمُّل هذا الرأس كفيلاً بجعل معدة المرء تتقلّص وشعره ينتصب خوفاً. وعندما يصيبك الاضطراب فتشيح بوجهك عن هذا اللقاء، يمكن أن يقول لك عامل البار إن هذا الأسد قتل سبعة وعشرين شخصاً في كسافو: عامل عادي كان في عربة قطار مكشوفة؛ وحمّال غافل اختطفه الأسد من جانب نار المخيّم وقفز به فوق سياج ارتفاعه أربعة أقدام قبل أن يكتشف رفاقه غيابه، ثم وجدوا ثيابه المدماة ومعها بعض العظام ورأس محطّم؛ وعامل نائم جرّه الأسد من بين رفيقيه النائمين معه داخل خيمة... وهكذا، تمضي حصيلة تلك الحكاية الدموية. وإذا كان ذلك في ساعة متأخرة من فترة بعد الظهر، فإن انتباهك ينحرف، لا محالة، من ذلك الرعب على الجدار، الرعب الذي أثار الكرب في نفس كوربين، إلى رأسٍ

بشريّ كبير من تحته ليس إلا رأس صائده، فرانك ماينارد، الذي يكون جالساً إلى طاولة صغيرة وأمامه كأسٌ من الويسكي. كانت هناك أيضاً قصصٌ عنه، لكن الناس لا يروونها إلا في غيابه.

كان رجلاً ضخماً في ملابس عسكرية كاكية اللون، يأتي كل يوم لاحتساء الشراب عند الغروب. ومن حيث يجلس، كان ينظر بهدوء إلى ما يجري في الصالة، إلى الثرثرة والأحاديث والصفقات والشكاوى، وإلى من يلعبون الورق ورمي السهام، وإلى التجّار والموظفين والمهندسين. وعندما يصل، يصير حضوره جزءاً من هوية الصالة، مثله مثل حضور رأس آكل البشر المعلّق من فوقه. كان الشعر على رأسه الضخم قليل الكثافة بنّيّ اللون، وكان له شاربٌ صغير، وعينان خضراوان باردتان تمحوان أثر أيّ دفءٍ قد توحي به ابتسامة شفتَيه التي تكشف عن أسنانه. لكنه كان محبوباً، وكان متمتّعاً بقدرٍ كبير من الاحترام لشخصه، وكذلك نتيجة المحنة التي وُضع فيها (ظلماً، كما يُقال).

كان فرانك ماينارد نقيباً في «فرقة الرُّماة الملكية الإفريقية»، التي تطارد العُصاة المتمرّدين من الحيوانات أو من رجال القبائل، بضراوةٍ لا تعرف رحمةً ولا شفقة. وأما الآن، فهو «مجمَّد» في انتظار نتائج التحقيق في سلوكه أثناء حملة تأديبية استهدفت إحدى القبائل. وكان يُمضي ذلك الوقت في منطقة الساحل.

وفي مرات كثيرة، التقطت عينا كوربين تلك النظرة المستطلعة الآتية من ناحية جدار طرائد الصيد. ثم، في أحد الأيام، وبعد أن أوصله الترام إلى باب النادي، عند عودته من جولة في المنطقة، وعندما جلس إلى البار وراح يمسح العرق عن جبينه مفكّراً في الاستحمام مرة ثانية، توّاقاً إلى تبديل ملابسه من جديد، وقعت عيناه على الجندي من جديد. لكن تلك

النظرة السريعة بدت كأنها دفعت الرجل إلى الحركة، فما كان من مايناردر إلّا أن أزاح طاولته وأتى مباشرةً إلى البار بخطواتٍ بطيئة متمهّلة.

قال وهو يصافحه ويجلس إلى طاولته: «فرانك ماينارد».

«كوربين، آلفرِد كوربين».

«هذا ما سمعته، يا صاحبي».

حاول كوربين ألا يشعر بأنه فأرٌ صغير تحت وقع تلك الابتسامة المتعجرفة، تحت تلك النظرة المفترسة اللامعة، وألّا يترك الرؤوس التي التفتت لتنظر إليهما من البار تستحوذ على انتباهه. لقد كان في انتظار تعيينه في أول وظيفة له في إفريقيا. وأما هذا الرجل فقد جاب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، ونام في الغابات، وقتل حيواناتٍ برية وسكّاناً أصليّين.

«لقد عرفتُ أخاك في الهند. روبرت. رجلٌ جيّد!».

«في البنجاب؟».

أومأ ماينارد برأسه. الهيئة المستمتعة نفسها!

«كما قابلت كينيث في فوي. لم يكن ذلك تعارفاً حقيقياً، لأنه كان مسافراً – أظنّه كان ذاهباً في إجازة إلى الوطن، ثم ذهب إلى نياسالاند بعد ذلك... على ما أعتقد».

تناولا شراباً معاً. قال له ماينارد وقد انتبه إلى نظرته إن طول الأسد الذي على الجدار كان تسعة أقدام وأحد عشر إنشاً، من أوّله إلى آخره، من أنفه إلى ذيله؛ تطلّب حملُه ثمانيةَ رجال.

وفي المساء التالي، كان كوربين مدعوّاً إلى العشاء.

كان ماينارد مقيماً في الطابق الثاني من بيتٍ عربيّ في طريق كيلينديني، غير بعيد عن النادي. استقبل كوربين عند الباب مرتدياً كانزو أصفر اللون

وطربوشاً أحمر له شرّابة. كان أثاث غرفة الاستقبال بسيطاً، على النمط العربي. جلسا على وسائد على الأرض. أمام مايناردن «حُقّة»، وفي يد كوربين «تشيروت»(*). بحلول هذا الوقت، صار الرجل الأصغر سناً أكثر تمالكاً لنفسه، وصار الرجل الآخر أكثر استرخاء وأقل إثارة للخوف. وفجأة، دخلت الغرفة امرأةٌ لملابسها حفيفٌ حادّ الصوت جعل كوربين يجفل. كانت بارعة الجمال، نصفها من دم عربي أو هندي، ونصفها الآخر إفريقي. كان الحفيف الحادّ صادراً عن «بويبوي»[†] قصير وضعته على كتفيها فوق فستانها الملوّن؛ تحرّكت من حولهما بعض الوقت قبل أن تجلس أخيراً على مسافة منهما.

«كُفّ عن التحديق، يا رجل!».

ارتفع حاجب كوربين. ابتسم ماينارد ابتسامةً كبيرة.

«قبل بضع سنين، كان عند كلّ رجل في نيروبي فتاة محلّية... أو اثنتان، أو ثلاث. وأما الآن، فقد صاروا أكثر تمدُّناً، وصار كلٌّ منهم منشغلاً بزوجة شخص آخر».

كانت الليلة باردةً برودةً لطيفة، وانساب نسيمٌ عليل من النافذة المفتوحة. سرعان ما أتى صوت المؤذّن -الله أكبر- واضحاً من جامع غير بعيد. ومن فناء البيت، في الأسفل، كانت مسموعةً أصواتُ أولاد يلعبون ورجال يتحدّثون وهم جالسون على مقاعد حجرية في الحديقة الصغيرة؛ لعلّهم يتناولون القهوة. وأما كوربين وماينارد فكانا يشربان الويسكي ويتحدّثان عن مدرستيهما وعائلتيهما. كان ماينارد من أسرة تعمل في الميدان المصرفي؛ وكان رفضه الانضمام إلى عمل أبيه يثير في نفسه قدراً كبيراً من الكآبة والإحساس بالذنب. لقد صار الآن غريباً عن عائلته.

(*) حُقّة: نرجيلة. تشيروت: سيجار هندي. (المترجم).

نهضت المرأة وخرجت من الغرفة بذلك الحفيف المميّز للبويبوي. عادت حاملةً دورق ماءٍ لغسل الأيدي. ثم أتت لهما بالطعام: لحم بالكاري، وأرز، وخبز. شربا مزيداً من الويسكي، ثم تحلّيا ببودينغ البرقوق من بلدهما البعيد.

«لا أتناول هذه الكمية من الطعام دائماً، لكنّي ميّال إلى الشراهة عندما يكون لي رفيقٌ على الطعام. تُعلّمك إفريقيا كم هو قليل مقدار الطعام الذي يلزمك حقاً، وكم نحن ميّالون إلى الإفراط في الأكل في إنكلترا المتمدّنة!».

سهرا حتى وقت متأخر من الليل. وتولّى ماينارد القسم الأكبر من الكلام. كان أكثر كلامه عن إفريقيا. كان يحبّها ويكرهها؛ وفوق ذلك كلّه، كان يخشى ما تستطيع فعله به. «هذه بلاد متوحّشة؛ وهي قادرة على جعلك متوحّشاً. من السهل كثيراً أن يطغى عليك توحّشها، فيجعلك تفقد قشرة التمدّن الغربي. هذا ما تعلّمته؛ وهذا ما أخشاه أكثر من أيّ شيء آخر. ولهذا، فأنا توّاق إلى تركها، بطريقة ما. لكنّي من غير مكان أذهب إليه. الهند؟ ربما. مصر؟». كان يحترم الإفريقي، لكنّه يدعوه «نيغَر»[*]. كان يحبّ الحيوانات، وقد قتل عشرات من الأفارقة ومن الحيوانات الإفريقية. كان مؤمناً بالإمبراطورية، لكنّه غير قادر على تقبّل فكرة استيطان البيض هذه البلاد. قال الجندي: «أحترم الإفريقي سواء كان عدواً شرساً، أو صديقاً. وأنا مستعدّ لقتله من غير كبير إحساسٍ بوخز الضمير، مثلما هو مستعدّ لقتلي. وأما المستوطنون والطبقة الدنيا من الموظفين لدينا في شرق إفريقيا –اعذُرني، يا كوربين، فأمثالك ليسوا كثراً هنا– فهم يحتقرون السود ويستخدمونني لقتلهم!».

(*) نيغَر: كلمة تحقيرية بمعنى «زنجي». (المترجم).

جلسا صامتين زمناً طويلاً. كان الفناء في الأسفل قد صار الآن هادئاً. ارتفع القمر، وعبَرَ النافذة، وصار فوق البيت. أتت من الخارج أصوات الضفادع وحشرات الليل؛ وعندما راح يصغي منتبهاً إلى تلك الأصوات، بدت له غنيّة كأنها سيمفونية. من حين إلى آخر، كانت تأتي من المطبخ أصوات قعقعة الأواني. ومن جديد، جالت عينا كوربين في الغرفة وهو يتأهّب، ذهنياً، للانصراف. كان لديه سؤالٌ في ما يتعلّق بهذا الرجل، سؤال عما سمعه عنه في الحفلات والنزهات؛ لكنّه الآن في موقع لا يسمح له بطرحه.

بدأ ماينارد الشرح... كأنه أحسَّ ارتباكه.

قال: «تخيَّل مركز القرية حيث يقيمون البارازا![†] أرض قاسية خالية. رجل أبيض -إنكليزي- موثّق إلى أوتاد مضروبة في الأرض. إنه راقد على ظهره، وقد وضعوا في فمه ما يبقيه مفتوحاً على اتساعه. رجال ونساء متوحّشون يأتون ويتبوّلون في فمه. رجال يتبوّلون واقفين وهم يضحكون، ونساء مقرفصات! ثملون، كلّهم، من شرب البومبيه. الرجل غارقٌ في بول الزنوج. إنهم يتغوّطون عليه، يستخدمونه مرحاضاً لهم. تخيَّل الحشرات تأكله! تخيَّل الرائحة! تخيَّل الحيوانات المفترسة... الضباع التي لا تترك لحماً على عظم، وتخيَّل الطيور الكاسرة، الغربان. كان لا بدّ من الانتقام لهذا، يا كوربين! كان لا بدّ من الانتقام للرجل الأبيض، للسلطة - للنظام. هذه كلّها شيء واحد هنا.

دخلنا القرية عند الفجر. لقد زوّدَنا الجواسيسُ بمعلوماتٍ كافية عنها. لا توفِّروا رجلاً ولا امرأة! هكذا كانت أوامري. أشعلنا النار بأكواخهم وانتظرنا خروج الزنوج منها. كنت أطعنهم بنفسي، رجال ونساء يخرجون راكضين... قلت لهم: لا ترحموا أحداً!

مدهشة هي سهولة اختراق الحربة صدر الإنسان... ما أرخص حياة الإنسان، في حقيقة الأمر!

أنت غير موافق على ما فعلت -هذا واضح- قل لي، ماذا تفعل إذا كنت مكاني؟! فأنا نفسي غير واثق من أنني فعلت الشيء الصحيح. تسكنني الوساوس أحياناً؛ ثم لا ألبث أن أقتنع بأنني فعلت الشيء الصحيح. لا بدّ من جعلهم يرون القوة، يرون كيف يكون الغضب. هذه بلاد متوحشة، وهي تجعلك متوحشاً مثلها. ماذا تفعل إن كنت مكاني؟».

«لست واثقاً من قدرتي على إبداء الرأي... فأنا لست رجلاً عسكرياً. أظن أن لمكتب المستعمرات آراء مختلفة تماماً في سكّان هذه البلاد».

«صحيح. أتساءل: أيُّ الرأيين سيسود؟ إنه رأيكم -هذا واضح- بعد أن أنظّف الأرض وأُخضعها حتى تديروها!».

لكنهما افترقا صديقين. عاد كوربين وكتب في مفكّرته: «لست معترضاً على الرجل، بل على أفعاله». والواقع أنه أحسّ انجذاباً شديداً إلى الجندي، وشاركه الشراب مراتٍ كثيرة بعد ذلك، إلى أن أتى تعيينه.

17 آذار 1913

سمعت المفوّض الإقليمي يقول: «أدخِلوا ذلك الشيطان المسكين!»؛ ونظر سكرتيره إليّ نظرة فيها شيء من الاعتذار. لقد كنت «شيطاناً مسكيناً» لأنهم يعيّنونني في مكانٍ اسمه «كيكونو»، قريب من حدود شرق إفريقيا الألمانية. إنه مركز ثانوي يرسلون إليه موظفاً، بعض الأحيان، وذلك بحسب ما يتوفّر لديهم من صغار الموظفين. إن في المنطقة بضعة مراكز تبشيرية واقعة إلى جهة الشرق وبالقرب من سفوح جبل كليمنجارو. تسكن البلدةَ جماعةٌ من الهنود وبعض السواحليين القادمين

من الساحل الشرقي. يمكن اعتبار المفوّض الإقليمي هِنلي دارساً للقبائل الإفريقية؛ ومن هنا يأتي تعاطفه معي. لقد عاد للتوّ من رحلة ميدانية في جيرياما. وعليّ القول إن أملي قد خاب خيبةً غير قليلة. لا يتوقّع المرء في إفريقيا أن يعمل تحت رقابة الهنود. وقد قيل لي إن هناك نزاعاً خفياً بين المبشّرين وأولئك الهنود. على أنني كنت توّاقاً إلى الذهاب. فبعد حفلة عشاء ورقص أخرى في «الفندق الكبير» (كبير بالاسم فقط! هذا ما أسرع الجميع هنا إلى توضيحه، لكن النادي غير مناسب لاحتفالات من هذا النوع، لأنه بعيد بالنسبة إلى النساء بعد الساعة السابعة مساء)، وبعد نزهة لتناول الطعام في الصباح التالي، ذهبت إليها مع رجل وامرأة ساحرَين هما السيد والسيدة آشوورث، انطلقت إلى بلدة فوي في قطار الخطوط الحديدية الأوغندية.

كنت مصمّماً على ألا أقصّر في واجبي، وعلى أن أكتب إلى أمي وإلى روبرت، لكني جلست وأخرجت ورقة وقلماً، فأدركت كم هي عقيمة محاولة القيام بذلك الواجب المضجر، محاولة استحضار إنكلترا في ليلة إفريقية. ليلة شديدة السواد والظلمة حجبت عني عالم مومباسا الأوروبي. ومن حيث كنت جالساً أتأمل فشلي في كتابة هاتين الرسالتين، جعلتني نافذة قطار الخطوط الحديدية الأوغندية أرى انعكاساً غريباً لصورتي فيها. ألصقت وجهي بالزجاج ونظرت إلى الظلمة التي تمرّ بي مسرعةً... ظلال في ضوء القمر تندفع سريعاً، ظلال لعلّها أشجار، أو لعلّها من بعض أنواع حيوانات البرية... كان الاستسلام للنوم مستحيلاً، لمعرفتي أنني كنت أدخل، أخيراً، قلب إفريقيا... القارة الهائلة السوداء التي ظلّت مستعصية على بقية العالم ألف عام، ثم انفتحت الآن على المدنية الأوروبية، انفتحت على إمبراطورية عظمى أنا موظف صغير فيها، لكنّي من أصحاب المزايا.

لقد قال لي السيد تشرتشل: «... حياة المرء وروحه». كانت الحرارة قد شوتْ جسدي الذي تورّم لكثرة لسعات البعوض، لكني مستلقٍ الآن على أقلّ مقاعد الخطوط الحديدية الأوغندية راحةً... وروحي تنتفض.

19 آذار

انضم إليّ ثلاثون حمّالاً في «فوي» التي انطلقت منها هذا الصباح بعد مبيت ليلتين في «كوخ داك». كان هناك غناءٌ كثير ومرح كثير. الحمّالون من قبيلة واتايتا؛ وهم يتكلّمون السواحيلية قليلاً. يرتدون إزاراً يستر الوسط. أسنانهم الأمامية مبرية، مدبّبة؛ ويعلّق بعضهم في آذانهم المثقوبة أشياء من قبيل علبة صغيرة من الصفيح أو قرون حيوانات صغيرة. ومعي ثوماس الذي كان أول شخص يستقبلني في إفريقيا، وقد أصرّ على البقاء معي مستعدّاً لخدمتي مقابل أيّ شيء أستطيع دفعه له. حكى لي حكاية ظريفة عن امرأة كانت، في زمن ما، ملكة مومباسا فترة قصيرة جداً في زمن البرتغاليين. من هنا يأتي تشبّثه المهزوم بذيول المجد... إن لديه ميلاً مزعجاً إلى وضع نفسه في منزلة مثل منزلتي؛ وهو لا يملّ أبداً الإشارة إلى مثالب الواتايتا المساكين. لا يدرك أنهم جميعاً يسخرون منه.

كان جزء من طريقنا يمرّ بين شجيرات العُلّيق الشوكية الكثيفة التي لا بدّ من قصّ أغصانها حتى نمرّ عبرها. إنني بين أيدي الحمّالين والأدلّاء، تماماً. فما ظنّهم بي؟ أشعر بالغرابة وبالتوتر والعجز بما لدي من كلمات سواحيلية قليلة استطعت تعلّمها في مومباسا. أكون موضوع أغانيهم، أحياناً. لكني لا أعرف ما إن كانوا يمتدحونني أو يشتمونني. ثرثرة قرود البابون في الأشجار فوقنا، وأثر فرس النهر الذي جعلوني أراه. رأيت أفعى تعبر الطريق أمامي. لاحقنا زئير الأسود ذات مرة؛ بل لعلّي الآن

أسمع زمجرتها في ظلام الليل. تذكّرت رأس الأسد في نادي مومباسا، وتذكّرت النقيب ماينارد بطربوشه الأحمر جالساً تحته. لا أستطيع الامتناع عن التفكير في أنهم سيرسلون ماينارد، أو أحداً آخر مثله، إن قرّر السود في قافلتي أن يذبحوني ويذبحوا مرافقي الهندي.



2

تقع كيكونو «اليد الصغيرة» على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من حدود شرق إفريقيا الألمانية. وهي محطة استراحة على خط السكة الحديدية الممتد من الشرق إلى الغرب، من فوي إلى موشي، رابطاً بين المستعمرتين. على مسافة قصيرة، يلوح جبل كليمنجارو الضخم بقمّته الثلجيّة، متلفّعاً بلفائف من الغيوم: حضور ملغّز، مريح، روحانيّ في آنٍ معاً؛ رمزٌ للأبديّ. على أن مركز هذه البلدة الواقعة في منطقة صحراوية شوكية هو شجرة مبويو صغيرة (باوباب)... شجرة كثيفة قصيرة، مشوّهة، نابتة بصعوبة على سفح تلّة، تنطلق منها أغصانها المتشابكة المعوجة كأنها في صراع عقيم مع السماء. وبطريقة فيها شيء من الخفّة، طريقة منسجمة مع الأساطير المحيطة بأشجار المبويو، يدعون هذه الشجرة أحياناً «يد الشيطان الصغيرة». في الليل، عندما يراها المرء فجأة على وجه الخصوص، فمن الممكن أن تبدو شيئاً شبحياً تماماً، إن لم نقل شيئاً شيطانياً، ممّا يجعل الناس يتجنّبونها. وأما في النهار، فهي مكانٌ ظليل من أجل اللقاء. في مواجهتها صفّان متعامدان من المتاجر والبيوت، ومسجدا هذه البلدة الصغيرة.

في ساعة مبكرة من بعد ظهر أحد الأيام، ينهمك أهل البلدة في استعداداتهم للترحيب بمفوّض المنطقة المساعد الجديد. مضى وقت

الاستراحة من غير أن ينتبه إليه أحد. وفي النهاية، وسط قدر كبير من الترقّب، وبعد بضعة إنذارات زائفة، رأى الناس صبياً ذاهباً إلى شجرة المبوبو الصغيرة. ومن تحت أغصانها، بدأ يضرب على طبله، فخرج أصحاب المتاجر من متاجرهم، عند سماع هذه الإشارة، وانضمّوا إلى الجمع المحتشد. وقف رجال فرقة الشرطة الموسيقية، اثنا عشر رجلاً قوياً، واحتلّوا مواقعهم تحت الشجرة حيث جلس الصبي معهم. وقف الهنود في صفٍّ واحد، وبدا على مظهرهم قدرٌ من الوقار، ببدلات العمل البيضاء والطرابيش الحمراء أو السوداء، أو بالدهوتي[†] أو العمائم. وإلى جانبهم، وقف السواحيليون في صفٍّ أقصر من الصفّ الأول مرتدين الكانزو والقبعات المطرّزة، بل كان بعضهم في معاطف قصيرة أيضاً. كانت هناك مجموعة ثالثة كبيرة مؤلّفة من بائعين وخدم وعمّال مؤقّتين، ومعهم عددٌ من الرجال والنساء من قبائل في المناطق المجاورة. وقفوا جميعاً ينظرون من حينٍ إلى آخر وتميل رقابهم صوب الطريق الداخل إلى البلدة، ذلك الطريق الذي سيأتيهم بالممثّل الجديد للملك.

فأيّ بلدةٍ كانت كيكونو هذه؟ مستقرّ الهنود الواقع، على نحو غير معقول، على مسافة أميال من السكة الحديدية عند النهاية الغربية لمقاطعة تايتا؟ كان الناس يقولون (وفي قولهم شيء من الحقيقة): افتح دوكا[†] هندياً، أو متجراً هندياً في أيّ مكانٍ ناءٍ، وسرعان ما تجد صفاً من الدوكا قد نبت من حوله، تماماً مثلما تتكاثر البطاطس. يظهر أول دوكا عندما تسقط على الأرض «بذرة» حملتها الريح وتقرّر أن تستقرّ في مكان سقوطها. ظهر في هذا المكان أول دوكا، فبدأت البلدة نموّها.

في يومٍ من الأيام، انطلق شابٌّ إنكليزيّ يحبّ الطبيعة والارتحال، فخرج من ميناء لامو القديم على ساحل المحيط الهندي حيث كان قد

حلّ ضيفاً على القنصل البريطاني. لقد اقترض الشاب مبلغاً كبيراً من المال من مموّله غير الرسمي، الذي كان صاحب متجر هندياً من أتباع الطريقة الشامسية اسمه جمال ديوجي. أرسل صاحب المتجر هذا واحداً من أبنائه مع ذلك المستكشف محبّ الطبيعة حتى يساعده، من حيث الظاهر، بل أيضاً حتى يطهو له طعامه؛ لكن الغاية الحقيقية من إرساله كانت وجود من يراقب ذلك الإنكليزي مراقبة دائمة. قال جمال ديوجي في المسجد متباهياً بفطنته: «قد يكون هذا الرجل ملكاً في بلاده؛ وأما هنا، فلست أثق بأحد أبداً!». وقد قال لابنه: «لا تدع صاحب القبّعة هذا يغيب عن نظرك، ولا تعد إليّ إلا به أو بالمال!». كان معروفاً، في واقع الأمر، أن الإنكليزي، الذي كان كثير الصلاة خلال وجوده في البلدة، قد دسّ في حقيبته طبقاً من الخزف الصيني العتيق أخذه من واحدٍ من الأضرحة؛ فكان نبأ رحيله باعثاً على قدر من الارتياح. ذهب الرجل أول الأمر إلى زنجبار، ثم أبحر منها إلى باغامويو، وسافر بعدها إلى موشي وتافيتا برفقة إحدى القوافل؛ ثم ذهب آخر الأمر إلى مركز «إرسالية المسيح في إفريقيا» في مقاطعة تايتا. أقام أسبوعين لدى الإرسالية، وكان يمضي الوقت في الصيد واستكشاف المنطقة. وفي هذه الأثناء، وقع عبد الله، ابن جمال ديوجي، في حب فتاة سواحيلية مرتدّة عن دينها اسمها حنّه، فأقنع المستكشف بأن يعيد إليه قسماً من مال أبيه حتى يتمكّن من الاستقرار في المنطقة. سُرّ الإنكليزي بهذه الفرصة للتخلّص من ذلك المراقب الذي يتبعه مثل ظلّه مقابل إعفائه من تسديد قسم من الدين. تزوّج الشاب الفتاة التي عادت إلى الإسلام واستعادت اسمها الأصلي: خانم.

افتتح عبد الله جمال ديوجي، الذي صار معروفاً منذ ذلك الوقت باسم جمالي، دكّانه على مسافة بضعة أميال من مقر الإرسالية التبشيرية، عند شجرة المبويو الصغيرة التي كانت معروفة منذ زمن بعيد بأنها مكان

تستريح عنده القوافل. كانت جماعة الشامسي، التي هو واحد منها، جماعة حسنة التنظيم؛ وسرعان ما انتشرت أخبار هذه المستوطنة الجديدة ذات الأسرة الواحدة، فبلغت مومباسا وما وراءها. هناك خطّ قطارٍ إلى الشمال من الموقع، وخطّ قطارٍ إلى الجنوب. فكيف تعجز بلدةٌ عن النموّ بينهما؟ هذا ما كان والد الشاب يقوله في لامو. ما من حاجة إلا إلى خطٍّ يصل بين الخطّين فيمرّ بتلك القرية حتى تصير بلدة، ثم مدينة. وبعد بضعة شهور، انضمّ إلى تلك الأسرة رجلان قادمان من الهند، ثم لم تلبث أسرتاهما أن التحقتا بهما. محلّات بقالة، وبائع أدوية، وبائعو أقمشة ومجوهرات وعُدَد وأدوات. ظهر هناك خط من الدوكا. يقول المثل السائد: حيث يوجد اثنان من الشامسي، فإن واحداً منهما يصير زعيماً، وأباً، وشيخاً -موخي- ويعمل الآخر على جمع الرعية. يعني هذا أن يبنوا مسجداً من غير تأخير.

في هذه الآونة، كان جمالي نفسه هو موخي الشامسي. وعلى غرار أيّ موخي في أيّ مكان آخر، لم يكن جمالي يتلقى عوضاً مالياً، بل احتراماً وتوقيراً ووعداً بالجزاء في الحياة الآخرة. كان صاحب دكّان طويل القامة ضامراً بالمقارنة مع غيره من أصحاب الدكاكين؛ وكان له وجه يعوزه شيء من التواضع، وملمحٌ موحٍ بإصرار الضبع يظهر على وجهه عندما يكون عليه أن يساعد واحداً من جماعته. كانت زوجته السواحيلية تتكلّم لغة كوتشي، فضلاً عن الإنكليزية التي تعلّمتها في الإرسالية التبشرية. وقد أنجبت له ثلاثة أطفال. وهكذا استقرّ القوم في ذلك المكان، وكانوا رعايا بريطانيين أوفياء (بل ذوي وفاءٍ صاخب أيضاً) يتطلّعون إلى نمو البلدة وازدهارها، فطلبوا من الحكومة اعترافاً رسمياً ببلدتهم. وريثما تتخذ الحكومة قرارها، استجابت لطلبهم بأن صارت ترسل إليهم مفوّض منطقة مساعداً تابعاً لمنطقة مومباسا، كلّما تيسّر لها من ترسله في هذه المهمة.

كان اسم المفوّض المساعد الحالي فِرد آكسوورثي، وقد خرج من البلدة الآن حتى يرحّب بخلفه آلفِرد كوربين. وقد وصلت إلى البلدة أنباءٌ، في وقتٍ مبكّر من صباح ذلك اليوم، بأن عشرةً من حمّالي المفوّض المساعد الجديد قد تركوه في الليلة السابقة. أُلقي القبض على أربعة من أولئك العشرة على طريق كيكونو، وهم الآن قابعون قيد الاحتجاز.

جاء سربٌ من أولاد صغار مرتدين الكونزو، أو إزار الوسط، أو من غير ملابس على الإطلاق، يجرون في الطريق، ومن خلفهم رجلٌ مسرع. كان واضحاً أن هذه كانت إشارة إلى وصول الموكب. انضمّوا جميعاً إلى الأقسام الأكثر فوضوية في حشد المنتظرين. شكّل الهنود صفاً مستقيماً، ووقف السواحيليون في صفٍّ مضطرب. العيون كلّها متجهة الآن إلى الطريق. حلّ صمتٌ مفاجئ. ثم صفّق الجميع عندما ظهر الأوروبيان في بدلتين بيضاوين وقبّعتين واقيتين من الشمس، قادمَين في اتجاه البلدة بخطوات واسعة على رأس سلسلة من الحمّالين. بدأت فرقة الشرطة تعزف أغنية «لأنه شخصٌ طيّب جداً»(*)، فتوقّف الإنكليزيان لسماعها.

كان هذا ما ظهر للمفوّض الإقليمي المساعد الجديد في أثناء اقترابه من البلدة: لمحاتٌ عابرة التقطها من بين أغصان الأجمات والأشجار وتلال النمل – شخصٌ في ملابس بيضاء يندفع من اليسار إلى اليمين، فيعبر طريقه من مسافة بعيدة. كان ممكناً أن يكون هذا الشخص رجلاً مرتدياً الكانزو لولا ذلك الشعر الأسود المتطاير، ولولا الحركة الرشيقة والخطوة الخفيفة، ثم غطاء رأس أحمر على الشعر اكتملت معه صورة الأنثى. أدهشه هذا المشهد كثيراً، فتوقّف لكي ينظر إلى المرأة التي لم تلبث أن اختفت خلف منحدرٍ قيل له إن البلدة واقعة وراءه.

(*) أغنية شعبية شائعة للتهنئة. (المترجم).

25 آذار

... كومة ترابٍ في حقيقة الأمر، كومة من ترابٍ أحمر تناثرت فيها النباتات التي تسود هذه المنطقة: أشواك. بُعيد اختفاء ذلك الظهور السريع إلى جانب الكومة، ظهر، إلى جانبها الآخر، أمامنا تماماً، جمعٌ يقوده رجل أبيض يضع قبّعة واقية من الشمس.

«د. ليفنغستون، على ما أظن، ماذا؟ لا بدّ أنك المفوّض المساعد الجديد، البديل الذي ظللت شهوراً راكعاً على ركبتي أتوسّل إرساله. اسمي آكسوورثي!».

كان أحمر الوجه، ممتلئ الجسم، يتعرّق بغزارة؛ وكان سعيداً سعادة واضحة. قدّمت نفسي.

«لقد أمسكنا ببعض حمّاليك الذين هربوا، وهذا ما جعلنا نتوقّع وصولك قريباً. سوف يكون عليك أن تصف لهم بضع ضربات كيبوكو[†] على سبيل الردع. أنا نفسي لست مؤمناً باستخدام السوط، فهذا شيء مهين كثيراً؛ لكنه الوسيلة الأكثر نجاعة».

لا أتذكّر ما قاله غير ذلك، لكنه تحدّث كثيراً. ألقيت نظرة سريعة إلى الخلف، فرأيت ثوماس المسكين يسير على امتداد الرتل لجعل من في مؤخّرته يسرعون الخطا.

ظهرت لنا البلدة كلّها ظهوراً شبه فوري. امتدّ صفٌّ من المتاجر والمنازل إلى يسارنا ملتقياً بصفٍّ آخر متعامد معه عند نهايته. كنا عند رأس الشارع الوحيد في البلدة التي في وسطها شجرة باوباب، أو مبويو، ومن خلفها مركز الإدارة وبيت مفوّض المنطقة المساعد.

هذه هي كيكونو التي اجتمع سكّانها تحت شجرة مبويو منتظرين وصولي صابرين لكي يرحبوا بي. ومع اقترابنا، بدأت فرقة الشرطة تعزف

لحناً. قابلت الوجهاء المحليين من الهنود والسواحيليين، وكذلك زعماء القرى القريبة ووجهاءها وقوة الشرطة المحلية. انصرفنا لكي نستريح بعد عشاء مبكّر مكوّن من لحم الدجاج وموز البلانتين المقلي الذي قدّمته لنا فتاةٌ إفريقية صغيرة السن لا ترتدي من الملابس إلا قدراً يسيراً، تبعه تناولُ البودينغ والبراندي وتدخين التبغ الذي قدّمته من عندي.

وفي اليوم التالي، كانت في انتظاري مهمّة غير سارّة. جرى صفّ الحمّالين الذين تركوني في طريقي من فوي حتى يتلقّوا ما يستحقّون. كان قد أُلقِيَ القبض على أحدهم في الصباح. لكنّه أصرّ إصراراً شديداً على أنه ضلّ الطريق. وهكذا كان لا بدّ من الاستماع إلى حججه. لكن ما قاله لم يلقَ قبولاً. نال كلٌّ منهم عشر ضرباتٍ بالسوط. قال آكسوورثي: «ستّ ضرباتٍ مقدارٌ قليل كثيراً، وعشرون ضربة أكثر مما ينبغي».

يبدو لي أنه لا بدّ من وجود طريقة أفضل لجعل أهل البلاد راغبين في حمل المتاع مقابل أجر... ربما يصلح أن يكون ذلك حافزاً يُقدَّم إليهم في نهاية الرحلة.

مرّت خمسة أيام منذ وصولي. وقد رحل آكسوورثي هذا الصباح. اختفت معه أيضاً الفتاة التي كانت تطهو الطعام وتقوم بالخدمة على الطاولة. يُقسم ثوماس إنها انضمّت إلى الموكب المسافر. الآن، أنا السيد تحت شجرة المبوبيو هذه.

26 آذار

... سلطاتي متواضعة... فأنا غير قادر على الحكم بالحبس في القضايا الجنائية أكثر من شهر واحد، فضلاً عن غرامة تصل إلى خمسين روبية. وأما في القضايا المدنية، فإن سلطاتي تسمح لي بفرض غرامات تصل إلى 250 روبية.

تزعجني الدمامل؛ استعنت بواحدٍ ممن يبيعون الأدوية.
عليّ أن أطلب:
نصف دزينة من الويسكي.
ستّ ملاعق طعام.
بسكويت، من أيّ نوع...
منذ الآن، صارت مومباسا تبدو بعيدة جداً، فماذا عن أوروبا؟!

***

مارس كوربين مهمة الإدارة باجتهادٍ نشط هادئ، وبدقّة تشبه دقّة الأديرة، مؤمناً إيماناً لا يتزعزع بأن ما يفعله، وإن كان صغيراً، جزءٌ من مشروع كبير له منه نصيب. وكان منهجه -لأنه كان رجل منهج، وكان يفكّر ملياً في كلّ ما يفعله- أن يحاول فهم الدوافع الكامنة خلف تمنُّع ناسه، أو عنادهم، أو عداوتهم، وأن يجعلهم يدركون موقعه. إنه موجود هناك حتى يمارس الإدارة باسم ملكه وأمته، وحتى ينقل تلك الأرض إلى القرن العشرين بطريقة سلِسة إلى أقصى حدٍّ ممكن، وذلك لاعتقاده أن الإمبراطورية البريطانية، بما لها من خبرة في حكم أراضٍ أخرى وبما لها من نظامٍ إنساني، هي الأرضية الحاضنة الأمثل من أجل أمة ناشئة، حتى يدخل الأفارقة والشرقيون المتخلّفون مجتمع الشعوب المتمدّنة.

مذكّرة الحاكم الموجّهة إلى مفوّضي المناطق والأقاليم (1910)

(السياسات الخاصة بالسكّان المحليين، الصفحتان 5 - 6)

... إن المبدأ الأساس، والسياسة الإنسانية الوحيدة، اللذين ينبغي اتباعهما في التعامل مع الشعوب التي لم تصل بعدُ إلى سويّة مرتفعة من التمدّن هو تطوير تلك الشعوب بحسب خصوصياتها وبما يتفق مع

ما لديها من أفكار وتقاليد بحيث لا يُستبعد منها إلا ما يكون استبعاده ضرورياً. فمع الإبقاء على كل ما هو حسن في أساليب حكمهم، كالرجولة واحترام الذات والتعامل الشريف، فإن الشيء الوحيد الذي ينبغي نبذه هو ما يكون بغيضاً في نظر العدل والأخلاق؛ ثم إن إدخال ما يدعى تمدُّناً ينبغي الابتعاد عنه عندما يكون سبباً في التفكّك والتشوّش. لسنا ننتظر الكثير من الجيل الحالي؛ لكن الأجيال التي ستأتي بعده أمانة في أيدي المفوّضين الإقليميين وموظفيهم في النواحي المختلفة... وبالتأكيد، يجب أن ينصبّ جهدهم على رفع السكّان المحليين إلى مستوى تمدُّن أعلى؛ لكن هذا لا يمكن تحقيقه إلا بالتدرُّج وبمراعاة الشروط القائمة.

***

كان رئيس شرطة، وقاضياً، وطبيباً، وجابي ضرائب، وكذلك كان مسّاحاً عندما يأمره رؤساؤه بذلك. كان عملاً يتطلّب صبراً لا حدود له، وقدراً من الكياسة (من غير إفراط)، ومقدرة على أن ينقلب المرء إلى شخص بارد عند الحاجة، وموهبة في الارتجال، وقدرة على نسيان مشاغل اليوم وهمومه. فمن غير قدر كبير من المثالية المجرّدة ما كان ممكناً أن يحاول المرء إقناع القبائل بإرسال أبنائها للعمل مع الهنود، أو بإقناعها بفوائد دفع الضرائب. فكيف السبيل إلى أن يُقنِع أولئك الناس بترك قوانينهم وعالمهم لكي يستبدلوا بها نظرة أوروبية إلى الوجود؟ كيف السبيل إلى أن يشرح المرء لهم أن فتاة قبيحة ليست فأل شرّ، حين يعمد من يؤمنون بذلك إيماناً حقيقياً إلى استجلاب سوء الطالع لإثبات صحة نبوءتهم؟!

كان قسمٌ كبير من عمله مشتملاً على التحكيم وتطبيق العدالة البريطانية. وكان التحكيم يتطلب مجاملة وإقناعاً، ويتطلب أحياناً اللجوء إلى التهديد أو الحبس؛ وذلك كله مع اتخاذ التقاليد المحلية دليلاً على الدوام. على أنّ

تطبيق العدالة البريطانية كان أشبه بإنشاء صرح ضخم من الرخام، صرح غريب لا معنى له في نظر أناس تحكمهم قوانينهم الخاصة وأساليبهم في فعل كل شيء. على الرغم من هذا، تكون غرفة الانتظار عنده مليئة كلما بدأ سماع الـ«شاوري» -التماسات الناس وتظلّماتهم- في الصباح. كان مقتنعاً بأنه كثيراً ما يُستخدم من باب التسلية، أو الاختبار، أو للاستفادة من رأيه، في حين تُتخذ القرارات الحقيقية الملزمة في تلك القضايا في مكان آخر، في المجالس القبلية.

17 نيسان 1913

اتضح لي أن سلطات المفوّض الإقليمي المساعد أكثر اتساعاً مما ظننت أول الأمر. أستطيع إصدار حكم بالحبس لمدة تصل إلى ستة شهور، لكن لا بدّ من إقرار المحكمة العليا كل حكم يتجاوز شهراً واحداً. محكمتي مستقلة تماماً عن محكمة مفوّض المنطقة.

***

مذكّرة الحاكم الموجّهة إلى مفوّضي المناطق والأقاليم (1910)

(تتمة السياسات الخاصة بالسكّان المحليين، الصفحة 7)

لست أريد من خلال مطالبتي بتأييد سلطة زعماء القبائل وشيوخها الإيحاء بأن على المسؤولين أن يكتفوا بالجلوس والإنفاذ الأعمى -قد يكون إنفاذاً بقوة الحراب- لكل ما يصدر من أوامر عن أولئك الرجال الذين هم، بعد كل حساب، ليسوا أكثر من متوحشين. فالغاية الأولى من إدارة الناس عبر زعمائهم هي الحيلولة دون تفكّك القبيلة (...).

***

كان هناك مركزٌ حكوميّ في فوي، ومركز حكومي مؤقّت في تافيتا؛

وبين المركزين يقع مجال حكمه المحدود. وكان مفوّض منطقة مساعد آخر يأتي كل ثلاثة شهور من فوي حتى يعاونه بضعة أيام ويستلم منه تقارير العمل. كان أول الزائرين رجلاً ضخماً ودوداً اسمه وودوورد. قال وودوورد لكوربين وهما يشربان البراندي إنه محظوظ لأن سكّان منطقته قلّةٌ متناثرون: «أكثرهم من السواحل ومن الأجانب». لكن، على الرغم من هذا، «لن يطول الأمر قبل أن تأتيك قضية تكون اختباراً حقيقياً، يا صاحبي!».

«مثل ماذا؟».

«عندما تأتيك قضية صعبة حقاً، فإنك لا تعرف ما يتعيّن عليك فعله - أعني أنك تعرف ما يتعيّن عليك فعله، لكنك لا تشعر أنه صحيح. إنها قضية لا تنساها أبداً. أهلاً بك في خدمة المستعمرات!».

لم يرضَ إخباره عن قضيته الصعبة الأولى. لكنه قدّم له نصيحة: «كلما وجدت أن الحِمل قد ازداد كثيراً، اذهب في رحلة سفاري...»، شدّد على الكلمات الأخيرة... «والنساء أيضاً، فهذا أسهل خلال السفاري. لكن عليك ألا تعود بهنّ معك. لم يعد اتخاذ خليلات موضع تسامح».

كانت تُقام في البلدة مباريات منتظمة في كرة القدم بمشاركة من الأعراق كلّها. وكان مكتب البريد نشطاً: يُجمع البريد ويؤخذ إلى فوي مرة كل أسبوع. كانت تصله صحيفة «إيست هيرالد أفريكان» بشكل منتظم من نيروبي؛ ومن خلال واحد من أعدادها، علم كوربين بنقل النقيب ماينارد إلى فلسطين. أحاط جمهور المستوطنين في نيروبي ببيت الحاكم احتجاجاً على هذا القرار، وكانت افتتاحية الصحيفة زاخرة بكلمات قوية كثيرة. وفي يوم ميلاد الملك، خرج أهل البلدة في مسيرة احتفالية أمام مقر كوربين، وتبرّع الموخي جمالي بالمشروبات الغازية؛ كما أقام الهنود في تلك الليلة فعالية دُعي كوربين إليها.

كان يجول في ناحيته ويحكمها كأنه ملك (بل إن بعض رجال القبائل كانوا يخلطون بينه وبين ملكه، الملك جورج) فيتذكّر فرانك ماينارد. كان رجلاً يقابل الوحشية بالوحشية، وما عاد له لزوم في شرق إفريقيا. ففي أنحاء البلاد كلها، كانت تنشأ بلدات مثل كيكونو، بلدات كلّها حياة؛ وكانت الأرض كلّها ضاجّة بنشاط لم تعرفه منذ ألف عام. ذلك كله بفعل الوجود الأوروبي. لن تكون هناك حاجة إلى أمثال ماينارد إلا إذا تداعى النظام المفروض، وذلك ما كان يبدو احتمالاً بعيداً.

11 أيار 1913

تخيّل أن تستيقظ في منتصف الليل فتسمع صوت حفيف الأشجار، وأصوات الضباع... وأن تسمع أيضاً دندنة باكية متنافرة النغمات! ماذا يمكن أن يكون هذا؟ صوت حيوان، أم نهيق حمار مريض، أم خوار عجل تائه... أو لعلّ جرحاً أصاب الكلب الشارد بوانا تيم؟ ما هو ذلك الشيء في النطق البشري الذي يجعل المرء يميّزه عن غيره؟ أقول هذا لأنني كنت قادراً على أن أقسم إنها كانت أصواتاً بشرية. أناس ينشدون! لم أستطع تصديق أذني. صوت خافت لغناء بشري. جوقة أصوات غير مضبوطة تماماً. هل أنا في حلم سخيف؟ انتصبت جانباً وقرصت نفسي. توقف الغناء بعد حين، لكني ظللت أسمع الأصوات البشرية على نحو متقطع. هناك شيء يجري. ذهبت إلى النافذة، لكني أحجمت عن فتحها لأنها ستصدر صريراً. بعد ذلك، توقفت الأصوات توقّفاً تاماً. كان ذلك غريباً. لم أؤمن يوماً بوجود الأشباح على الرغم من أنهم قالوا لي في مومباسا إن عليّ ألا أبالغ في الشكّ في وجودها. اقترب الفجر، لحسن الحظ، وسرعان ما تبدأ الحركة في البلدة. استعلمت عن الأمر في وقت لاحق

من ذلك الصباح، فقيل لي إن هنود الشامسي يستيقظون في الساعة الرابعة صباحاً لكي يصلّوا!

إن المركز الإداري في كيكونو مؤلّف من المباني الحكومية الواقعة على قمة تل منخفض. وأما الـ«الجومبا»[1] الخاص بي فهو بيت خشبي مهلهل له سطحٌ من الحديد من غير سقف داخلي. كان لا بدّ من إزاحة الأثاث عندما يهطل المطر. وكانت الشرفة تصدر صريراً كافياً لأن ينبئ بقدوم أي شخص. غرفتا نوم في جناح واحد، إحداهما مطلّة على الخلفية والأخرى مطلّة على الواجهة. وفي آخر البيت، لديّ مطبخ وكوخ للخادم. على أن المكتب كان مكاناً أكثر تداعياً من البيت. وإلى جانب المكتب مركز الشرطة ومكتب البريد. وأمام هذا كله، داخل المجمع، هناك شجرة مبويو وأجمة شوكية كبيرة من بعدها منحدرٌ حادّ تكسوه شجيرات صغيرة. ومن خلف ذلك كلّه، تقع بقية البلدة الصغيرة، الأكواخ البنّية المبنية من طين وأغصان مجدولة تشكّل المنطقة السكنية ومنطقة الأعمال حيث يعيش الهنود والسواحيليون ويدير كلٌّ منهم الدوكا الخاص به. وأما متجر بيع الأدوية فهو بين يدي الهندي تشاغبار (القاتلتين، نوعاً ما). وهناك طريق للمشاة يسير على منحدر التل من الناحية الغربية، من عند بيتي، ويبلغ البلدة ثم يتجاوزها وينضمّ إلى الطريق الذاهب إلى فوي.

ينتمي قرابة نصف الهنود المقيمين هنا إلى مذهب الشامسي الإسلامي، ولهم مسجدهم المستقل. إنهم على صلة بفوي ومومباسا ونيروبي، بل حتى بومباي والشرق الخاضع للحكم الألماني. يبدو لي أنهم يقيمون احتفالات كبيرة، مرة في السنة، أو مرتين؛ وعندما لا يذهبون إلى فوي لتلك الغاية، فهم يستقبلون في كيكونو أفراداً من البلدات المجاورة ويحتفلون احتفالاً حقيقياً. لدينا أيضاً عائلات هندوسية وبنجابية، وعائلات من طائفة الميمون؛ لكن الفوارق بينهم تبدو لي غير واضحة، أغلب الأحيان.

وفي هذه الأيام، كثيراً ما أظلّ نائماً خلال دندنة الشامسي قبل الفجر، لكني أستيقظ صباحاً على رفرفة أجنحة سرب من الطيور، ومن بعده صياح ديك في مكان ما.

***

الهدوء البسيط في البلدة وقت الصباح الباكر - صفعة الهواء البارد الناعمة، والشمس التي بدأت الآن تدفع نفسها فوق قمم التلال والأشجار. أسمع قرقعة عارضة لأواني المطبخ -صوت مكتوم كأن المرأة التي تقلي الڤيتومبوا† أو التامبي† في مكان مظلم داخل البيت تحاذر كسر الصمت- عواء الكلب بوانا تيم الذي يقال إن رحّالة أوروبياً أضاعه، أو تركه هنا؛ والاحتجاج أو الأنين الغاضب الصادر عن سقف حديدي غير مثبّت جيداً. يسير كوربين إلى مكتبه الواقع إلى جوار بيته، ويشغل نفسه برهةً بشيء من كتابة الرسائل أو التقارير، أو بصحيفة لم يقرأها بعد. وبعد ذلك، عندما ترتفع الشمس قليلاً، يذهب فيسير في البلدة وهي تستعدّ لمباشرة أعمالها. يصيح مخاطباً أحد الأشخاص: «جامبو!»†، يأتيه الردّ: «جامبو، بوانا». يتوقف أحياناً عند المطعم الصغير حتى يتناول فنجان شاي حلو أسود مع الزنجبيل. يحب هذا الشاي، لكنه لا يقرّ بهذا أمام ثوماس الذي يعدّ له طعامه وشرابه. كان هذا الكشك ملكاً لرجل اسمه باروتي (معنى اسمه «بارود»)؛ وقد كان هذا الشاي القويّ المنكّه ذا شهرة بين المسافرين الذين يتجمّعون هناك للاستراحة وشرب الشاي وتسقّط الأنباء.

كان يستمتع بهذه اللحظات المبكرة من ساعات اليقظة قبل أن تبدأ جلبة النشاط والحركة، وقبل أن تبدأ الالتماسات الصغيرة المزعجة التي يتقدّم بها إليه أشخاص كثيراً ما يكونون ممّن خالفوا الأنظمة الحكومية... في تلك اللحظات، يتمنى أن ينقضي نهاره سريعاً حتى يخلو باله من هذا كلّه.

3 تموز 1913

... جاء الهنود وقدّموا التماساً من أجل الحصول على تصنيفٍ دائم للبلدة. قلت لهم إنه ينبغي تقديم مخطّط البلدة إلى «مكتب الأراضي» الذي من المحتمل كثيراً أن يُدخل تعديلات عليه. وافقوا، من حيث المبدأ. أعددت المذكّرة. سيأتي رجلٌ من فوي في السابع من هذا الشهر.

أحاول جاهداً التوصّل إلى توازن مالي... توماس مصاب بالديزنتاريا. لديه عادة تزعجني. يغنّي من غير توقف: «ذات يوم، في مدينة داوود الملكية».

***

لم يكن في تلك المنطقة مستوطنون أوروبيون؛ لكن البلدة كانت ترحّب بجماعات المسافرين التي تمرّ من حين إلى آخر، إن هي اهتمّت بالتوقف فيها. بل كان الأطفال يرافقون أولئك المسافرين إلى داخل البلدة، وكان يلاقيهم أيضاً عسكري†. مرت بالبلدة ذات يوم أسرة من البوير مع خادمين. كانوا يركبون الخيل ومعهم عربة يجرّها ثور في طريق عودتهم من الشرق الألماني، وقد خيّب أملَهم الاستقبالُ الذي لقوه هناك من جانب من كانوا يعتبرونهم من بني جلدتهم (تركوا بعض الصحف الألمانية التي قرأها المفوّض المساعد باهتمام كبير).

وبعد فترة قصيرة، توقّفت أسرة أخرى من البوير لتناول الطعام والشراب، قبل مواصلة طريقها إلى المستعمرة الألمانية. وفي وقت آخر، جاء إيرلنديان عائدان من غزوة عبر الحدود، وكانت معهما عربتان مليئتان ببراعم السيزال المعبّأة في أكياس. إنها مسروقة من المزارع الألمانية المزدهرة.

كانت كيكونو على مقربة من جدول كيتو الموسمي الذي يجري صوب

الجنوب، قبل أن ينعطف من جديد صوب الشمال البعيد. وإلى الشرق، في منطقة كثيفة الأجمات والنباتات الشوكية، كان هناك مركزٌ لجمعية المسيح التبشيرية قائمٌ على قمة تبدأ عندها تلال تايتا. وكان كوربين على علمٍ بوجود بعثة تبشيرية فرنسية في مكان آخر. وإلى الغرب، تقع بلدة تافيتا التي كبرت نتيجة انتقال جمعية التبشير الكنسية إليها، بعد أن طلب منها الألمان مغادرة موشي. وفي البعيد، على امتداد الطريق، يلوح جبل كليمنجارو الذي قدّمته الملكة فكتوريا هديّةً إلى قيصر الألماني. وإلى الجنوب، تقع منطقة تكسوها شجيرات صغيرة، ومن بعدها صحراء كارو، ثم تلوح جبال باري في جهة الجنوب، بعيدة إلى حدٍّ يجعلها غير مرئية تقريباً. كانت تلك منطقةً جميلة، فيها غاباتٌ وبحيرات وفوهات بركانية وتلال من فوقها ضبابٌ أزرق؛ وفيها حيوانات كثيرة.

على مسافة نحو عشرة أميال من كيكونو، خلف جيبٍ من الأشواك والأجمات التي لا بدّ من قطع أغصانها حتى يمرّ المرء عبرها، على جرف ارتفاعه ألف قدم، يقوم مركز جمعية التبشير المطلّ على منطقة واسعة من الأرض. كانت مباني المركز المشيّدة بالخشب والحديد تبدو واضحة من بعيد عندما يأتي المرء مقترباً من البلدة. وكان ذلك الموقع المرتفع، المنعزل، يجعل المركز يبدو كأنه يكافح تلك الغابة الأجمية ويمنعها من التمدّد. وكان الطريقُ الوحيد من أجل الوصول إليه، عندما يكون المرء آتياً من جهة كيكونو، هو الدورانَ حول التلّ وارتقاءَه من الجهة الخلفية.

يعلن جرسٌ يدويّ بدء القدّاس في المركز أيام الأحد. وقد جاء رنينه المرح عبر تلك المنطقة المكشوفة محيّياً كوربين الذي كان سائراً في الطريق الترابي الصاعد إلى ذلك المكان. سارت معه مجموعة غريبة من أشخاص أصابتهم الدهشة. كانت ملابسهم مهلهلة عندما التقاهم في

الطريق، ثم جاؤوا في هندام حسن نازلين من التل لملاقاته والترحيب به. وكعهده دائماً، كان ثوماس سائراً من خلفه. تلك هي زيارتهما الأولى إلى مركز الجمعية التبشيرية.

تدلّت من البوابة لوحةٌ خشبية مزيّنة الحواف برسوم نباتية. كان مكتوباً عليها: «يا إنكلترا، أرسِلي إلينا رجالك!». لكن إنكلترا أرسلت إلى المركز امرأتين بدلاً من الرجال!

كانت الآنسة إيليوت والسيدة بيلي في انتظار كوربين. رحّبتا به ترحيباً حذراً، وقدّمتا إليه الماء لكي يشرب. لاحظ أن المكان واحة حقيقية. مجمّعٌ نظيف مكنوس فيه أشجارٌ كبيرة وارفة الظلال. مجموعة أبنية متواضعة في أحد الجوانب، والبناء الرئيسي، حيث تقيم المرأتان، منعزلٌ عن البقية. وبعد أن شرب الماء، أخذته المرأتان إلى مكان إقامة القدّاس، تحت واحدة من الأشجار.

كان نحو مئةٍ من معتنقي المسيحية الجدد، أكثرهم في ملابس أوروبية الطراز، جالسين على الأرض، منتبهين. وكان هناك عددٌ مماثل، إن لم يكن أكبر، من متفرّجين فضوليين واقفين في الشمس على مسافة من المجموعة الأولى.

بدأ الشمّاس كيزيتو إقامة القدّاس مفتتحاً إيّاه بجملة باللغة الإنكليزية: «فليأتِ بهم إلى الجنّة الموعودة!». ثم راح يتكلّم بالسواحيلية المطعّمة بكلماتٍ من لغة تايتا. ثم قام صبيٌّ مرتدٍ بنطلوناً قصيراً وقميصاً أدخل أطرافه تحت البنطلون بإلقاء كلمة بلغة تايتا استمرّت خمس دقائق. بدأت مجموعة أطفال الإنشاد، بالإنكليزية أولاً، ثم باللهجة المحلية. وأخيراً، نهضت الآنسة إيليوت وأعلنت عن برنامج النشاطات في ذلك اليوم.

وبعد القدّاس، أخذوا كوربين في جولة في المركز – المستشفى،

والمدرسة، والورشة، ومكان إقامة العاملين، والكنيسة الصغيرة. كانت في المكان بساتين خضار وفاكهة. وكان في مدرسة الأحد ثلاثون تلميذاً تركهم كوربين بين يدي الآنسة إيليوت التي كانت تقرأ عليهم مقاطع من لونغفيلو(*)، وذهب مع الشمّاس في جولة على المنطقة المحيطة بالمركز.

عاد كوربين لتناول الغداء وشرب الشاي مع المبشِّرتين. وقدّم توماس خدماته المفيدة في المطبخ، بل ساهم في التعليم أيضاً في ذلك اليوم. انصرف الشمّاس لأن لديه عملاً يؤدّيه.

جلسوا يشربون الشاي على الشرفة في بيت الإرسالية. كان من تحتهم مباشرة منحدرٌ فيه صخورٌ وأشجار وأجمات. وكان المشهد أمامهم كسولاً، كئيباً، سديمياً في حرّ بعد الظهيرة. مساحات كبيرة من شجيرات شائكة؛ وجبال تغطي الأفق في جهة الغرب؛ وغابة في الشرق تبدو سوداء لا سبيل إلى دخولها. وفي مكان ما، في البعيد، كان هناك برقٌ، بضع شرارات برقٍ سريعة، ثم أتى صوت رعدٍ مكتوم. ظلّوا بضع لحظات منشغلين بالنظر إلى دربٍ من الغبار: شباب من الماساي يرعون الماشية.

تحرّكت الآنسة إيليوت بعد زمن من جلوسهم: «إن كانت هناك جنّة عدن...».

سألتها رفيقتها الأكبر سناً بنبرةٍ حادّة: «ماذا تعنين؟!».

«... فلا بدّ أن آدم قد سار هنا، في هذه السهول والتلال، في هذه المنطقة من الأرض...».

«هل كان ذلك قبل طرده إلى أوروبا؟».

كانت العلاقة بين المرأتين غريبة - الآنسة إيليوت النحيلة، هشّة الجسم والعقل، كما كان يبدو عليها، على الرغم من وضوح عدم هشاشة

(*) Henry Wadsworth Longfellow: شاعر وتربوي أميركي. (المترجم).

إيمانها؛ والسيدة بيلي الصارمة ذات النزعة الواضحة إلى فرض حمايتها على الآخرين... امرأة لعلّها كانت قادرة على ضرب السكارى المشاغبين في حياة سابقة. لقد خدمت مع زوجها في غرب إفريقيا، ثم انضمّت بعد وفاته إلى إرسالية التبشير المتعثّرة في الهند حيث التقت بالآنسة إيليوت. وهناك، قرّرت الاثنتان أنّ من الأفضل الذهاب لخدمة المسيحية في إفريقيا.

ناقشتا حقيقة أن الإرسالية في كيكونو كانت من غير مُريدين. وكان هذا مما أثار مرارةً في نفسيهما، إذ إن هذه البلدة ظلّت بعيدةً عن الاهتمام، على الرغم من كون الإرسالية قد ساهمت، من غير قصد، في تأسيسها.

قالت السيدة بيلي: «الهنود نصف متوحشين»؛ كانت هذه بداية توضيحٍ لفكرةٍ كان جليّاً أنها توصّلت إلى رأيٍ تفصيليّ قاطع فيها.

قالت رفيقتها: «وبالتالي، فهم أسوأ. لا يمكن التوصّل إلى شيء معهم».

«هي تعني أنهم ذهبوا بعيداً في الاتجاه الآخر. فعلى الأقل يمكنك تشكيل الإفريقي وصوغه. وأما الهنود، والمسلمون، فلا سبيل إلى إصلاح عاداتهم السيّئة وأفكارهم المتطيّرة. سوف يظلّون هكذا دائماً!».

«يقول الأسقف تايلور: 'يتطلّع الإفريقي إلى ارتداء قبعتنا المرتفعة وأحذيتنا ذات الحواف المرنة. لكن الهندي لا يمكن أن يتخلّى عن الدهوتي، وسيظل نصف عارٍ على الدوام'».

عند تلك النقطة، جاء طبّاخه الهندي، صاحب الاسم المسيحي جداً، توماس، مرتدياً ملابس سوداء كأنه كاهن؛ فنهض كوربين لكي ينصرف.

14 آب 1913

وصلني صندوق من صنع فورتوم وماسون، سليم تماماً. (أشكرك

يا أمي!)... جوارب وإبر حياكة -أين اختفت إبري؟- بطاقتان من كين وروبي...

كين: هل أريد وظيفة في نياسالاند؟ لا - لكن، آهٍ على يوم عند شاطئ البحر مع كأس من الجن بالتونيك! (نادي مومباسا).

أظن أن لا مشكلة في أن يتغيّب ثوماس أيام الأحد، لكي يذهب لحضور القداس في الإرسالية التبشيرية.

***

مذكّرة الحاكم الموجّهة إلى مفوّضي المناطق والأقاليم (1910)

(ترقية الموظفين، صفحة 20)

على صغار الموظفين الخضوع لامتحان في اللغة السواحيلية والقانون؛ ولن يكون مؤهّلاً للترقية إلا من يجتاز هذا الامتحان.

لكن، وفي حين أن المعرفة الجيدة باللغات المحلية، والمعرفة السليمة بالقانون وبالأنظمة والتعليمات المحلية، فضلاً عن المهارة في الطبوغرافيا، تمثّل كلّها مؤهّلاتٍ مهمّة من أجل الترقية، فإن المعيار الأهمّ سيكون نجاح الموظف في تعاملاته مع عامة الناس.

3

«لقد كان مهرجاناً...»، هذا ما كتبه آلفرِد كوربين عندما انتهى الاحتفال، «جرى في نهايته احتجاز شابّ له اسم طنّان: بيبا (معناه «برميل») لأنه أثار القلاقل - من الممكن جداً اتهامه بالتجسّس إن أحببت فعل ذلك. الهنود مستاؤون لهذه النتيجة. وأما طبّاخي (ولأسباب مختلفة تماماً)، فالظاهر أنه عقد العزم على تسميمي».

كان الأمر قد بدأ بداية بريئة تماماً.

قال له الموخي جمالي: «إن ممثّل الملك مدعوّ إلى احتفالنا». جاءه بهذه الدعوة قبل أسبوع وقد وضع على رأسه قبّعةً جديدة مطرّزة بالأزرق والأبيض (كوفية) لعلّها كانت استعداداً للمناسبة. ثم أضاف الموخي: «في كلّ مكان، تُوجّه إليهم الدعوة فيأتون».

قال له كوربين: «فكيف إذاً، يا موخي؟ لو لم تدعوني لشعرت بالإساءة! يسعدني الحضور!».

وهكذا، ذهب إلى الاحتفال.

ثمانية رجال يرقصون حول عمود الخيمة، وفي يمنى كلٌّ منهم عصا طولها ثمانية عشر إنشاً، وأما اليسرى فممسكة بشريط طويل، أحمر أو أخضر، منحدر من قمة العمود. وعلى قرع الطبلة والدهول[†] المنتظم

المغوي، والعويل الحادّ المتقطّع الصادر عن الهارمونيوم(*)، وصوت غني من شبه جزيرة كاثياوادي في بلادهم القديمة يلعلع في هذه المناسبة، كان الرجال الثمانية يتحرّكون من حول العمود حركةً متداخلة متكرّرة، حركة منتظمة دقيقة كالساعة. وبينما مضوا يلتفّ أحدهم من حول الآخر، كانت عصيّهم تجتمع متقاطعة عند الوسط مصدرةً صوتَ اصطدامٍ خفيفاً. كان الرجال في بنطلونات بيضاء فضفاضة وقمصان طويلة... وشاحٌ ملوّن يلفّ وسط كلّ واحدٍ منهم وعصبة على الرأس. كانت ذيول قمصانهم تتطاير من خلفهم وهم يرقصون.

بينما كان الرجال يرقصون ويعبُر كلٌّ منهم من أمام الآخر في دائرة تزداد ضيقاً، كانت شرائطهم الخضراء والحمراء تنسج غمداً ملوّناً من حول العمود إلى أن صارت النهايات الحرة لتلك الشرائط في أيدي الراقصين الثمانية قصيرة إلى حدٍّ جعل أكتاف الرجال متلاصقة؛ وكان قرع عصيّهم مستمرّاً مع إيقاع الموسيقا. ثم انعكست الآية، وراح الرجال يدورون مبتعدين، فتنفكّ شرائطهم عن العمود.

في صدر خيمة الاحتفال، التي يسمّونها «مانداب»[†]، كان آلفرِد كوربين جالساً إلى جانب الموخي مرتدياً بنطلوناً وقميصاً غير رسميين، وبه شيء من الدوار لرؤية هذا الاحتفال. كان الهواء مشبَعاً بمزيج مدوِّخ من العطور القوية ورائحة العرق والبخور والحليب المكثّف والغبار الذي ملأ الحُصر بعد يوم طويل. صبيانٌ يتراكضون هنا وهناك، وأطفال صغار يبكون، وعجائز جالسون بهدوء، كلٌّ في مكانه، ومقدّمو الشربات يلحّون في الدعوة إلى تناولها. هذه المعمعة كلّها، وإيقاع الطبول المتواصل في الخلفية، والصوت الحادّ المنتظم الصادر عن تصادم عصيّ الرجال

(*) هارمونيوم: آلة موسيقية ذات مفاتيح. شديدة الشبه بالأرغن. (المترجم).

(صوتٌ كان يجعله يجفل كلّ مرة)، وحركة الراقصين المدوّخة، والتفاف الشرائط الملونة على العمود وانفكاكها عنه.

كان يتفرّج على ما يجري عندما بدأت رقصة الغاربا† بقدرٍ من الحماسة فاق ما قبلها: حلقةٌ دوّارة من نساء لعوبات مرتديات ملابس زاهية الألوان، على أنوفهن حلي ذهبية لامعة وفي أقدامهن خلاخيل ترنّ رنيناً. قيل له إن رقصة الغاربا تمثّل بداية تحوّل هذه الجماعة عن الديانة الهندوسية قبل قرون كثيرة في منطقة كوجارات. ورأى كوربين فيها زهرة تتفتّح، ثم تُغلَق. تنحني النساء إلى الأمام، ويُصفّقن بأيديهن مقتربات من مركز الحلقة، ثم يُفرقعنَ بأصابعهن ويَعُدن أدراجهن في حلقة دوّارة. لم يعرف كوربين ما إن كان لائقاً أن ينظر إليهن، فأشاح بوجهه.

قُدِّم له كرسيّ فجلس عليه من غير رغبة في الجلوس، ثم قَبِل كأساً من الشربات. كانت رقصة الرجال قد هدأت، وتراجعت الجلبة بعض الشيء على الرغم من استمرار صيحات الاستحسان مع تزايد سرعة راقصات الغاربا، إذ بدأت الراقصات استخدام قدورٍ نحاسية يمسكنها ثم يفلتنها من جديد، وينقرن عليها بخواتمهن نقراً يساير إيقاع الطبول. أغمض كوربين عينيه قليلاً، ورفع كأس الشربات إلى جبينه مستمتعاً بالبرودة اللطيفة المريحة.

وعندما فتح عينيه من جديد، أحسّ أنه قد صار في مكان آخر، أو كأنه صار في حلم. فتاةٌ ذات جمالٍ أخّاذ تقترب مرتدية فستاناً أبيض وعلى كتفيها باتشيدي†. كانت تقترب، ثم تتراجع، مؤدّيةً رقصة القدور النحاسية بحركات رقيقة من خصرها وردفيها غير ملقيةٍ بالاً إلى العيون المصوّبة إليها (عيون حاسدة، معجبة، غاضبة)؛ كانت عيناها كبيرتين، سوداوين، عميقتين؛ وعلى شفتيها ابتسامة عدم اكتراث، بل حتى غرور. كان شكلها مختلفاً اختلافاً واضحاً عن أشكال بقية النساء، فبدت دخيلةً بعض الشيء:

طويلة، نحيلة، بيضاء، متطاولة الوجه، حادّة الأنف، ممتلئة الشفتين. كانت حلقة النساء قد انفرطت، وظلّت بضع فتيات صغيرات السن يرقصن منفردات، وبينهن ترقص الحورية. ازدادت ضربات عازف الكابالاتشي سرعة، وظلّت الراقصات الرشيقات مواكباتٍ إيقاعه، أقدامٌ تضرب الأرض، وأردافٌ تتمايل من غير حرج، وأنفاسٌ سريعة حادّة، ووجوهٌ يلمع العرق عليها.

التفت الموخي إلى كوربين محرَجاً مما بدا كأنه عرض مقدَّم من أجل الرجل الأبيض، فالتقط الإنكليزي تلك الإشارة. شكر الزعماء متمنّياً لهم أمسيةً طيبة، ثم سار خارجاً من الخيمة وسلك الطريق المؤدية إلى بيته برفقة عسكري، بينما دخلت الخيمةَ مجموعةُ فتيانٍ ينفثون من أفواههم نيراناً فائحة برائحة الكيروسين.

كانت تلك الليلة الأولى من ثلاث ليالٍ طويلة من الاحتفالات؛ ليالٍ تستمر حتى الفجر، ثم تعقبها بضع ساعات من هدوء ناعس قبل أن تبدأ احتفالات اليوم الجديد. كان في البلدة زوّارٌ كثيرون، وكانت هناك مواكب بالرايات والملابس الاحتفالية. وكانت الشرطة تقوم باستعراضٍ يومي. طعامٌ كثير لكلّ من هبّ ودبّ. كان ذلك مناسبة لاستعراض الكوفيات والكانزو والعمائم والفساتين والباتشيدي. وكان مفوّض المنطقة المساعد مسروراً لأن هذا كلّه جارٍ في منطقته؛ بل يمكن القول أيضاً إنه جارٍ تحت رعايته.

21 تشرين **الأول** 1913

... أظن أن هذه أجمل ثمار الإدارة؛ تصويتٌ على الثقة، وتشريفٌ لممثّل الحاكم.

***

عصرَ كلّ يومٍ من أيام المهرجان، كانت تصل إلى هذا السيد تقدمةٌ من طعام ذلك اليوم في صينية نحاسية مغطّاة. لكن أول تقدمة من تلك التقدمات اصطدمت بمعارضة شديدة من جانب الرجل الذي كان طبّاخه وخادمه الشخصي.

قال توماس وهو يهزّ رأسه معترضاً: «هذا طعام الكفّار، حضرتك!».

قال كوربين بنبرةٍ ليّنة متسامحة: «فلنكشِف الغطاء ولنرَ!».

كانت رائحة الطعام قوية، وكان العسكريّ يحوم متلكّئاً، فقد يرفض الأبيض هذا الطعام. لكن الأبيض ما كان ليترك الأمر من غير أن يتذوّق ما في الصينية.

«على أيّ حال، يا سيّدي، سأجلب لك طعاماً مسيحياً، طعاماً إنكليزياً، وسأعطي الشرطة طعام السحرة هذا!».

«اكشف الغطاء، يا رجل!».

وهكذا ظلّ كوربين ثلاثة أيام يذهب إلى فراشه وقد شبع من طعامٍ لم يألفه، لكنّه أعجبه تماماً في هذه الظروف لأنه أراحه من منتجات «المطبخ الإنكليزي» التي عادةً ما يقدّمها إليه طبّاخه. وحتى ساعة متأخرة من الليل، كان يأتيه قرع الطبل والدهول، ونواح الهارمونيوم حاملاً معه صوراً لحلقاتٍ تدور وفتاة في فستان أبيض.

كيف السبيل إلى استبدال توماس؟ صار احتمال هذا الرجل صعباً؛ فقد تحوّل من ذلك الرجل المتواضع شديد المراعاة الذي التقاه كوربين في مومباسا، إلى دجاجة أمّ تتحكّم به وتبالغ في حمايته. صارت له اعتراضات كثيرة يعبّر عنها من غير تحفّظ، وأكثرها متصل بعلاقة كوربين بأهل البلدة «الكفّار». وفي كلّ أحد، كان توماس يرتدي بدلةً سوداء ويضع قبعةً سوداء فوق شعره اللامع، ويمضي بقدرٍ كبير من الاحتفال إلى قدّاس

المركز التبشيري حيث يُقابَل بالترحاب على الرغم من كونه هندياً. وأما كوربين نفسه، فلم يكن يذهب إلى المركز إلا في زيارات رسمية قصيرة؛ إلا أن ثوماس كان يجلب لسيّده (غير الممتنّ له) كعكاتٍ حلوةً صغيرة كان واضحاً أنه يختلسها اختلاساً.

23 تشرين الأول

أشعر بالأسف على ثوماس المسكين... ولكن، هل أترك لحم الخروف بالزعفران «برياني» من أجل فطيرة الراعي بالكاري وطبق الكيدجيري(*) الذي يعتبره أكلة فاخرة؟! كان يتذمّر كثيراً، ويبالغ في ذلك حتى يضاعف إحساسي بالذنب. وذات مرة، قرأ أمامي رسالة من دياره، لكنه رفض أن يفصح لي عن شيء من مضمونها، بل جعلته أسئلتي ممتعضاً عدوانياً؛ فتساءلت في نفسي ما إن كانت تلك الرسالة حقيقية. لم أُجرِ أيّ تحرّياتٍ عنه، أيّ تحرّيات متعمقة؛ فقد افترضت أن مومباسا، كغيرها من مدن الموانئ الكبيرة، تضمّ أنواعاً كثيرة من أشخاصٍ يؤمّون شواطئها، لكن خلفياتهم لا تستحقّ عناء التدقيق فيها. صرت أظن الآن أن الأمر وصل به حتى إلى معاقبتي بأطباقٍ منكّهة بالكاري لم يكن أثرها على معدتي حسناً على الإطلاق.

27 تشرين الأول

لقد تصالحنا؛ وابتلعت مذعناً فطيرة الراعي التي أعدّها ثوماس. عرفت أيضاً شيئاً عن حياته. لقد كان واحداً من الهاري(**). ثم نشأ –هكذا قال لي– في مركزٍ تبشيريّ مسيحي قريب من مومباي. حدّثني عن سيدتين

(*) طبق إنكليزي من اللحم والأرز والبيض المسلوق. (المترجم).

(**) الهاري: جماعة إثنية صغيرة في غرب البنغال. (المترجم).

تشبهان تلكما السيدتين راسختي الإيمان في مركز الإرسالية. وقد تحدّث عن واحدة منهما بقدرٍ غير قليل من الإعجاب. ترك في الهند زوجةً وطفلاً. قال إنه انضم إليّ في مومباسا لأنه أحسّ بشيء يدفعه إلى ذلك، وظنّ أن قسّاً كان يعرفه في الهند قد اختاره لهذه المهمة. لست أجرؤ على تخمين مقدار الصدق في هذه القصة! فالشرق شرق!

وقع يوم أمس حادثٌ مدهش لم أستفق من أثره حتى الآن.

انتهت «الأفراح» منذ يومين؛ وكان آخر الزوّار لا يزالون يغادرون البلدة. عاد الهنود إلى أعمالهم المعتادة. الوقت يقارب الظهر؛ وقد بدأت أعدّ ردّاً على استفسارٍ متعلّق بفصيلة الشرطة عندنا. (الظاهر أن الحكومة تريد أن تطمئن على جاهزية المراكز الإدارية لحالات الطوارئ، كأن تقع مثلاً هجماتٌ من جانب السكّان المحليين). وفجأة، سمعت صياحاً وأصوات عراكٍ ومشاجرة عنيفة في الخارج. لم أفعل شيئاً أول الأمر غير أنني رفعت رأسي قليلاً. إن «العسكري»[†] يعرفون عملهم (هذا ما كنت أكتبه في مذكرتي). لكن شيئاً جعلني أنهض من مكاني (سأكتشف مغزى ذلك الشيء بعد قليل، وأخرج إلى الشرفة). رأيت عراكاً يجري أمام مكتب البريد؛ وكان من بين المشاركين فيه خادمي، ثوماس نفسه، الذي كان سماع صوته هو ما جعلني أخرج. كانت تلك الأصوات، بما تحمله من وعد بالإثارة والتسلية، قد ترامت الآن إلى مسافة كافية جعلت أوائل المتفرّجين يأتون مسرعين صاعدين التل. كان من الممكن أن أعتبر الأمر مسلّياً، مثلهم، وأقول للعسكري أن يقوموا بدورهم؛ لكن ما جرى أزعجني، فسرت إليهم مسرعاً.

من بين الرجال الخمسة المشاركين في المشاجرة، كان هناك اثنان من العسكري يكادان لا يقدران على الإمساك بشابٍّ هنديّ قوي ضخم

توقّف عن مقاومتهما عندما رآني. انتبه ثوماس إلى ذلك فالتفت وشاهدني مقترباً، فما كان منه، من غير داعٍ على الإطلاق، إلا أن أمسك بأذن الهندي وقال بطريقة لا تخلو من سخافة: «جاسوس ألماني، حضرتك!».

قلت: «يكفي!». وباقتضاب، سألت موظف البريد، الذي كان خامسهم، عن السبب الذي جعله يترك عمله، وعن موضوع هذا «الماتاتا»[†] الطفولي.

قال الرجل: «ألم أكن في عملي عندما جاء هذا الخنزير وضايقني؟».

ردّاً على هذا الاستفزاز، زمجر الهنديّ قائلاً: «مفالمه![†] يا سيدي، هم الذين أهانوني!».

لولا إمساك العسكري به لهاجم شخصاً ما!

جرى بعد ذلك تبادل شتائم مقذعة جعلت هذا الهندي غير قريب من قلبي على الإطلاق. عرفت أن اسمه بيبا، وأنه شخص شديد الشراسة. كان شعره المقصوص قصيراً على رأسه المدوّر الضخم يضفي على مظهره شيئاً من البلاهة. وأما ملابسه -قميص وبنطلون وحذاء- فكانت محترمة، مما يجعله يبدو رجلاً موسراً بعض الشيء.

تبيّن أن بيبا جاء من الشرق الألماني لحضور الاحتفالات. وفي الصباح الذي أعقب انتهاءها، جاء إلى مكتب البريد حاملاً كيساً من الرسائل جلبه معه عبر الحدود. أظهر موظف البريد ضيقه -طبيعي- إزاء هذه الكمية غير المألوفة من الرسائل. كان ثوماس يحوم في المكان، فبدأ يوبّخ بيبا ويوجه إليه الإهانات، فما كان من بيبا إلا أن سدّد إليه لكمة.

أصدرت أمري بأن يوضع بيبا في الحجز ذلك اليوم، وطلبت من ثوماس أن يعود إلى عمله. وبعد ذلك، ذهبت لتفحّص ذلك البريد في المكتب، وذهب معي اثنان من العسكري.

رسائل من هنودٍ مقيمين في الشرق الألماني إلى أقارب لهم في

بومباي وبوربندر، وإلى قرى كثيرة في الهند -يدعون بلدهم الأصلي «دِش»- وكان هذا كله أمراً مفهوماً. رأيت أيضاً رسائل موجّهة إلى أقارب في فوي ومومباسا ونيروبي. إن هؤلاء الناس من رعايا الملك، بعد كلّ حساب؛ ومما يثير الإعجاب أنهم يعتمدون على الحكومة البريطانية في هذه الخدمة شديدة الأهمية. لكني وجدت ثلاث رسائل غير عادية على الإطلاق موجّهة من الملازم الثاني في حصن موشي إلى ألمان مقيمين في الجانب الإنكليزي. فتحت الرسائل كلّها. كان أكثرها بالسواحيلية أو الكوجاراتية؛ وعدد من الرسائل بالإنكليزية، فضلاً عن واحدة باليونانية. سمحت بأن تذهب تلك الرسائل بالبريد العادي. كانت أختامها سليمة، بطبيعة الحال. وسوف أرسل الرسائل الألمانية إلى فوي، مع ترجمتي لها، على الرغم من أنها بدت لي بريئة تماماً. كان مكتوباً على واحدة من تلك الرسائل أنها ينبغي أن تُسلَّم باليد إلى السيد لينز في مبويوني التي سيمرّ بها بيبا في طريقه إلى فوي. لا بدّ من مراقبته، لكنّي لا أستطيع احتجازه.

28 تشرين الأول، السابعة صباحاً

بخصوص قضية بيبا...

ذهب الشامسي إلى المسجد (كعادتهم) الليلة الماضية. كانت تراتيلهم أقل كثيراً مما تكون عليه كل يوم؛ وكان هناك كلامٌ أكثر ومناقشات لم يكن لديّ أيّ شكّ في موضوعها. لقد صمّمت على أن أكون حازماً: لا بدّ من تلقين ذلك الشابّ درساً. لقد هاجم خادمي الذي... لا أحبه كثيراً، لكنه يظلّ واحداً من أهل بيتي. وفي وقت لاحق، سمعت في الخارج جلبة وأصواتاً تقترب صاعدة التل، ثم تتوقف في مكان غير بعيد. كان وقع حذاء الحارس على الشرفة مطمئِناً. ثم انفتح الباب فجأةً ودخلت امرأةٌ شابّة على رأسها غطاء ورمت نفسها عند قدمي. ومن خلفها، وقف العسكريّ عاجزاً.

قالت: «مهيشيموا، أيها السيد الكبير!...». نظرت إلي بعينين راجيتين. (كانت مفاجأة كبيرة).

إنها الفتاة نفسها التي رأيتها ترقص في الاحتفالات. كانت جميلة جداً، حتى في ملابسها البسيطة التي ترتديها كل يوم. وكان غطاء رأسها قد سقط إلى كتفيها فبدا عليها مظهرٌ برّيّ جَموح. كانت تكلّمني بالسواحيلية فلم أفهم كل ما قالته، لكني استنتجت أنها خطيبة الأبله بيبا الذي وضعتُه في الحجز. صحيح أنها ارتمت عند قدمي، لكنها امتلكت شجاعة كافية لجعلها تتجاوز العسكري... أمرٌ لم تفكّر حتى بالاعتذار عنه. لكني لم أكن أريد منها اعتذاراً. طمأنتها على فتاها. ابتسمتْ ابتسامة صغيرة شاكرة، ثم ذهبت. نظرت إليها من النافذة، فلاحظت رجلاً يخرج من الظلال ويسير خلفها.

كنت أفكّر في صعوبة فهم أولئك الأشخاص الغرباء - لا بدّ أن تكون هناك أمورٌ لا يعرف المرء عنها شيئاً على الإطلاق. عندئذٍ سمعت نقراً لطيفاً على الباب. قلت في نفسي إن سكّان البلدة كلّهم صاروا الآن أكثر جرأة. صحت بالطارق قائلاً له أن يدخل، فدخل الموخي حاملاً طربوشه في يده. تناولت كرسيّاً وقدّمته إليه.

قال: «بوانا[†] كوربين!».

يعرف هذا الرجل أماكن كثيرة في العالم؛ فمركزه مشتملٌ على أسفار كثيرة. وعلى الرغم من مظهره المتواضع الناضح احتراماً، فما من شكٍّ عندي في أنه يعرف موقع مفوّض المنطقة المساعد في التراتبية الحكومية. صحيح أن الفرد الهندي لا حول له أمام الشخص الأوروبي؛ إلا أن لجماعة الهنود صوتاً مسموعاً. وهم يحدثون قدراً كبيراً من الضوضاء في نيروبي، كما تقول صحيفة هيرالد دائماً. يمرّ أكثر من ثلاثة أرباع أعمال البلاد من

أيديهم، حتى في بلداتٍ صغيرة كهذه. ثم إن السيد تشرشل نفسه يساند قضيّتهم مساندةً معلنة. طمأنت الرجل مثلما طمأنت الفتاة من قبله. أمرت الرقيب بإطلاق سراح السجين عند الساعة العاشرة. شكرني الرجل. قدّمت له شاياً. أظهر ملاكي الحارس ثوماس استياءه من ذلك، لكنه ذهب إلى المطبخ مسرعاً كما أمرته. عاد الموخي بعد أن خرج لكي يهدّئ جماعته. وفي أثناء شرب الشاي، سألته بطريقة ودّية ما إن كانت جماعة الهنود تعتبر نفسها فوق العقوبات الحكومية حتى إذا خالفت القانون.

«آه، يا سيد كوربين... لكن هذا كان أمراً صغيراً!».

قلت: «لكن، من الممكن اتهام فتاك هذا بالتجسّس!».

انفعل انفعالاً حقيقياً عندما سمع هذا: «سيد كوربين، لقد أعطوه هذه الرسائل، فما الذي يستطيع فعله؟ نحن شعب خاضع مسكين...».

ضحكت، فضحك مثلي. سألته عن السبب الذي يجعل أبناء شعبه يأتون إلى هذه البلاد، إلى هذه البرية، بعيداً عن بلادهم وثقافتهم. قال: «السلم والثراء». كررت تلك الكلمتين من بعده، فقال مؤكّداً: «صحيح، يا سيدي، تحت حمايتكم. لا نريد إلا القليل. ثم إننا ساهمنا في الخطوط الحديدية الأوغندية».

لم يذكّرني بأن له زوجةً إفريقية، وبأن له أطفالاً منها، ولا بالتزامه تجاه إفريقيا، ولا بالاضطرابات في الهند، تلك الاضطرابات التي تفرّ جماعته هرباً منها. كنت معجباً بتكتّمه وتحفّظه. قلت له إنه زعيم جيد لجماعته. وقلت أيضاً إن الحكومة البريطانية مسرورة من جماعته.

سألته عن الفتاة. قال لي إن اسمها مريامو، وإنها تعيش مع أمها وزوج أمها. ثم إن مريامو ابنة أخته؛ أمها هي أخته كولسا.

سألته: «من هو زوج أمها؟».

أجابني: «سيمبا».

تعني هذه الكلمة «أسد»؛ ومن الواضح أنها لقب له. سألته عن هذا «الأسد»، فضحك وقال: «إنه رشيد، عامل النقل».

اتضح لي أن هذا الرجل، رشيد، كان عاملاً عادياً في السكة الحديدية (هذا يعني، إن شئنا الدقة، أنه ليس واحداً من الشامسي)، لكنه ترك الوظيفة مثلما تركها كثيرون غيره عندما بدا أن الأسود التي تأكل البشر في سافو منيعة لا تُقهَر، لأنها كانت تلتقط أولئك العمال على هواها. وفي نظر الهنود المذعورين، لم تكن أسوداً حقيقية التي تقتلهم -على الإطلاق- بل كانت أرواح من ماتوا في الصحراء. فكيف يمكن تفسير (هكذا قال الموخي) أن يكون رجلٌ جالساً إلى جانبك عند النار داخل سور واقٍ ارتفاعه أربعة أقدام، ثم تلتفت بعد لحظة فترى مكانه خالياً، وتسمع صراخه في البعيد؛ أو عندما يُختطَف لك رفيقٌ من فوق شجرة ينام فيها، في حين أن الأسود لا تتسلّق الأشجار؟

قال الموخي: «بحسب ما قاله العمال، فإن أرواح الصحراء مستاءة من السكة الحديدية التي بناها المزونغو، وهي تأتي على هيئة أسود وتهاجمهم».

قلت له: «هذا يعني أن رشيداً يدعى سيمبا على سبيل السخرية!».

ابتسم الموخي موافقاً: «إنه يتعامل الآن مع البغال. هذا هو العمل الذي يعرفه. إلا أنه حريص على تأمين ما تحتاجه أسرته... وهو أبٌ يهتم كثيراً بحماية أطفاله. إنه متعلّق بالفتاة... لعلّه متعلّقٌ بها أكثر مما ينبغي».

سألته: «وهل يتبعها أينما ذهبت؟».

كانت استجابته لهذا السؤال: «بوانا كوربين صاحب ملاحظة دقيقة».

أضاف الموخي: «إنها فتاة جَموح تحب أن تخرج بعيداً وحدها، وهذا ما يقلق أسرتها».

تساءلت في نفسي ما إن كانت هي من رأيتها تجري في البعيد يوم وصولي إلى البلدة حتى أستلم وظيفتي. كانت آتية من جهة النهر.

سألته: «وهل هي خطيبة هذا الشاب، بيبا؟».

«صحيح، يا سيدي. لقد أتى لتحديد موعد الزفاف. إن لديه مشكلات، هو أيضاً... ولكنّهما، إن شاء الله، بإرادة الله، قادران على أن يسعد كلٌّ منهما الآخر».

«متى يكون الزفاف؟».

«في غضون بضعة شهور، بوانا كوربين».

وإلى أن يحين الموعد، سيعود بيبا إلى موشي حيث لديه متجره وأمه.

***

كان الهنود ممتنّين للمعاملة الليّنة التي لقيها الشاب؛ ولم يقصِّروا قطّ في إظهار امتنانهم. توافدت إلى بيت كوربين صناديق الحليب المعلّب، وزجاجة ويسكي، وجوارب، وملابس داخلية، وصابون. وكان من نتائج تلك الحادثة اكتشافه أن ثوماس كان يبتزّ أصحاب المتاجر مستخدماً تهديداته بأن يجعل مفوّض المنطقة المساعد ينقلب عليهم. وبعد تلقّيه توبيخاً شديداً، رحل ثوماس.

اكتشف كوربين بعد بضعة أيام من ذلك أن خادمه قد ذهب وانضمّ إلى مركز الإرسالية. سرَت أخبارٌ تقول إن بوانا كوربين يبحث عن طبّاخ جديد. وفي أحد الأيام، وصل إلى عتبة بيته طبقٌ من مربّى الفاكهة الطازج. استمتع كثيراً بذلك المربّى. قال له العسكري إن الفتاة مريامو هي من وضعت الطبق عند العتبة. صارت تلك الهدية تتكرّر كلّ خميس، أيْ كلّ ليلة جمعة... اليوم المبارك الذي يطعمون فيه اليتامى والمساكين.

4

كانت الليالي باردةً جافّة، والظلمة مطبقة تماماً ولها كثافةٌ ملموسة جعلته يحسّ أنه يستطيع، إن مدّ يده من مرقده، أن يزيحها جانباً مثلما يزيح ستارةً حتى يطلّ على العالم المضيء، على لندن وباريس وهامبورغ. حفيفُ أوراق شجرة المبويو[1] في الخارج، وأصوات الضباع في البعيد، ونخير فهدٍ أو قباع خنزيرٍ برّيّ، وصوت الحشرات المتواصل... كريك-كريك. وبعض الأحيان، يأتي صوت المطر الغريب الذي يثير جنونه وهو يجلد سقف بيته؛ صوتٌ ينبغي أن يكون مرحَّباً به في هذه المنطقة شبه الصحراوية. لقد سمع أن أرواحاً تسكن أشجار المبويو؛ ومن الطبيعي أنه استهزأ بتلك الفكرة. لكن، في هذه الظلمة الممتلئة شؤماً، في هذه الوحدة، فإن كل ما لدى المرء من موضوعية علمية يبدو هشّاً. عرف أن الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً عندما ارتفع صوت المؤذّن الشجاع غنيّاً متحدّياً الظلمة الكثيفة. تلك الصيحة الكئيبة للروح البشرية في الكون الفسيح. أيكون هناك ردٌّ، أو استجابة؟... ثم أتت أصوات الشامسي وهم يستعدّون للذهاب إلى مسجدهم. إنهم قومٌ أشدّاء يستطيع المرء مقارنة حماستهم بما كان لدى المسيحيين الأوائل. ينهض خادم المسجد أوّل الأمر، فيمضي في البلدة ويقرع الأبواب. وشيئاً بعد شيء، يتقاطر من

يودّون الصلاة سائرين في اتجاه المسجد. ثم يعمّ الصمت نحو نصف ساعة... قيل له إنهم يمضون ذلك الوقت في التأمل.

لقد قرأ قصص المستكشفين، وكبار الرحّالة؛ وقرأ خلاصات عن محاضراتهم، وبضمن ذلك خلاصة ألقاها كراف في جمعية هامبورغ الجغرافية. ولعلّه قرأ ستانلي عندما كان صبيّاً في إنكلترا. ألم يكن أولئك الرحّالة يمضون ليالي أرقٍ من غير نوم، أو يحيدون عن غاياتهم؟ ماينارد، ماينارد الذي يبدو شخصاً حروناً، الذي جاب طول القارة وعرضها مُخضِعاً أهلها العنيدين... لقد اعترف له بأن نوبات من الأرق والاكتئاب والشك كانت تصيبه، فيفزع إلى كتابة يومياته لقتل الوقت وإرهاق الدماغ، أو يأخذ امرأة محلّيّة لكي يقتل الوحدة. اعترف له أيضاً بتلك اللحظة التي تصل الأعصاب فيها إلى نقطة انهيارها، فتتفجّر الوحشية.

منذ فترة غير بعيدة، حملت نسخة من صحيفة «المشهد من هنا» المخصّصة لصغار الموظفين، والتي تصدر من غير انتظام، مقالة عن «المرض» المخيف الذي كثيراً ما يصيب مسؤولي الإدارة الذين يعملون وحدهم في إفريقيا. دعت المقالة ذلك المرض «الغضب الإفريقي». قال الكاتب: «الأمر الذي ينبغي الانتباه له هو تفجُّر الغضب الذي لا سبيل إلى ضبطه. فقبل أن تنفجر عاصفة توجيه الاتهامات العنيفة إلى شخصٍ متهرّب من تسديد الضرائب، أو إلى طبيب ساحر، يكون من المستحسن أن يذهب المرء في رحلة سفاري». وقد قرأ أيضاً أن موظفاً مسؤولاً في شرق إفريقيا الألمانية أقدم على شنق ثماني أمهات معاً لأنهن قتلن أطفالهن. حدث هذا في منطقة باري الواقعة على مسافة أقل من مئة ميل!

وفي الخارج، تأتي من حين إلى آخر همهماتُ أصواتٍ بشرية عند خروج الشامسي من المسجد وعودتهم إلى بيوتهم. ينظر إلى النوافذ

المغلقة مصاريعها، فيرى أول أشعّة ضوء الصباح تتسلّل عبر الشقوق. ستَلي هذا بضعُ دقائق من صمتٍ مطلق، ثم يأتي صوت اصطفاق أجنحة الطيور المألوف عندما تبدأ حركتها، فيكون إيذاناً ببدء النهار. وعندئذٍ، ينهض من فراشه.

يتوق إلى المجتمع الأوروبي بعد ليالي السهاد هذه؛ يتوق إلى أن يلعب البريدج، تلك اللعبة التي لا يلعبها عادةً؛ أو يشتهي كثيراً أن يلعب الشطرنج. أسفرت محاولات كثيرة للعب الشطرنج مع ثوماس، الغائب الآن، عن نتائج كارثية. لم يستطيعا الاتفاق على قواعد اللعبة، وتشاجرا مثلما يتشاجر تلميذان. كانا يلعبان الداما أحياناً، بل حتى ألعاب ورق من تلك التي يلعبها شخصان. دعته جماعة الهنود مرّةً إلى لعب الكاروم[†]، وإلى لعبة ورق يشارك فيها ستة لاعبين؛ كان ذلك مع شرب الشاي وتناول مأكولات خفيفة، ومع كثير من الضحك، والتحديق من بعيد من جانب الأطفال والنساء. أدرك أنهم تساهلوا معه في اللعب كثيراً. ثم لم تلبث تلك التجربة أن توقفت. أراحه توقفها وخيّب أمله أيضاً.

كان ينكبّ بشراهة على قراءة صحف نيروبي عندما تأتي، صحيفة «هيرالد»، وصحيفة النمائم «غلوب تروتر». أخبار من يأتون، وأخبار من يغادرون، ومجادلات كثيرة. تفشّي الطاعون في الحيّ الهندي، والمذمّات التي انهالت على «السُّمر الذي لا يراعون القواعد الصحية»، وإعدام إفريقي بالرصاص، أو جلده، ووصول شخصية ملكية أو جماعة من أثرياء شيكاغو قادمين في رحلة صيد بالمناطيد، أو تعيين مدير جديد لـ«نورفولك»، أو حاكم جديد... كانت الصحف مصدر معلومات غنيّاً إلى حدٍّ عجيب.

25 كانون الأول 1913 (عيد الميلاد)

... لا مؤونة عندي، لكن لديّ تحت السرير بضع علب احتياطية من البسكويت ولحم البقر. كنت أتوقع دعوة من الإرسالية التبشيرية، لكنني أظن أن وجود ثوماس هناك سيخلق وضعاً غريباً غير مريح.

كانت الضجّة شديدةً في البلدة بالنسبة إلى يوم عطلة. وعندما خرجت لأنظر، رأيت استعداداتٍ جارية على قدم وساق من أجل ما اتضح أنه حفلة في الهواء الطلق. كانت هذه «الأفراح» من أجلي، وكانت شيئاً سارّاً حقاً... لكن الكلمات التي أُلقيت كانت طويلة.

***

لعلّ السيدة بيلي والآنسة إيليوت توقّعتا أنه سيمضي عيد الميلاد في تافيتا. لقد صار على ألفةٍ مع بلدات تلك المنطقة ومنها مبويومي حيث التقى آخر الأمر الموظف الألماني المقيم الذي اسمه لينز، وهو عينه الشخص الذي أُرسلت إليه تلك الرسالة «التي اعترضها كوربين وقرأها» من قيادة حصن موشي. كما طُلب قدوم كوربين إلى تافيتا عدة مرات... تلك البلدة التي هي واحة جميلة عند حدود شرق إفريقيا الألمانية. إنّ في تافيتا مفوّض منطقة مساعداً، ومركزاً كبيراً لجمعية التبشير الكنسية - كما أن اللواتي في ذلك المركز، الآنسة كامبل والآنسة نايت، أكثر ودّاً من تلكما المرأتين في الإرسالية المحلية.

كان يذهب إلى الصيد أحياناً. وقد بدأ ذلك عندما هاجم فهدٌ امرأةً خلف كوخها في قرية قريبة. لم يعثروا على الحيوان، ولعلّه لقي حتفه في مكان آخر. لكنه كان يصطاد الحيوانات من أجل الطعام في أثناء جولاته في المنطقة. مرة واحدة فقط، عندما رأى حمار وحشٍ جميلاً ضالّاً، أطلق النار عليه من أجل نشوة الصيد فحسب. والظاهر أن الحيوان أحسّ بدنوّ

أجَله، فوقف ساكناً عديم الحول تماماً. كانت أذناه فقط ترتعشان قليلاً. كان رفاقه في تلك الرحلات: الكلب بوانا تيم، وعددٌ من العسكري، وشخصٌ مصاب بالبهاق له لحيةٌ ذهبية اللون ولقبٌ فيه بعض الغرابة: فومفراتي. كان ذلك الرجل يأتي دائماً مرتدياً الملابس نفسها، بنطلوناً وصداراً أسودين، وقميصاً أحمر، وعصبة رأس صفراء، وقبّعة عريضة الحافة، كأنه تقليدٌ لصيّادٍ أميركي.

تافيتا: 13 شباط 1914

كانت رحلةً شاقّة استعدت قواي بعدها في مقرّ الجمعية التبشيرية في تافيتا بين أيدي مبشّرتَين طيّبتين...

وصلنا إلى جدول ماء في طريقنا قادمين من كيكونو، فكان مبعث راحةٍ كبيرة لنا. كانت على الجدول حيث توقفنا أشجارٌ كبيرة، وكانت الأرض باردةً برودة لطيفة منعشة. وجدنا مستوى الماء في الجدول منخفضاً، فقد صار تدفُّق مجراه سافيةً صغيرة آتية من الاتجاه العام لجبل كليمنجارو. كانت قمّتا الجبل الآن مختفيتين خلف حجاب من الغيوم. ومن خلفنا، كانت قرية من قرى السكّان المحليين جاء أطفالها للنظر إلينا ولتلقّي الهدايا (سكاكر من دكّان الموخي). لم يكن مقدّراً لنا أن ننعم بالسلام في هذا الملتجأ، لأن قرود البابون سرعان ما احتلّت المكان. كانت أول الأمر مكتفيةً بالزعيق وهزّ الأغصان على مسافة منا، أعلى المجرى. إلا أنها ازدادت جرأة بعد ذلك. خرج واحدٌ من بين النباتات على مسافة قريبة منا، ثم عبر واحدٌ آخر الجدول بثلاث أو أربع قفزات سريعة. في تلك اللحظة، قال لي فومفراتي الذي كان يداعب حجراً رمادياً ناعماً وضعه في راحة يده، قال بطريقة عادية تماماً إن علينا أن نضع طوقاً على رقبة بوانا تيم.

قلت له إنني متأكّد من أن الكلب لن يشرد بعيداً عنا. نهض واقفاً، وبدأ يسير عكس مجرى الماء. كانت خطواته على الحجارة خفيفة؛ ثم اختفى لحظة عن نظري. بعد ذلك، أتت من حيث اختفى أصواتُ حركةٍ شديدة صادرة عن القرود، لم يلبث بعدئذٍ أن ظهر من جديد حاملاً في يده شيئاً أبيض اللون. اقترب مني ووضع ذلك الشيء بين يديّ. تخيّلوا صدمتي عندما رأيت أنه جمجمة! كدت أسقطها من يدي.

«إن النيانيي يلعبون بها. إنها جمجمة نيانيي[†] بابون».

عادة ما تكون تلك الجملة المسطحة التقريرية التي قالها مقدّمة قصة يريد أن يحكيها. انتظرت سماع القصة.

14 شباط

قال فومفراتي إن مزونغو وفد إلى هذه البقعة منذ بضع سنين مع عددٍ من الأشخاص (استدرك قائلاً إنه كان واحداً منهم)؛ وكان معه كلب. كان كلباً صغيراً، هكذا (شكّل صورة كلب بذراعه وراحة كفّه المفتوحة)، بنّي اللون، له فروٌ كثيف على ظهره وأذنان كأنهما مروحتان (إشارة أخرى بيده). كان هذا المزونغو ذاهباً إلى تافيتا أيضاً. وبينما كان منشغلاً بترتيبات استراحته، راح الكلب الصغير يتجوّل في المكان. (وهنا، توقف فومفراتي عن الكلام ونظر إلي كأنه يُعدّني لسماع ما سيأتي). قفزت جماعة من قرود البابون الزاعقة على الكلب من بين الأشجار وسرعان ما مزّقته إرباً إرباً. عندما سمع الأشخاص الذين مع المزونغو تلك الجلبة اندفعوا إلى المكان فرأوا، ما كان -بالتأكيد- مشهداً مروّعاً حقاً: القرود تلعب بأشلاء الكلب. قفز أحد القرود مبتعداً حاملاً معه أحد الأطراف، وكانت أحشاء الكلب متدلّية من فم قرد آخر. قلت له أن يكفّ عن الكلام، لكن فومفراتي

تابع كلامه قائلاً إن المزونغو قد جُنّ غضباً. فقد الرجل صوابه وظلّ يجلد الرجل الذي كان مسؤولاً عن الاهتمام بالكلب حتى كاد يموت. قرّرت الجماعة ترك المكان، لكنهم أبقوا بعض قطع اللحم هنا وهناك، في مكان استراحتهم. وبعد أن ابتعدوا قليلاً عاد المزونغو متسلّلاً، فدخل الأجمة وتوغّل فيها مقترباً من خلف قرود البابون. كان حذراً، وكان يسير خفيةً كأنه أسد. كانت القرود منشغلة ببقايا اللحم، تتقاتل على تلك القطع بخشونة لا تستطيعها إلا القرود. انتظر المزونغو خلف أجمةٍ كبيرة، وراح يراقب. «كوا تراتيبو أولي مزونغو أكالينغا»، قال الرجل مخاطباً المستمعين. سدّد الرجل الأبيض بندقيته بكلّ عناية، فقتل أكبر عددٍ استطاع قتله من تلك القرود الغبية. قتل نحو عشرة منها.

قال فومفراتي: «لقد كان ذلك الرجل مزونغو حقيقياً».

تساءلت عمّا قد يعنيه هذا التقييم غير المباشر لي. قلت له: «صِفْ لي الرجل!».

قال: «ميناندي. هكذا كان اسمه. رجلٌ ضخم، رأسه مثل صخرة، له سنّان هكذا...». أشار بإصبعه.

صحيح... لقد قالت لي السيّدتان اللتان كانتا في الإرسالية إن مايناردكان هنا في طريقه إلى موشي (جندي كعهده دائماً) لرؤية ما يفعله الألمان في مستعمرتهم.

لكن هذا لم يكن كل شيء. كان الجدول يخبّئ لنا ما هو أكثر من تذكّر ذلك الحدث المروّع. اقترب منا قرويّان عندما كنّا نستعدّ للذهاب: شابّ معه رجلٌ أكبر منه. أظنّهما كانا يراقباننا من مسافة، بعض الوقت، ظنّاً منهما أنني آتٍ من أجل تحصيل الضرائب. وبعد كثيرٍ من البربرة غير المفهومة بسواحيلية مكسرة ومزيج من اللغات المحلية، تمكّن الرجلان من توضيح

طلبهما. كانا يريدان من البوانا -أنا- قتل ثعبان جاء إلى هذه المنطقة. قلت لهما إنني واثق من قدرتهم على قتل الثعابين. لكن المزونغو لديه بندقي (بندقية). ثم إن حيوانات البرية كلّها تخشى المزونغو.

وهكذا، ذهبنا بحثاً عن ذلك الثعبان. كان ذلك سيراً غريباً محيّراً عبر الأجمات. كان من معي يردّدون: «دودو... دودو... - دودو - دودو...». سألت فومفراتي عن سبب ذلك. فلماذا يقولون دودو (حشرة)؟ أجابني: «يريدون خداع الثعبان وجعله يظن أن المزونغو يبحث عن حشرة».

لماذا يتوقعون أن يفهم الثعبان اللغة السواحيلية؟ ولماذا يمضي رجلٌ أبيض خلف حشرة مسلّحاً ببندقيته؟ لم أبالِ بطرح هذين السؤالين. توقفنا أخيراً. كنّا عند نوعٍ من حدٍّ فاصل: تصير النباتات كثيفة أمامنا ومعها أشجار صغيرة متناثرة في المنطقة. قلت: «ماذا؟». أشار أحد القرويين إلى الأرض تحت واحدة من الأشجار، فرأيت الثعبان يزحف في اتجاه الأجمة القريبة من غير استعجال. كان ثعباناً كبيراً حقاً - تبلغ ثخانته نحو تسعة إنشات. بدأ القرويان يحدثان ضجة لجعل الثعبان يعود أدراجه، في حين راح فومفراتي يقول لي: «أطلِق!». أطلقت النار مرّتين.

قضت ضربات العصي والهراوات على آخر ما كان لدى الثعبان من قدرة على المقاومة. وأخيراً، سحبوه ومدّوه على الأرض أمامنا، فظهر انتفاخ بطنه بفعل فريسته الأخيرة. شقّوه بمهارة شديدة (شقاً طولانياً حتى يمكن سلخه في وقت لاحق) وأخرجوا من بين أحشائه اللزجة التي لا تزال نابضة شيئاً كان صدمةً كبيرة لي، شيئاً يجعلني أرتجف، حتى في هذه اللحظة. لقد كان رضيعاً بشرياً.

توقفنا في قريتين أُخريَين كانت في ثانيتهما قضية طويلة عن أب وابنه. أثبت فومفراتي أنه شخص لا غنى عنه في هذه الرحلة. لقد كان كشّافاً

في رحلات كثيرة، وكان منجماً للمعلومات. وكان من معي من حمّالين وعسكري يُظهرون احتراماً لسنّه وتجربته، ولفطنته أيضاً. يستطيع كثيرٌ منهم أن ينشد أغنية، وأن يقود الجماعة خلف أغنيته عبر الغابة والمناطق العشبية؛ لكن فومفراتي هو صاحب الحكايات. ففي الأمسيات، عند النار، يواصل سرد قصصه الطويلة التي بدأها في الليلة الماضية ويغيّر (على ما أظن) في الحبكة وفي الشخصيات. وفي المسافات الطويلة، يستطيع إشغال أذهان الرجال عن أحمالهم، وعن وخزات الجوع والحرارة الشديدة، بذخيرةٍ عجيبة من القصص الغريبة. وما من عجب في أن الناس كانو يحيّونه كما يحيّون صديقاً عندما وصلنا إلى تافيتا. استغرق طريقنا ثلاث ليالٍ وما يربو قليلاً عن نهارين اثنين.

***

في تافيتا، جعلوا كوربين يرى المقبرة الراقدة في ظلٍّ وسكينة سماويين بين الأجمات. رأى هناك قبرين أوروبيين مبنيَّين على هيئة ضريحين. أخذوه أيضاً إلى الموقع الذي أقام فيه المستكشف تومبسون مخيّمه. من هنا، يبدو جبل كليمنجارو أكثر قرباً. علم كوربين أن جدولاً تحت الأرض يأتي من ناحية الجبل ويحيط بالبلدة. رأى من قمة التل حيث أقيم مركز الإرسالية حزاماً أخضر من نباتات كثيفة على امتداد ذلك الخط المائي. يظهر الماء على سطح الأرض أول مرة على شكل بحيرة في فوهة بركانية اسمها تشالا؛ وهي واقعة في التلال الغربية. ثم ينفجر ينبوعاً بعد ذلك، ثم يشكّل بحيرة دجيبي قبل أن يتابع جريانه صوب سلسلة جبال باري الواقعة في المنطقة الألمانية. قيل له إن ماينارد استكشف هذه المنطقة قبل سنتين. كان المقرّ الحكومي في تافيتا خالياً الآن، لكن مفوّضاً إقليمياً مساعداً كان في طريقه إليه. أقام كوربين في البلدة أربعة أيام استمع خلالها إلى

شكاوى السكّان والتماساتهم، ووزّع الرواتب، ثم أمر بتنظيف البلدة في اليوم الأخير.

وفي طريق العودة، عرّجوا لرؤية الموقع الذي تبجّله الأساطير المحلية، بحيرة تشالا الوادعة الراقدة في بقعة محصورة بين التلال والجبال. اصطحبهم إليها شابّان من الماساي صادفوهما في الجوار. فهم الشابّان مرادَهم من غير أيّ كلام، فتقدّماهم في دربٍ صاعد بين أجمات خشنة في أحد التلال. كان وصولهم إلى قمة التل مفاجأةً حقيقية، إذ وجدوا أنفسهم ينظرون إلى مشهدٍ باهر في الأسفل: بحيرة زرقاء من تحتهم، صافية كالكريستال، وموجات صغيرة تترقرق فيها؛ وعلى مسافة بعيدة من خلفها، يرتفع الجبل الضخم ذو القمة المكسوّة بالثلج الذي يغذّيها. كانت في يد كلّ واحدٍ من شابَّي الماساي عصا طويلة، ابتسما لكوربين ابتسامة عريضة، ثم راحا يهبطان السفح ويقفزان من أجمةٍ إلى أخرى مقتربَين من الماء. كان صوتاهما الفتيان يخترقان الهواء بحدّة. شعر كوربين بشيء من التوتر، وأحس بأنه مجبر على اللحاق بهما، ثم وقف في منتصف الطريق متردّداً. توقف الشابان في انتظاره، ثم رمى أحدهما عصاه إلى المزونغو، فتناولها كوربين مذعناً وتابع النزول خلفهما.

جلس مقرفصاً عند ضفة البحيرة، واستمرت جلسته تلك لحظة طويلة تحت السماء الصافية. كان ينظر إلى حافة الماء النظيفة المتعرّجة وإلى الأرض ذات الانحدار الحاد من حولها... يتنفّس الهواء البارد، ويحسّه متراقصاً على جلده. نسي كلّ شيء آخر. كان مكاناً ذا جمالٍ فريد، مكاناً مطمئناً في وحدته التي لا يعكّرها أحد. أحسّ أنه جاء إلى موقع بدء الخليقة نفسه.

5

ما كان ممكناً تخيُّلُ تناقضٍ أكبر مما رآه بين سرّ الطبيعة ذاك، بحيرة تشالا التي كأنها قطعة من الجنة، والهرج والمرج السائدين في نيروبي التي صنعها البشر؛ نيروبي حيث وجد كوربين نفسه -من غير توقّع، لكن ليس من غير رغبة- بعد أسابيع قليلةٍ من رحلته تلك. ففي عزلته، كان كثيراً ما يحنّ إلى القيام بغزوة، وإن تكن وجيزة، إلى الحياة الأوروبية في نيروبي. لقي طلبه بالتقدّم إلى امتحان اللغة في العاصمة، وفي المثول أمام الإدارة هناك، قبولاً لدى هوبسون، المفوّض الإقليمي في فوي، على الرغم من أنه اعتبره نوعاً من التراخي من جانب كوربين.

وصل إلى المدينة في الصباح السابق في بداية «أسبوع السباقات في نيروبي». قالت السيدة آنثوورث لكوربين، مع التماعة في عينيها: «إن نورفولك، وكورز، وإمباسي، النوادي كلّها -كلّ شيء في نيروبي- محجوزة حتى آخر مكان منها. يمكنك أن تقيم في بيت الضيافة عندنا، إن لم يكن لديك مانع!».

قالت ابنة أختها آن: «عليه أن يفعل هذا!».

قال: «هذا لطفٌ كبير منكما!».

كانت الفتاة نابضة بالحياة.

كانت إدوينا آنشوورث وابنة أختها قد جاءتا إلى محطة السكة الحديدية من أجل اصطحابه. وكان في طريقة ملبس آن شيءٌ طفولي ساحر، لكنه غريب تماماً – تنورة السفاري ذات الجيوب والحزام الجلدي مع قراب المسدس، والياقة وربطة العنق، والقبّعة ذات الحافة العريضة.

قالت السيدة آنشوورث لابنة أختها بنبرة معابثة: «قلت لك إنه سيعرف هذا الزيّ!».

لقد عرفه، بالطبع؛ عرف فيه زيّ الأميرة أميليا الذي رآه في الصور التي نشرتها الصحف مؤخراً لرحلة الصيد الملكية. كانت آن صغيرة الجسم، مثل الأميرة، وكان شعرها منحدراً في طيّاتٍ ذهبية من تحت قبعتها.

قال لها متلطّفاً: «إنه يناسبك أكثر!»؛ فسُرَّ الجميع.

وأما السيدة آنشوورث، فكانت أكبر حجماً، متوسطة الحجم، امرأة. لقد ارتدت فستاناً عريضاً ووضعت على رأسها قبعة تيراي المزدوجة بشريطها الأحمر المعتاد لكي تقيها حرارة الشمس. قالت له وهم يصعدون إلى العربة الخفيفة: «لم يستطع جاك القدوم معنا. سوف يلتقينا في وقت لاحق». كانت على مقربة منهم جماعة أكبر حجماً تضع أمتعتها في عربة يجرّها بغلان ويقودها رجلٌ ضخم منتعل حذاء ركوب الخيل. كان الرجل يلوّح بسوط طويل. قالت آن: «إنه عمر خان. هو من جنوب إفريقيا. شخص لا غنى عنه أبداً في هذه المدينة».

كان كوربين على تواصل منتظم، من خلال الرسائل، مع آل آنشوورث منذ أن التقاهم في مومباسا أول وصوله إليها. وعندما كان يخطط لهذه الزيارة، سألهم ما إن كان يستطيع رؤيتهم لأن علاقته بهم كانت ضمن هذه الحدود، لا أكثر. وأما أن تأتي السيدتان للقائه بدلاً من إرسال موظف صغير أو عامل في متجر، فقد كان لطفاً فاق توقعاته.

قال لنفسه إن هذه عاصمة المنطقة، حيث يعيش الحاكم. ومن هنا، يرسل الحاكم والسكرتاريا الأوامر إلى المفوّض الإقليمي في مومباسا، الذي يوجّهها إلى رئيس كوربين المباشر، الذي هو مفوّض المنطقة في فوي. هذه هي «هناك، فوق»، أو «موقع الربّ»، بالتضاد مع «هنا، تحت» أو «موقع الدودة»، موقع مفوّضي المناطق المساعدين المتدنّي. كانت من حولهم على الطريق عربات «حمّالي» من النوع الذي يُجَرّ باليد، وعربات أكبر يقودها أشخاص في عمائم يتودّدون إلى ركابها بلهجة عامية هندية، وعربات ريكشا لها أجراس مجلجلة ينادي من يقودونها على المسافرين أو يصيحون طالبين إفساح الطريق لهم. كانت هناك بضع سيارات أيضاً.

كان جاك آنثوورث، زوج إدوينا، مهندساً مدنياً بقي في البلاد بعد انتهاء العمل في السكة الحديدية؛ وقد صار الآن مالكاً لجزء من شركة آنثوورث وماسون التي تستورد قطع التبديل للآلات. وكانت آن الابنة الصغرى لواحدة من أخوات إدوينا. أتت حتى تمضي عطلة هنا، ثم قرّرت البقاء.

كان آل آنثوورث يعيشون في بيت قائم على رقعة أرض مساحتها أكران. وعلى غرار كثيرٍ من البيوت حديثة العهد، كان ذلك البيت ذا مظهر رماديّ بارد، وكان مبنيّاً بالحجر الذي بدؤوا الآن يستخرجونه من المقالع. بيت رابض على الأرض، محترم لكنّه كالح المظهر، خاصة في صباحات نيروبي الضبابية الباردة. درجات حجرية منحدرة إلى الممرّ المفضي إلى البيت، مروراً بظلّ شجرة ضخمة تقف تحتها سيارة الفورد؛ وعسكري في بدلة كاكية اللون وطربوش أحمر، لكن من غير حذاء، يقوم بالحراسة من موقعه في أعلى تلك الدرجات.

بعد جولة من التنس، وكأس من الشراب، ودور أو اثنين من لعبة البريدج، وخدم يدلّلون المرء بشاي الصباح، ورائحة البيض المقلي مع البيكون، وقرقعة فناجين الصيني وكؤوس الكريستال، وجولة أخيرة من

البراندي أو النبيذ، وفراشٍ طريّ أعدّته بعناية أيدي خدم مدرّبين... بعد هذا كلّه، صار ليل إفريقيا يبدو وديعاً مروّضاً إلى أقصى حد. ثم إن المرء يظلّ قادراً على إلغاء ذلك الليل بضغطةٍ واحدة على مفتاح كهربائي. لكنّه قال في نفسه إن في هذه «الإنكلترا الصغيرة» في إفريقيا شيئاً يبدو أشبه بالاحتيال، احتيال كامن في هذه الخدع المختلَقة، وشيئاً من الهشاشة أيضاً. على أنه قيل له إن هذا كلّه يمكن أن يصير حقيقياً عبر الاستمرار فيه والإصرار عليه، مثلما حدث في أميركا. فقط، لو أن هناك إمكانيةً لحكمٍ ذاتي. قبل عشر سنين، كان هذا كلّه أجماتٍ وأعشاباً جافة. كان الماساي والكيكويو يتجوّلون نصف عراة. وأما الآن، فهم مستعدّون لارتداء بدلات فضفاضة مستعملة من التويد، إن استطاعوا.

لم تكن نيروبي، بل حتى نيروبي البيضاء، مجتمعاً متجانساً. وقد قال أحد الظرفاء معلّقاً على الفضائح التي صارت المدينة معروفة بها، فدعاها مجتمعاً «مربّعاً». في أحد زوايا هذا المربّع، تقف السيدة هوريس التي هي صاحبة بيت الدعارة، (وعرّافة أيضاً)، وفوق هذا من الممكن دفع المال لها لإقامة جلسات تحضير الأرواح. وُضعت فتياتها السوريات في قطارٍ راحل، وكانت نيروبي تستعدّ لاستقبال فتياتٍ يابانيات من المتوقّع وصولهنّ قبل أسبوع السباقات. وفي الزاوية الأخرى زبائنها من موظفي السويّة المنخفضة في الخطوط الحديدية، والبائعون، والجوّالون، والصيادون والكشّافون خارج فترات عملهم. وفي الزاوية الثالثة من ذلك المربّع الاجتماعيّ الأرستقراطيون القلائل ومَن يتحلّق حولهم من المتزلّفين لهم ويشاركونهم المقالب البريئة في فندق نورفولك. وأخيراً، هناك كبار المسؤولين من أمثال أينثوورث، ووايت هاوس، المسؤولين عن القسم الأكبر من تطور نيروبي، ومعهم رجال الأعمال المحترمون من أمثال آنثوورث.

ذهب كوربين لحضور بعض جلسات المحاكم برفقة آن التي كانت تكتب، من حينٍ إلى آخر، عموداً صحفياً فكِهاً يتناول الحياة الاجتماعية ويحمل عنوان «طريقنا».

4 نيسان 1914

... لورد مقيم في المنطقة أطلق النار على واحدٍ من خدمه، لأنه وضع كريما فاسدة على الفطائر المحلّاة. وقسّ يسوعيّ صادر ممتلكات المتحوّلين إلى دينه، صادرها باسم الكنيسة حتى يختبر إخلاصهم وإيمانهم. ومزارع جعل خادماً له يتلقّى خمسين جلدة إلى أن فقد الوعي، وذلك لأنه أكل أرزاً كان في المطبخ ثم أنكر ذلك. وآخر يقيّد عماله من آذانهم المثقوبة مما سبّب لهم عدوى قتلت واحداً منهم. وشقيقان من لندن يبحثان يائسين عن قبري أبويهما في حين يتركان الأرض من غير استخدام... وهكذا دواليك. لا يزال الناس هنا يتذكّرون قضية ماينارد بشيء من المرارة.

... ذهبتُ مع آن إلى السينما الجديدة – مكان اسمه غارفيز. لكن الفيلم احترق، فخرجنا مسرعين وسط صيحات الاستنكار وقذف الزجاجات الفارغة.

***

كان في المدينة عددٌ من الشبّان ممّن «وضعوا عيونهم» على آن. كان يصادفهم على العشاء أو في الحفلات الراقصة في «نادي نيروبي» الجديد؛ وكان بادياً عليهم كلّهم أنهم مستعدّون للارتماء عند قدميها. وقد كانت أعجوبة (هكذا قالت إدوينا لكوربين بوضوح) أنّ آن ليست مخطوبة بعد. لا «تنجو» من مومباسا أيّ فتاة تأتي من إنكلترا... ولا تصل إحداهن إلى

العاصمة إلا بعد فترة من انقضاء شهر عسلها. وحدها آن من بقيت صامدة -ابتسمت المتحدّثة لضيفها- لكن صمودها لن يطول.

سأل كوربين السيدة آنثوورث: «هل تمانع آن عيش حياتها بعيداً عن المدينة... تقريباً، في مكان ناءٍ؟».

تلقّت سؤاله بنظرة امتنان، وقالت: «آن! إنها فتاة غير عادية. إنها مغامرة. هذا سبب وجودها هنا. إن كنت تسألني، فإن هذا المجتمع مُضجِرٌ لها!».

كان يجد آن ذكيةً جذابة – بل لعلّها أيضاً فاتنة بعض الشيء. كانت طبيعتها التلقائية تكملةً لطيفة لطبعه المتحفّظ؛ وكان واضحاً أنها تحبّ رفقته. لكن من الواجب التفكير مليّاً قبل الإقدام على أيّ خطوة في اتجاه الزواج. وعلى الأقل، لا بدّ من موافقة المفوّض الإقليمي.

خلال أسبوع السباق، خيّمت فوق نيروبي غمامةٌ دائمة من الغبار الذي تثيره الخيول والعربات والسيارات. وقد عمد زوّار كثيرون إلى إقامة خيامهم، بكلّ بساطة، في أيّ بقعة أرض خالية. وفي «تيرف كلَبْ» الذي تزيّن بالأعلام والرايات، اجتمع أناسٌ من القبائل كلّها لمشاهدة سباقات الخيل ومباريات البولو. في أماكن أخرى من المدينة، كانت تجري مباريات التنس والكريكت وصيد الأسماك وقتال الديكة والمقامرة والملاكمة. وخلال ذلك الأسبوع، في كل مكان على ما كان يظهر، كانت الفرق الموسيقية التابعة للشرطة ولِـ«فوج الرّماة الإفريقي الملكي»، تضيف إلى الأمر كلّه لمسةً تزيينية، إن لم نقُل إنها لمسة موسيقية.

كان قد عرّج على مقرّ الحكومة في وقت سابق، وقدّم اسمه في السجل الرسمي. وتقدّم إلى امتحاني اللغتين السواحيلية والهندوستانية. كما أن مقابلته مع الحاكم (في منتصف أسبوع السباق) مضت على نحو جيد. وقبل رحيله، اتفق مع آن على تبادل الرسائل.

استقلّ قطار العودة المزدحم الذي ساده جوٌّ احتفاليّ، فوصل إلى فوي وأمضى بقية الليلة في فندق «داك بنغالو» حيث شاركه الغرفة مزارعٌ سويسريّ وشابّ من جنوب إفريقيا. وفي اليوم التالي، سار إلى كيكونو يرافقه عددٌ من العسكري الذين قدّمهم إليه مفوّض المنطقة.

رحّبوا به ترحيباً حاراً عند عودته، ففوجئ هذه المرة (هو العائد الآن من المجتمع الأوروبي) بكم كان هذا المكان موطناً بالنسبة إلى الهنود والسواحيليين الذين عقدوا العزم على العيش فيه... مكان ما كان في نظره أكثر من محطّة مؤقتة له. ما كان قادراً على تخيُّل المستقبل الذي يحلمون به لأنفسهم ولأطفالهم.

في أول يوم بعد عودته، تناول طعام الغداء عند الموخي في سقيفة في الفناء الخلفي؛ وكان الأطفال والنساء يسترقون النظر إليهما. لكنه صار الآن يعرف أطفال ذلك البيت بأسمائهم؛ وصار الأطفال يأتون إليه عندما يناديهم.

وعده المفوّض المساعد في فوي بأن يختار له خادماً جيداً. وفي أثناء ذلك، كان طبق التشاباتي لا يزال يظهر عند بابه كلّ يوم خميس، في ليلة الجمعة المباركة.

لم تمضِ إلا أيام قليلة حتى صارت نيروبي تبدو له بعيدة من جديد كأنها منتمية إلى عالم ناءٍ، مثلها مثل لندن أو براغ، إلى عالم لا صلة له به إلا عبر الذكريات والصحف. لكنه سرعان ما تلقّى من ذلك العالم أوّلَ رسالةٍ آتية من آن وإدوينا. على أن مدى بعده عن المدينة التي غادرها قبل فترة وجيزة صار واضحاً إلى أقصى درجات الوضوح بفعل الحوادث التي أعقبت ذلك.

6

8 أيار 1914

هبطت هذه الظلمة المفاجئة من السماء. تململت شجرة المبويو في الخارج، وعوى بوانا تيم. في هذا الغسق الذي يدعوه الشامسي «الماغراب»[†]، الغسق المحمل بدلالات غامضة واحتمالات مخيفة. إنه وقت الصلاة، أو وقت قريب منه: الغروب، الساندِيا. المصباح المعلّق من عارضة السقف فوقي تهزّه نسمة خفيفة افترضتُها موجودة، ويقلق الظلال. شيء غريب... لولا النبرات الصارمة والصوتان القويّان للمبشّرتين الآنسة إيليوت والسيدة بيلي في المطبخ.

كانت لي في هذا اليوم مواجهة محزنة جداً مع «معليم»[†] -المعلّم الذي هو أيضاً طارد الأرواح الشريرة- مواجهة أخشى أنها تعني أيضاً مواجهة قسم كبير من البلدة.

هذا ما حدث:

كانت الساعة قد اقتربت من الساعة العاشرة صباحاً، عندما خرجت حتى أتجوّل قليلاً كما هي عادتي، وتركت نحو نصف أصحاب الشكاوى والالتماسات ينتظرونني. تحدّثت قليلاً مع تشاغبار، بائع الأدوية، الذي أتتني شكوى من وصفاته قدّمها أبٌ غاضب. حذّرت الرجل من قلة الانتباه

(استجاب لهذا بالقول إن هذا الأب لا يعرف مؤخّرته من رأسه)؛ ثم عدت أدراجي معتزماً السير حول البلدة. عند مروري بمسجد السواحيلي، سمعت صراخاً مخيفاً آتياً من خلف بيت واقع إلى جانب المسجد. توقفت هناك؛ وبالتأكيد، سمعت صوتاً حاداً مهدِّداً ثم صراخ طفل من جديد (ظننته وقتئذٍ صراخ طفل). لكن الصرخة كانت مكتومة هذه المرة. ثم سمعت صوتاً آخر، صوتاً جعله الغضب خشناً. أكتب هنا، بأفضل ما أستطيع، كلّ ما سمعته:

«أونايندا؟» (هل ستذهب؟).

لهاث، وصوت صفير صادر عن سوط، وصرخة، وبكاء أجشّ رقَّ حتى صار عويلاً متوسّلاً يشقّ القلب.

«دجي؟ أومي مواامازا... أونايندا؟» (أنت صامت... هل ستذهب؟).

«نديووو!» (أجل!).

ضربة سوط، ثم عويل.

«مبونا ويوبو!» (لماذا أنت باقٍ هنا؟).

ضربة سوط.

«نايندا! نايندا بابا! نايندا!» (سأذهب! سأذهب!). تحوّل العويل إلى نشيج خفيض.

لست أدري كيف حدث هذا، لكني تركت الشارع فصرت في الفناء الخلفي لذلك البيت. أدهشتني رؤية أن تلك الصرخات، وذلك الزعيق، والردود الواضحة القوية على الأسئلة الموجّهة بصوت مرتفع كانت كلّها آتية من مصدر واحد: الفتاة مريامو. كانت جالسة على كرسيّ ممسكة بشعرها بكلتا يديها الاثنتين مطرقة إلى الأرض في حالة إعياء تام. كانت قدماها حافيتين؛ وثوبها ممزّق عند ظهرها. كانت تتلقّى الضربات. رأيت

المعليم العجوز، طارد الأرواح، مرتدياً كانزو وغطاء رأس، واقفاً فوقها محملقاً فيها بنظرة غاضبة وفي إحدى يديه عصا طويلة يضربها بها، وعلبة من صفيح في يده الأخرى. كان صوته هو الصوت الذي سمعته من الخارج يطرح الأسئلة على الفتاة. سحابة من دخان البخور تتصاعد من مجمرة موضوعة على الأرض أمام الفتاة كانت قد ملأت المنطقة كلها. كان رشيد، زوج أم الفتاة، وخالها الموخي، وأمّ الفتاة نفسها (بدا لي أنها ممسكة بكتاب مفتوح أمام المعليم)... كانوا كلهم واقفين يتفرّجون، لكنّهم تنحَّوا جانباً عند ظهوري.

ما الذي يقوله قانوننا في هذه الحالات؟ صرخت من غير تفكير: «مهلاً!»، فتوقف المعليم عما كان يفعله وهمّ بالانصراف. بحزم، لكن ليس من غير شيء من الاحتراس، أخذت من العجوز عصاه وعلبته. كان في العلبة فلفل أحمر مطحون. تطايرت محتوياتها صوب وجهي -أقسم إنها لم تتطاير من تلقاء نفسها- فأحسست بالاختناق وعطست. سمعت العجوز يقول لي: «لا تعبث بشيء لا تفهمه!».

في ثورة غضب، جعلت الفتاة تنتقل إلى الغرفة الاحتياطية عندي، تلك الغرفة التي كانت لثوماس. ثم بعثت برسالة عاجلة إلى مركز الإرسالية، فخفّت المرأتان على الفور إلى مساعدتي.

هكذا استقرّ الأمر.

في نظر القانون، كان ما رأيته جريمة؛ وما كنت قادراً على التغاضي عن تلك الجريمة. لكني اصطدمت بما كان واضحاً أنه ممارسة مقبولة يشارك فيها أفراد محترمون في هذه البلدة. ومن الممكن أن ما أظهره لي المعليم من تحدٍّ وقلة احترام كان بداية حالة من العصيان. لقد صارت سلطتي موضع اختبار. وبالتأكيد، صارت سمعتي في الإرسالية موضع اختبار أيضاً. كان عليّ تقرير الوجهة الملائمة للتصرّف.

أصاب الفتاةَ نوعٌ من الهستيريا منذ قليل، وسمعت إحدى السيدتين توجّه إليها ما بدا كأنه صوت صفعتين قويتين، فصاحت الفتاة صيحةً مجفلة، كأنها فوجئت، ثم هدأت.

***

فوق ما أصاب كوربين من أرق تلك الليلة، بدأ صوت طبلٍ يتردّد في مكانٍ ما في الظلمة: قرعٌ متطاول رتيب جعله يصاب بالغثيان وبتعرّق شديد، فراح يتقلّب من غير أن يجد راحة، وظلّ ينتظر مجيء النوم. هل كانوا يحاولون إفزاعه، أو يستدعون الأرواح حتى توقع به الأذى، أم يتلاعبون بأعصابه المرهقة؟ نامت امرأتا الإرسالية مع الفتاة في الغرفة الاحتياطية. لم يعرف متى أتاه النوم، لكنه لم يأتِ إلا بعد كأس من الويسكي القوي. ثم استيقظ فوجد نفسه على الأرض إلى جانب سريره، ووجد الآنسة إيليوت في الغرفة وقد أتت إليه بطعام الإفطار. كانت الشمس ساطعة في الخارج؛ وكانت الأصوات اليومية المعتادة، الداعية إلى الاطمئنان، آتية من أسفل التلة. بدا له أن أسوأ ما في الأمر قد انقضى.

وفي ذلك الصباح، أخذت المرأتان الفتاة معهما إلى مركز الإرسالية. كانت الآنسة إيليوت تقودها بثقة ممسكة بيدها.

كان لا بدّ لوجود فتاة من الشامسي بين أيدي المبشّرتين المسيحيتين أن يأتي بالموخي إليه. وبالفعل، أتى جمالي في تلك الأمسية لرؤية كوربين.

بدأ الموخي كلامه:

«بوانا كوربين!».

«ماذا يا موخي؟!».

«يا سيدي... ابنتنا... أخذتها المرأتان اللتان في الإرسالية... هذا أمرٌ غير ملائم أبداً». بطبيعة الحال، كان يشير إلى «ابنة الجماعة»، ابنة أخته.

«لم أرَ قطّ أن ابنتكم تتلقّى معاملة حسنة، يا موخي!».

«بوانا كوربين... أنت لا تفهم... اعذرني! لم تكن هي المقصودة، بل شيطاني[1]، روح شريرة. وكان لا بدّ من جعل شيطاني يخرج منها».

«هل تؤمن بهذه الأشياء... الأرواح؟».

«بالطبع، بوانا. الجميع مؤمنون بها!». قال هذا ثم دمدم بشيء ما.

«عفواً، ماذا قلت يا موخي؟!».

تلا الموخي بالعربية كلماتٍ من كتاب المسلمين، ثم ترجمها له: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، والجان خلقناه من قبلُ من نار السموم».

قال الموخي إن الفتاة كانت في حالة ميئوسٍ منها. إن لها تصرّفاتٍ غريبة منذ زمن بعيد. تخرج لكي تغتسل في النهر وقت الغسق، أي في الساعة التي يخرج فيها شيطاني. وعندما كانت طفلة، كانت تتسلق شجرة المبويو المعوجّة... كفّ الشيطان. أشجار المبويو مسكن للشيطاني. فهل يعرف السيد كوربين عدد العبيد الذين ماتوا تحت شجرة المبويو الصغيرة قبل سنين كثيرة مضت، وقت المجاعة؟ كانت القوافل تستريح في ذلك المكان. وكان الأسرى ممن ساءت حالتهم كثيراً يُتركون لكي يموتوا هناك - لحمٌ تأكله الأسود والضباع. إن شجرة المبويو المعوجّة تلك تمثّل آلامهم. وهي تؤوي أرواحهم. بعضها أرواحٌ طيبة، وبعضها أرواح شريرة. وقد وقعت الفتاة تحت تأثير تلك الأرواح.

عندما يدخل شيطاني رأسها، تصير كأنها نمرة... هذه الفتاة العاقلة. تهاجم أمّها وتشتمها. تأكل كأنها شيطان. ولا يستطيع أحد أن يكلّمها ويجعلها تهدأ من جديد غير رشيد، عامل النقل، زوج أمها. وهذه حالة مستمرة منذ شهور كثيرة.

قال الموخي: «لكن... وأما هذه المرة، عندما كان بوانا كوربين في نيروبي...».

«ماذا حدث؟».

كان بوانا كوربين ينتظر سماع تتمة الحديث.

ذات مساء، تماماً بعد بداية الصلاة الطويلة، تلك الصلاة المشتملة على تلاوة أسماء الرب، انطفأت المصابيح في المسجد. ساد المكانَ صمتُ الموت. أصوات الناس والحيوانات وطقطقة الحطب في النار... توقفَت كلّها. وفجأةً، جاء رنينُ ضحكٍ حادّ. توقّف الضحك. واستؤنفت الصلاة، واستؤنف ذكرُ أسماء الرب: سمكة، سلحفاة، الرجل الأسد، راما(*)... وبعد انتهاء الصلاة، اكتشفوا أن كلّ مصباح في البلدة قد انطفأ، أو خفت ضوءُه. أصابهم الخوف، لكنهم واصلوا حياتهم المعتادة.

ثم تكرّر الأمر في الليلة التالية: وصلوا في تلاوتهم إلى الرجل الأسد – صرخة! نهضوا واقفين، وهرعوا إلى الخارج جميعاً. كان بعض الناس قد جروا في اتجاه الصوت. خفتت أنوار المصابيح من جديد. وجدوا الفتاة في بيتها. كانت جالسةً على الأرض فاتحةً عينيها على اتساعهما؛ وكانت تضحك ضحكاً هستيرياً، غير لائقٍ أبداً. أتى زوج أمها لمساعدتها، لكنّها ردّته ردّاً وقحاً.

اقتضى الأمر تدخُّل أشخاص كثيرين من أجل السيطرة عليها. عند ذلك فقط، طُلب من المعليم أن يتدخّل وأن يأتي ليسعفها.

جرّب الرجل كل ما لديه من أساليب لشفائها. صلوات... مراهم. وكان ما رآه بوانا كوربين الحلّ الأخير الذي اضطرّوا إليه. كان حلّاً طلب معليم الإذن قبل أن يبدأ به، وحذّرهم من أن تضعف قلوبهم.

(*) يبدو هنا أن في معتقدات جماعة الشامسي عناصر هندوسية واضحة. (المترجم).

وقد تمكّن العجوز من إخراج ذلك الذي غزاها. «أدعو الله أن يبقيه بعيداً عنها، الفتاة موشكة على الزواج!».

قال مفوّض المنطقة المساعد للموخي بصوت خالٍ من أيّ تعبير: «هذه المعاملة... غير قانونية».

وقف الرجلان صامتين.

قال كوربين في نفسه إن الفتاة موجودة لدى المبشّرتين. ومن الممكن أن يحاول هؤلاء الناس إثارة ضجة انطلاقاً من هذه الحادثة.

«فلننتظر! ولندع الفتاة في الإرسالية بعض الوقت ريثما تشفى. وبعد ذلك نرى... سوف نتركها!».

لم يكن الموخي راضياً تماماً، لكنّه قبل بالانتظار.

سأله كوربين بحذر: «وماذا عن قرع الطبول في الليل؟ هل كان هناك احتفال في إحدى القرى؟».

«صحيح، يا سيدي. روح أخرى. أنت ترى يا سيدي... كان أهل القرية يطردون شيطان الحمّى. إنها فتاة أخرى تعاني معاناة فظيعة».

«وهل هي بخير الآن؟».

«لا شك في هذا!».

ظلَّ كوربين زمناً طويلاً ينظر إلى الباب الذي خرج منه الموخي. ما الذي كان جارياً في القرية؟ لعلّه لن يعرف هذا أبداً. هل هو شيء يجيزه القانون البريطاني؟ لا، على الأرجح. أحسَّ ضيقاً وعجزاً، وأحسّ أنه غير واثق مما ينبغي فعله. حوّمت في رأسه فكرةٌ قاتلة، لكنه لم يستطع التقاطها ولا تبيّنها - أحسَّ أن هذا شيء أكبرُ من قدرته. تنهّد، ثم سجّل ملاحظة عادية: الإدارة تسير سيراً حسناً؛ لكن... كيف يكون التعامل مع أشباح ثقافة أخرى؟

أتاه الموخي مرّاتٍ كثيرة خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك؛ أتى لرؤية كوربين وللمطالبة بإخلاء سبيل الفتاة.

سأله كوربين مرة: «ماذا لو كانت غير راغبة في العودة؟».

أجابه جمالي: «أنت تمزح، يا بوانا! إنها ابنتنا!».

وفي آخر المطاف، طلب مفوّض المنطقة المساعد من جمالي أن يذهب إلى الإرسالية على رأس وفد من الأشخاص، من بينهم والدة الفتاة، حتى يروا بأنفسهم كيف صارت حالتها. وإذا أرادت العودة معهم، فلهم أن يأخذوها. قال له كوربين إن عليهم أن يظهروا امتنانهم لأن الفتاة سعيدة هناك. عليهم أيضاً أن يؤكّدوا للمبشّرتين أن تلك الحادثة لن تتكرّر أبداً. وأما جانبه، فقد بعث إلى المبشّرتين برسالة يتعهّد فيها بأن تكون الفتاة بخير؛ وأضاف إنها مخطوبة وسوف تتزوّج عما قريب.

وهكذا، جرى إخلاء سبيل مريامو.

7

الظاهر أن الأمطار قد توقّفت. وأن سحر الجفاف قد حلَّ عليهم. وأمام مكتب المفوّض المساعد، كان علم المملكة المتحدة على ساريته يخفق خفقاتٍ قصيرةً متقطعة... كان حسّاساً لأدنى حركة للهواء المحيط به. وفي الأسفل كانت بلدة كيكونو ترقد هادئةً وقد أصابها الهمود بفعل قيظ هذه الساعة من فترة ما بعد الظهر.

هدأت التوترات التي أعقبت قصة مريامو. انتهز كوربين ذريعة مناسبة، فجعل فرقة الشرطة تؤدي استعراضاً في البلدة. سُرَّ الأطفال بذلك، وتذكّر الناس أن هناك قوة مهيمنة، لكنّها كريمة، بين ظهرانيهم. وفي مباراة لكرة القدم، تقبّل «فريق الحكومة» هزيمته من قبل فريق السكّان المحليين (لم يمرّ حديث كوربين مع الرقيب خلال وقت الاستراحة من غير أن ينتبه إليه أحد). وصار الغرامافون الجديد الذي أتى به مفوّض المنطقة المساعد من نيروبي يبثّ الموسيقا بعد الظهر: يجلس عسكري مع الآلة تحت شجرة المبويو المعوجّة أغصانها، ويشغّل أسطوانتين، على التناوب، لكي يستمع إليهما الجمهور المسرور الجالس بهدوء أمامه على الأرض. وأخيراً، جاء طارد الأرواح العجوز، المعلّيم، ليزور كوربين... لم يأتِ معتذراً تماماً بقدر ما أتى لكي يعبّر عن احترامه؛ وهذا ما كان الأمر نفسه، في الحقيقة.

حدّث المعليم بوانا كوربين عن «طُرقِ أسلافنا» عندما كان الناس يعيشون بسلام، قبل زمن طويل من مجيء الأوروبيين، وكانت العائلات تحيا حياةً ليس فيها شقاء، وكان الكبار موضع احترام. لم يجرِ التعرّض لِذكر حادثة طرد الأرواح الشريرة من الفتاة. اقترب بائع القهوة مقرقعاً بفناجينه الخزفية (افترض كوربين أن أحداً جعله يتخذ تلك الوجهة) فتلطّف مفوّض المنطقة المساعد وقبِل ضيافة المعليم. وبعد ذلك، لملم العجوز أطراف الكانزو ونهض واقفاً، ثم وعد بأن يعطي كوربين بعض الدروس في الكتابة العربية في وقت لاحق، وذلك حتى يصير قادراً على القراءة. رافقه مفوّض المنطقة المساعد حتى الباب، وهناك قال له المعليم وهو يومئ برأسه وينظر إليه نظرة حادة: «وسوف أشفيك أيضاً، ذات يوم!»، ثم سار خارجاً وراحت أطراف الكانزو ترفرف من خلفه. ابتسم كوربين ابتسامةً راضية. لقد كان سعيداً. كلّ شيء على ما يرام. تمكّن من تفادي وقوع أزمة. هذا هو معنى الإدارة. كتب إلى آن رسالة حدّثها فيها عن هذا الأمر.

***

إلى الغرب من كيكونو، خلف الأجمات التي تشكّل حدوداً طبيعية للبلدة، ثمة غابة صغيرة كان كوربين قد رآها من فوق تلة الإرسالية التبشيرية: امتداد أخضر داكن، ماضٍ نحو الشمال متتبّعاً جدولاً موسمياً. إنّ في تلك الواحة قرى للسكّان المحليين؛ لكنّه لم يزُرها قطّ. كان القرويون يأتون إلى البلدة بانتظام لحضور الاحتفالات وشراء المؤن، وكانوا يجلبون معهم الضرائب المترتبة على أكواخهم. راودته نفسه أكثر من مرة بأن يغيّر اتجاهه ويذهب صوب ذلك المكان الأخضر الصامت المتميّز عن هذا المشهد العام الذي يسوده غبارٌ أحمر وأجمات شوكية. لكن شيئاً كان يحدث في كلّ مرة فيجعله يذهب إلى مكان أكثر بعداً. إلا

أنه أذعن اليوم لإحساسه الغريزي فوجد نفسه سائراً صوب تلك الغابة. كانت أصوات الطبول الغامضة في الليل آتية من ذلك الاتجاه؛ وقد برهنت له أخيراً على أنه عاجز عن مقاومتها.

اجتاز منطقة الأشواك الواقعة خلف خط البيوت التي من بينها مسجد السواحيلي، ثم أدرك بعد قليل أنه سائر على دربٍ رسمته الأقدام. كان العشب أكثر طولاً وأشد خضرة؛ وكانت الأرض طرية، منحدرة انحداراً خفيفاً متدرّجاً. إلا أن الشمس في الأعالي كانت شديدة القسوة على شخص بلغ به الطيش حدّاً جعله يترك الظل في رابعة النهار. انتهى الدرب فجأة؛ ولم يسر بعده أكثر من خطوات قليلة حتى وجد نفسه داخل الغابة. داهمته أحاسيسُ كثيرةٌ في وقت واحد. الظل ذو البرودة اللطيفة المنعشة، وجذوع الأشجار الطويلة الساكنة من حوله، صفوف أشجار لا نهاية لها ممتدة أمامه، وصمتٌ بلغ من عمقه أنه صار يسمع دقّات قلبه وتردّد أنفاسه. لم يحسّ أن لتلك العتمة حدّاً إلا بعد أن نظر إلى الأعلى، فرأى طيوراً مرفرفة وأوراقاً متراقصة، ورأى ضوء الشمس المتسرّب عبر تلك الخضرة.

سار بضع خطوات؛ وكانت الأوراق والعساليج تتكسّر تحت قدميه. تساءل في نفسه عندما رأى حرباء أمامه ما إن كان عليه أن يعود أدراجه. تساءل أيضاً ما إن كان عليه أن يجلب معه بندقيته، أو مرافقاً على أقل تقدير. ثم توقف وقد انشدّت أذناه إلى صوت ماء جارٍ. تقدّم في اتجاه ذلك الخرير الذي صار الآن أكثر وضوحاً وأكثر طمأنةً للنفس، كأنه شيء حيّ. بلغ جدولاً سريع الجريان فيه ماءٌ بنيُّ اللون مندفع بين ضفتين منحدرتين. في هذا المكان، حيث تتوقف الأشجار لكي تسمح للجدول بالمرور، كان ضوء الشمس يسقط عمودياً ويتشظّى نتفاً متلألئة على صفحة الماء. هناك عدة طرق لعبور المجرى: حجارة كبيرة موضوعة في نقاط ضحلة؛ لكن

بلوغها متعذّر من غير نزول الضفة المنحدرة. وإلى الأعلى قليلاً، تصير الضفتان أكثر ارتفاعاً وأكثر تقارباً. في هذا المكان، كان جذع شجرة ملقى فوق الجدول بحيث يصل بين الضفتين. اجتاز ذلك الجذع بثلاث خطوات. سار مسافة أخرى في الغابة إلى أن بلغ فرجةً بين الأشجار فيها قرية. خمّن أن صوت الطبول الذي سمعه منذ بضعة أسابيع فأقضّ مضجعه كان آتياً من هذا المكان.

رحّبت به صيحات «جامبو»[†] و«شيكامو»[†]، وقُدِّم إليه كرسيّ ليجلس عليه، وحليباً ليشربه. في الأرض الخالية بين البيوت، كانت نساء في ملابس من الخانغا[†] منهمكات في العمل؛ وطفلان يحبوان على الأرض ويلعبان معاً. مرّ أمامه قطيع ماعز في عهدة صبيَّين شبه عاريين يحمل كلٌّ منهما رمحاً وترساً. جلبوا إليه الموز والمانغو لكي يأكل، لكنه اعتذر. كانوا قد وضعوا الكرسي في الظل، فاجتمع حوله سربٌ من البعوض جعله ينقل الكرسي ويضعه في الشمس. أتى رجل كبير السن وانحنى له، ثم جلس على الأرض عند قدميه وسأله ما إن كانت معه سيجارة. وصل بعض الشباب مبتسمين ابتساماتٍ ودّية وسألوه عن السبب الذي جعله يأتي إليهم. قال لهم كوربين إنه أتى لكي يطّلع على أحوالهم. تحدّث مع الرجال بالسواحيلية فقالوا له إن الحمى قد أصابت القرية. سألهم ما إن كانت لديهم «مغانغا»[†]، معالِج، لكي يشفي المرضى. ابتسموا. قال إن عليهم أن يأتوا إلى مكتبه للحصول على دواء. قال لنفسه إن عليه أن يطلب الكينين من مبشّرتَي الإرسالية، وأن يكتب إلى مومباسا طالباً إمداده به. لم يكن يعرف ما توقّع أن يجده هنا؛ فقد بدا له كلّ شيء طبيعياً تماماً مثلما بدت له عشرات القرى التي زارها. ولكن... قرع الطبول في الليل! من الواضح أن للحياة هنا طبقاتٍ لا يستطيع النفاذ إليها، طبقاتٍ مخفيّةً عنه قصداً. نهض آخر الأمر لكي يذهب، بعد أن أدرك أنه أطال البقاء. وعندما

استدار ليتخذ طريق العودة رأى اثنين من العسكري آتيين لملاقاته. انزعج قليلاً، لكن ارتياحه كان كبيراً أيضاً.

مع خروجهم من منطقة الأجمات الشائكة واقترابهم من بداية البلدة -كانوا الآن مسرعين بعض الشيء- ظهر شخصٌ من خلف صفّ البيوت وتوقّف على مقربة من الجامع. إنها مريامو. لم يرها منذ إخلاء سبيلها من الإرسالية. لم تنظر إليه عند مروره. بل أدارت رأسها المغطى إلى الجهة الأخرى، تماماً مثلما تقتضي الحشمة.

صار الآن سائراً في خطٍّ موازٍ لصف البيوت. صارت الفتاة خلفه. وبحركة شقاوة مفاجئة، التفت إليها وهي غير منتبهة فالتقت عيناه عينيها. كانت منتصبة القامة، وقد سقط الباتشيدي[†] الأحمر إلى كتفيها كاشفاً عن شعرها الطويل الكثيف الأسود؛ وكانت عيناها داكنتين عميقتين... متشرّدة لها هيئة الملكات رفضت أن تشيح بوجهها مرة ثانية.

وعندما وصل إلى منزله، وجد الموخي الذي لا يعرف تعباً واقفاً في انتظاره، وفي جعبته اقتراح.

«عصفوران بحجر واحد، بوانا، مثلما يقول المثل». أومأ جمالي برأسه تأكيداً لفكرته الذكية... «ستصير مريامو مدبّرة منزلك وستطهو لك طعامك - بل هي حتى أفضل من توماس. لقد تعلّمت عدة لغات: السواحيلية والهندية والبنجابية والكوجاراتية. ستنام في المطبخ، في الخارج. وستظل عندك حتى يأتي ذلك الشاب، بيبا، فيأخذها معه... بمشيئة الربّ!».

كان كوربين موافقاً تمام الموافقة. ثم إنه سيصير الآن مسؤولاً عن الفتاة. فكما قال جمالي، ما الذي يمكن أن يكون ترتيباً أفضل من جعل الفتاة مدبّرة منزل البوانا كوربين، القادر على حمايتها دائماً؟ قال الموخي إن زواج الفتاة قد تأجّل كثيراً نتيجة مشكلاتها مع الأرواح. وأما الآن،

فسيكون الزفاف بعد خمسة أسابيع. ومن الأفضل أن تبقى، حتى ذلك الوقت، في مكانٍ لا يذكّرها بما أصابها من تعاسة وشقاء. سُرَّ كوربين بهذه النتيجة، فهي تعبير عن أن أهل البلدة قد جدّدوا ثقتهم به. انصرف جمالي وهو يفرك كفّيه مبتهجاً بأنه أفضل من يستطيع النجاح في حلّ المشكلات. ابتسم ابتسامة عريضة عند العتبة، وقال مشيراً إلى تأخّر زواج كوربين: «ربما يكون دورك في دعوتنا إلى العشاء، المرة القادمة!»، فاحمرّت وجنتا الإنكليزي.

كان الموخي مُحقّاً في ما قاله عن مهارة مريامو في إعداد الطعام، وذلك على الرغم من أن البيت الذي يسكنه مفوّض المنطقة المساعد وحده كان أقلّ مما يلزم لإظهار مواهبها كلّها. لم تنم الفتاة في المطبخ، بل في الغرفة الاحتياطية.

7 حزيران 1914

وسادتان. ستّ علب من الكيك (بالزبيب). أربع علب من لسان الثور. بسكويت الشوفان. نصف دزينة ويسكي. علب مربّيات -كفى استغلالاً لمريامو- لتكون توسعة لموارد مفوّض المنطقة المساعد ولمطبخه.

فطور للوجهاء المحليين يوم الأحد - الماندازي[†] والبازي[†] اللذان تشتهر بهما منطقة الساحل. أسماك. فاكهة.

11 حزيران

البائسة المسكينة! صار لديها الآن بيت مؤقّت قبل أن يأتي ذلك الحيوان خطيبها ويأخذها... لست أعرف كيف أفهمها - الفتاة المندفعة التي تجاوزت العسكري وتكلّمت معي مباشرة، ثم الفتاة الصامتة التي تترك

لي طبق المربّى أيام الخميس، ثم الفتاة التي أذلّها سوط المعليم، والفتاة المعتزّة بنفسها التي ترفع رأسها المكشوف عالياً وتنظر إليّ مباشرة... والآن، مدبّرة المنزل الحييّة الهادئة. أيّهنّ هي مريامو الحقيقية؟!

***

سمع حفيف ملابس، فرفع رأسه عن مفكّرته. فوجئ عندما رآها جالسة على الأرض، عند الباب المفضي إلى ما خلف المنزل. كانت تنظر إليه باهتمام وقد أراحت ذقنها على قبضة يدها فوق ركبتها المرتفعة إلى الأعلى. الباتشيدي ساقط عن رأسها. رفعته من جديد، وأشاحت بوجهها، لكنها لم تنهض.

لم يعرف أول الأمر ما يقوله لها، لكنه لم يلبث أن ابتسم بخجل وقال: «ماذا ترين؟».

«أنت تكتب رسائل كثيرة».

قال: «بعض الرسائل، لكني أكتب أكثرها لنفسي».

«لنفسك!».

«نعم، بالطبع. في هذا الكتاب». نقر بإصبعه على مفكّرته.

ابتسمت، ثم نهضت واقفة.

قال لها: «هل تأتين لي بماء للشرب؟».

جلبت له كأس ماء. أدارت وجهها عنه عندما كان يشرب.

صار هذا موعداً منتظماً، طقساً؛ وصار يترقّبه. بعد عشاء مبكر وجولة في الخارج، كان يدخّن غليونه ثم يجلس ليكتب. عندئذٍ، تظهر الفتاة كأنها جنّيّة (أهناك جنّيّات إناث، بحسب كتاب الموخي؟).

«ماذا تكتب اليوم؟».

«أكتب أنك فتاة طيّبة».

«لكنك أمضيت وقتاً طويلاً في الكتابة».

كان طبيعياً أن تخشاه وتخجل منه بسبب مركزه، ولأنه رجل أيضاً؛ لكنها صارت جريئة بعد أن انفتح تجاهها. ولعلّ السبب أيضاً هو أنه شخص أجنبي. فاجأته هذه الصلة التي نشأت بينهما، بل أفزعته قليلاً؛ لكنه كان مستمتعاً بها.

لم يحدث قبل الآن أبداً أن تكلّم مع شخص من عرقها مثلما يتكلّم معها الآن. سألها عن نفسها، وسألته عن نفسه. وشيئاً بعد شيء، بقليل من التردّد أول الأمر، باح كلٌّ منهما للآخر بقصص من ماضيه... قصص من تلك التي يستطيع الآخر فهمها.

قالت له إن أمها شقيقة الموخي. وقالت إن أباها مات في مومباسا، فرتّب خالها تزويجها من رجل من كيكونو لم يلبث أن اتضح أنه كارثة. كان زوج الأم عاملاً في الخطوط الحديدية هرب من عمله، ثم لم يتوقف يوماً عن الحلم بالعودة إلى موطنه الأصلي: البنجاب.

سألته: «ألا تفكّر في موطنك؟».

كانا يتكلّمان بالسواحيلية -بسواحيليته المكسرة- وأيضاً بالإيماءات والإشارات؛ فكانت هناك حالات سوء فهم مضحكة.

23 – 24؟ حزيران

... وجدت نفسي أشرح لها الخريطة السياسية لأوروبا -البلدان، واللغات- وأستعين ببعض المقارنات الفجّة. فكيف أشرح لها سبب مجيئي إلى هذا المكان وتركي أرض الأحلام تلك قادماً إلى هذه الظلمة حيث يلقي مصباح الكيروسين ظلالاً طويلة لنا على الجدران، وحيث

عواء الضباع ونعيب البوم في الخارج... هنا، حيث لا يوجد أحدٌ من بني قومي؟ قلت لها إنني أتيت لمساعدتهم، لمساعدة شعبها. بدت حائرة! إذاً، جئت إليكم بناء على أوامر من سلطاني. تمكّنت الفتاة من فهم هذا.

***

كانت تحدّثني عن زوج أمها...

إنه من يدعونه سيمبا، أليس هو؟ رشيد، عامل النقل؟

ضحكت؛ وكان واضحاً أنها ضحكت لاستخدامي ذلك اللقب.

قالت إن زوج أمها كان عارفاً بأمر الأرواح. لقد رآهم يأتون على صورة سيمبا، أسود، عندما عمل في الخطوط الحديدية. ولأن رحلاته كانت تأخذه إلى أماكن كثيرة، فقد كان يعرف اللغات المحلية، وكان قادراً على الكلام مع الشيطاني الذي سكنها.

كانت أمها أكثر من يكرهه ذلك الشيطاني، وبعدها يأتي خالها جمالي، الموخي. لم تكن تعرف سبب هذا. كان الشيطاني يجعلها تقول لأمها أشياء قاسية، بشعة، ويجعلها تفعل أشياء شريرة. عندما يأتي الشيطاني، تجلس أمها إلى جانبها طيلة الليل، وتنادي أخاها الموخي لكي يأتي ويدعو لها. كتبت أمها رسائل إلى امرأة صاحبة كرامات في مومباسا وتلقّت منها أدعية كثيرة. اشترت تعويذات فيها آيات من القرآن، وصنعت لها أساور ترتديها. لكن الشيطاني كان قوياً جداً. أخيراً، وبعد موافقة الموخي، ذهبت والدة مريامو إلى المعليم الذي هو من غير جماعتهم.

سألها بلطف: «ما الأشياء الشرّيرة التي كنت تفعلينها؟».

خفضت عينيها وقالت: «ما تقوله الروح الشريرة لرشيد...».

أراد مرة إخبارها عن نيروبي، عن المدينة الكبيرة، فجعلها ترى بعض

الصور: سوق الخرز في شارع الحكومة؛ وصورته إلى جانب عجلة سيارة؛ وعربة د. ريبيرو التي يجرّها حمار الوحش؛ وآن وإدوينا على الشرفة أمام بيتهما، وجانبهما خادم مرتدٍ الكانزو.

قالت مشيرة إلى المرأتين: «هاتان والدتاك». لم يعرف ما إن كانت تناكفه بهذا. نظر إليها نظرة حادّة.

كانا ذات ليلة جالسين يتحدّثان، فسمع في الخارج صوتاً غير معتاد -خطوة متردّدة، فضول، شيء غير خطوات العسكري المطمئِنة- فخرج لكي ينظر. عندما فتح الباب، رأى رشيداً، زوج أمها، ينسلّ بعيداً، فصاح به غاضباً مهدِّداً إيّاه بإطلاق النار عليه. ثم عاد إلى الداخل مستغرباً، محرَجاً. كانت الفتاة قد فرّت من الغرفة.

وبعد عدّة أيام من ذلك، رأى زوجة الموخي تحوم حول البيت. قالت له: «إنها ليلة القمر الجديد. وليس لدى الفتاة ملابس مناسبة للذهاب إلى المسجد. أحضرت لها ما ترتديه».

بدت مريامو أكثر جاذبية عندما خرجت من غرفتها بعد ذلك. قال في نفسه إن غرابة الأقدار شاءت أن يكون حظّ بيبا الهمجي وافراً عندما اختار عروساً له. تناول كورين شراباً، ثم خرج حتى يسير وقت الغسق، فمرّ بالمسجد حيث كانوا يقيمون صلاتهم. فكّر في أن يعرض على الفتاة حمايته: إن وقعت في مشكلة، أينما أخذتها أقدارها، ففي وسعها أن تطلب مساعدته. لن يكون العثور عليه صعباً. عاد إلى منزله، وانتظر عودتها. لكن الساعة بلغت العاشرة ليلاً قبل أن تأتي، فذهب إلى فراشه.

استيقظ في تلك الليلة وهو يرتجف ارتجافاً مخيفاً فأدرك، في حالته المحمومة تلك، أن ما خشي حدوثه قد حدث. نهض من الفراش، وسار متعثّراً إلى الطاولة باحثاً عن الماء. وجد ماء فمزجه بالبراندي وشربه.

جرجر قدميه عائداً إلى فراشه، وارتمى عليه. ثم صحا بعد ذلك على إحساسٍ ببرودة منعشة فوق عينيه الحارّتين الموجوعتين؛ وشمّ الرائحة، وأحسّ بثقل جسد آخر على السرير. كانت مريامو تضع على جبهته كمّادات باردة.

نهض واقفاً على قدميه بعد يومين. كان لا يزال ضعيفاً، لكنّه شُفي من الحمّى، وكانت شهيّته واعدة بعودة سريعة إلى حياته الطبيعية، لكن الحمّى عاودته بعد سبعة أيام من ذلك. كانت مريامو ترى أن المزونغو الذي في عهدتها يتحوّل إلى شبح مصفرّ اللون، فاستدعت خالها الذي جاء وأتى معه بائع الأدوية أيضاً. رأى الرجلان أعراض حمّى البول الأسود(*)، فأعلنا النفير. جرى إبلاغ فوي، وطُلبت مساعدة مقرّ الإرسالية، فأتت السيدة بيلي وتولّت شؤون المنزل.

2 تموز 1914

... يقولون إن هناك قوى تم الاستنجاد بها من أجل شفائي... ومن هذه القوى البراندي الذي باركوه بآيات من القرآن...

جاء الموخي في الليل؛ وكان معه المعليم (متردّداً بعض الشيء). كانت للعجوز سلطة كبيرة - أُقصيتْ السيدة بيلي جانباً، من الناحية العملية؛ لكنها أفلحت في العودة وإقحام نفسها في الصورة إقحاماً. لقد قال لي الرجل إنه سيشفيني في يوم ما؛ وها هو ذا الآن... كتابه في يده. لم أكن مؤمناً بقواه، بطبيعة الحال... كان هذا شيئاً مقلقاً. جلس إلى جانب السرير وبدأ يجسّ نبضي، وأشياء من هذا القبيل، لست أعرف سبباً لفعله ذلك غير تشتيت انتباه السيدة بيلي التي ظلّت واقفة بصرامتها المعهودة تراقب كل ما يجري

(*) حمّى ناشئة عن مضاعفات الملاريا. (المترجم).

مراقبة وثيقة. كان وجهه من غير تعبير (جلد مجعّد كامد اللون كأنه جلد مدبوغ عتيق من تحت الكوفية البيضاء)، عدا عينيه السوداوين المتقدتين. لم يُشِر إلى لقاءاتنا السابقة. سرعان ما أومأ إلى الموخي الذي أخرج عدة أعواد من البخور وزّعها في أرجاء الغرفة. أثار هذا غضباً شديداً لدى السيدة بيلي، فقالت: «لن أقبل بهذا!»، لكن المعليم وضع يده بقوة على جبهتي مما اضطرّها إلى الانتباه تحسُّباً لاحتمال أن يؤذيني. وضع راحة يده الأخرى على كتاب مفتوح في حجره. أحسست بتلك اليد ثقيلة على جبهتي.

***

بدأ المعليم يتلو الصلوات بالعربية. وبعد أن انتهى، التفت ونظر إلى الموخي. بدا كأنه مأخوذ، كأنه بعيد. بدأ الآن يتمتم شيئاً بلهجة لم يكن الموخي نفسه قادراً على فهمها. كان يتحدّث بنبرة خشنة، حجري الوجه، ويده لا تزال ضاغطة على جبهة كوربين. عاد إلى نفسه آخر الأمر، وسمع الموخي منه كلمة يعرفها، «ماجا»، ماء، ورأى وجه المعليم يسترخي ويده ترتفع عن جبهة المزونغو. ذهبت السيدة بيلي لإحضار الماء. وفور خروجها، وضع العجوز كتابه جانباً برفق، وضعه على الطاولة إلى جانب رأس المريض. تناول زجاجة البراندي التي كانت على الطاولة، فأمسكها بين يديه وقرأ عليها بعض الآيات، ثم نفخ عليها قبل أن يعيدها إلى مكانها. عادت السيدة بيلي بالماء، فأخذه المعليم منها وقرأ عليه ثم قدّمه إلى كوربين. قالت السيدة بيلي بنبرة حادّة: «أعطِني الماء!». استجاب لها المعليم من غير اعتراض، فأخذت الكأس ووضعتها بعيداً بحركة حازمة، ثم قالت: «إنه ليس في حاجة إلى الماء الآن!».

بعد ذهاب الموخي والمعليم عقب إلقائهما نظرة أخيرة على المريض،

أسرعت السيدة بيلي فأزالت البخور، ثم أخذت كأس الماء فأفرغتها خلف البيت، في الظلمة.

أنَّ المفوّض الإقليمي المساعد عندما عادت السيدة بيلي. مدّ يده وقال: «براندي».

شرب البراندي راجياً الشفاء بالكحول وبما قرأه المعليم عليه.

8

ساعد مرض كوربين في تقريب المسافة بينه وبين المبشّرتين. وعندما رفض أن يُحمَل إلى مقرّ الإرسالية على نقّالة، قرّرت السيدة بيلي أن تبقى معه للعناية به، ثم تبعتها الآنسة إيليوت. ساعدتهما مريامو وأطالت بقاءها أسبوعاً إضافياً قبل أن تذهب إلى بيت خالها لكي تستعدّ للزفاف.

أقام الشامسي لمريامو حفل زفاف متكاملاً. ارتدت فستاناً طويلاً أخضر وباتشيدي أخضر: تطريز ونقاط برّاقة، وترتر. اكتست يداها وقدماها بالحنّة على شكل رسوم دقيقة خاصة بالزواج. كانت تتلألأ وترنّ وهي تسير وتتحرّك. كان الفستان والباتشيدي هديّة من جماعتها؛ وأما القرطان والخلاخيل والعقد المصنوع بدقة، فقد كانت كلّها مستعارة من الشامسي. كان ذلك بادرة جماعية وجدها كوربين مؤثّرة كثيراً. وحدها تلك الحلية اللامعة الصغيرة على أنفها كانت ملكاً لها؛ وقد بدت قليلة الشأن بالمقارنة مع بقية زينتها. الوجه الشاحب المخضّب بالحمرة محاطاً بإطار من الشعر الأسود -أهكذا تبدو ملكات الشرق؟- البدر يعانق الليل... تذكّر قراءة هذه العبارة في مكان ما؛ لعلّه قرأها عند فيتزجيرالد(*). كان في ذلك عنصر

(*) فرنسيس سكوت فيتزجيرالد (F. Scott Fitzgerald): روائي أميركي، من أشهر أعماله «غاتسبي العظيم». (المترجم).

مبالغة، عنصر ابتعاد عن الواقع في الأمر كله؛ لكن الموخي قال إن هذا أول حفل زفاف تعرفه البلدة، مما يعني أنه مناسبة خاصة جداً.

حان وقت صلاة العشاء في مسجد الشامسي. كان الجميع جالسين على الأرض في مواجهة الموخي، باستثناء مفوّض المنطقة الإقليمي الذي وقف بالباب. كان يعرف أن دخول المكان غير جائز له، لكنّه أصرّ على الوقوف هناك والنظر إليهم بعناد لم يجدوا له حلاً. قرأ الشيخ السواحيلي «النكاح»[†] بالعربية، ثم وقّع العريس والعروس على السجلّ، وكتبت مريامو اسمها مثلما علّمتها كتابته الآنسة إيليوت خلال إقامتها القصيرة في الإرسالية. وبعد أن أعلن الشيخ زواجهما، وقف الجميع لتهنئة العروسين وتمنّوا لهما حياة جديدة سعيدة. رأى كوربين العريس الضخم بعمامته وبدلته واقفاً إلى جانب عروسه الرقيقة، لكنه بدا له كأنه قد صَغُر أمام تلك التجربة، فقال في نفسه إن من الممكن أن يكون فيه شيء حسن... ألم يمتدح الموخي مشروعه التجاري؟

وفي ما بعد، جلس العروسان على كرسيّين في الخارج بالقرب من شجرة المبويو الصغيرة، لكن ليس تحتها تماماً. كانت الشجرة مزيّنة بأوراقٍ ملوّنة وقد تدلّت من أغصانها بضعة مصابيح. وإلى جانبي العروسين، امتد صفٌّ من كراسيّ منفردة لجلوس كبار السن وأفراد العائلة. على الأرض القاسية أمامها، رسمت النساء (في وقت سابق) خطوطاً هندسية بالدقيق الملوّن؛ ومن خلف تلك العلامات الجالبة حسن الطالع، جلس بقية الضيوف مقابل العروسين. تلقّت العروس الهدايا من وفدٍ مكوّن من رجلين قادمين من موشي يمثّلان عائلة العريس وجماعته؛ ثم تلقّى العريس الهدايا من عائلة العروس. وكانت تلك المناسبة قد جذبت كثيرين ممن يعيشون في الجوار، حضرت الزفافَ المبشّرتان الإنكليزيتان أيضاً. وبعد ذلك، قُدِّم طعام العشاء، وكانت الشربات وافرة من غير حساب. قُدِّمت

الموسيقا من خلال غرامافون السيد كوربين أول الأمر؛ ثم ظهر هارمونيوم وطبلة ودهول[†]، وبدأت حفلة موسيقية مرتجلة.

جلست سيدتا الإرسالية في وقت لاحق من المساء مع كوربين في شرفة منزله، وأمضى الثلاثة الوقت في أحاديث صغيرة وفي تناول البراندي. وأما العريس والعروس، فقد رافقهما موكبٌ من المحتفلين إلى البيت الصغير الذي جرى ترتيبه من أجلهما، ثم تفرّق المدعوون. لكنّ البلدة ظلّت محتفظة بذلك الجوّ الاحتفالي. ظلّت المصابيح مضاءة في المتاجر؛ ولعلّ الرجال ظلّوا جالسين فيها يلعبون الورق. ومن حينٍ إلى آخر، كانت تُسمع نتفٌ من أحاديث، وموجةٌ أو موجتان من الضحك. انطلقت أغنية، ثم توقّفت.

عبّرت الآنسة إيليوت عن أسفها لأن الفتاة لم تبقَ تحت تأثيرها. قالت: «كانت مادّة ممتازة للتحوّل إلى المسيحية». لكن كوربين الذي كان يدخّن غليونه طرح رأياً مفاده أنه قد يكون من الأفضل لها أن تظل مع جماعتها. أجابت الآنسة إيليوت: «هل أنت متأكد؟... ليس من الأفضل أبداً لأحد أن يرفض إلهنا!». وافقتها رفيقتها موافقة حماسية.

لم يكن لدى كوربين ما يقوله رداً على هذا، فغرق الجميع في الصمت. وبعد هنيهة، سألهما عن أخبار ثوماس.

لم تُجِبه أيٌّ من المرأتين أول الأمر. نظرت إحداهما إلى الأخرى التي كانت جالسة تحدّق في الظلمة.

قال كوربين: «آمل ألا يكون هناك شيء سيّئ!».

أخيراً، تخلّت السيدة بيلي عن تأمل الليل، والتفت إلى رفيقتها قائلة: «جين، علينا أن نخبره!».

أجابت الآنسة إيليوت: «أخبريه أنت!».

تبيّن أن توماس كان ينظر بشهوة إلى الآنسة إيليوت. قلقت المرأتان؛ لكنهما أملتا أن يتغيّر الرجل. ثم، في صباح أحد الأيام، بينما كانت الآنسة إيليوت ترتّب الزهور في الكنيسة، فاتحها الهندي بالأمر واقترح عليها الزواج. اقترح ذلك بطريقة مشينة جداً. لكن هذا لم يكن كلّ شيء. لقد أُلزِمَ الرجل مكانه، بالطبع؛ لكن، «فرخ الشيطان» أقدم بعد ذلك على إغواء فتاة متحوّلة إلى المسيحية، إذ قال لها إنه لا خلاص إلا للنساء اللواتي يجامعهن مسيحيّون حقيقيون.

دمدمت السيدة بيلي: «قال لها شيئاً عن الماء المقدّس».

غصّت الآنسة إيليوت بشرابها، واحمرّ وجهها احمراراً شديداً.

خفّ كوربين إلى نجدتها فقال: «أنا آسف لأنني تركته يربط نفسه بكما. إن لديه أسلوبه في التملّق تجاه من...».

قالت السيدة بيلي: «لقد طردناه، بطبيعة الحال. ونحن حريصتان على إبقاء عيوننا وآذاننا مفتوحة تحسُّباً لأن يسبّب مزيداً من الضرر!». قالت هذا وارتعدت.

سألت الآنسة إيليوت مظهرةً أنها تجاوزت الأمر: «أتظنّ أن حرباً ستندلع في أوروبا؟».

كانت هناك شائعات في مومباسا ونيروبي تسرّبت إلى فوي. وكانت تلك الشائعات تتحدّث عن تردّي المناخ السياسي في أوروبا.

قالت السيدة بيلي: «الحرب محتملة الآن مثلما كانت محتملة من قبل، إن أردتما رأيي. لا يحدث الآن أيّ شيء غير معتاد».

قالت رفيقتها: «أوه، لكن هناك شيئاً غير معتاد؛ القتال في صربيا، والتعبئة العامة...».

«أيّ تعبئة عامة؟».

«هناك شائعات».

قال مفوّض المنطقة المساعد: «على أيّ حال، تكاد لا توجد لدينا جيوش للقتال في إفريقيا. أستطيع أن أؤكّد لكما أنه ما من استعدادات جارية للحرب مع جيراننا».

عادوا إلى الداخل جميعاً، واستعدّوا للنوم.

لقد تعلّم مفوّض المنطقة المساعد قياس عمق هدوء الليل من خلال وضوح ما فيه من أصوات غير بشرية: نعيب بومة، أو عواء ضبع، أو همس أوراق الأشجار. رقد في فراشه وبدا له أن البلدة التي في عهدته قد هدأت ونامت أخيراً وقبلت، مرة أخرى، معانقة الهدوء.

لكن صرخة حادّة انطلقت في تلك الليلة، صرخة بشرية تماماً، تلتها صيحاتٌ غاضبة نصف مكتومة كأنها آتية من بيت فُتح بابه؛ ثم أتت أصوات حركة ووقع أقدام، وصوت حركة شخص واحد على الأقل يقترب صاعداً التل حتى يبلّغ عمّا يحدث (كما تكون الحال دائماً عند وقوع حادث).

خرج كوربين إلى الشرفة وأخذ معه المصباح الاحتياطي. اقترب عسكري في الظلمة وقال: «الفتاة، بوانا!». غار قلب مفوّض المنطقة المساعد. انحدر مسرعاً عبر الدرب ولحق بالناس الذين هرعوا راكضين إلى المكان الذي يفترض أنه البيت المخصّص للعروسين على مقربة من مسجد السواحيلي.

سار مخترقاً الحشد الصغير الذي تجمّع هناك إلى أن لم يبقَ أمامه إلا بضعة رجال. لمح الموخي واقفاً بالعتبة يوبّخ شخصاً في الداخل، ثم رأى كوربين أن ذلك الشخص كان بيبا. كان العريس الذي تزوّج قبل ساعات فحسب واقفاً يهزّ رأسه من جانبٍ إلى آخر بحركة معبّرة عن إنكار شديد. رأى بيبا كوربين فخطا صوبه خطوة متوعّدة، لكن الموخي اعترض طريقه.

كان الشابّ المرتدي سروالاً تحتياً وقميصاً فقط يبكي. دفعه الموخي إلى الداخل بلطف، ثم استدار إلى كوربين، «أرجوك، يا سيدي، اذهب! ليس الآن!». أغلق الباب من خلفه. سار كوربين مبتعداً ببطء وصعد التل عائداً إلى بيته.

جاءه الموخي في وقت مبكر في الصباح التالي. وقف حاملاً طربوشه بيده، وقد ارتسم على وجهه تعبير تردّد وألم. أمال رأسه جانباً كمن يستفسر عن شيء.

كان مفوّض المنطقة المساعد جالساً إلى الطاولة وأمامه فنجان شاي. لم تكن امرأتا الإرسالية موجودتين.

قال كوربين: «والآن يا موخي، قل لي... ماذا كان موضوع تلك الضجّة؟ هل غيّر الصبي رأيه؟».

«بوانا. أمرٌ سيئ جدّاً! مصيبة!».

«ماذا حدث؟».

«وماذا أقول، يا سيدي؟ يقول الفتى إن الفتاة غير طاهرة. لقد مسّها أحد!».

«وكيف تعرف...»؛ بدأ كوربين يقول هذا بحماقة، ثم توقف وحدّق في الرجل.

قال الموخي: «ما العمل؟».

تابع الإنكليزي تحديقه فيه.

«ما العمل؟ يا سيدي، إن زوج الأم يقوم الآن بنشر السموم؛ والفتى في حالة حزن شديد... إن لك سمعة طيبة، يا سيدي...».

«ما علاقة سمعتي بالأمر، يا موخي؟».

«سامحني، بوانا! لكن رشيد يقول إن الفتاة أمضت ليلة في فراشك!».

24 تموز 1914

أنكرتُ اتهامات زوج الأم أشدَّ إنكارٍ ممكن. لا بدّ من مراقبة هذا الرجل تحسُّباً من احتمال إقدامه على تصرّفٍ سيئ. وقد قلت هذا للموخي. عندما انصرف الموخي رأيت الآنسة إيليوت آتية عبر الشرفة. كانت عائدة من نزهتها. دخلتْ الغرفة فور التقاء نظراتنا. لا أعرف منذ متى كانت هنا. سرعان ما أتت السيدة بيلي من الغرفة الاحتياطية، وبدأت المرأتان تناقشان احتياجات المركز التبشيري بطريقة شبه رسمية.

***

لم يُقَل بعد ذلك شيء عن تلك الاتهامات. قلّل مفوّض المنطقة المساعد من ظهوره بين الناس، وقدّم طلباً للذهاب في إجازة. سرعان ما ستكون الفتاة مع زوجها في طريقهما إلى موشي في الشرق الألماني.

لكن الحرب أتت قبل ذلك.

مقاطع متفرّقة (I)

من المفكّرة الشخصية لبيوس فرنانديز
نيسان 1988، دار السلام

هكذا تنتهي مفكّرة كوربين، ويظلّ فيها أكثر من أربعة شهور من الصفحات الخالية. وبقدر ما هو معروف، لا وجود لأيّ مفكّرة أخرى لآلفرِد كوربين. وما من شيء يشير إلى أن ذلك الإنكليزي قد أودع الورقَ ملاحظاتِه وأفكارَه بعد ذلك (إلى أن نشر مذكّراته، بعد خمسة عقود، بعنوان: «القلب والروح»؛ فكانت سرداً مقتضباً -إن لم نقل سرداً من غير روح- يغطّي عقوداً كثيرة من خدمته في مناطق كثيرة في ستّ مستعمرات).

لكن الحكاية لا تنتهي هنا، بالطبع، فثمّة أسئلة باقية. ومثلما يفعل المحقّق، لا بدّ لي من تتبّع الخيوط ومن الكشف عن صلاتها واحتمالاتها كلّها، ثم نسجها معاً. فما المؤرّخ إن لم يكن محقّقاً؟ لكن لا، فالدافع أقوى من ذلك! سوف أتتبّع الآثار التي تركتها تلك المفكّرة مثلما يفعل الكلب عندما يتتبّع رائحة الدم. كثيرٌ منها آثارٌ دامية... فالدم هو ما يدوم!

الأسئلة: ماذا يمكن أن نفهم من إنكار بوانا كوربين تورُّطه مع الفتاة مريامو؟ وماذا جرى لها في السنين التي أعقبت ذلك؟ وما الأفعال الشريرة

التي جعلها زوج أمها ترتكبها، رشيد الذي يُزعم أنه قادر على التواصل مع أرواح الأُسود؟ وكم مرّة انتقلت هذه المفكّرة من يدٍ إلى أخرى قبل أن تصل الآن إلى يدي؟ وماذا عن أولئك الناس جميعاً ممن تمسّ المفكّرة حياتهم؟

ليست المفكّرة صوتاً ضائعاً في البرية. هناك شهود. فكّر في اسم، في مكان، في زمن، وسرعان ما تجد أن هناك شهوداً يخطرون في ذهنك - أولئك الذين يعرفون المكان، أو الشخص، أو الزمان، وأولئك الذين مرّوا بهذا كلّه أو كتبوا عنه، والذين تلقّوا رسائل، ومن تحدّثوا عنهم، ومن سمعوا قصصهم.

لديّ دروبٌ كثيرة يمكن الاختيار بينها. وما من دربٍ يطابق درباً غيره مطابقة تامة؛ وما من دربٍ يعود تماماً إلى النقطة التي انطلق منها. إلى حدٍّ بعيد، لا يكون الدرب الذي يختاره المرء مصادفةً صرفاً. وعلى نحو مماثل، لا بدّ أن هناك نزوعاً مسبقاً يقرّر اختيار الدرب. وبما أنني أعرف هذا، فأنا أعتبر نفسي قد تلقّيت الإنذار. وفي آخر المطاف، القصّة ملكٌ لمَن يرويها؛ إنها لي.

مراسلات

تورنتو، 25 آذار 1988

عزيزي السيد فرنانديز:

يسعدني اقتراحك وما جاء فيه؛ فلطالما كنتُ (كلّما سنحت لي فرصة) ضد افتقارنا إلى الحسّ التاريخي. (ألقيتُ في الآونة الأخيرة كلمةً بهذا المعنى كان عنوانها «ما لا يُلحَظ لا وجود له». إنها فكرةٌ مسروقة، ومعدّلة،

من علم الفيزياء). لقد أخذتني أبحاثي الخاصة، الأبحاث التي جعلتني أسافر إلى تورنتو، صوب تبيان أن البهاجان (الأناشيد والتراتيل) التي تعتبر ملكية حصرية لجماعة دينية ما، مع نسبتها إلى منبعٍ بعينه، تكون في الواقع منتمية إلى وسط ما، إلى شيء جمعي... فكّر في ما يفعله هذا بالناس الذين يعتبرون كلّ كلمة مقدّسة! وبالفعل، لقد ارتسمت خطوط المعركة بين الأكاديميين وأصحاب التقليد (أيجرؤ أحدٌ على تسميتهم أصوليين؟). يُعقَد في لندن بعد أسبوع مؤتمرٌ دوليّ في شأن هذه المشكلة الشائكة التي ما كان أحد يحلم بها عندما قالوا لنا أن نثقّف أنفسنا.

سوف أرسل إليك المزيد من لندن بعد أن أنظر إلى ما يمكن أن يكون في المكتبات عن ذلك البوانا في المستعمرات الذي أنت مهتمّ به.

مع التحية!

سونا

***

لندن، 9 نيسان 1988

عزيزي السيد فرنانديز:

تأسّس مشروع جامعة أوكسفورد لسجلات الحقبة الاستعمارية في سنة 1963. وقد طُلب من المسؤولين السابقين في المستعمرات، أو من عائلاتهم، إيداع السجلّات الشخصية الخاصة بسنوات خدمتهم في مكتبة رودوس هاوس. قُدِّم القسم الأكبر من المادّة تبرّعاً. فالمكتبة مهتمّة بمحتوى تلك المواد -بل إن صوراً عنها تفي بالغرض- مما يعني أنهم لا يدفعون إلا القليل، أو لا شيء، مقابل المفكّرة الموجودة عندك. وأما إذا كانت مفكّرة شاعر شهير، فإن الأمر يكون مختلفاً. لكن، مجرّد بوانا عادي في المستعمرات، في هذا الوقت الذي صارت فيه الإمبراطورية

ذكرى محرجة! إنني آسف لأن عليك أن تنقل هذه الأخبار المحبطة إلى من أعطاك المفكّرة.

وأيضاً، في شأن المادة المتعلّقة بالسير آلفرِد كوربين، يؤسفني القول إن أولئك البوانا لم يكتبوا الكثير - أو إنهم لم يتبرّعوا بموادّ ذات محتوى متميّز. لم تقدّم عائلة كوربين أيّ محتوى شخصيّ. وبالطبع، هناك سجلّات للمراسلات الرسمية (رسائل من الحاكم إلى سكرتير المستعمرات، وأسعار زيت الفستق، ...إلخ)، لكنّها تكاد لا تحتوي على شيء شخصيّ ولا على شيء من الفترة التي هي موضوع اهتمامك.

لقد كتب ذلك الثعلب، ماينارد، يومياته؛ لكن الوصول إليها مقيّد. نشر الرجل نسخةً من تلك اليوميات؛ ولعلّها نسخة خضعت للتنقيح. عادةً ما تكون محتوياتها على النحو التالي: «رأيت حمار وحش، وعشرة من البقر الوحشي...». يرد ذكر كوربين لديه على أنه «شخص جيّد، لكنه مضجر». توقف ماينارد في بلدة قريبة من تافيتا اسمها مبويوني؛ وقد قابل فيها مقيماً ألمانياً أو سويسرياً اسمه لينز. يردُ ذكر حادثة لقيام قرود البابون بقتل كلب؛ ويردُ أيضاً دفاعٌ حماسيّ عن هجومه التأديبي على إحدى القرى. حادثة أثارت اهتماماً عاماً وأدت إلى نقله من المنطقة. تنتهي يومياته المنشورة قبل الحرب؛ لكن النسخة التي قُيّد الوصول إليها تستمرّ حتى سنة 1917.

أُرسل إليك، بشكل منفصل، نسخةً من نصوص على صلة بالأمر.

أخبِرني بما يستجدّ!

سونا.

ملحقات

(1) كتب السير هنري جونسون، عالم التاريخ الطبيعي في كامبردج، صاحب التمويل المستقل، في مقدمة يومياته المنشورة عن رحلة سفاري بهدف الصيد والاستكشاف جرى التخطيط لها في سنة 1895 مع صديقه (وبطله) الأكبر سناً، الكاتب هـ. رايدر هادارد. لكن صديقه الذي كان قلقاً مما قد تشتمل عليه تلك الرحلة من مشقّة جسدية لم يلبث أن أقلع عن الأمر في اللحظة الأخيرة؛ فما كان من جونسون الشاب إلا أن ذهب وحده. أقام الرجل شهوراً كثيرة في لامو حيث حلَّ ضيفاً على القنصل البريطاني. وفي يومياته، يشير جونسون إلى مموّله، الذي كان اسمه جمال ديوجي؛ فقد رافقه ابن هذا الشخص، (يعتبره وغداً)، في رحلته في أنحاء زنجيبار وعلى البرّ الإفريقي إلى أن أغوى فتاةً متحوّلة إلى المسيحية في مركز تبشيري في منطقة تايتا، وبقي في واحدة من القرى هناك. أرسل جونسون تفاصيل كثيرة ذات صبغة محلية إلى صديقه المؤلّف الذي استند إليها في إنشاء إحدى شخصيات كتابه.

(2) كانت واحدة من الرسائل الألمانية الثلاث التي صادرها كوربين موجّهة إلى شخص اسمه هـ. لينز في مبويوني، وهي بلدة واقعة على مسافة نحو عشرة أميال. وهذا ما ورد في تلك الرسالة:

موشي، 19 تشرين الأول 1913

صديقي العزيز:

يرى الهرّ براونشويغ أن خريطة منطقة تافيتا الصادرة عن مكتب المقاطعة في فوي غير صحيحة. فهل يمكنك التحقّق مما إذا كانت قد توفّرت أيّ معلومات جديدة؟ ستظلّ خرائطنا ناقصة من غير هذا. أخشى

أن البريطانيين متراخون بعض الشيء في ما يتعلّق بالدقة. سمعنا أن مفوّضاً مساعداً جديداً قد جاء إلى المنطقة، والظاهر أنه شخص لطيف. ولعلّه أكثر اهتماماً بالدقة العلمية.

مع أطيب التمنيات منا جميعاً.

(توقيع) و. غرينر

ملازم ثانٍ

من دفتر الملاحظات الشخصي لبيوس فرنانديز
نيسان 1988، دار السلام

يأتي راعيَّ فيروز من حين إلى آخر، كأنه ذلك القزم في الحكاية الخرافية، لكي يُقيِّم تقدُّمي في العمل في هذه الشقّة التي وفّرها لي. «إذاً، يا سيدي، ما الذي فهمته من هذه المفكّرة؟». هو يعرف أن لا قيمة مالية لها؛ لكن اهتمامه منصبٌّ الآن على ما أفهمه منها، كما يعبّر عن الأمر. صبراً! هذا ما أقوله له. لكن لديّ عدداً من الأسئلة:

«ماذا تعرف عن شيطاني؟».

«تعني الشيطان!... حسناً يا سيدي... كما تعرف، يؤمن الناس بوجود الشياطين».

«وطرد الأرواح الشريرة، أهو مستمرّ إلى الآن؟».

«لم يعد المرء يسمع عنه كثيراً في أيامنا هذه. زنجيبار مليئة بالشيطاني -إنها موطنهم- كانت هناك قضية في دار السلام في الآونة الأخيرة. لكن... هناك واحد من الميمون يقوم بهذا، يُخرج الشيطاني. سأستفسر عن الأمر من أجلك».

يأخذني إلى بيته أحياناً لكي نتناول وجبة ما بعد الظهر. أظنّه رجلاً وحيداً في قرارة نفسه. يعيش مع زوجته وابنته في شقّة فوق المتجر الآخر، المتجر الرئيسي. وأما الطفل الثاني، ابنه، فهو يدرس في إنكلترا. يمضي الرجل وزوجته معظم الوقت متباعدين لأن كلاً منهما يدير واحداً من المتجرين. إن لها طبعاً عكس طبعه تماماً.

كانت في المتجر الرئيسي جلبة عند وصولنا. ففي زحمة الزبائن وقت الظهر، اتُّهِم عربيٌّ ممتلئ الجسم يرتدي الكانزو بمحاولة السرقة من المتجر. كان الرجل يحاول تبرئة نفسه بطريقة غير مقنعة، لكنّها لا تخلو من فكاهة: ألم يكن في صلاة الجمعة قبل قليل؟ لكن هذا لم يجدِه نفعاً. لاحقته صيحات زينب وشتائمها حتى خرج من المتجر. تناولتُ مع فيروز وجبة واحدة ثم ذهبنا بعد ذلك إلى المتجر الآخر عند «زاوية بيبا». أدرك تماماً أنني أحتلّ مكانةً متدنية جداً في نظر زينب، وأنني موضع ريبة: معلّم عاطل عن العمل، ولديه أفكار أيضاً! لكنها امرأة مهذّبة تحرص على القيام بما يلزم لجعل بيتها يبدو في حالة توافق وانسجام؛ ولهذا أعطتنا «ترمس» شاي لكي نأخذه معنا.

سألت فيروز: «هل هناك أخبار عن تأشيرات السفر؟». أعرف أن هناك عملاً يجري بهدف انتقال قسم من العائلة إلى كندا. يرفع رأسه: «لا».

أفسّر إجابته بأن المحاولة قد فشلت.

«أنا سعيدٌ هنا. ربما أرسل الطفلين لكي يتعلّما. ومن الممكن أن تنضمّ إليهما زوجتي».

نشرب الشاي. يُباع شيءٌ ما من حين إلى آخر، وتنقص الكمية المتوفّرة من شيء ما، فيتصل فيروز بالمتجر الآخر هاتفياً ليسأل عن الكمية الموجودة هناك. إن لديه رموزاً؛ فلكلّ مادة اسمٌ مستعار: «بلاستيك بنّي»،

«هونغ كونغ ماريدادي»، «تايوان بايزيم». يعرف مخزونه كلّه عن ظهر قلب؛ ويعرف بالضبط ما هو موجود على كلّ رفّ، وكمّيّته أيضاً، وسعر التكلفة. يبدو لي أن هذا ما يعنيه المرء عندما يقول إن التجارة تجري في الدم... القيمة الآنية لكلّ شيء واضحة دائماً.

يقول فيروز: «لديّ أخبار لك. هل تعرف ريتا؟ جُلّنار؟!».

«جلّنار راجاني؟!».

أحاول أن أبدو هادئاً؛ لكن هذا مستحيل. هذا الاسم يعني الكثير الكثير، وهو يعرف أنه قد اصطادني.

«كانت تلميذة عندك، أليس كذلك يا سيدي؟».

«صحيح. كان هذا منذ سنين كثيرة. ما بها؟».

«إنها آتية إلى دار السلام!».

«ماذا، هنا؟ ولماذا تأتي؟ أليست الآن صاحبة ثروة كبيرة في إنكلترا؟!».

تحقّقَ له الأثرُ الذي أراده، فأشاح بوجهه، منشغلاً مع أحد المشترين، مستمتعاً بتلك التسلية. يخرج المشتري بعد حين، فيلتفت فيروز إليّ من جديد.

«حسناً... تعرف أن ريتا هي زوجة ابن بيبا. كتبت إليها عن المفكّرة، وقلت لها إنك تنظر فيها. هذا ما جعلها تتصل بي هاتفياً. قالت إنها كانت تخطّط لقضاء العطلة هنا -إن لها أيضاً أملاكاً في دار السلام ورثتها عن أبيها- أظهرتْ فضولاً شديداً لمعرفة رأينا في المفكّرة. وهي توّاقة كثيراً إلى رؤيتك من جديد».

توّاقة إلى رؤيتي... أم إلى رؤية المفكّرة؟ ماذا لو كانت تعرف شيئاً عنها؟ عجيب هذا الإقحام لما هو شخصي في أبحاثي.

أقول له: «هذا يعني أن المفكّرة ملكٌ لها!».

«سيكون علينا أن ننظر في هذا الأمر». يقول هذه الكلمات بكلّ حيادية.

***

إنّ في الخزانة المقفلة في مكتبة دار السلام دفتراً قديماً مما يُستخدم في المدارس، سُجّلت فيه بخطّ أنيق عناوين محتويات الخزانة من الكتب. بل إن فيه أسماء كتب غير موجودة ذُكر إلى جانب كلٍّ منها آخر ما هو معروف عنه. في الخزانة نسخة من مذكّرات هنري جونسون. ومقابل عنوان آلفرِد كوربين «القلب والروح»، كُتب ما يلي: «أُرسل إلى مكتبة موشي بناءً على طلبهم»، ثم يرد تاريخ تسجيل هذه الملاحظة: 16 شباط 1967.

نشرتُ في الشهر الماضي إعلاناً ليومين اثنين في صحيفة «ديلي هيرالد» في دار السلام، طلبت فيه الحصول على معلومات من أي شخص ممن كانت لهم صلة بالحرب العالمية الأولى في منطقة كليمنجارو، في موشي وتافيتا وكيكونو خاصة. لم يلقَ الإعلان أيّ استجابة؛ لكن هذا لا يعني شيئاً لأن الجميع منشغل بتأمين وجوده وتحصيل قوته. يبدو طلبي غريباً إلى حدٍّ مضحك! إن كان لديّ وقتٌ لطرح أسئلة من هذا النوع، فلا بدّ أن لديّ الوقت الكافي لتتبّع الشهود! هذا ما قرّرت فعله، ولذلك، سافرت بالباص إلى موشي.

يريد القيّم على المكتبة في موشي أن يعرف من أخبرني بأمر خزانته المقفلة. أقول له إنني عرفت بهذا من الخزانة التي في دار السلام. يقول إن عليّ أن أحصل على إذن. ممّن؟ ليس الرجل متأكّداً من الإجابة. يقول لي أن أعود بعد الظهر. أقرّر أن أتجوّل في البلدة «ما من شيء مثل رؤية بناء قديم للتأكّد من أنه، نعم، كان هناك ماضٍ»، والاستعلام في الشوارع من كبار السن الجالسين عند الزوايا وبالقرب من المسجد («إتي†، مزي†، ألا

توجد هنا مبانٍ قديمة... أو مقابر...»). يرشدونني آخر الأمر إلى مكتب أوتامَدُني (الثقافة). يطرح الكادر الحزبي في غرفة الاستقبال أسئلةً كثيرة، ويقول أشياء كثيرة، ويبدي إعجابه باهتمامي بالتاريخ، بل إنه يتجوّل بي في أرجاء المكان كأنه شخصٌ يؤدّي خدمة جليلة. لكنّه لا يفصح لي عن أيّ شيء محدّد، بل يوجّهني إلى «المسؤول الثقافي» الذي هو رجلٌ طويل القامة يقارب الخامسة والثلاثين... رجل في سترة وبنطلون جينز أزرق، وله شارب منحدر عند زاويتي فمه: يبدو سواحيلياً فيه نسبة كبيرة من دم عربي.

يأخذني إلى مكتبه -غرفة واسعة فيها طاولة مكتب كبيرة تناثرت عليها أوراقٌ كثيرة، وفيها بضع خزائن للمصنفات وطاولة ومقاعد من أجل الاجتماعات- يتفق الرجل معي، صحيح، لا بدّ من إجراء دراسات كثيرة في التاريخ المحلي. ينبغي أن نحافظ على الأرشيف، ولا بدّ من صيانة المباني؛ لكن، لا مال لدينا. الألمان مهتمّون بالأمر، وهم منهمكون في استكشاف المواقع المختلفة، وفي تحديدها والمحافظة عليها. إنه يعمل معهم بدوام جزئي. لكن أكثر جهودهم منصبّة على منطقة كانغا: بلدتهم المفضّلة في ما مضى، والآن! ففي هذه البلدة، لقي البريطانيون أكبر هزائمهم في شرق إفريقيا، وأكثرها إذلالاً. يبتسم الرجل ابتسامة واهنة.

أقول له: «كان هذا عندما هزمهم سربٌ من النحل!».

يبتسم: «نعم!».

يقول لي إن اسمه جمالي. لقد نشأ في موشي.

«ماذا عن بابو - بيبي؟ جدّك وجدّتك؟».

«لقد رأيت جدّتي».

«هل رأيتها في موشي؟».

يومئ برأسه.

«ومن أين كان جدّك؟».

يقول: «من لامو».

نعم... هذا الرجل الجالس قبالتي هو حفيد جمالي الذي كان موخي كيكونو.

إن لديه الكثير مما يقوله لي، هذا الجمالي الشاب... هكذا سأدعوه.

II

الأحجية الكبرى

اثنان يتشاجران طيلة النهار، ويتصالحان ليلاً.

- أحجية سواحيلية.

(الإجابة: دفّتا الباب).

9

كان موكب الزفاف الذي رافق بيبا وعروسه بالموسيقا والجوّ الاحتفالي إلى غرفتهما قد تفرّق؛ وكان آخر أفراده يغادرون المكان متلكّئين وهم يذكّرونهما بالليلة التي سيُمضيانها، مُطلِقين عباراتٍ مكشوفة فيها قدرٌ من البذاءة حتى يحرّرا العروسين من خجلهما. كانت الغرفة متفرّعة من متجرٍ خالٍ تفصلها عنه ستارةٌ من قماش ثقيل. وكان في الغرفة بابٌ على الشارع وممرٌّ مُفضٍ إلى الفناء الخلفي. كانت أزهار الياسمين منثورة على السرير المضمّخ بالعطور. ملأت الهواء أبخرة الهلود[†] العطرية الحلوة التي تثير الحواس. صينية فاكهة موضوعة إلى جانب السرير، وشبشب منزلي على مقربة منه. وفي الخارج، ظلَّ جوّ تلك الأمسية باقياً بعض الوقت من خلال صيحات متفرّقة وموجات من الضحك. لكن داخل الغرفة ظلَّ ساكناً، ظلَّ شديد الهدوء. جلس العريس والعروس متجاورين على السرير، تماماً حيث تركهما مرافقوهما المبتهجين. هو في بدلة رمادية وعمامة حمراء؛ وهي في فستان أخضر وباتشيدي أخضر. كانت جالسة تنظر إلى يديها المخضّبتين بالحنّة المعقودتين في حضنها، وتنتظر. لم يرَ منها خلال الأمسية كلّها غير لمحات سريعة - الفتاة التي يأخذها الآن بعيداً، هذه الهدية التي تلقّاها لكنّه لم يستطع النظر إليها جيداً حتى الآن. كان يرى بريق الترتر والنقاط اللامعة

إلى جواره، وكان يرى حركة الباتشيدي... ومن حينٍ إلى آخر، كان يسمع رنين الأساور في يديها، الصوت الوحيد الصادر عنها. أدرك الآن -وهو ينظر إليها في جلستها إلى جانبه، بعد أن صارت أخيراً له وصار قادراً على النظر إليها- أن حليّها لم تكن لها. لقد أعارها الناس تلك الحليّ واضعين ثقتهم في عريسها. ألبسوها وزيّنوها وغنّوا لها أغاني الزفاف: ابنة الجماعة كلّها.

خلع عمامته ووضعها إلى جانبه. وبرقّةٍ، وببطءٍ شديد، وضع يده عند جبّتها على الباتشيدي ذي الزينة الغنية، وجذبه إلى الخلف من فوق شعرها ومن فوق طوق الزهور الذي خلفه، فجعله يسقط على كتفيها. التفتت ونظرت إليه فانخطفت أنفاسه منه.

قال بطريقة تكاد تكون تلقائية: «إيه، يا مريامو. أنت جميلة حقاً!».

كيف يمكن أن يحدث هذا؟! هذا ما كان يقوله بيبا في نفسه. هو، صبيّ الشوارع السابق الذي ليس له حتى شرف اسم أب متصل باسمه، كيف تكون هذه الحورية إلى جانبه في هذه الغرفة الصغيرة؟! هذا الكائن السماوي الذي يشبه الحوريات الموعودات في الجنة! كان جمالها مكتملاً؛ وكان فيها ذلك السموّ كلّه. لا يمكن أن يكون مستحقاً لها. الوجه البيضاوي المتطاول، والذقن، والوجنتان، والأنف الطويل - ليست لها تلك الملامح الغليظة المدوّرة، ملامح زوجات أصحاب الدكاكين. داعب شعرها الكثيف المتموّج، ورقبتها الناعمة الطويلة من تحته، رقبتها الحارّة تحت لمساته.

قال وهو يعبث بعقدها: «تعالي يا صغيرتي الغالية! علينا أن ننزع هذه الحليّ برفق، وعلينا أن نبدّل ملابسنا!».

نهض واقفاً وأخرج من صندوق على الأرض سروالاً تحتياً مقلّماً بخطوط متقاطعة، ثم خفض نور المصباحين المعلّقين في الغرفة وذهب

إلى زاوية ظليلة لكي يغيّر ملابسه. أخذ معه واحداً من المصباحين وخرج إلى الباحة الخلفية. عندما عاد، وجد مريامو جالسة في السرير وقد خلعت فستانها وارتدت فستاناً خفيفاً أكثر بساطة منه. كانت الثياب التي خلعتها مطوية بعناية إلى جانب السرير.

سأل نفسه: «هل تعرف ما تفعله؟ ما مقدار ما أخبرتها به النساء؟ سأكون الليلة معلّمها!». قال هذا في نفسه وهو يتذكّر تشبيهاً سمعه في وقت سابق من ذلك المساء. سأكون المعلّم؛ وسأعلّمها من خلال إيقاع قدر بسيط من الألم. هكذا ينبغي أن يكون الأمر؛ وهكذا يكون دائماً. جعله هذا الإحساس بالمراعاة واللطف الرجولي يرى نفسه شهماً.

أعاد المصباح إلى مكانه على الجدار، وجاء إلى السرير. دخل السرير، من خلفها؛ ثم أمسكها بلطف من ذراعيها وجذبها حتى استلقت إلى جانبه. قال لها: «تعالي!».

قالت وهي قادمة إليه: «أنا زوجتك!»؛ قالتها بمزيج من التوتر والرقة المستسلمة.

لم تعد كائناً سماوياً، بل امرأة بين ذراعيه. رائحة الهلود، وطعم اللحم البشري. كانت، تحت فستانها، مستعدّة مثلما يحب... لقد علّموها جيداً. في المرة الأولى، كان كلّه ثورة، وكانت كلّها صبراً. ثم استنفد ثورته واستلقى على ظهره راضياً، منتظراً تجدُّد الرغبة التي ينبغي أن تتجدّد. تجدّدت الرغبة، وولجها من جديد. هذه المرة، استطاع الاستمرار مدة أطول، وكان ينظر إلى وجهها في ذلك الضياء الخافت وتقابل عينيها عيناه بحيث كان الأمر مشتركاً هذه المرة. ثم استلقى على ظهره من جديد.

كان ينظر إلى السقف المظلم من فوقه، فبدأت موجات شكٍّ بطيئة تلامس ذهنه الغافل. لقد تمّ الأمر، مرّتين. وعندما يأتي الصباح، سيخرج

حاملاً الملاءة المخضبة بالدم، سيخرج حاملاً راية نصره -لكن الأمر كان يسيراً... ألم يكن أسهل مما ينبغي له أن يكون؟ وفجأةً، داهمه إدراكٌ ساحق فحطّم ثقته- راية النصر هي أم راية العار؟ انتصب جالساً. رأى دماً، لكنه خيط صغير فحسب.

بدأت تقول له: «ماذا؟!»، لكنه صار خارج السرير في لحظة واحدة. نظر إليها، وإلى الملاءة، نظرة مقتٍ وازدراء. قال بصوت مرتفع: «هذه هي الخدعة إذاً!»، ثم صاح متّجهاً صوب الباب: «جمالي!». تصاعد غضبه: «هل ظننت أنك ستخدع بيبا؟ أنت! تعال وخذ عاهرتك، يا جمالي!».

قالت الفتاة راجية: «من فضلك!»، لكنّه دفعها بعنف، فصرخت وهي تسقط على الأرض.

أتت من الخارج أصواتُ صيحات، وطرقٌ ملحّ على الباب. انفتح الباب. إنه خال مريامو، الموخي جمالي. دخل مسرعاً، جارياً تقريباً.

«ماذا جرى؟ آري، ماذا جرى؟ قل لي، أنت، ماذا جرى؟».

تقدّم بيبا مترنّحاً كأنه ثمل، واندفع صوب الموخي: «لقد غششتني -يا ابن الحرام- أعطيتني ...» دفعه جمالي فجعله يجلس على الكرسيّ، وقال له إن عليه، لغاياتٍ عملية، ألا يكون غبيّاً وألا يعلن عاره على الملأ.

كان جمالي قد أغلق الباب من خلفه، لكن الجلبة ازدادت في الخارج، ثم انفتح الباب من جديد. ذهب جمالي لإغلاق الباب، لكنه وجد جمعاً من الناس في مواجهته. أتى بيبا فوقف خلفه.

ثم رأى بيبا مفوّض المنطقة المساعد يشقّ طريقه بين الناس، وسمع صوتاً يصيح في الظلمة التي في الخارج: «إنه المزونغو... هو من افتضّ الفتاة!». نظر بيبا إلى الموخي، ثم نظر إلى الإنكليزي المقترب. وسمع ضحكاتٍ وهمسات بين الناس، فأدرك أنه خُدع، أنه سُرق.

بعد تلك الليلة الأولى، صارت مريامو تنام على الأرض الباردة، على الأرض التي كانت تراباً مرصوصاً، إلى أن قال لها ذات ليلة أن تصعد إلى السرير وساعدها في النهوض إليه. لم يكن قد مسّها بعد تلك الليلة. وجد ذلك صعباً عليه؛ وكان يحسّ قلبه ثقيلاً لمجرّد التفكير فيه، وكان وسطه ميتاً تماماً.

إنه قادر على ردّها. هذا من حقّه؛ وسوف يسانده المجتمع. سوف تتدبّر أمر نفسها وتصير امرأة شخصٍ ما... تصير عاهرة. لكنه التفت إلى المرأة الجالسة إلى جانبه فرأى زوجةً.

قال في نفسه إنهما شخصان وحيدان. فكّر في هذا وهو يراها تمسح طبق الطعام مسحاً ولا تأكل إلا بعده. هما شخصان منقوصا الأصل، وضيعا الأصل... يتيمان، حقاً. عليهما أن يشقّا طريقهما معاً. لن يقدر أحدٌ عليهما إن كانا معاً. إن عليهما مسؤولية؛ إنهما أسرة.

لم يتحدّثا عن ذلك، عن الوصمة التي استقرت بينهما تلك الليلة كأنها جدار. لم ينكر أحدٌ اتهاماته، ولم يقل له أحدٌ إن هذه أمورٌ تحدث أحياناً، ولم يقل له أحدٌ إنه يتخيّل الأمر وإنه ارتكب أكبر المعاصي: الشكّ! لا، لم يأتِ أحدٌ لنجدتها... لا أمّها، ولا خالها الموخي. ثم إن زوج أمها قد أكّد الاتهام. كان الصوت الذي سمعه بيبا من الخارج متّهماً مفوّض المنطقة المساعد صوت رشيد، زوج أمها. ثم إن الفتاة نفسها لم تقل شيئاً.

لكن الألم بدأ يفقد حدّته في الأيام القليلة التي أعقبت ذلك. صار يقول لنفسه إن عالم الكبار ليس نقيّاً مثلما يتخيّله الأطفال: عالم الكبار عالمٌ قائم على الحقائق الملموسة. تذكّر أمّه فأدرك أنه كان قادراً على إبقاء سرّه حبيس هذه الجدران الأربعة... لكنّه أعلنه على الملأ.

كان شعرها الآن مشعّثاً، وملابسها قديمة، قدماها الحافيتان مستقرّتين

على الأرض الخشنة من غير ثقة. كانت عروساً قبل أيام قليلة. الحليّ، المحسوبة بعناية، جُمعت في منديل وسُلِّمت إلى أصحابها؛ والملابس طُويت طيّاً أنيقاً، ووُضعت جانباً. لم يبقَ إلا الخاتم وحلية الأنف ومجموعة واحدة من الملابس الجديدة.

لم يخرج من البيت منذ تلك الليلة الأولى؛ ثم إنه صار متسخاً فائح الرائحة. لم يكن يرتدي غير قميصه وسرواله الداخليين. هي فقط من خرج بضع مرّات لأداء أمور لا بدّ منها. أحضرت مرّة لوازم للمطبخ من عند أمّها. وفي هذا المساء، قال لها وهي ترفع الأطباق بعد الأكل إنهما سيذهبان إلى المسجد. فلتنظر إليهما العيون الفضولية المزدرية، ولتتابعهما... فكم سيدوم هذا؟! سيجعلهم يرون من هو الأكثر ذكاءً، الأكثر براعة!

في طريقهما إلى المسجد، لحقت بهما مجموعةٌ صاخبة من الأولاد والبنات، وسمعا صيحات الشباب الساخرة تتردّد من الناحية الأخرى من الطريق. دخلا المسجد فتوقّف الإنشاد ولم يستمرّ غير صوتٍ واحد، الصوت الذي يقوده. نظرت إليهما وجوهٌ فضولية صامتة. سار بيبا إلى الموخي وصافحه مُظهراً الاحترام التقليدي لمكانته، فباركه الموخي بصوت مرتفع مبتهج لطيف، كأنه يستحثّ بقية الحاضرين لكي يعبّروا عمّا عبّر عنه من لطف وقبول. وأما الفتاة التي صارت الآن امرأة متزوجة، فقد تلقّتها النساء الجالسات في زاويتهن بكلّ احترام، ثم تركنها تؤمّهن في الصلاة. تناولوا الطعام في بيت الموخي حيث كانت حاضرة أيضاً والدة مريامو: كولسا. وأما زوج أمها، رشيد، فكان غيابه مُريباً.

في تلك الليلة، بدت مريامو شهيّة في الفراش، ناضجةً فوّاحة مثل ثمرة مانغو. استلقيا متجاورين، لكنّه لم يمسّها... كان يلعن القدر الذي تجسّد الآن في قلبه البارد وفي وسطه الخامل. لكنها كانت زوجته. سوف يأخذها

إلى بيته في موشي، في الجانب الألماني، إلى حيث أمه، إلى حيث متجره الناجح وأصدقاؤه ومن يعطفون عليه.

بدأ استعداداته للسفر في صباح اليوم التالي. كان عليه أن يحصل على صندوق من أجل حوائج مريامو، وكان صندوقه في حاجة إلى إصلاح. وثمّة حسابٌ مع جمالي لا بدّ من تسويته. ولا بدّ أيضاً من تأمين الحمّالين. أتت خانم، زوجة الموخي، وأمضت فترة ما بعد الظهر مع مريامو. ثم جاءت أمها، كولسا، في المساء وودّعتها وداعاً باكياً. كل شيء على ما يرام، وسوف ينطلق الزوجان راحلين في الصباح الباكر.

لكن شيئاً لم يكن على ما يرام. ففي آخر ذلك اليوم، ضجّت البلدة بشائعات الحرب. وفي اليوم التالي، أكّد مفوّض المنطقة المساعد نشوب الحرب مع ألمانيا ومع مستعمرتها الواقعة إلى الجنوب من البلدة. لا سبيل إلى اجتياز الحدود. صار بيبا من رعايا دولة معادية.



10

في نظر أناس كثيرين، كانت هذه الحرب العظمى، حرب الأوروبيين، أحجيةً ضخمة مؤلّفة من أحجيات صغيرة كثيرة؛ حرباً جاءت من غير طلب ومن غير أن يعلنها أحدٌ عندهم. ثم إنها صارت أيضاً لعبة في نظر غير المشاركين في القتال – لعبة المراقبة والتعليق، لعبة الخبث والبقاء. ففي كيكونو وغيرها من البلدات في منطقة تسافو التي صارت عالقة وسط سوء تصرّف المزونغو، كان الحديث عن الحرب حديث أحجيات، أكثر الأحيان.

الأحجية الأولى (كيف أُعلنت الحرب؟):

«غيمة غبار كبيرة تتحرّك ببطء على امتداد طريق تافيتا مخلّفةً وراءها دماراً كبيراً».

«أهي سرب جراد؟».

«لا!».

«نا-ني» (فما هي؟).

«لها قوائم كثيرة».

«لماذا لم تقل هذا من البداية، يا جونغو؟ أهي حشرة لها ألف ساق؟».

«لا، أبداً».

«نا-ني» (فما هي؟).

«بعض ألسنتها خرساء».

«آه! لسانك ليس كذلك».

«تأتي مسالمة وترحل مسالمة».

وهكذا دواليك.

من قمة تلّ الإرسالية، رأوا بعد ظهر ذات يوم غيمة الغبار تتحرّك ببطء ومشقّة قادمة عبر الطرق الترابية بين الأشواك والأجمات. راقبتها السيدة بيلي برهةً مستخدمة منظارها، ثم قالت: «بغال. عربات تجرّها الثيران - عربتان». أعربت هذا لرفيقتها، الآنسة إيليوت. لم تهتمّا بالأمر كثيراً إلا بعد بضع ساعات من ذلك.

كانت تلك القافلة لأسرتين أوروبيتين. وقد خيّمت إلى الناحية الأخرى من قمة التل الحمراء حيث يدخل الطريق بلدة كيكونو. كان مع القافلة ثلاثون حمّالاً متعبين خلقوا يوم عملٍ مزدهراً في البلدة وقوبلوا بما يستحقّون من ترحاب نظير ذلك. كان المرتحلون في طريقهم من فوي صوب الغرب، وسيكون توقّفهم قصيراً. فتح باروتي كشك بيع الشاي، ووزّع على الحمّالين شايه القوي الذي يسمّيه «بارود». أُحضرت لهم زجاجات ماء ومياه غازية وباعهم الهنود أقمشة الخانغا ومرايا وعطوراً يستطيعون بيعها بثمن أعلى على الجانب الآخر من الحدود. وأما الأوروبيون أنفسهم، فقد لزموا جوار عرباتهم حيث انتظروا حمّاليهم الأفارقة؛ لكنّهم سُرّوا بقدوم البائعين إليهم. ثم اختفى ذيل القافلة الصغيرة خلف الأجمات على الطريق الطويل المؤدّي إلى موشي. وبعد أن هدأ الغبار، ظلّ الجوّ في كيكونو ثقيلاً بفعل شائعات الحرب وأخبارها. هناك

حربٌ جارية، كونا فيتا(*)، هذا ما سمعوه من المتاجر والبائعين ومن باروتي الذي يبيع الشاي. لكن، أين هي هذه الـ«فيتا»؟ ومن يخوضها؟ في أولايا، بين الألمان والإنكليز. ما كانت هناك حاجة إلى إخبار المرء بالسبب الذي يجعل هذه الحرب جارية في مكانٍ بعيد إلى هذا الحدّ مهمّة هنا. كان الزوّار الأوروبيون الذين رحلوا قبل بضع ساعات ذاهبين من إفريقيا البريطانية إلى إفريقيا الألمانية.

لم يستطع مفوّض المنطقة المساعد، المتلهّف لتلقّي الأخبار، سماعَ شيء من فوي إلا مع حلول اليوم التالي. حملت صحيفة «هيرالد» الصادرة في اليوم السابق عنواناً كبيراً بالخط العريض، كان ذلك يوم السادس من آب 1914:

حرب في أوروبا

بريطانيا العظمى تعلن الحرب على ألمانيا

> وصلت بعد ظهر أمس برقية من مكتب المستعمرات إلى مقرّ الحكومة تقول إن حالة الحرب قائمة الآن بين بريطانيا العظمى والمناطق التابعة لها من ناحية، وألمانيا من ناحية أخرى. وقد أعلن الحاكم، السير هنري بلفيلد، حالة الطوارئ في المستعمرة.

حلّل عمودٌ في الصحيفة المشكلات الأخيرة في أوروبا: موضوعٌ ما كان حتى ذلك الوقت يستحقّ أكثر من فقرة قصيرة عارضة. وظهر في الصورة التي تحت العنوان جمعٌ من المستوطنين المحتشدين أمام المقرّ الحكومي في نيروبي - جماعة رثّة من المزارعين أتوا على ظهور الخيل ملوّحين ببنادقهم. تركوا زوجاتهم وأطفالهم للاهتمام بمزارعهم، وانطلقوا إلى العاصمة على صهوات الخيل والبغال مستعدّين لأداء واجبهم. افتُتح

(*) كونا فيتا (باللغة السواحيلية): هناك حرب. (المترجم).

مكتبٌ للتطوّع؛ وظهرت قوات غير نظامية؛ وكاد الرجال ينطلقون صوب شرق إفريقيا الألمانية، في الطريق إلى تابوراي! لكنّهم ما كانوا في حقيقة الأمر ليفعلوا شيئاً أكثر من استطلاع منطقة الحدود. وكان هنالك رجالٌ آخرون رأوا أن من واجبهم تلبية النداء في البلاد البعيدة، فأتوا بالقطارات المتجهة إلى الساحل حيث كانت في انتظارهم سفينة تابعة لشركة «يونيون كاسل». لكن رسالة المفوّض الإقليمي في فوي إلى مساعده في كيكونو كانت أكثر دقة: «أعلنت الحرب في أوروبا. انتبِه لاحتمال شنّ غارات عبر الحدود! انتظِر أوامر أخرى!».

صارت مملكة كوربين الصغيرة عند شجرة المبويو مسرح حرب، وخرج مصيرها من يده، فصار في أيدي كبار الممسكين بخيوط الدمى في الخارج. والآن، صار لمركز الحكم المتقدّم هذا، الذي لا يستطيع قصرُهُ المباهاة بوجود سقفٍ حقيقيّ فوقه، حيث كان الكينين أولوية عاجلة على الدوام، دورٌ في الدفاع وفي تحرّكات الإمبراطورية.

استنفر كوربين قوة الشرطة الصغيرة، وطلب من أفرادها (العسكري) البقاء في حالة يقظةٍ دائمة. وصار يرسل الكشّافين تحت قيادة فومفراتي بحيث يتعدون عدة أميال في الغابة وفي التلال، وأخطرَ سكّان البلدة باحتمال الإخلاء. كان يستجوب المسافرين حتى يظفر بأخبار عن موشي وتانغا.

الأحجية الثانية:

رجل جمع رداءه من حول جسمه وجاء مسرعاً إلى البلدة، فجلس على صندوق عند كشك باروتي. كان واضحاً أنه مزارع غريب؛ وكان قذراً. أشاح الجالسون هناك بوجوههم وتأهّبوا للقيام والانصراف. ابتسم عجوز سواحيلي لطيف وقال له: «لماذا ترتجف، يا صاحبي؟!».

«تبول على شجرة فتبول الشجرة عليك!».

«آه، نعم. هكذا هو العالم».

«من أغصانها».

«نعم؟».

«إنها تبول من أغصانها».

«لا شكّ في هذا».

«غصن عليه أوراق كثيرة يقفز من الشجرة ويبتعد مسرعاً».

«ألم أقل لك؟ يحدث هذا».

«يجعلك تخاف خوفاً لم تعرفه في حياتك كلّها».

«بيلا شاكا(*). ماذا كنت تدخّن؟... بهانغ†؟»

«إن لها حذاءً، وبندقية أيضاً».

«نا-ني؟ ما هي؟». اجتمعوا كلّهم من حول الرجل. لم تبدُ هذه أحجية عادية. قال السواحيلي العجوز: «نادوا فومفراتي!».

ناداه بنفسه فجاء فومفراتي بملابسه الملوّنة.

سأل فومفراتي: «ليبيكا؟(**)».

«تبول تحت شجرة فتبول الشجرة عليك - تبول من أغصانها»، قال المزارع العجوز هذا وقد أنعشه شاي (بارود) باروتي فراح يبتسم.

استمع فومفراتي إلى هذا، ثم قال: «أغبياء». أمسك بيد المزارع وسار به صاعداً التل إلى مكتب المفوّض الإقليمي المساعد.

كان ذلك أوّلَ احتكاكٍ حقيقيّ للبلدة بالحرب. كان المزارع قد اختلى

(*) بيلا شاكا (سواحيلية): بلا شك. (المترجم).

(**) ليبيكا (سواحيلية): ماذا؟ (المترجم).

خلف أجمة حتى يبول؛ وشاءت المصادفة أن يرفع رأسه وينظر إلى شجرة قريبة فيرى نقطاً من سائل تقطر عليه من أعلى. ذُعر الرجل: كانت السماء صافية من غير غيوم. يمكن أن يكون ذلك من فعل حيوان. ثم رأى ذلك المشهد - غصن ينزل سريعاً، وجسم له بندقية وحذاء يندفع هارباً.

ذهب كلّ رجلٍ قادر جسدياً مع مفوّض المنطقة المساعد للبحث عن هذا الشيء الغريب - عن الرجل الذي كان في ملابس عسكرية، بحسب ما قال الشاهد الآن. لكن الجندي المختبئ كان قد اختفى، بالطبع. على المنصة التي أقامها فوق الأغصان مستخدماً عارضتين خشبيتين متقاطعتين، وجدوا علبة فيها بقايا من الأوغالي[1] والبرتقال. وفي أجمة قريبة من تلك الشجرة، كان المكان الذي بال فيه ذلك المزارع. من الممكن تماماً أن تكون قد سقطت عليه قطرات من عصير البرتقال... لكن الآراء تضاربت في ما يخص هذه النقطة.

بعث مفوّض المنطقة المساعد بتقرير إلى فوي حمله مراسلٌ عدّاء.

كان الوقت مناسباً لممارسة المواهب الكلامية ولإطلاق عنان المخيّلة. ومن عساه يكون أحسن لهذه المهمة من الوازي (كبار السن) الجالسين عند مسجد السواحيلي أو عند كشك باروتي، أو المجتمعين من حول لعبة ورق في المساء على ضوء النار يشوون الذرة أو يحمّصون الكاجو ويشربون القهوة السوداء التي تدور عليهم فناجينها الصغيرة. كلّما التقت مجموعة أشخاص تحت الشجرة، لا تكون الفرصة مناسبة فقط للفرجة على لعبة الباو[2] أو «الثلاث ورقات»، بل أيضاً للاستماع إلى أخبار الحرب التي كانوا يعيرونها آذاناً مُصغية.

كان من بين المواضيع المفضّلة (ظلّ مفضّلاً سنوات كثيرة) الحديث عن نوعية العسكري الأفارقة لدى الألمان: قساة، صلبون كالمسامير،

منضبطون. لقد درّبهم سادتُهم تدريباً جيداً. إن هؤلاء هم القادة الأوروبيون للكتائب الميدانية المخيفة... أوف! لم يكن من غير سبب أن يطلق الناس على الألمان ألقاباً من قبيل: «اليد الدموية» و«الإرادة الحديدية» و«القوة الشيطانية». وسيروي من يتذكّرون ما جرى عند وقوع تمرُّد البوشيري بوسالم منذ زمن بعيد، وكيف جرى سحقُه. ومن بعده، انتفاضة ماجي ماجي منذ عشر سنوات. سُحقت تلك الانتفاضة أيضاً. كان عدد الرجال المشنوقين من أغصان أشجار المانغو أكثر من ثمار المانغو نفسها. قارنوا الألمان الصارمين ذوي العيون الباردة (كلمة هنا، كلمة هناك، كلّ شيء مفهوم) بهؤلاء المستوطنين الإنكليز الذين أتوا لمقاتلتهم - كانوا يشيرون بهذا إلى جماعات مرّت بالبلدة في الآونة الأخيرة (في بدلات سفاري، وقبعات غريبة، جالسين على ظهور الحمير وقدورهم ومقاليهم تقرقع من تحتهم، وخدمٌ من خلفهم، مغرورون كأنهم سادة الأرض). حتى أبو نواس الأسطوري نفسه ما كان قادراً على تخيُّل جماعة مثل هذه! فما سبب غرورهم؟ -إيه، دجاماني(*)- ببنادقهم وشرطتهم؟ يسيئون معاملة الناس، ويستميلون الصِّبْيَةَ الأفارقة للذهاب معهم كشّافين وحمّالين... من المرجّح أنهم يأخذونهم لكي يكونوا أول من يتلقّى رصاص الألمان.

من يخوض الحرب، وضد من؟ هل قلنا إننا نقاتل؟ هل لنا أعداء، دجاماني؟ منذ متى كانت قبيلة تشادا معادية لنا؟ وإذا كان واحد من قبيلة تايتا يعيش في الجهة الأخرى من الحدود... أين هي هذه الحدود؟! فهل هو عدوّ لي، بوانا؟!

«هل تسأل عن مكان هذه الحدود، هيبيه! ألا تسأل عن مكان هذه الحدود، هيبيه! هل تعرف الإجابة؟».

(*) دجاماني (سواحيلية): يا أخي. (المترجم).

«لا أحد يعرفها، يا أخي. هل ترى ذلك الجبل؟ الجبل وحده يعرف. لقد قدّمه الإنكليز إلى الألمان!».

«كيف؟».

«رسموا في العشب خطاً، ثم مسحوا ذلك الخط ورسموا خطاً آخر».

«هذا يعني أنك يوماً تكون في هذا الجانب، ثم تصير على الجانب الآخر في اليوم الذي يليه. مثل الدجاج!».

«كوك - كوك - كوك - كوك - كوك - كوك - كوك - كوك - كوك».

«نحن لسنا دجاجاً!».

«هذا ما نحن بالضبط. بدؤوا في فوي حالة شغب صغيرة ليجعلوا المفوّض الإقليمي يخاف قليلاً. أظهر الجنود بنادقهم وأطلقوا النار في الهواء، ففرّ الجميع. فرّوا مثل ماذا؟ مثل الدجاج، إلى الأكواخ والأشجار، وتحت السيارات. ثم عادوا متسلّلين ليلتقطوا العيارات النارية الفارغة، حتى كبار السن أتوا... مثل ماذا؟ مثل الدجاج عندما يجري خلف الحَبّ».

«سيأتي يومٌ تُمحى فيه خطوطهم كلّها».

«أو تُقطع أصابعهم. بعض الخطوط التي رسموها عميق».

ثم وقعت الإصابة الأولى فكانت رابطة دموية بالحرب.

عثر كشّافة فومفراتي على مسافة بضعة أميال من البلدة على ما بدا لهم كأنه أجمات متحرّكة تنتقل من مكان إلى آخر بقفزات صغيرة. راحوا يطاردون أولئك العسكري التابعين للألمان وهم يصدرون صخباً شديداً. لم تكن لديهم أيّ بندقية، ولم يبدُ لهم أن لدى الخصم بنادق. في تلك اللحظة، أتى صوت إطلاق بندقية واحدة من خلفهم. سقط أحد رجال فومفراتي، فتخلّوا عن المطاردة. لكن من أطلق النار؟ راح فومفراتي،

صاحب اللحية والشعر الذهبيين الطويلين والعصبة الصفراء وقبعة راعي البقر ينظر من حوله. قال ساخراً: «في البداية، أجمات متحرّكة؛ ثم تلّة نمل ينبعث منها الدخان». صارت هذه ثالث أحجية من أحجيات الحرب.

وبقدرٍ كبير من الجلبة، عادوا بالرجل الجريح إلى البلدة في حين تخلّف عنهم فومفراتي ورجلٌ آخر، فزحفا بصمت صوب تلة النمل الكبيرة. اقتربا منها، ثم هجما عليها هجوماً مفاجئاً وهم يطلقون صرخاتٍ دبّت الرعب في قلب الرجل المختبئ داخلها. أوسعاه ضرباً حتى فقد وعيه.

تبيّن أن الجندي الأسير واحدٌ من قبيلة ياو من نياسالاند، المستعمرة البريطانية الواقعة إلى الجنوب من إفريقيا الألمانية. كان الرجل قد خدم مع الجيش البريطاني في الفصيلة الثانية من فوج الرماة الإفريقي الملكي، وذلك في مكان قريب من فوي. وقبل عدّة سنين، جرى تسريحه مع بقية أفراد وحدته عندما كانوا في زنجيبار. كان طريق العودة إلى نياسالاند يمرّ عبر المستعمرة الألمانية. وفي واحدة من البلدات هناك، جنّدته وحدةٌ من «قوة الدفاع الألمانية» وأرسلته إلى موشي على وجه السرعة. كان، مع رجاله، مجموعة كشّافة راجلة متقدّمة في خدمة دورية ألمانية راكبة تتحرّك في المنطقة. لو واصل فومفراتي وعصبته لعبة الملاحقة قليلاً (ضرب الأسير جبهته بقبضة يده معاقباً نفسه على غبائه الذي جعله يطلق النار متعجّلاً)، لاصطدموا بتلك الدورية، بالألمان الحقيقيين المتحرّكين على ظهور البغال. لو حدث ذلك، لأبادهم الألمان جميعاً.

إذاً، لم تعد الحرب مزاحاً. لقد صارت الآن عندهم. أرسل مفوّض المنطقة المساعد الأسيرَ إلى فوي في تلك الأمسية نفسها. صارت البلدة هادئة؛ وانقطع الكلام.

مع مرور الأيام الأولى من الحرب، تلك الأيام المفعمة بالشائعات

وبحوادث معزولة عزّزت تلك الشائعات، بدأ هنود البلدة يشعرون بالذعر لعدم قدرتهم على حسم أمرهم: الرحيل (وترك كلّ شيء)، أم عدم الرحيل. كان الموخي يأتي إلى المفوّض المساعد كلّ يوم ملتمساً النصح والاطمئنان وآخر الأنباء. كان الوضع مربكاً لهذا الرجل الذي لديه أقارب في موشي وتانغا ودار السلام.

«لقد قصف البريطانيون دار السلام. ألا يعرفون أن فيها رعايا بريطانيين؟ عائلاتنا، وإخوتنا!».

صار المسجد يعمل زمناً إضافياً، من أجل مزيد من الصلوات، وحتى يلجأ الناس إليه عند الحاجة، فضلاً عن كونه مكاناً يمكن الذهاب إليه التماساً للنصح. ظلَّ الشاب بيبا وعروسه محصورين في البلدة ولم يرحلا لشدة خوفهما.

في إحدى الليالي، بين الرابعة والخامسة صباحاً، كان مسجد الشامسي غارقاً في صمت عميق - ذلك الصمت الذي كان مرتادو المسجد يقولون إنه أعمق من صمت الليل. كانت ساعة للتأمل لا يُسمع فيها حتى صوت التنفّس لأن التنفّس نفسه كان مضبوطاً، مسترخياً، حتى تتمكّن القوة الروحية «كونداليني» من الصعود من العمود الفقري إلى الرأس. ما كان يُسمع في المكان غير صوت سعالٍ جافّ ينفجر من حين إلى آخر، فيبتلعه الصمت مثلما يبتلع المحيطُ الذي لا آخر له حجراً أُلقي فيه. في تلك الليلة، كان من الممكن للذهن الغارق في التأمل أن يحسب صوت أول انفجار في البعيد سعالاً. لكن صوت الرشاشات انطلق أيضاً، را-تا-تا، وكذلك فرقعة البنادق. فانتبه الجميع وبضمنهم أكثرُهم غرقاً في تأمّل «الوجود الكلي». انتهى الصمت، وامتلأ الليل زفراتٍ وسعالاً وصيحات في الخارج؛ وصار كلّ ذهنٍ منشغلاً بالحياة والممتلكات والأطفال، تعذِّبه الحاجة إلى معرفة ما

يجري وإلى معرفة ما سيجري. لكن تلك الساعة كانت مقدّسة، وكان لا بدّ لهم من مواصلة جلوسهم. انتظر الموخي إلى أن دقّت الساعة الخامسة قبل أن يشعل المصابيح. صلّوا صلاة مستعجلة؛ وبعدها طلب منهم الموخي أن يذهبوا إلى بيوتهم وينتظروا ما يقوله ممثّل الحكومة.

صار إطلاق النار البعيد متفرّقاً مع قدوم الصباح. ثم وصل إلى البلدة عند الظهر راكبُ درّاجة يحمل أنباء. استولى الألمان -مئاتٌ منهم- على مركز الحدود خلال الليل، ثم هاجموا بلدة تافيتا عند الصباح الباكر. انسحب مفوّض المنطقة المساعد لوغلان مع شرطته متجهاً إلى فوي. وقد وصل الألمان الآن إلى تل سالايتا الذي هو نقطة استراتيجية قريبة من تافيتا. وبعد ذلك، جاءتهم أنباء القادمين على طريق فوي مع حوائجهم وأطفالهم وعرباتهم اليدوية. ظلّ بعض القادمين في البلدة، وتابع الآخرون طريقهم. ظلّت البلدة في حالة توتّر. لم يظهر رجال فوج الرماة الإفريقي الملكي، ولم تأتِ أخبارٌ عنهم. استمرّ الأمر هكذا حتى الليل عندما أتت شائعات قالت إن الرماة وصلوا إلى فوي، وإنهم الآن في طريقهم إلى بورا الواقعة على مسافة عشرين ميلاً. كان هواء الليل مثقلاً بالشكوك. امتلأ مسجد الشامسي من جديد، وجلس الجميع يصغون إلى ما يقوله لاجئ من تافيتا. وأما امرأتا الإرسالية اللتان كانتا ترفضان النزول إلى كيكونو التماساً للأمان فيها، فقد انسحبتا الآن إلى فوي.

نام آلفِرد كوربين نوماً متقطّعاً في تلك الليلة. كانت تحدث أشياء كثيرة؛ وكانت أشياء كثيرة جداً تبدو ممكنة الحدوث. صوت إطلاق البنادق يأتي من بعيد؛ وتأتي صيحات وأصوات بكاء أطفال وامرأة تتوسل في مكان ما. وفي ذهنه، كانت تتردّد أصداء الرشاش، را-تا-تا. راحت مشاهد الهرج والمرج في ذلك اليوم تكرّر نفسها مرّة بعد مرّة. وفوق هذا كلّه -كأنه لم

يكن كافياً- لم يستطع كوربين منع نفسه من التفكير في المعارك الجارية في أوروبا. ومن التفكير في أسرته.

لقد تقاعد أبوه واستقرّ في ديفون. ومضت شهور منذ آخر مرّة تلقّى فيها شيئاً من شقيقيه - كينيث في نياسالاند، وروبرت في الهند. تساءل في نفسه عن الأثر الذي ستتركه الحرب على حياتهم، وعلى حياته. بدا له مرجّحاً أن الحرب ستنتهي في عيد الميلاد. لكن ذلك كان مجرّد تخمين. ألغت آن زيارتها إلى إنكلترا وتطوّعت في أحد المستشفيات في نيروبي.

وفجأة، سمع ضرباتٍ ثقيلة على الباب. ظنّ أن النهاية قد أتت... على الأقل، في هذه البلدة الحدودية، بلدة كيكونو. منح نفسه لحظة حتى يرتدي ثيابه. كيف سيستسلم؟ وماذا سيقول؟ وعندما فتح الباب، دخل رجلٌ طويل القامة حاملاً في يده مصباحاً، فتجاوزه. تبعه رجلٌ إفريقيّ أقصر منه. كان المصباح قد صار على الطاولة، واستدار كوربين ليواجه المقتحمين. بقي الباب مفتوحاً. أحسّ بالهواء البارد، وسمع أصوات رجال آخرين في الخارج. أمامه، كان ماينارد واقفاً، مرتدياً ملابس عسكرية، واضعاً يديه على خصره وقد علت وجهه ابتسامة عريضة وراحت عيناه تلمعان... لعلّهما تلمعان من الشرب. بدا له نحيلاً، مهزولاً. كان قد أزال شاربه، لكنه لم يحلق ذقنه منذ بضعة أيام.

«النقيب ماينارد! لماذا...».

«هات شراباً، يا صديقي، وهات معلوماتٍ أيضاً!».

أتى كوربين بالويسكي والكؤوس.

«أظنّك لست مع المنسحبين؟».

«لست معهم. أتيت مباشرة من مومباسا، عبر فوي. استخبارات. إدارة الأمن العام، إن كنت تريد معرفة هذا».

كان الإفريقي الذي دخل مع مايناردِ مرتدياً كانزو وقبعة. كان واضحاً أنه سواحيلي. دُعي الرجلان اللذان في الخارج إلى الدخول. كان أحدهما في ملابس فروي من قبيلة تايتا؛ وأما الآخر فكان صومالياً في بدلة كاكية اللون.

قال ماينارد متنهّداً: «المكان يعجّ بالعملاء. من فوي إلى مومباسا. لا بدّ أنك عرفت بالتخريب الذي لحق بخط السكة الحديدية. أُطلقت النار على قطارنا القادم من مومباسا. فقدنا رجلاً، وأسرنا منهم اثنين».

كانت الحرب نعمةً ربّانية بالنسبة إليه، لعبة جرى تصميمها في مكانٍ ما، ثم وُضعت أمامه حتى يلهو بها. متى عاد إلى هذه البلاد؟ لم يمضِ أسبوعان على بدء الحرب - لا بدّ أن وزارة الحربية قد جعلته يعود سريعاً لأنه يعرف المنطقة جيداً.

«كم سيطول بقاؤك؟».

«لن يطول. نريد أن نتحدّث مع رجل هنا. واحد من عمّال النقل: نور محمد».

بدا كوربين حائراً.

«بيبا»، قال السواحيلي. كان اسمه سوماري؛ وبدا عليه نفاد الصبر.

«لماذا؟ إنه من الشرق الألماني في طريقه...».

«تماماً. يمكن أن يكون جاسوساً».

«بالتأكيد، لا!».

«بالتأكيد؟»... نظر إليه ماينارد نظرة مستطلعة، فلم يستطع كوربين الإجابة بأي شيء.

«يكفي أن تدلّنا على بيته، يا صديقي!».

«إنه هناك، إلى جانب المسجد. أظن أن رجلك يعرف المكان». قال كوربين هذا ثم جلس إلى الطاولة.

أنهى الزجاجة خلال انتظاره. لم يكن يعرف ما ينتظره. كان محدِّقاً في الفراغ أمامه عندما سمع صرخة، أو صرختين أول الأمر، ثم سمع صوت بابٍ يُغلَق بعنف. وبعد ذلك، سمع صيحاتٍ أخرى، وصرخة فتاة. إنها مريامو.

نهض كوربين لكي يذهب إليهم، ثم أرغم نفسه على التوقّف. أدرك أنه غير قادر على فعل أيّ شيء.

كان صراخ بيبا مسموعاً في البلدة كلّها. لعلّه يبالغ في الصراخ؛ لكن من المؤكّد أن هناك سبباً كافياً لجعله يصرخ. بدا له أن تلك الدراما مستمرة من غير نهاية، لكنه ظلّ ينتظر انتهاءها مثلما كانت البلدة منتظرة. بدت له البلدة هادئة هدوءاً غير معتاد.

وأخيراً، سمع أصواتاً قادمة: كلام وصوت كلب، وخطوات مقتربة. وقع حذاء ماينارد على الشرفة. دخل الغرفة كما يدخل المنتصرون. جلس على كرسيّ. كان كوربين واقفاً ينظر إليه ليرى ما إن كان هناك ما يشير إلى تعرّق أو تعب. أيّهما كان يضرب الآخر؟

«أعطِني شراباً!».

«هل كان الرجل جاسوساً؟».

«لا أظن هذا. لكنه الآن جاسوس. جاسوسٌ لنا!».

«بعد الضرب؟!».

«لا تكن عاطفيّاً! الفتى قويّ. وهو يعرف أن هذا كان ضرورياً. سوف يستفيد من الأمر كثيراً»، ابتسم ابتسامته الأرنبية، «سمعت أنك تعاني الوحدة هنا... هذه أوامر لك من فوي!». قال هذا ووضع مغلّفاً في يد كوربين.

مركز فوي
15 آب 1914

عزيزي كوربين،

حامل هذه الرسالة هو النقيب ماينارد من إدارة الأمن العام - أظنّك تعرفه. سوف يُطلعك على الوضع. عليك إغلاق المركز والذهاب إلى فوي. أرجو أن تعطيه ما يلزمه من رجال، وأن تجلب معك من يبقى لديك من عناصر الشرطة. صادِر البغال المتوفّرة وأودِعها عند ف. كوي، آمر فوج الرماة الإفريقي الملكي في نورا.

المفوّض الإقليمي
و. س. هوبسون

قال ماينارد: «لا بدّ لوجود مركز حكومي هنا أن يجتذب هجوماً ألمانياً، لأن من شأن هذا أن يكون نصراً دعائياً. هذا ليس جيداً بالنسبة إلينا؛ ومن الممكن أن يؤدّي إلى تمرّد ضدّنا. لوبلان موجود الليلة في مبويوني. يمكنك الانضمام إليه في الصباح».

«نعم، سأفعل هذا. سأبدأ الاستعداد الآن».

«بالمناسبة، لقد التقيت بعض كشّافيك. لقد درّبتَهم تدريباً جيداً».

«صحيح... إنهم مجموعة جيدة. يعرفون عملهم».

«من الممكن أن يكون ذلك الكشّاف من قبيلة ياو الذي أسرتَه أول جندي من جنود الأعداء يقع في الأسر في شرق إفريقيا. لقد أخبرنا الكثير عن العمليات الجارية. أحسنت صنعاً!».

نام ماينارد في الغرفة الاحتياطية خلال ما بقي من ساعات الليل. وفي

الصباح التالي، التقى فومفراني وكشافته، وضمّهم إلى الفريق العامل معه، ثم جعلهم يأتون إليه بالفتى بيبا.

لم يأخذ كوربين معه إلا الأوراق الأكثر أهمية. وأما بقية الأوراق، فقد أحرقها، أو وضعها في صناديق. وفي الصباح الباكر، دعا إلى اجتماع وجهاء البلدة، فأكّد لهم أن ما من سبب يدعوهم إلى الخوف وأن البلدة ليست موقعاً ذا قيمة عسكرية. قال لهم إنهم يجب أن يكونوا مستعدّين للإخلاء إذا اقترب القتال.

وعندما رحل، أحسّ كأنه هاربٌ من المعركة.

11

كان البيت الذي أقام فيه بيبا مع عروسه، ذلك البيت الذي له واجهة محلّ صغيرة في جدار غرفة المعيشة والنوم، ملكاً لخال زوجته، الموخي جمالي. كان ذلك الرجل القويّ في مجتمعه قد أخرسَ رشيداً، زوج والدة مريامو، وجعله يكفّ عن إطلاق الشائعات في ما يتعلّق بليلة الزفاف. هدّده بالطرد من البلدة، وعمل على جعل الأهالي يُظهرون الاحترام للعروسين. وعندما جاءت أنباء الحرب، حصل بيبا على موافقة مفوّض المنطقة المساعد على بقائه في البلدة ومزاولة العمل في المتجر الذي صار يبيع التوابل والكيروسين وزيت الكوبرا والتبغ. وعلى غرار بقيّة الرجال، خصّص بيبا بعض الليالي للمشاركة في الدوريات التي تتجوّل في محيط البلدة.

لم يطُل به الأمر قبل أن يجعل نفسه يتصالح، جسدياً، مع زوجته. فمع ازدياد عدد الأيام التي مضت على زفافهما، كان انزعاجه لقلّة براءتها في تناقصٍ مستمر. يتزوّج الرجال نساءً أرامل، أو مطلّقات - ذكّره الموخي بأن نبيّ الله نفسه خير مثال على ذلك. لقد جرى أخيراً كلامٌ بينه وبين جمالي، كلام رجل لرجل. وعلى نحو دنيوي تماماً، هزئ جمالي من أفكاره المسبقة التي كانت لديه. ذلك الدمُ الذي يعرضونه على الملأ بعد

ليلة الزفاف... أتظنّه يكون دائماً دماً من المرأة؟ لماذا لا يكون دم دجاجة؟ لماذا لا يكون دم رأسٍ من الماعز؟

حدث ذلك في ساعة متأخرة من الليل. في النهار السابق، كان بيبا وزوجته قد استيقظا على أصوات البنادق البعيدة في وقت مبكر، قبل الفجر، فظلّا منتظرَين يترقّبان ما سيحدث بعد ذلك مثلما ظلّت بقيّة البلدة مترقّبة. ونحو العاشرة صباحاً، أتت أنباء تقول إن الألمان قد استولَوا على تافيتا. بدأ اللاجئون يصلون بعد وقت قصير من ذلك: لاجئون فارّون من تافيتا ومحيطها. مرّت كيكونو بلحظات قلق، لكن الأمر لم يلبث أن اتضح سريعاً: لم يقترب القتال منهم؛ ليس بعد. كانت الأعمال تسير سيراً حسناً. وفي المسجد، جرت ذلك المساء مناقشات كثيرة تناولت الإخلاء المحتمل لسكّان البلدة؛ لكن تلك المناقشات لم تتوصل إلى شيء. والآن، بعد العودة من ذلك الاجتماع، وبعد إحصاء المال الناتج عن مبيعات اليوم، أوت مريامو وزوجها إلى فراشهما.

استيقظ على صوت ضرباتٍ قويّة على باب البيت، من جهة المتجر. شتم القادم، كائناً من يكون، ثم تذكّر الحرب ومفاجآتها التي يصعب توقّعها فأصابه القلق. لم يكن مرتدياً إلا نصف ملابسه عندما فتح الباب ورفع المصباح ليرى القادم. دخل المكان رجلٌ عملاق منتعلاً حذاءً ضخماً، ثم دخل رجلٌ آخر، ثم آخر. أوروبي وإفريقيان اثنان. دخلوا من غير أيّ كلمة، وكانت وجوههم مكفهرّة مصمّمة. توزّعوا من حوله مباعدين بين أقدامهم الراسخة على الأرض واقفين وقفة موحية بالسلطة. انصبّت نظراتهم الاتهامية عليه. راح ينظر من واحد إلى آخر، بدأ قلبه يخفق فزعاً وهو يخمّن -على نحو غامض- الجريمة التي يمكن أن يكون قد ارتكبها. تململت زوجته خلف الستارة القماشية. خطا خطوةً في ذلك الاتجاه،

لكن الإفريقي المرتدي الكانزو دفعه فأعاده إلى مكانه (كان واضحاً أنه سواحيلي). خطا الإفريقي الآخر في اتجاهه، كان صومالياً، وقرّب وجهه من وجهه ناظراً في عينيه. لم يُتَح لبيبا أن يستجيب لهذه النظرة، كان يتراجع مبتعداً عنها عندما صفعه الصومالي النحيل الطويل صفعةً هائلة على وجهه. سقط بيبا إلى الخلف مضعضعاً. لقد أفقده حضور الرجل الأبيض شجاعته كلّها.

«ماذا! لماذا فعلت هذا؟!». كانت الصفعة مؤلمة. وضع يده على خدِّه. لم يقولوا شيئاً. ظلّوا واقفين ينظرون إليه مثلما كانوا من قبل.

كتم بيبا ألمه، وهجم عليهم من غير كبير تصميم... كأنها محاولة للانتهاء من الأمر، كيفما يكن. لقد كان من الشرق الألماني؛ ولا بدّ أن هذه هي جريمته. وقد نقل رسائل ذات مرّة. لكن هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا من هذا الجانب أو من ذاك. هل وصل الألمان حقاً؟

عندما هجم عليهم، ضربه السواحيلي على بطنه بشيء صلب -لعلّه هراوة!- وسمع مريامو تصرخ. كان جسده منطوياً على نفسه لشدة الألم، لكنه أحسّ بالقوة نتيجة حضورها فمدّ يديه إلى أقرب زوج من السيقان، لكن ضربة أخرى حصدته حصداً. كان مستلقياً على الأرض، على جانبه، فاقترب منه الأوروبي خطوة واحدة ومسّ بطنه بحذائه، كأنه يداعبه. استنشق نفساً عميقاً، وأشاح بوجهه منتظراً الضربة التي كان واثقاً من أنها ستسحق معدته وتنهي أمره. صرخت مريامو من جديد وجرت صوب الرجل المبتسم وراحت تضربه بقبضتي يديها. دفعها الرجل فسقطت على الأرض. أخذها الإفريقيان إلى الفناء الخلفي، ثم عادا.

كان الأوروبي في بدلة عسكرية. رجل ضخم الرأس بدا لبيبا شديد القوة... بدا قادراً على تحطيم جدار. كان مغبرّاً كلّه، وجهه متوقّد، وعيناه

محمرّتان كعيني شخص ثمل. كان شعره أصفر اللون، وكان مبتسماً ابتسامة كبيرة كأنه شيطان يشعّ رعباً ووعيداً.

وقف الإفريقيان ينظران إليه.

بدأ الأبيض الكلام: «قل لي!».

«ماذا فعلت؟ يا إلهي... أنا لم أفعل شيئاً».

«أنت تعمل مع الألمان، مع أعدائنا!».

«ناتا! لا!».

«أنت كاذب!» ضغط الحذاء على بطنه، ثم تراجع مستعدّاً لرفسه... حذاء أسود قويّ عليه طبقة من طين أحمر جاف. ظلّت عينا بيبا معلّقتين برمز السلطة، برمز الرعب؛ وأطلق أنيناً وهو ينتظر الأسوأ. وفجأة، أحسّ ألماً شديداً ساحقاً ظنّ معه أن عالمه قد انتهى. أطلق صرخةً لم يستطع ضبطها. ثم فقد وعيه. وعندما استيقظ، ظنّ أنه تلقّى ركلةً على خصيته، ثم أدرك أن الرجل قد داس إحدى يديه فهرس أصابعها على الأرض.

«هل تنكر أنك كنت تعمل مع الألمان؟».

«لا».

«ما العمل الذي قمت به؟».

«جلبت رسائل إلى مركز البريد».

«من أعطاك تلك الرسائل؟».

«بوانا رودولف. مرة! مرة واحدة فقط!».

«أنت كاذب».

«لا».

«ماذا فعلت بتلك الرسائل؟».

«جلبتها إلى هذه البلدة، إلى مركز البريد... إلا رسالة واحدة من بوانا لينز في مبويوني... كنت أحملها في جيبي - أخذها مني بوانا كوربين».

«أخبِرنا عن بوانا رودولف».

«إنه ألماني. ما الذي يمكن أن أعرفه عنه؟».

هل يرتدي ملابس عسكرية؟ هل لديه كلب؟ كم خادماً لديه؟ هل يعمل في البيت؟ في أي وقت يستيقظ صباحاً؟ هل هو متزوّج؟ هل يصاحب النساء؟ أيّ نساء؟

«أخبِرنا عن خميسي، العربي».

كان خميسي عربياً منفياً من السودان فرّ عندما صدر أمرٌ باعتقاله بتهمة نشاطات تحريضية، أو بتهمة العداء لبريطانيا. ترك خلفه زوجة وطفلين. لكنّه الآن معلّم يتزعّم جماعة صوفية في موشي حيث صارت لديه زوجة أخرى وثلاثة أطفال. وهو متمتّع بحماية الألمان هناك.

«معلّم قرآن. زوجة وثلاثة أطفال. زوج طيب».

«وماذا أيضاً؟».

الآن، كان الرجال قد جلسوا.

«صحيح. إنه يعرف رودولف. إنهما صديقان. تجري بينهما أحاديث طويلة في الليل. يختلفان أحياناً، وقد اختلفا خاصة عندما حاول الألمان إرغام الناس على أكل لحم الخنزير. يذهب بوانا رودولف إلى خميسي ليلاً ليشرب القهوة عنده... إنهما صديقان... أليس العرب أقرب إلى الأوروبيين؟».

كم يبلغ أطفاله من العمر؟... أرادوا معرفة كل شيء. كم عدد تلاميذه؟ هل يكتب رسائل؟ وهل يقوم بيبا بإيصال تلك الرسائل؟ هل علّمه؟ وماذا يعلّم أيضاً، غير القرآن؟

أخبرهم بيبا بما يعرفه عن خميسي، عن العربي الذي جعله صديقاً له.

انحنى الرجل الأبيض صوب بيبا ونظر في عينيه.

«أصغِ إليّ جيداً! اسمي ماينارد، نادِني فيسي! - ماذا؟».

قال بيبا متوتراً: «فيسي». وقال في نفسه إنه يبدو مثل فيسي (ضبع)... هذا العملاق الذي يتصيّد ضحاياه ليلاً!

«لا بأس. من الآن فصاعداً، ستدير دكّانك هنا. وسوف تكون مركز بريد لي. أنت مركز البريد الخاص بي. أنت. في ظلمة الليل، في المتجر -في أي وقت- ستتلقى رسائل مني. قد تتلقّى طروداً. وسيقول لك الرجل الذي سيأتي بها: 'هذه عظامٌ للضبع'. ومن حين إلى آخر، سيأتي إليك رجل ويقول...»، نهض واقفاً ونظر إلى رفاقه، «ماذا... ماذا سيقول الرجل لمركز البريد؟».

راح الصومالي يهرش رأسه.

قال السواحيلي: «فيسي يريد عظاماً حتى يأكلها».

«جيد. سيقول لك...»، نظر الأبيض إلى بيبا من جديد، «'فيسي يريد عظاماً حتى يأكلها' وسوف تعطيه كل ما لديك مما يخصّني. أومي إيليوا؟ هل فهمت؟».

«فهمت».

«ستتلقّى مالاً».

«فهمت».

«وإذا أخبرت أحداً عن الفيسي...»، أخرج ماينارد مسدسه، «ريزازي. في الرأس. اسأل هذين الاثنين عن عدد أبناء قبيلتك الذين شنقتهم في مومباسا!».

ظلَّ بيبا صامتاً.

«اسألهما!».

«ما عدد الذين شنقهم هذا الرجل؟».

قال الرجل السواحيلي: «اثنان. وأطلق النار على كثيرين في تانغا. وقتل واحداً بيديه... شخصاً رفض أن يطيعه. هذه اللعبة خطيرة. هذه حرب. ليست للحياة قيمة. ونحن الآن نخدم الملك جورج».

قال الضبع: «لقد سمعتَه. لا تقُل أيّ كلمة لأيّ شخص، ولا حتى لنفسك... وإلا!»، التفت إلى السواحيلي من جديد.

«وإلا فإن البومة ستسمعك وتنقل كلامك!».

«مشاعيري»؛ قالها الضبع مع ابتسامة ساخرة... «شاعر».

12

كان اسمه الحقيقي نور محمد - وأما «بيبا» فهو لقب أطلقه أهل الحي على عائلته، فظلَّ هذا اللقب عالقاً به. كان لقباً يجعله يشعر بنوع من الافتقار إلى شيء ما: إلى أن يحظى بالاحترام، وإلى مكان يكون موطناً حقيقياً له.

لم يكن إلا هندياً من موشي: بلدة قريبة من جبل كليمنجارو، سادتُها هم الألمان.

لم يكن يعرف مكان ولادته، ولا تاريخها، لا بحسب التقويم الألماني، ولا العربي، ولا الهندي. وأما والده، فلم يتذكّره إلا رجلاً طويل القامة نحيلاً، له لحية مشعّثة وابتسامة لطيفة ترتسم على وجهه عندما يجذب وجنتي الصبي ويقول له: «دهابو». والده لم يمت - لم يكن نور محمد يتذكّر حزناً، ولا قبراً، لقد رحل أبوه، فظلَّ الصبي حاملاً هذه الفكرة في نفسه كأنها تشوُّه يخفيه عن العيون. كان يتذكّره «دهابو»؛ وعاش سنين طويلة متوقّعاً عودته: سيعود إلى البيت ذات يوم فيجده في انتظاره.

وأما عن أمه، فكان يتذكّر أيام الهطل الغزير في الفصل المطير، عندما ينهمر الماء من شقوق السقف القشّي، فيقف، مع أمه، مرتجفاً في بركة من الماء وأخته ممسكة بيده. مشهد آخر: يتذكّر نفسه مقرفصاً في المرحاض مع أمه ينظر إلى التيار السريع المندفع الذي يضرب الأرض من تحتها

فيمتزج بتيار بوله الصغير المتعرج. عبثاً كان ينظر إلى ظلمتها بحثاً عن عضو مثل عضوه... صفعته على يده عندما أشار بإصبعه إلى تلك المنطقة الظليلة الغامضة.

كانت أمه جميلة: وجهٌ بيضاوي، ووجنتان ناعمتان، وذقن مدبّبة. عيناها كبيرتان كأنهما بلحتان. كانت لها ابتسامة في تلك الأيام. وركان عريضان وصدرٌ دافئ ورائحة هي كل شيء عنده. ساقان قويتان وانتفاخ بسيط عند بطنها. كانت أكثر الأشخاص غموضاً في حياته، وأكثر شخص يحبّه.

وكان هناك أعمام كُثر. فاتح، صاحب المتجر الأبيض، القصير، ذو الابتسامة العصبية وبقعة الشعر الأبيض في مؤخر رأسه. كان يجلب له السكاكر، دائماً. المعلّم موراني، الرجل الطويل ذو الصوت الحاد، الذي كانت له تفاحة آدم كبيرة بارزة ظنّ الأطفال أنها لوزة عالقة في حلقه. وآخرون أيضاً. كان يمعن النظر فيهم عندما يأتون زائرين، فيُلقون إليه بقطعة نقود معدنية صغيرة حتى ينصرف، ثم تغلق أمه الباب وهي تنظر إليه نظرة كانت كافية للبوح بالسرّ عندما كبر فصار في عمر يسمح له بفهم تلك النظرة. وكان من آخر الأعمام طبيبٌ يوناني صار زائراً منتظماً، إلى هذا الحدّ أو ذاك، وكفّ الآخرون عن المجيء. عندئذٍ، صارت أمه تخرج متأنّقة بعض الشيء، وصارت امرأةً لها حضورٌ ملموس. كان اليوناني كبير السن له وجهٌ متطاول هادئ. وكان يرتدي بدلة دائماً. يأتي بعد الظهر، خلال فترة القيلولة عندما تكون البلدة هادئة. وكان يأتي معه أحياناً بزجاجة مياه غازية. وعندما يخرج من البيت، يكون نبأ قدومه قد انتشر، فيجد نساء وأطفالاً ينتظرونه في الخارج حتى يعرضوا عليه عللهم وأمراضهم. كان رجلاً لطيفاً يصغي إلى شكاوى أكبر عدد ممكن من الأمهات. كانوا يعيشون

في القسم السواحيلي من البلدة، ذلك القسم الذي فيه نساء وأطفال كثر، ورجال قلائل. كانت أمه تحضّر الزلابية والشعيرية المحلّاة والحلوى التي يدعونها «بوبيتي» -كلّ ما يناسب مزاجها وحاجتها- لتبيعها بين الجيران.

كان الفتى قوياً، كبير الجسم؛ وكان لقب بيبا (يعني برميل) وصفاً منطبقاً عليه تماماً، فصار خاصاً به وحده. كان الأولاد يضايقونه بالجري خلفه والصياح: «بيب - بيب - بيب - بيبا!».

وذات يوم، عندما كان في الخامسة عشرة، رمى اليونانيَّ الخارجَ من البيت بحجر، فأصابه وأسال دمه. نادته أمه إلى الداخل ووبّخته توبيخاً شديداً. قال لها رأيه فيها، بالضبط. جرحتها هذه الإهانة فضربته بالمكنسة. انتزع المكنسة من يدها ودفعها إلى الخلف، فسقطت على الأرض خائفةً مذهولة. كان شاباً قوياً تنظر عيناه نظرة سخط إلى هذا العالم الذي لا يريده.

إن كان قد عرف الإحساس بالذنب في الشهور والسنين التي تلت ذلك، فإن ذلك الإحساس لم يكن آتياً من أنه رفع يده على أمه - صارت تلك الضربة هي الفعل العنيف الوحيد الذي يُحلّها من ذنوبها في عينه، صارت عقوبة خطيئتها. لقد كان لديه إحساسٌ غامض بالذنب نتيجة عجزه، نتيجة كونه غير قادر على فعل شيء يرفع أمه وأخته من تلك المرتبة الوضيعة إلى سويّة محترمة بين الهنود.

على غرار فتيان كثر في موشي: كان بيبا يجني بضعة قروش عندما يعمل حمّالاً في محطة القطار. وعلى غرار غيره من الفتيان، صار أكثر حذقاً وعدوانية مع تقدّمه في السن، وصار يعرف كيف يدفع الآخرين ويصيح ويزاحم بقية الفتيان المجتمعين من حول القطارين الأسبوعيَّين العاملين على خط تانغا - موشي. وعلى غرار شبّان كثيرين، ترك ذات مرة القطار المتجه إلى تانغا يأخذه معه في عربة الدرجة الثالثة إلى حيث

شاء. ترك القطار المحطة وقت الغسق؛ وظلَّ بيبا زمناً طويلاً ينظر إلى الجبال والأراضي المعشبة وهو منطلقٌ عبرها فوق العجلات الحديدية مسحوراً بالإيقاع الهادر للقاطرة التي تعمل بالنار. استيقظ من غفوته عند الفجر ونظر مذهولاً إلى الخضرة الكثيفة والتربة الرملية وأشجار النخيل ونساء محجّبات وضعن أوشحة بوي بوي سوداء، ورجال يرتدون الكانزو والكوفية: عالم مختلف! عالم الساحل البطيء غير المكترث الذي جعلته تلك الساعات المبكرة من الصباح، عندما التقاه، أكثر بطئاً وتكاسلاً.

لم تكن هناك جبال يراها؛ وكانت الحرارة أشبه بثقل فوق الرأس. بدت لغته عرجاء خرقاء في هذه المدينة حيث يمكن أن يكون الكلام مهنة، وحيث للكلمات تلاوين كثيرة... يمكن استخدامها للجرح، أو للملاطفة؛ للاتهام، أو للمضايقة؛ للتوبيخ، أو للمزاح. لكن تانغا كانت جميلة. هناك المحيط الذي يستطيع المرء أن يسير على شاطئه أو أن يجلس وينظر إليه. هذا ما كان يفعله كثيرون يجلسون وينظرون إلى البعيد أو إلى السفن أو الجزر التي خلف الميناء، حيث يرسلون السجناء لشنقهم. كانت هناك بيوتٌ لها شرفاتٌ كبيرة وصغيرة. وكانت البيوت الحجرية البيضاء عند البحر بيوت الألمان. هناك حدائق فيها أجمات وأزهار، وكذلك شارع النزهة عند الشاطئ حيث يسير الرجال والنساء في الأمسيات، وحيث تعزف فرقة موسيقية كلّ يوم أحد.

وجد لنفسه وظيفة كنّاس في فندق كبير اسمه كايزهوف، على شارع النزهة عند البحر. كانت السيدات الألمانيات يأتين في الصباح لتناول المرطّبات والحلويات؛ ويأتي الرجال بعد الظهر لاحتساء البيرة. كان يخشى أولئك الناس مثلما يخشى أشخاصاً كثيرين. كان يراهم مدهشين في ملابسهم البيضاء الساطعة، وفي تحفّظهم الشديد. كان يرى النساء نظيفات نقيّات كالملائكة، ورديات الوجوه، نضرات الأعين. كنّ يتركن

من خلفهن روائح الزهور ومواد التجميل. يذهب لتنظيف الأرض تحت الطاولات والكراسي، فيكنس أعقاب السجائر وفتات الطعام، وقصاصات من ورق. وفي مناسبات نادرة، لكنها ممكنة الحدوث، كنّ يتركن خلفهن شيئاً. أعاد ذات مرة محفظة متروكة (ليس قبل أن يأخذ منها ورقة نقدية واحدة - متواضعة القيمة)، فتلقّى مكافأة. ومن وظيفة الكنّاس، انتقل إلى جرّ عربة ريكشا استأجرها من هندي. كان يعمل في محيط فندق تايزهوف، وخاصة في الليل عندما يذهب الألمان للشرب والرقص، وتكون هناك فرصٌ لتلقّي بقشيشٍ دسم أو للعثور على محفظة سقطت من أحدهم (كان يعيدها دائماً بعد أن يأخذ منها ورقة نقدية واحدة). كانت المخاطرة الوحيدة في هذا العمل هي الذهاب في طريق وعر أو مصادفة حفرة غير متوقعة، فقد تناله شتيمةٌ مقذعة، بل حتى يمكن أن تناله صفعةٌ أحياناً.

كانت السفن كثيرة في الميناء. وروافع تشبه زرافات عملاقة أليفة لخدمة تلك السفن. يأتي إلى الشاطئ زوّار كثيرون، ويغادره كثيرون غيرهم. كانوا يأتون من أماكن مختلفة -مومباسا ومومبي وزنجيبار ودار السلام وبيرا وعدن وهامبورغ- كان قد سمع بأسماء بعض هذه المدن، ولم يسمع ببعضها الآخر؛ لكن أسماءها كلّها كانت تجعلها تبدو له مدناً رائعة بعيدة. لم تكن تلك الأماكن واقعة ضمن أيّ «ترتيب» يعرفه عقله. وقد ظلّت سنين كثيرة غامضة الموقع بالنسبة إليه، إلى أن صار لديه ابنٌ جعله يرى العالم ذات يوم، على الخريطة.

وبعد ثمانية شهور في تانغا، أقنعه مساعد حلّاق عجوز بأن دار السلام هي المكان الذي تبدأ فيه الحياة الحقيقية لكلّ شابّ؛ فحظُّه كامنٌ هناك، بالتأكيد. اشترى بطاقة سفر على سفينة ذاهبة إليها، وترك السفينة تأخذه إلى مكان أكثر بعداً عن موطنه.

وجد في دار السلام كلّ ما كان موعوداً بأن يجده. فعندما أُنزل من السفينة إلى القارب ذي المجاذيف الذي يأخذ المسافرين إلى الشاطئ، رأى المباني الحجرية البيضاء الجميلة ممتدّة أمامه، ورأى سياراتٍ تسير في شارع معبّد عند البحر. رأى في البعيد شكل رجل داكن اللون واقفاً وحيداً، في مكان مرتفع فوق الأرض، فأدرك مذهولاً أنه تمثال فوق قاعدته. وخلف هذا القسم الهادئ من المدينة، القسم الحكومي الذي عبره متوتراً، كان البازار الهندي النابض نشاطاً بشوارعه الممتلئة بشراً وحميراً وخيولاً، بل حتى بقراً وماعزاً. بالتأكيد، هنا مكمن الفرص! ولكن، كيف يعثر عليها؟ من هو في هذه المدينة، ومن يعرفه؟ سوف يكتشف بعد حين أنّ «عليك أن تكون شخصاً ما». لم يبقَ لديه من مدّخراته إلا القليل؛ ومن المؤكّد أنه غير كافٍ لعودته إلى موطنه مثلما جاء منه.

أمضى عدّة شهور في عدد من الأعمال المتفرّقة. بدأ في البناء حيث كانت هناك حاجة دائمة إلى حمّالين. عاش في الحي السواحيلي الواقع ضمن القسم الإفريقي من المدينة. وفي يوم من الأيام، كان يعمل عند قصّاب، فلاحظه صاحب متجرٍ هنديّ عرض عليه أن يصير ملاحظاً في متجره الذي كان قريباً من مسجد الشامسي في الحيّ الهندي. وبناء على توصية ربّ عمله الجديد، أُعطي بيبا مكاناً للنوم في نُزل في الشارع نفسه يقيم فيه المسافرون ومن لا بيوت لهم. وفي الليل، يجلس أصحاب المتاجر المحلّيون أمام هذا النزل فيشوون اللحم والذرة ويلعبون الورق. نام بيبا عدة ليالٍ في غرفة كبيرة منعزلة مخصّصة لرجال جماعة الشامسي الخرفين أو المصابين باكتئاب شديد لا شفاء منه. لكنه بدأ يذهب إلى المسجد (كان قتل الوقت دافعه الأول إلى ذلك، لأن لا شيء لديه يفعله في المساء) ففوجئ عندما كافؤوه فجعلوه ينام مع النزلاء الطبيعيين. صار الناس يتحدّثون إليه ويسألونه عن موطنه بعد أن أدركوا أنه يعرف لغتهم.

أرسلوه إلى التاجر الغني المحترم شيث سانجي، فجعله التاجر يعمل عنده. كان لدى شيث سانجي متجرٌ في طريق باغامويو يبيع سلعاً متنوّعة. وفي كل يوم كانت تأتي إلى متجر شيث سانجي من البلدات والقرى الساحلية القريبة من دار السلام ثمار الكوبرا المجفّفة المقشورة في أكياس كبيرة من الخيش. وكان عمل بيبا أن يزن الكوبرا عند وصولها في الصباح، ثم يأخذ الأكياس إلى آخر المتجر ويرمي كميات منها في معصرة الزيت، ثم يجمع الزيت الناتج عنها ويزيل ما يطفو على سطحه من بقايا وقشور. وغالباً ما كان يجلس بعد الظهر قبالة الجمل معصوب العينين الذي يدير المعصرة ماضياً في دوائر متتالية لا نهاية لها -جمل صبور يواصل السير بإصرار متوهّماً أن للطريق نهاية- وكان يشعر بالشفقة عليه. أين يظن هذا الحيوان نفسه ذاهباً؟ هل يتوقّع مكافأة في نهاية رحلته؟ وهل يأمل في لقاء عشيرته؟ هل يأمل في الحصول على السعادة والأطفال، وعلى الراحة عندما يكبر في السن؟ تنتهي رحلة الجمل كل يوم عندما يزيل بيبا العصابة عن عينيه ويفكّ الحبل الذي يربطه بالمعصرة (كان يسميه بهدور، «شجاع»). وبعد ذلك، يزيل الزبد عن سطح الزيت ويسكبه في علب وزجاجات ويذهب مع خادم لكي يبيعه.

قال الواعظ في المسجد ذات مرة (كان ينصح أولئك الشباب كلهم الذين التجؤوا تحت جناح الجماعة) إن العبرة من قصة الجمل هي أن الإنسان الذي فقد موطنه لا يعرف أين يسير، ولا أين يذهب. كان بيبا يفكّر في موطنه ويسأل نفسه عن الوقت الذي سيصير فيه قادراً على توفير المال الكافي للعودة. كان يفكّر أيضاً في ما سيفعله هناك إن عاد. لكنه كان قادراً أيضاً على البقاء والاستقرار في هذه المدينة، مع هذه الجماعة التي تبنّته.

كانت دار السلام مكاناً مهماً. لقد كانت مقرّ الحاكم الألماني. وكان فيها أوروبيون كثر، وموظفون ومسؤولون كُثر يفضّل بيبا تحاشيهم جميعاً.

كان زوّار المدينة يتدفّقون آتين من الميناء. وفي دقائق معدودة، كان من الممكن إفراغ شارعٍ كلّه من الناس حتى يمرّ واحد من علية القوم - على صهوة حصان، أو في سيارة، أو في عربة ريكشا، أو حتى سائراً على قدميه. وكان هناك أشخاصٌ (أكثرهم من المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل) يركعون على ركبهم لشدّة خوفهم عندما يمرّ ذلك الشخص ويمسّون الأرض بجباههم حتى لا يثيروا غضبه. في هذا المكان، هناك أنظمةٌ وقواعد، وهناك قوة شرطة مهمّتها أن يحرص الناس على طاعتها. وقد كان مهماً من تكون، وما هو انتماؤك: لست إلا قبيلتك وطبقتك ودينك وجماعتك. كان شيث سانجي موخياً في ما مضى؛ وهو الآن كبير جماعته. ومن موقعه خلف طاولة البيع في متجره، كان يراقب بعناية ما يجري في النزل الواقع إلى الناحية الأخرى من الشارع، إلى جانب المسجد. أُنذر نزلاء كثيرون بالطرد من النزل وبفقدان عملهم إذا لم يتحسّن مستوى التزامهم ومداومتهم على الذهاب إلى المسجد. وكانت بين الجماعات الهندية المختلفة منافسة وعداوة وغيرة أتت معها من بلدها القديم. كان شُبّانٌ وحيدون كثيرون يضطرّون إلى تغيير ولاءاتهم؛ وكان الشباب المستجيبون ينالون ما يستحقّونه من مكافأة: عروس، أو عمل مستقلّ.

لم يكن بيبا قادراً على أن يحدّد، بثقةٍ، ما إن كان واحداً من جماعة الشامسي أم لا. لكنه، مثل كثيرين سبقوه، قبِل الشامسي وتلقّى المكافآت الناجمة عن ذلك: عمل ومكان للسكنى، وكذلك رجال بارزون يكفلونه عند الحاجة. وإذا أراد، فإنّ له عروساً. هذا يعني أنه كان قادراً على أن يصير الجمل الذي يتوقّف عن الدوران إذ يصل إلى آخر رحلته ويجد له مستقَرّاً.

لكن شيئاً غريباً حدث ذات يوم، فظلّ بيبا سنوات كثيرة يرى فيه نوعاً من «نداء القدر». كان جالساً ينظر إلى الجمل يدور ويسير من غير نهاية في

رحلته المفضية إلى لا شيء، فسمع صوت طبل في الخارج. كان واضحاً أن الصوت آتٍ من الشارع، ومثله جلبة الناس غير المعتادة. ذهب لينظر عبر مدخل المتجر الجانبي. موكب صاخب يقترب من المكان ترافقه كالعادة جموعٌ من الصِّبْية ومن متبطّلي المدينة. رجلٌ في بنطلون وقميص يضرب على الطبل ضربات بطيئة منتظمة. عندما بلغ الرجل وسط تلك البقعة، صار إيقاع الطبل سريعاً. توقّف الرجل وتوقّف من معه جميعاً. نظر الرجل إلى شريكه الواقف قريباً منه. أعلن الرجل الذي يرتدي الكانزو ما يلي: «توناوتاكا وبكازاي! توناوتاكا وبكازاي! دار - مورو - كليمنجارو، دار - مورو - كليمنجارو. أنديشيني، أنديشيني!». بعثة أوروبية من المبشّرين ذاهبة في جولة تفتيشية في المنطقة يلزمها حمّالون للسير على الأقدام في اتجاه الشمال من موروغورو إلى كليمنجارو. سوف يُدفع لهم ثمن السفر في القطار من دار السلام إلى مورو. وسيتلقّون أجراً يومياً طيّباً.

فما كان من بيبا إلا أن استسلم لإغراء الرحيل، مثلما فعل مرّتين قبل ذلك، وسجّل اسمه مع القافلة. لكنه قال لنفسه إنه عائد إلى موطنه هذه المرة. فبالمال الذي ادّخره، وبالأجر الذي سيكسبه من عمله حمّالاً مع القافلة، سيصير قادراً على بدء حياته في موشي.

***

كان تركه موطنه سهلاً، لكن العودة لم تكن كذلك.

ثلاثمئة رجل في رتلٍ واحد يسير متعرّجاً عبر الغابة. رجالٌ يغنّون وقد حمل كلٌّ منهم على رأسه سبعين باونداً، فضلاً عن رمح، أو سيف قصير، أو هراوة. يكون غناؤهم نشطاً أول الأمر، ثم ينخفض إلى ترداد منغّم بطيء، وذلك بحسب من يكون قائد تلك الجوقة. كانوا موزّعين إلى جماعات تضمّ الواحدة منها خمسة عشر رجلاً يأكلون وينامون معاً تحت إمرة رجل واحد. ومن كل أربع جماعات، تتشكّل جماعة أكبر.

وأما قائد الحمّالين جميعاً فكان اسمه ليفينغستون. كانوا يستيقظون قبل الفجر فيغتسلون ويقضون حاجاتهم ويحزمون أمتعتهم. وبعد تناول طعام الإفطار، ينطلقون بعد سماع إشارة من الطبل وينشدون «فونغا سفاري! فونغا سفاري!». فلنحزم أمتعتنا ونمضي؛ أوه، فلنحزم أمتعتنا ونمضي! من يقول هذا؟ من يقول هذا؟ المزونغو يقول هذا!

لا تزال النباتات رطبةً بفعل الندى، ولا يزال الهواء بارداً بعض الشيء، ولم تكد الشمس تنظر إليهم عبر الأغصان.

كان هذا عملاً من أجل الحمّالين المتمرّسين، فهكذا كان معظم أولئك الرجال. كانوا يتحدّثون بإعجاب عن الزمن الذي سبق مجيء القطار، عندما كانوا يذهبون في رحلات طويلة تستغرق شهوراً. وقتذاك، كان البيض معتمدين عليهم اعتماداً تاماً. وأما بالنسبة إلى بيبا، فكان كلّ يوم يبدو من غير نهاية. ما المسافة الباقية؟ وما الزمن الباقي؟ كان يطرح هذين السؤالين كلّ صباح حتى عندما يكون الآخرين منطلقين في غنائهم الحماسي. كان عليه أن يدفع نفسه دفعاً حتى يتمكّن من الاستمرار؛ وذلك لأن التأخّر عن القافلة يمكن أن يكون خطيراً. ولكن، مع حلول الظهر، يحلّ الهدوء، حتى أقوى الرجال وأكثرهم تمرّساً، يقتربون من نقطة نفاد قواهم كلّها. قلوبٌ تخفق عنيفاً، ورقاب متوترة، وظهورٌ جلّلها العرق، وحلوق جافة. يقترب الحمّالون (الذين تبعثرت تشكيلتهم الآن) من موقع التخييم حيث توقفت طليعة الموكب المؤلّفة من ستة أوروبيين وبضعة رجال آخرين مختارين. تبدأ كل جماعة طهو طعامها، فلا يأكلون قبل الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر. وبعد ذلك، يجلس الأوروبيون تحت شجرة أو إلى جانب صخرة أو أجمة، ويقرؤون مقاطع من الإنجيل على مجموعة صغيرة من الحمّالين، في حين يهتم الآخرون بشؤونهم. وبعد ذلك، تبدأ عملية متدرجة بطيئة لإعداد وجبة المساء.

أُشعلت نيرانٌ كثيرة في المخيّم؛ وبدأ شيّ اللحم والذرة والكاسافا. ومن حول تلك النيران، كان الرجال يغنّون ويصيحون ويلعبون الباو والورق، ويدخّنون التبغ ويتناوبون رواية القصص والأحجيات، ويناقشون طريق القافلة في اليوم التالي. ينطلق صوت الطبول بعد تلك الوجبة، وتهدأ النيران شيئاً فشيئاً، ثم لا يبقى غير صوت الغابة في الليل -غناء الحشرات، ونعيب البوم، وزئير أو قباع من حيوان بريّ- ومن حين إلى آخر، يُسمع سعال الحارس الليلي الجاف أو أنين حمّالٍ أضناه التعب.

كانت للأوروبيين خيامٌ منفصلة. وكان اسم كبيرهم بوانا تورنر: رجلٌ ضخم طويل القامة له شارب معقوف مخيف المظهر وعينان خضراوان ناريتان. تعود علاقته مع ليفينغستون، قائد الحمّالين، إلى عهد بعيد. وقد سافرا معاً مرات كثيرة... سافرا مرات كثيرة من الساحل إلى أوغندا قبل بناء الخطوط الحديدية. كان ليفينغستون رجلاً قصير القامة مفتول العضلات. وكانت هناك شائعة يتناقلها الرجال مفادها أن شعره أبيض اللون في حقيقة الأمر (علامة أكيدة على أن أيامه صارت معدودة)، لكنّه يصبغه بلون أسود مستخدماً مادة زوّده بها البوانا الكبير.

وقعت حوادث في الطريق. هاجمهم اللصوص مرّتين. وفي كل مرة من المرتين، أصاب رمحٌ الرجل الأخير في الرتل (وقعت إصابة قاتلة واحدة)، وسُرق حملُه. وذات مرّة، وجدوا أنفسهم محصورين بين جرفين شديدي الانحدار. تساقط فوقهم مطرٌ من الحجارة لم يتوقف إلا عندما أطلق ليفنغستون النار من بندقيته. عالج البيض حمّالَين اثنين من لسعات الأفاعي. جُلد رجلٌ لأنه خالف الأوامر. وهجر القافلة بضعة حمّالين.

دخلوا موشي بعد تسعة وعشرين يوماً.

دخل حمّالو ليفنغستون البلدة وهم يغنّون بأعلى أصواتهم كأنهم

جيشٌ منتصر: «هيوماما، هيوماما! ... هيوماما، تونا رودي!». ها قد عدنا، يا أمنا! استقبلتهم البلدة استقبالاً ملوكياً لأنهم سينفقون فيها مالاً. أُضيئت المصابيح في المتاجر، وانتشر باعة الفاكهة في الشوارع. وجاء بائعو القهوة يصلصلون بفناجينهم. وفي المساء، شوى المضيفون اللحم والكاسافا والذرة من أجل المسافرين. صار هواء البلدة مشبعاً بدخان نار الحطب والدهن الذي يقطر فيها، برائحة العطور والكحول المخمّر محلّياً، برائحة الكاري والأسماك المجفّفة.

أقام المبشّرون خيمةً في أرض مكشوفة، ثم وضعوا أمامها طاولة؛ فهنا سيدفعون أجور حمّاليهم. وقف الرجال في الصف، فكان الواحد منهم يتقدّم ويقول اسمه للبوانا الكبير الجالس إلى الطاولة حتى يضع إشارة على القائمة عند اسمه، ثم يستلم المال من ليفنغستون الجالس إلى جانب البوانا.

كان الوقت لا يزال مبكراً، بعد الوداع. لقد قُدِّم الشاي للرجال، وكان بيبا سائراً في طريقه مفكّراً في كيفية بدء حياته في موشي. كان يسير مرحاً عبر الجماعات المتكاسلين من حمّالين انتهت مهمّتهم فوقفوا يثرثرون هنا وهناك. كان يشعر بالثقة وبأن لديه ما يلزمه من أجل تلك البداية التي كان في شوقٍ إليها.

«أنت، بيبا! أيها البدين... ماذا ستفعل؟».

«سأفتتح دكّاناً... ملعونة أمك!».

جرى السائل خلف بيبا، لكنه تفاداه.

كانت الخيمة التي تلقّى أجره أمامها لا تزال مفتوحة. لم يبقَ أمامها الآن غير الكرسيّ القابل للطيّ. ألقى بيبا نظرة داخل الخيمة فلم يرَ أحداً. مرَّ بالكرسي فرأى عليه محفظة. تلفّت من حوله سريعاً، ثم أخذ المحفظة.

لكنّه لم يسِر أكثر من خطوتين بعد ذلك حتى سمع صوتاً -صوتاً إنكليزياً جداً- يقول له بصوت مرتفع: «أنت، أيها اللص! توقّف!».

رماه معاونو ليفنغستون على الأرض، وبدا له أن جبلاً من رجال قد اجتمع فوقه. أخذ أحدهم المحفظة من بين يديه وأعادها إلى مالكها الذي كان واقفاً من غير حركة على مسافة من الرجال الذين اجتمعوا على بيبا.

«ما هذه؟ ما هذه؟».

«محفظة البوانا».

«ماذا فيها؟».

«كيتابو! (كتاب)».

«كتاب فقط!».

«إنه الكتاب الذي يكتب فيه بوانا تيرنر كل ليلة على نور المصباح».

في زحمة الأيدي، خرج الكتاب (كان مفكّرة يومية) من المحفظة التي سرعان ما صارت بين يدي صاحبها. ظلّ ذلك الشيء العجيب، الكتاب، بين أيدي الرجال إلى أن فرغ آخر واحد من فتحه وإلقاء نظرة على الكتابة التي في داخله، وإعادته، إلى المبشّر، بكلّ احترام، محمولاً على الكفّين معاً.

عندما نهض بيبا واقفاً ظنّ أن ظهره قد انكسر. لماذا هجم عليه أبناء الكلاب بهذه الطريقة؟ ماذا سيعطيهم هذا البوانا الأبيض؟! كأنهم لم يسرقوا شيئاً في حياتهم كلّها!

قال المبشّر بنبرةٍ صارمة وقد وضع الكتاب والمحفظة تحت ذراعيه: «تعال هنا! ما اسمك؟».

«بيبا، يا بوانا».

«هل تعرف عقوبة السرقة؟».

«خمسا-إشرين»، قالها الشاب في سرّه فزعاً... خمسٌ وعشرون جلدةً بالسوط. ألم وإهانة. هذه هي العقوبة الألمانية. ألهذا عدت إلى موطني؟ «الرحمة، يا بوانا. لن أفعلها بعد الآن!».

كان ضابطٌ ألمانيّ قد سمع تلك الأصوات فجاء في اتجاههم. لعلّ أحداً ناداه. اتجهت العيون كلها إليه.

قال ليفنغستون بسرعة مخاطباً رئيسه: «اترك لي الصبي، يا بوانا. هذه مسؤوليتي!».

شدّ ليفنغستون أذن بيبا، ثم انتحى به جانباً وكال له عدّة صفعات على وجهه وهو يقول: «يا غبيّ، يا بربريّ! أيّ أمٍّ تلك التي أنجبتك؟!... هل تعرف أن الألمان يمكن أن يقطعوا يديك الاثنتين؟».

سار الألماني والمبشّر مبتعدين. وقال الرجال الذين كانوا ينظرون إلى ما جرى إن هذا العجوز، ليفنغستون، قد يكون بالفعل شخصاً يصبغ شعره، لكنه شخص يحب الناس. اذهب يا بيبا؛ اذهب الآن إلى بيتك، وافتح دكّانك، أيها الهندي! أنت رجل محظوظ!

كانت عودة بيبا إلى موشي في شهر كانون الثاني 1913. نظر من حوله فأدرك أن هذا المكان لم يعد موطنه. مرّ اثنان وعشرون شهراً منذ رحيله عنه. لكنه صار الآن حاملاً في داخله تجربة عالم مختلف. فما هذا المكان إن هو قورن بتانغا التي فيها فندق كايزرهوف، أو بدار السلام ومقرّها الحكومي وجبالها وشوارعها المزدحمة والزائرين الواصلين إليها كلّ يوم من أنحاء الأرض؟ أين هم أمثال شيث سانجي القادر على إصدار الأوامر إلى جماعة كاملة بإشارة من إصبعه... حتى الألمان، يظهرون له احتراماً. إن في تلك الأماكن مالاً، وفرصاً يمكن اقتناصها، ومكانة يمكن شراؤها. لكنه صار هنا، في موشي؛ وهنا سيبدأ عمله. لقد فتح الجمل عينيه فوجد

نفسه في موطنه. لكنه كاد يفقد يديه الاثنتين قبل أن يفتح عينيه. أفزعته هذه الفكرة.

كانت أمه تعيش الآن في غرفة في بيت متداعٍ. صارت تبدو أكبر سناً، وأكثر ثقلاً. بدأ شعرها يشيب؛ وبدت الخشونة على يديها وقدميها. لقد أرخت العنان لنفسها. ترك الطبيب اليوناني البلدة، وصارت الآن تطبخ لرجل هندي وتقوم لديه ببعض الأعمال المنزلية. وأمّا أخته زينب فقد رحلت مع أحد التجّار.

***

كانت قطعة من قماش خيمة ممزّقة مرفوعةً على أعمدة خشبية أول دكّان يفتتحه بيبا. صار يبيع السجائر وأعواد الثقاب والزيت والشاي والتوابل والسكّر.

كان في البلدة رجلٌ نافذ اسمه خميسي العربي. جاء هذا الرجل من الشمال، من السودان. كان طويل القامة، حسن المظهر، ذا جلدٍ غير داكن. وكان يرتدي دائماً بنطلوناً وسترة كاكيّين يضع فوقهما كانزو قطنياً أبيض جميلاً. وعلى رأسه الذي بدأ يفقد شعره، كان الرجل يضع كوفية سواحيلية بيضاء، مطرّزة بخيوط ذات لون بنّيّ خفيف. بعد ظهر كلّ يوم، كانت تقام في بيت خميسي «مدرسة قراءة القرآن»، فتنبعث أصوات الأولاد وهم يردّدون حروف الأبجدية: ألف باء تاء، وترنّ في الشارع المجاور. كان أبناؤه الثلاثة من بين أولئك الأولاد. وكان على علاقة طيّبة بالكومندانت، بوانا رودولف، بل كان الناس يقولون أيضاً إن خميسي يتكلّم الألمانية، أو إن الكومندانت يتكلّم العربية، أو الاحتمالان معاً. وفي أمسيات الخميس، كانت جماعة الكريمية الصوفية تقيم لقاء سرّياً يعرف الجميع بأمره (لم يكن لقاء مفتوحاً يذهب إليه من يشاء)، وذلك في الطابق الثاني من مبنى

محلّيٌ متميّز، فيناقشون الحديث ويردّدون هامسين عبارات مقدّسة. كان خميسي يأخذ الكومندانت إلى هذه اللقاءات. وكان الناس يتهامسون بأشياء كثيرة عن أولئك الصوفيين، ومن تلك الأشياء أن من الحكمة ألا يشارك المرء في ذلك الهمس المتعلّق بهم. كان شبابهم عنيفين على نحو خاص - يخرجون إلى الشوارع مرتدين الكانزو بعد ظهر أيام الجمعة، ويضعون طرابيش خضراء على رؤوسهم.

وفي أحد الأيام، توقّف خميسي عند دكّان بيبا وسأله ما إن كان يستطيع أن يحصل له على شيء من تبغ الغليون الإنكليزي. كلّمه بصوت لطيف هادئ؛ وما كان في هيئته أيّ تكبُّر. فوجئ بيبا بحضوره فأجابه، نعم، بوانا، سأجلبه لك. وبعد ذلك، صارت زيارات خميسي إلى متجر بيبا منتظمة. كان يظلّ واقفاً ويتحدّث معه بعد شراء التبغ أو الثقاب أو السكر - رجلٌ جدّيّ، لكنّه صاحب ودّ وابتسامة متحفّظة.

كان بيبا معتزّاً بهذه الصداقة. إنها علامة على قبوله تاجراً في البلدة يحظى باحترام الناس على الرغم من أنه لا يزال شاباً. توسّعت أعماله بفضل هذه الرعاية الجديدة وما تتمتع به من نفوذ. وفي كل يوم جمعة، صار بيبا يرسل إلى العربي كيساً من التمر تعبيراً عن امتنانه. وحتى يُظهر للناس مكانته الجديدة، لم ينتقل إلى بيت أفضل (من شأن هذا أن يكون تصرّفاً غبيّاً مكلفاً)، بل أتاح لأمه أن تشتري ثياباً أفضل وأن تسير في الشوارع معتزّة بنفسها. صار يأخذها إلى مسجد الشامسي. لقد تعلّم في دار السلام أن على المرء أن يكون له انتماء، أن تكون له جماعة. بل إن خميسي العربي نفسه سأله ذات يوم: «من هم جماعتك؟»، فوجد بيبا نفسه يتردّد ويتلعثم، م يجيبه: «الشامسي». ففي حقيقة الأمر، كان الشامسي هم الذين تبنّوه ي دار السلام، وهم الذين علّموه حكاية الجمل معصوب العينين والعبرة

المستفادة منها. كان خميسي راضياً بتلك الإجابة. وهكذا، قبل بيبا، مرة أخرى، هذه الأخوّة التي لها شبكات ممتدة في البلدات الكبيرة والصغيرة ضمن جماعات أصحاب المتاجر... يصلّي كلٌّ منهم للإله نفسه، بالطريقة نفسها التي كان عليها أسلافهم، ويعمل من أجل وجوده ومستقبله في إفريقيا. كان يرى أناشيدهم وصلواتهم أقل غرابة مما تراه أمه التي أسقطت من حسابها أيّ أسئلة عن ماضيها أو أصولها، وأيّ جماعة كانت لها في ما مضى. صارا يذهبان كل يوم، بانتظام، إلى المسجد الواقع عند آخر الحيّ الهندي. وكان ذلك المسجد يشغل نصف بناء يملكه الموخي المحلي. كانت جماعة الخميسي صغيرة فاحتضنتهما احتضاناً دافئاً. وصارت سمعة العنف السابقة التي لازمته مزيةً له لأن جعفر باهي، موخي البلدة، كان يعيش خوفاً حقيقياً (وإن لم يكن خوفاً شديداً) من اغتياله بعد أن قُتل في الآونة الأخيرة موخي واحدة من البلدات الساحلية الصغيرة.

كان طبيعياً أن تصير مسألة زواج هذا الشاب أمراً مطروحاً، وأن تتبنّاها الجماعة سريعاً. وقد كان ممتناً لذلك. لم تكن في موشي فتيات للزواج عدا ابنتا الموخي اللتان لا تزالان صغيرتي السن، وكانتا «محفوظتين» من أجل تزويجهما في بلدات أكبر شأناً. لكن للموخي علاقاته. وقد لجأ إلى تلك العلاقات لجوءاً شبه فوري.

في أحد أيام الجمعة، استبقى جعفر باهي جماعته بعد الصلاة مثلما يفعل كلّما أراد إعلان أمرٍ ذي أهمية خاصة. تحرّك كل من استطاع التحرّك لكي يتنحّى جانباً ويجد جداراً يسند إليه ظهره. عندما يكون لدى الموخي ما يعلنه، يبدأ الرجال إلقاء النكات، وتصير النساء نافدات الصبر. كان الموخي معروفاً بأساليبه غير العملية، وبميله إلى إطالة الكلام.

وفي هذه المرة، أكّد الموخي على منافع التعاون بين المقيمين في

بلدات منطقة كليمنجارو. من الواضح أن هناك منافع تجارية، وفرصاً لتشغيل الشباب والأشخاص الجدد؛ وهناك أيضاً -توقّف لحظة بطريقة ذات دلالة- منافع من ناحية فرص الزواج، وهكذا دواليك. ثم إن من الممكن تبادل المعلومات المتصلة بأساليب عمل الحكومة على جانبي الحدود. أعلن الرجل أن وفداً سيذهب إلى كيكونو في بادرة حسن نية؛ فهي بلدة جديدة على الجانب البريطاني، لكنها تكبر سريعاً؛ وهو يعرف أن الموخي في تلك البلدة (اسمه جمالي) رجل جيد. طلب متطوّعين للذهاب في ذلك الوفد، فتقدّم رجلان.

التفت جعفر إلى بيبا: «وماذا عنك أنت؟ ألا تحب الذهاب لاستطلاع الفرص هناك؟».

تلعثم الشاب الذي لم يعتد هذا اللطف: «كم تطول الرحلة؟ هل البلدة بعيدة؟».

لكن جعفر باهي شرح لبيبا في وقت لاحق، وكان مرحاً مبتهجاً: «أنت، أيها الساذج الأبله! الوفد ذاهب من أجلك أنت. هناك فتاة أريد أن تراها في كيكونو!». هذا ما كان الشاب ينتظر سماعه.

في صباح أحد أيام شهر تموز، انضمّ جعفر مع إخوانه الثلاثة في الوفد إلى جماعة من المسافرين إلى مركز الجمعية التبشيرية الكنسية في تافيتا. أمضوا الليل في تلك البلدة الحدودية، ثم انطلقوا إلى كيكونو صباح اليوم التالي، فوصلوها في ساعة متأخرة من بعد ظهر اليوم الذي تلاه. استُقبِلوا هناك استقبال كبار الوجهاء؛ ورافقهم الناس إلى داخل البلدة حيث أقامت لهم الجماعة وليمة استعدّت لها قبل وصولهم.

وبعد إقامة الصلاة في مساء اليوم التالي، ظلَّ أفراد الجماعة جالسين في المسجد، وألقى الموخي جمالي على مسامعهم كلمة ترحيبية طويلة

شدّد فيها على التعاون بين البلدات المجاورة، تماماً مثلما كان الكلام الذي قاله جعفر في موشي. كان بيبا نافد الصبر يسترق نظرات في اتجاه ناحية جلوس النساء. لقد قال له جعفر أن يترقّب ظهور الفتاة، لكنه لم يصفها له. وُوجه بيبا بنظرة معادية، أو نظرتين، فأشاح بوجهه؛ لكنه ظنّ أنه لمح الفتاة التي اختارها له من هم أكبر سناً. كان لها وجهٌ ضيّق وأنف أكثر طولاً مما هو شائع. كانت ملامحها موحية بشيء من الشرود، تماماً مثلما كان إيحاء ملامح وجهه، كما يظن. لكنها كانت جميلة. أعجبته، فامتلأ قلبه أملاً وترقباً. ثم بدأت أفكار كثيرة تهاجم ذهنه: هل توافق؟ وهل توافق أسرتها؟ وماذا سيطلبون منه؟ لم يكن يعرف العادات، وماذا يمكن أن يحدث إذا لم توافق عليه؟ ليس في هذه الأماكن فتياتٌ كثيرات للزواج... لقد ذُكر له احتمال العثور على عروس مناسبة في مومباسا؛ وهناك فتاة سواحيلية في موشي هي ابنة واحدة من صاحبات أمه.

كان توّاقاً إلى الاستقرار البيتي، وإلى أن يحتضنه دفء فراش الزوجية؛ وقد عقد العزم على أن يكون أباً جيداً. إن الزواج نهاية ناجحة لفترة الشباب: هذا ما يحضّ عليه الدين؛ وهذا ما تقرّه الجماعة. فبالزواج، يصير المرء مقبولاً لدى الجميع: تأتي النساء إليه ويكلّمنه ويدعونه «بهاي» -أخي-، ويجعله الرجال ندّاً لهم.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، عندما بدأت النساء رقصة الغاربا[1]، أشار الموخي جمالي إلى الفتاة المعنيّة، فشعّت عينا جعفر باهي سروراً ورضا كأنه هو من يتزوّجها.

سأله جمالي: «حسناً! ماذا تقول؟».

التفت جعفر باهي إلى بيبا، وسأله: «ماذا؟».

«ماذا...»؛ كان هذا كل ما استطاع قوله.

ضحك الرجلان. قال جمالي: «لقد وقع. سوف أعتبره متقدّماً للزواج منها!».

قيل لبيبا إن الفتاة اسمها مريامو. إنها ابنة أخت الموخي جمالي. كان طلب الفتاة من أبويها إجراءً شكلياً. أعلنت الخطوبة في بيت جمالي حيث قُدّمت الشربات للوفد الصغير القادم من موشي.

وبطبيعة الحال، لم يكن بيبا قد تكلّم مع الفتاة بعد. لكن عيونهما تلاقت لحظة وجيزة خلال هذا الاحتفال. كان في عينيها أمل، وكان فيهما قبول... بل لعلّه رجاء. ظلّت عيناه متعلّقتين بهما عندما أشاحت بوجهها. هل رأيت في عينيه ميلاً إليها؟

عاد جعفر باهي وبيبا ورفيقيهما إلى موشي بعد رحلة إلى مومباسا حيث اشترى بيبا بضاعة لبيعها في موشي. كان الطلب كبيراً على العطور والمصنوعات الزجاجية، وكذلك على أقمشة الخانغا ذات الطراز الحديث، أي تلك التي كُتب عليها آخر الأمثال، أو آخر الأحجيات. كانت النساء يتزاحمن على هذه الأقمشة ويتسابقن على المتاجر التي تبيعها؛ وبالطبع، اشتروا أيضاً حلاوة وفاكهة مجفّفة لتقديمها إلى المهنّئين. سافروا بالسفينة من مومباسا إلى تانغا، ومنها بالقطار إلى موشي. سوف تغطّي أرباحهم تكاليف رحلتهم، وتزيد.

***

قال جعفر باهي لبيبا: «ألا ترى أن عليك الذهاب إلى كيكونو؟».

مرت على الخطبة ثلاثة شهور. وقد اتفقوا آنذاك على أن يقترح أهل العروس موعداً للزفاف. لكن شيئاً لم يأت من كيكونو حتى الآن؛ بل إنهم سمعوا مرة خبراً يقول إن الفتاة كانت مريضة.

كان الشاب وأمه ضيفين لدى الموخي في ليلة جمعة. جلسا أمام

المتجر مع مضيفهما وأفراد أسرته. وكان مصباحٌ يلقي عليهم نوراً شاحباً يرسم لهم ظلالاً مترافصة على الأرض. كانت فتاة جالسة في مدخل المتجر المفتوح.

قال بيبا ردّاً على سؤال من جعفر: «هل يعني هذا أنك سمعت منهم شيئاً؟».

«لا. لكن عليك استغلال هذه المناسبة للذهاب إليهم».

كانت المناسبة المعنيّة هي «أفراح» تشرين الأول التي تقام احتفالاً بذكرى تأسيس الجماعة في الهند.

«اذهب لكي تعرف الأمر بنفسك. إذا كانت الفتاة مريضة، فيجب أن يكون لديك علم بهذا. وإذا لم تكن مريضة، فما الذي يؤخّر الزفاف؟».

سأله بيبا: «هل تأتي معي؟».

«لا. لست قادراً على الذهاب. لكن، كن رجلاً واذهب وحدك. قل لهم إنك تحمل لهم تحيات وهدايا بمناسبة الاحتفال. وقل لهم إنك سمعت بمرض الفتاة. سوف يتفهّمون هذا. لا تعُد من غير تحديد موعد للزفاف. تذكّرْ هذا! عليك أن تصرّ على تحديد الموعد!».

قال بيبا إنه سيذهب. تبادل نظرة سريعة مع أمه التي رفعت رأسها أخيراً. ليست لها أيّ مكانة حقيقية لدى الجماعة؛ وليس لها ما تقوله في هذا الأمر.

ألم يكن يحاول تحديد موعدٍ للزفاف عندما قال له راعياه الروحيان، أبواه الدنيويان، إنهما سيخبرانه بالموعد؟ لكن جعفر نسي ذلك كله. «من الأفضل أن تتولّى الأمر بنفسك، يا صاحبي. هناك شباب كثيرون يبحثون عن زوجات جميلات؛ وقد يسبقك واحدٌ منهم».

قال له جعفر: «هناك جماعة تسافر مساء غد إلى تافيتا، اذهب معهم!

ثم إن خميسي أيضاً يسأل عنك -لديه مهمة لك- قلت له إنك شاب جيد. وإن عروسك تنتظرك تحت شجرة المبويو».

وفي عصر اليوم التالي، جاء الموخي مع العربي إلى متجر بيبا.

«بيبا، كيف حالك؟».

«مرحباً، مرحباً يا شيخ!».

قال خميسي لبيبا بعد أن طلب ما أراد شراءه: «يقول إمامُك إنك مسافر إلى الجانب البريطاني».

«صحيح، بوانا».

«يريد بوانا رودولف تكليفك بمهمة. وسوف يجزل لك العطاء إذا قمت بها!».

التقت عينا خميسي عيني بيبا لحظة وجيزة. كان معنى هذه الرسالة واضحاً. بوانا رودولف هو الآمر الألماني في موشي. ليس لبيبا خيارٌ غير الذهاب لرؤيته.

كان الألماني رجلاً قصيراً بديناً يرتدي بدلة كاكية اللون وله شعر قصير ولحية خفيفة. بدا لطيفاً، وتكلّم بصوت منخفض؛ لكن المرء لا يستطيع الحكم على ألماني من مظهره.

قال له وهو ينهض ويضع يديه على خصره: «آه، محمد. سمعت أنك ذاهب إلى كيكونو. زيارة ميمونة!».

تمتم بيبا بشيء ما وهو واقف أمامه.

«أريد منك خدمة، يا محمد!».

«نعم، بوانا!».

«اسمع. إن لديهم هناك خدمة بريدية ممتازة. أريد منك أن تسلّم هذه الرسائل في كيكونو. ومن هناك، ستذهب الرسائل إلى فوي، وإلى مومباسا،

ثم إلى العالم. إلى الهند، إلى بلدك الأصلي. وأيضاً، أريد أن تسلّم باليد هذه الرسالة لبوانا لينز في مبويوني. سأدفع لك مالاً مقابل تعبك!».

استلم بيبا كيس الرسائل الذي قُدِّم إليه. لماذا يعهد إليه الألمان برسائل مهمّة؟ فكّر في إفراغ كيس الرسائل في أجمة في مكان ما - بل ربما في المرحاض. لكنهم سيكتشفون الأمر، وستناله عقوبة شديدة.

توقّف في طريق الخروج ونظر إلى حزمة المال التي تلقّاها من بوانا رودولف. كانت أوراقاً نقدية مستعملة، لكنها لا تزال جديدة كتلك التي كان يأخذها من المَحافظ في فندق كايزرهوف في كانغا. هذه مختلفة عن القطع النقدية بشعة الرائحة، المتراخية، الرطبة، التي مرّت بعلب التبغ وصدور النساء وآباط الرجال وأيدي الفلاحين والمشردين. تفحّص النقود، وأحصاها، لم يستطع تصديق كميتها. ظنّ أن هناك غلطة. أربعون روبية! عليه أن يتحقّق من الأمر. من الممكن أن يكون قد تلقّى حزمة نقود غير الحزمة المقصودة. أو، لعلّ ذلك الألماني يختبره. عاد أدراجه آسفاً وقال للكومندانت: «بوانا، لقد أخطأت!». أخرج حزمة النقود.

رفع الكومندانت يده: «لا، لا. إن الحكومة تدفع بسخاء لمن يقع عليهم اختيارها. اذهب الآن!».

قال بيبا لزوجته بعد عشرة شهور من ذلك: «تلك الرسائل هي ما أوقعني في هذه المشكلة؛ وهي السبب الذي أوقعني بين مخالب فيسي!».

ظلّت زوجته صامتة.

قال لها: «ستحدّثينني عن نفسك ذات يوم!».

أدارت وجهها بخجل واحترام وهدوء. بالنسبة إليه، ستظلّ مريامو على الدوام سرّاً غامضاً.

***

في الصباح الذي أعقب زيارة الإنكليزي ماينارد وتابعيه الاثنين إلى بيت بيبا، عاد إليه السواحيلي؛ كان اسمه شوماري.

«أيها البدين، أنت مطلوب!».

سأله بيبا متجهّماً: «من يطلبني؟».

«هل نسيت؟ يطلبك الذي يأكل العظام».

أضاف شوماري: «لقد جرى تجنيدك، يا صديقي. أنت لست حرّاً. لست حراً. ما من أحدٍ حرٌّ في هذه الحرب».

صادفا فومفراتي خارجاً عندما اقتربا من بيت مفوّض المنطقة المساعد. ألقى الرجل نظرة سريعة عندما مرّا به. ثم سار نازلاً التل بخطوات سريعة. تحت الشجرة التي أمام البيت، كان كوربين يتحدّث مع اثنين من التجار. عرف بيبا منذ قليل أن مفوّض المنطقة المساعد سوف يغادر البلدة بسبب الحرب. كان كوربين جالساً على الكرسي وكان يستخدم يديه الاثنتين لتوضيح ما يقوله، في حين كان الرجلان جالسين بصبر على الأرض يستمعان إليه.

كان مايناردر جالساً إلى الطاولة في الغرفة الرئيسية في مقر إقامة المفوّض المساعد. كانت أمامه بضع أوراق وقلم وعلبة ومفاتيح. وكان هناك عسكري عند الباب.

قال شوماري: «بوانا».

رفع ماينارد رأسه. كان يقرأ منشوراً ظهر مؤخراً في البلدة. «آه... نعم، الهندي الذي في البلدة. صندوق البريد».

سأل ماينارد بيبا: «قل لي، هل رأيت من قبل ورقة -غازيتي- مثل هذه؟».

«مثل هذه - نعم - أتت بها زوجتي من بيت الموخي».

«هل تعرف ما هي؟».

«'يقول إمام استانبول...'».

«يعني هذا أنك قادر على القراءة».

«لا، بوانا. زوجتي هي...».

«هل تستطيع القراءة؟».

«لا، بوانا».

«لا أحد يستطيع القراءة؛ لكن البلدة كلّها تعرف ما تقوله هذه الورقة».

كان المنشور قد ظهر في ذلك الصباح حاملاً كلاماً معادياً للبريطانيين. لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعل ماينارد مهتماً بالحديث مع بيبا.

سأله بصوت متزن منخفض: «هل تتذكّر ما قيل لك ليلة أمس؟».

«أتذكّر، بوانا!».

«هل لديك أيّ أسئلة؟».

«لا. لكن...».

«إذاً، بَسّ! ستفعل مثلما قيل لك، وسيسير كل شيء على ما يرام. على كل واحد منا أن يقوم بدوره. سَوا سَوا!».

«سَوا سَوا، بوانا!».

«ولا تفتح فمك بأيّ كلمة، وإلا...».

قال شوماري منهياً الجملة: «ستسمعك البومة».

أعطاه عشر روبيات، وجعله يوقّع على استلامها، ثم صرفه.

خرج من الغرفة. وعندما صار على الشرفة، رأى مفوّض المنطقة الإقليمي واقفاً في الخارج يودّع التاجرين. كان المزونغو مرتدياً ثيابه كلها: سترة بيضاء لامعة، وبنطلون، وقبّعة واقية من الشمس. وبينما كان بيبا

ينظر، قدّم صبيٌّ هدية إلى مفوّض المنطقة المساعد الذي انحنى وصافح الصبي. استدار بيبا مستعدّاً للانصراف عندما رأى كرسياً إلى جانب الباب. كان الكرسي ملاصقاً للجدار، وعليه كتاب.

لا يعرف بيبا أبداً كم بقي ينظر إلى ذلك الكتاب الذي أغراه. من الممكن أن تكون تلك اللحظة كلها حلماً؛ لكنه يعرف أنها لم تكن كذلك. كان الكتاب على الكرسي، قريباً منه. وإلى جانبه قلم. كتاب غلافه أصفر اللون عليه كلمات مطبوعة بالأحمر. لقد تركه مفوّض المنطقة المساعد هناك قبل ذهابه للقاء وفد التجّار المنتظر في الخارج، تحت الشجرة. لم يكن لدى بيبا أيّ شك في أنه كتاب بوانا كوربين. إنه كتاب من النوع الذي كان الرجال المسنّون، الوازي، يدعونه كتاب الأسرار. تذكّر تلك الحادثة عندما حاول، لغبائه وقلة خبرته، أن يسرق محفظة المبشِّر التي كان فيها كتاب مثل هذا. سمع في رأسه صوتاً يقول له بوضوح: «توقّف!». استدار مبتعداً. لا... لن يأخذ الكتاب.

وفي طريق عودته إلى البيت، صادف مريامو مع خانم، زوجة الموخي، كانتا ذاهبتين إلى بيت مفوّض المنطقة المساعد. سألته مريامو: «أين كنت؟».

نظر إليها نظرة عتب سريعة، لكنها لطيفة لأنها أحرجته بهذا السؤال: «أوه، كان المزونغو ماينارد يسألني عن المنشور - إنه قادم من الجانب الألماني، من موشي. كلما انتهت الحرب بسرعة أكبر، كان أفضل لنا». ثم سألها: «أين أنتما ذاهبتان؟».

كان الحرج هذه المرة من نصيب مريامو. التفتت إلى خانم التي قالت له: «لا يزال جزء من حاجاتها باقياً في بيت بوانا كوربين منذ أن كانت تعمل هناك».

قال بيبا وهو يكتم الغضب الذي انفجر من جديد عند تذكّره أن زوجته كانت مع المزونغو: «نعم، اذهبا!»... لكنّه نظر إليهما نظرة استحسان... كيف صارت هاتان المرأتان كأنهما أختين على الرغم من أن إحداهما إفريقية والأخرى هندية!

عاد إلى متجره، وجلس خلف طاولة البيع. لم يستطع منع نفسه من التفكير في مفكّرة مفوّض المنطقة المساعد التي رآها. لو أخذها، لكان ذلك سرقة لشيء شخصي غامض، شيء مكتوب بخطّ لا يستطيع قراءته، بلغة أجنبية. لكنه شفي من السرقة منذ زمن طويل.

وفي وقت لاحق من ذلك الصباح، شاهد ماينارد وفومفراتي آتيين من جهة التل، متوجّهين صوب طريق تافيتا، حيث كان رجال فومفراتي يتحرّكون دائماً باحثين عن دوريات العدو. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، سافر مفوّض المنطقة المساعد تاركاً كيكونو ومعه مجموعة من العسكري والحمّالين، فضلاً عن الكلب بوانا تيم وخمسة بغال.

كان بيبا يقول في نفسه: اكتفيت من كوربين. لا يجوز أن يدخل حياتنا بعد الآن.

***

كيف يتصرّف الصغار في حربٍ دائرة بين قوى كبرى؟ يجيب المثل السواحيلي على هذا بالقول: «عندما يتقاتل فيلان، يكون العشب ضحية».

كان الحكماء يقولون للمتديّنين دائماً: «كن حكيماً في دعائك!». فحتى في أحسن الأوقات، يمكن للدعاء أن يكون غلطة. وفي زمن الحرب، يمكن أن يكون الدعاء غير الصحيح أمراً قاتلاً. ليس الربّ القدير وحده من يسمع الدعاء؛ وليس وحده من يستجيب له! لذا، ليس على المرء إلا أن يلوم نفسه إن حاقت به مصيبة. إن الجواسيس وعملاء الحكومة يُصغون

أيضاً! بدأ أتباع جمالي في كيكونو بداية بسيطة أول أيام الحرب؛ فقد كانوا يتضرعون في مسجدهم مرّتين كلّ يوم بطريقتهم الهندوسية/ الإسلامية ويقولون: «يا ربّ، يا بعل الأرض وسيد الجهات الأرض، اجعل النجاح حليف حكومتنا العادلة!». لكن، هل كان هذا دعاء حكيماً؟

ظهرت منشورات قادمة من الجانب الآخر للحدود كأنها إجابة عن هذا السؤال، فبذرت في نفوس الناس شكّاً واضطراباً. حملت المنشورات لهم نصيحة من الإمام الأكبر في استانبول، «أيها المسلمون، أيها الإخوة! إن حكومة القيصر حليفٌ حقيقيّ لنا! فادعوا له بالنصر وانتفضوا في وجه الإنكليز الظالمين! لا شك أبداً في أن الله سيقيكم شرّ الكفار...». وهكذا، على الرغم من أنها كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها شيوخ كيكونو بالإمام الأكبر في استانبول، فقد راحوا يتساءلون ما إن كانوا قد استعجلوا أكثر مما ينبغي لهم. لقد كان توزيع تلك المنشورات تحت أنوف البريطانيين مباشرة إنجازاً مهمّاً في حدّ ذاته. استجوب الإنكليزي ماينارد عشرات الناس. لكنّهم هزّوا أكتافهم جميعاً: وجدته عندما كنست الأرض؛ رأيته مع فلان؛ أتى به شاب وسألني ما إن كنت أستطيع قراءته له؛ لا، لا أعرف ذلك الشاب. لم يستطيعوا العثور على الشاب على الرغم من دخوله دكاكين كثيرة.

أتت من الصوفيين في موشي، خلف الحدود، رسائل قصيرة باللغة العربية كانت مكتوبة على قصاصات ورق صغيرة تناقلتها الأيدي، «إن الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتِلوا أولياء الشيطان!». قال شيخ البلدة إن هذه آية من آيات القرآن. وقال إنها خطاب من الرب إلى المظلومين. كانت النسخ قليلة، وكان الطلب عليها كبيراً لأن الناس صاروا يستخدمونها لصنع التعاويذ. لم يطرح الإنكليزي أيّ أسئلة لأنه لم يكن في البلدة آنذاك.

وفي مسجد الشامسي الهنود، بدأ الناس يتساءلون أيضاً: من أجل أيّ نصر يتوجّه دعاء إخوانهم على الجانب الآخر من الحدود، دعاء جعفر باهي، موخي موشي؟

راح الانتهازيون يتداولون قصصاً عن هزائم الإنكليز... من المؤكّد أن على المرء أن يدعو لصالح المنتصر! سقطت تافيتا بعد أيام قليلة من بدء الحرب؛ وقد انسحب المفوّض المساعد لديهم لأنه غير قادر على الدفاع عن البلدة. سرت شائعات عن سقوط مومباسا الوشيك: سقطت كيسي الواقعة بالقرب من بحيرة فكتوريا. كانت سفينة الحرب الألمانية، كونيغزبرغ تجوب ساحل المحيط من لامو إلى كيلوا بمدافعها المخيفة وتظهر من الضباب مثل شبح فتدمّر السفن الحربية الإنكليزية. ثم إن الشيطانية الألمانية المخيفة بيبي مالكيا صارت تقود قوة خاصة بها، فتظهر من خلف التلال والأشجار وتوجّه ضربات شديدة إلى القوات البريطانية مخلّفة وراءها جثثاً مقطّعة مشوّهة... جثث المستوطنين البيض خاصة. وفوق هذا كلّه، أتت صور للهزيمة البريطانية المخزية في تانغا.

في تشرين الثاني، أي بعد ثلاثة شهور من اندلاع الحرب، وصلت من الهند، قافلة من سفن الجيش البريطاني حملت اسم «قوة الإمداد الهندية ب». كان هدف القافلة بدء الاستيلاء البريطاني على المستعمرة الألمانية في تانغا. كان ذلك في وقت مبكر من الصباح؛ وبدا أن الألمان كانوا لا يزالون نائمين عندما أنزل البريطانيون قواتهم. راح الضباط البريطانيون يستحثّون جنودهم الهنود، «تشالو! مارو! تالي – هو!». هجم البنجابيون والراجبوت والمدراسيون إلى الأمام مُشْرعين حرابهم، لكنّهم ووجهوا بهجوم عنيف، لا من جانب العسكري الأفارقة، بل من جانب أسراب من النحل. تراجع الهنود مذعورين، فحاول ضباطهم البريطانيين دفعهم إلى

الهجوم من جديد مهدّدين إياهم بالبنادق أحياناً. وبعد أن قام نحل تانغا القاتل بعمله، بدأ الألمان المستعدّون جيداً إطلاق النار على المهاجمين. كانت تلك هزيمة نكراء.

وجدت بضع نسخ من صحف ألمانية طريقها إلى كيكونو (ما عاد أحدٌ يبالي بكيفية وصولها). كانت في تلك الصحف صور ضباط بريطانيين أسرى وقد غطّوا وجوههم بأيديهم، وأكوام من الجنود الهنود القتلى على شاطئ تانغا، وضباط ألمان واقفين وقفة المنتصر ومعهم علمٌ بريطانيّ ضخم وقع في أيديهم.

سمع الناس أن هنديَّين شُنقا في مومباسا، لأنهما كانا يبعثان في الليل إشارات إلى السفينة كونيغزبرغ. مع هذه الأنباء كلّها، ومع مزيد من الأنباء التي كانت تتوارد كلّ يوم، أدخل موخي كيكونو، جمالي، إلى مسجده (باحتراسٍ شديد)، أدعيةً حيادية الطابع من أجل السلام والرشاد في المنطقة.

كان قومه ينتظرون إشارة الرحيل... إلى مومباسا، إلى فوي! لكنهم سمعوا قصصاً عن قرب حصار مومباسا، وعن إخلائها، فحبطت عزيمتهم. ثم إن فوي كانت أكثر خطورة لأنها واقعة على خط السك الحديدية الذي كان الألمان يريدون الاستيلاء عليه. من الممكن هناك أن تجد جنوداً ألمان عند بابك في منتصف الليل يريدون مأوى ومعلومات! وفي الليلة التي تليها، يمكن أن يأتيك فوجٌ من فريق الرماة الإفريقي، فيبطشون بك لأنك تساعد الأعداء. هكذا كانوا، واقعين في الوسط تماماً، واقعين بين الجانبين المتقاتلين. وجد الشامسي في كيكونو أنفسهم محصورين، فما كان لديهم غير الانتظار والدعاء. وسرعان ما صار الوقت متأخراً على كلّ شيء، حتى على التفكير في الرحيل، لأن المنطقة المحيطة بالبلدة صارت

مسرحاً تتحرّك فيه دوريات من الطرفين. وكان منتظراً في أيّ لحظة أن يقيم واحدٌ منهما معسكراً في البلدة.

كانت أدعية جمالي المحايدة خياراً حكيماً. ففي أحد الأيام، قبيل انتهاء السنة الأولى من الحرب، أغارت قوة ألمانية كبيرة واكتسحت معسكراً متقدّماً لوحدة راكبي الدراجات البريطانيين في مبويوني التي لا تبعد عن كيكونو أكثر من عشرة أميال. أقام الألمان لهم نقطة هناك.

ما عاد الآن لجمالي وجماعته أيّ أمل في إخلاء البلدة. صار عليهم أن ينتظروا نهاية الحرب.

13

مبادلة، مبادلة
ملابس للأجساد، ورصاص للبنادق.
أعطوني بنطلونات ومعلّبات وتشانغا وأحذية!
أُعطِكم سكاكين وبنادق، وتروساً، ورماحاً،
رصاصاً للبنادق، وعظاماً للضبع!

أتى إلى البلدة بائعٌ متجوّل يرتدي كانزو قذراً وقبعة مائلة على رأسه ولا يكفّ فمه عن الكلام، فأوقف عربته التي يجرّها حمار أمام متاجر كيكونو. كان ذلك البائع يتجوّل بين فوي وتافيتا ويحمل معه سلعاً متنوّعة منها ما هو عادي، لكنه ضروري، ومنها ما هو غير معتاد عديم الفائدة من تلك الأشياء التي بدأت الحرب تتقيّؤها. حيثما ذهب ذلك البائع، كان الناس يعجبون من أن حماره لم يُصادَر بعد. لقد بدا الحيوان قوياً على الرغم من الغبار الذي يكسوه ويكسو صاحبه أيضاً، ذلك التاجر المخضرم في المنطقة. جلس الرجل على جذع شجرة، خلع حذاءه ليفرغه من الرمل، ثم طلب من كشك باروتي فنجان شاي ودلو ماء. وبعدئذٍ، راح «يوزّع» أنباء الحرب: قُتل مدير محطة في مغوزي... تمرُّد الكشّافة الصوماليون

العاملون مع بوانا كوري... جُلد رجلٌ واحد، وأُخمد التمرد... اضطرابات في غيرياما... سيجري مدّ خطٍّ للسكّة الحديدية من فوي إلى تافيتا... العمال يسجّلون أسماءهم للعمل فيه... وصل جنرال جديد... تحذير من الحكومة: إيّاكم أن يقدم أحدٌ مساعدةً لبيبي مالكيا! ثم، كأنما تذكّر فجأة، بدأ الرجل إطلاق ندائه:

مبادلة، مبادلة
ملابس للأجساد، ورصاص للبنادق.
أعطوني بنطلونات ومعلبات وتشانغا وأحذية!
أُعطكم سكاكين وبنادق وتروساً ورماحاً...

لم يدرك بيبا أن هذا البائع يخاطبه إلا عندما وصل إلى عبارته الأخيرة، غير المنسجمة مع ما قبلها: رصاص للبنادق، وعظام للضبع. لكنه صار واثقاً الآن من أنه آتٍ من جانب الإنكليزي المخيف ماينارد.

كان دكّان بيبا في كيكونو مكاناً صغيراً فيه سلعٌ متنوّعة. ومن هذا المكان، كانت بداية أسطورة التاجر الماكر المدبِّر نور محمد بيبا. كان يجلس أمام دكّانه طيلة اليوم، يلفّ المغلّفات الورقية بصبر، ويتعامل مع زبائنه واحداً تلو الآخر ولا يتقاضى من كلٍّ منهم أكثر من بضعة قروش في المرّة الواحدة. وقد كان في وسع أيّ شخص رؤية أن ذلك الشاب عاثر الحظ صار يبدو، آخر الأمر، شخصاً حلّت عليه البركة. كان عمل دكّانه نشطاً، منتعشاً.

لكن بعض الزبائن الذين يأتون إلى متجره لم يكونوا زبائن حقيقيين؛ وهذا ما كان بيبا يدركه على الفور. كان بعضهم يأتي حاملاً علبة سجائر أو حزمة مربوطة بخيط، ويقول: «بوانا بيبا، هذه عظام للضبع». فكان التاجر البدين يمدّ إلى القادم تلك الصينية ذات المقبض الطويل حتى يضع عليها

ما أتى به، ويناوله شيئاً مقابله. يقول الزبون قبل ذهابه: «شكراً جزيلاً»... ربُّ بيت قلق، أو رجل من محيط البلدة، أو بائع متجوّل، أو مسافر. كان بيبا يرى بعض أولئك المراسلين في البلدة، لكنّه يتجنّبهم. وكان بعضهم الآخر يأتي مرّةً ثم يختفي فلا يراهم أبداً. عندما يسود الهدوء البلدة في الليل، ولا يبقى فيها غير بضع نيران مشتعلة هنا وهناك يجلس الناس من حولها ويتكلّمون همساً (في تلك الساعة، كان الناس يفتقدون دائماً الكلب بوانا تيم الذي رحل مع مفوّض المنطقة المساعد)، وفي حين تذهب زوجته لتعمل في المطبخ القائم تحت سقيفة خلف البيت، كان بيبا يجمع ما أتاه ذلك اليوم من أجل الفيسي (الضبع) -علب وحزم...- ويتفحّص تلك الأشياء كلّها. كان واثقاً أن قسماً كبيراً ممّا يتلقّاه ليس إلا قمامة التقطها على الطرقات رجال الدوريات التابعة لماينارد. لكنه كان يجد أحياناً أشياء «تفوح برائحة السلطة»، أشياء يبدو عليها أنها آتية من مسافات بعيدة. كان قادراً على تخمين ذلك حتى قبل أن تصير الحزمة بين يديه، وذلك من سلوك المراسل ومظهره، ومن طريقته في تسليمه ما أتى به - لم يكن أحدٌ من أولئك المراسلين يبقى في البلدة. كانت تأتيه صورٌ، وقصاصات صحف، وأوراق عليها كتابة، وخرائط، ومخططات... كلّها مجعّدة، متسخة، تفوح منها رائحة أيدٍ كثيرة ومخابئ كثيرة. وحتى بين هذه الفئة، يكون هناك شيءٌ أو شيئان لهما وضع خاص: أوراقٌ لها مظهرٌ فريد يميّزها... مستخدمة كثيراً، مكتوب عليها، ملطّخة بالطين، بل تفوح منها أحياناً رائحة برازٍ بشريّ.

وذات مرة، وجّه سؤالاً ساخراً إلى أحد المراسلين: «هل يحبّ الفيسي شمّ رائحة الغائط؟!».

أجابه الرجل كبير السن الذي أتى بـ«البضاعة» في تلك المرة: «صحيح... إن لها رائحة مؤخّرات ألمانية!».

تلك النتف من المعلومات الغارقة في أوساخ كريهة الرائحة، تخفي أسرار جيش العدو، كان يشمّها ماينارد، الضبع (يا له من اسم موفّق! فالضبع حيوان يفترس كل شيء)، فيجمعها معاً ويستخلص منها حقيقة أو قصة أو سرّاً من أسرار العدو.

كانت لتلك الأوراق التي تأتيه ألفةٌ غريبة. أيّ رجلٍ من الرجال ذلك الذي استخدم هذه الورقة التي ينظر إليها الآن؟ كان جزءٌ من هذه الأسرار الألمانية ينتقل في سلال، أو جيوب، أو سروج، أو حزم، أو صفائح كيروسين، حتى يقرأه الإنكليزي متمعّناً.

لقد تشكّلت لديه فكرةٌ معقولة عن موقعه في سلسلة المعلومات التي أُرغم على أن يكون جزءاً منها؛ تلك السلسلة التي تمتدّ من القيادة الألمانية إلى عيني ماينارد (وأنفه أيضاً). كان المراسلون الذين يحملون إليه «عظاماً للفيسي» عاملين تحت إمرة فومفراتي؛ وكانوا يأتون بالمعلومات مباشرة من عملاء موجودين في موشي أو تافيتا، أو يشترونها (ببساطة) من سوق تافيتا النشط... أو يلتقطونها أحياناً من الطرقات (هذا ما كان يظنه)، أو من تجمّعات القمامة القريبة منهم. وكان بيبا يجمع هذه الشذرات والقصاصات ويسلّمها، في كيس أو علبة كبيرة، إلى البائع المتجوّل «مالي - كوا - مالي» الذي يأتي من أجلها. ثم تنتقل من «مالي - كوا - مالي» إلى الإنكليزي عبر وسطاء غير معروفين.

كانت المكافأة المخصصة لبيبا مقابل استلام هذه القاذورات وتسليمها تبلغ عشر روبيات كلّ أسبوع. أحسّ بثقل هذه المسؤولية أول الأمر؛ وكانت تهوله فكرة مشاركته في الحرب الجارية. لكن الحرب استمرّت، فصار موقفه منها نفعياً غير مكترث؛ وكان يأمل أن يتركه المنتصر في الحرب، كائناً من يكونه، وشأنه. أو لعلّه كان يأمل أيضاً أن يُفني كلٌّ من

الطرفين الآخر، فيذهبوا جميعاً إلى بلادهم ويأخذوا معهم شوارعهم وهواءهم المعطّر. أدرك البريطانيون بعد الهزيمة البحرية في تانغا أن الألمان ليسوا ضعفاء. اهتزّت ثقتهم بأنفسهم، وراحوا يسابقون الزمن: يستبدلون الجنرالات، ويجمعون القوات، ويكتفون بمواجهة الإغارات الألمانية على مستعمرتهم وعلى خطوطهم الحديدية.

وأخيراً، بعد شهور من الانتظار، بدأ الجيش البريطاني يتحرّك مثلما يتحرّك أسدٌ بعد استيقاظه من إغفاءة قصيرة. فبالقوات التي جمعوها من مستعمراتهم في أنحاء العالم، بدأت الوحدات العسكرية تقدّمها من فوي في اتجاه تافيتا حتى تشتبك مع العدو وتتقدّم جنوباً في اتجاه شرق إفريقيا الألمانية.

جرت توسعة الطريق بين تافيتا وفوي. وظهر ضباط الجيش القادمين من مومباسا ونيروبي بسياراتهم المكشوفة وهم يمسحون الأرض الصحراوية بمناظيرهم. شاحنات تأتي بالإمدادات، وبالرجال؛ ودرّاجات آلية تنقل الرسائل. وعلى مقربة من الطريق، بدأ العمل على إقامة خط القطار الذي سينقل القوات غرباً إلى داخل المستعمرات الألمانية. بدأ مئات الرجال من قبيلتي كامبا وتايتا من تلك المنطقة، العمل إلى جانب خبراء المتفجّرات المستجلبين من الجيش الهندي، فيقطعون الأجمات ويفجّرون الصخور ويمدّون قضبان السكة الحديدية (مئات الياردات كلّ يوم)، إلى أن بلغوا ماكتاو، فصاروا في مواجهة المركز الألماني المتقدّم الواقع على مسافة اثني عشر ميلاً من مبويوني. وفي عصر أحد الأيام، بان في السماء مشهد عجيب: راحت العيون تتابع تلك النقطة المحوّمة على مسافة أميال؛ وراحت الأصابع كلّها تشير إلى تلك الشذرة الصغيرة في السماء التي لم تلبث أن اقتربت وكبرت مطلقةً صوتاً مخيفاً حتى ظنّوا أنها موشكةٌ على التحطّم فوقهم، مع الرجل الذي فيها. لكن الطائرة -السفينة

الطائرة- اكتفت بإلقاء المناشير، ثم انعطفت وعادت من حيث أتت. إن كان لدى أحدٍ شكٌّ في قدرات المزونغو، أو في قوّتهم، أو في عقولهم، فقد بدّد ظهور تلك الطائرة الشكوك كلّها. بطبيعة الحال، كان هنالك من قالوا الشيء نفسه عند رؤية اقتراب أول قطار من الفولاذ والنار، أو عند سماع اللعلعة القاتلة للرشاشات. لقد كان المزونغو جباراً حقاً. لكن، كان هناك أيضاً أولئك الرجال كبار السن الذين يظلّون جالسين عند المساجد يصبّون لعناتهم على الجسم الطائر في السماء وعلى من صنعه: لو أراد للإنسان أن يطير، لأعطاه جناحين! إنهم شيطاني، أولئك البيض -جنّ الملك سليمان- أذكياء جداً، ولكن...! أعلنت المنشورات التي رمتها الطائرة أن السفينة الحربية الألمانية المخيفة، كونيغزبرغ قد غرقت. وحملت أيضاً تأييداً للبريطانيين من جانب كل من الآغا خان وسلطان زنجيبار. كان ذلك في شهر تموز 1915.

قبل ثلاثة شهور، ولدت مريامو صبياً، فأحسّ بيبا بالإهانة من جديد لأن الطفل كان أبيض اللون؛ وكانت له عينان رماديتان. إلا أن الموخي، الذي هو في مقام جدّ الصبي، قال إن هذا لا ينفي أبوّته. لكن، إن كان الأمر عكس ذلك، فهل لبيبا من سبيل إلى معرفته؟ هل سيصل يوماً إلى أن يكون واثقاً من الأمر؟ سمّوا الطفل أكبر علي؛ وصاروا ينادونه باسم آكو.

***

ذات مساء، دخلت كيكونو مجموعة جنود سائرة في رتل فردي. لم يكن وصول مجموعة من الجنود المرهقين، الذين جلّلهم الغبار واخشوشنت أصواتهم، أمراً غير معتاد. لكن الأمر كان مختلفاً هذه المرة: كان الجنود من الجانب الألماني. أغلق أهل البلدة أبوابهم، وأحكموا سدّ نوافذهم، وأسكتوا أطفالهم. يسمع المرء، إن أصاخ السمع، قرقعة الحديد

والفولاذ القادمة من معسكر العمل الذي أقامه الجيش البريطاني غير بعيد عن البلدة. لكن الألمان بدوا كأنهم يتحرّكون على هواهم. هل يُعقل أنهم يخسرون الحرب؟ أتت أصوات غناء الرجال بعد أن استقرّوا في البلدة. ثم سُمع صوت طلقتي بندقية، ثم صيحات - لقد رصدوا شخصاً يحاول التسلّل لإخطار الدورات الإنكليزية. وخلال الصمت الطويل الذي أعقب ذلك، أتت رائحة اشتعال الحطب، لكن شيئاً كان موشكاً على الحدوث، شيئاً خطيراً مبيّتاً في تلك الليلة. أخيراً، حدث ذلك الشيء. انفجار هائل، ثم هدوء، ثم أصوات تساقط القدور في البيوت واهتزاز الأبواب والنوافذ. وأخيراً بضع طلقات نارية متفرّقة سُمعت من بعيد.

وبعد ذلك، ساد الصمت مجدّداً... صمتٌ مشبع بالخوف. كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل، فحاول أهل البلدة أن يناموا قدر ما يتيسّر لهم النوم.

تململ الموخي في فراشه عند الرابعة فجراً. راح يصغي إلى الأصوات، لكنه لم يسمع ما يثير القلق. فتح بابه ونظر إلى الخارج (ليس من غير خوف) فلم يرَ ما يشير إلى الحياة. لكن هذا يمكن أن يعني أي شيء. تمتم، «راخ مولاتي» (اتركها للربّ!). تناول المصباح، ورفع فتيله، ثم خرج لكي يوقظ جماعته من أجل الصلاة. لم يرَ أثراً لزوّار الليل.

بعد الساعة الخامسة بوقتٍ قصير، بدأ المصلّون يخرجون من المسجد، فوجدوا في استقبالهم شيئاً من الهرج ومن المرج. هناك أنباء تقول إن موقع تجميع الإمدادات في مستودع السكة الحديدية القريب من ماكتاو قد نُسف. قُتل حارسٌ هنديّ، وعددٌ من الجنود؛ ويبحث البريطانيون عن أولئك الذين خانوهم لصالح الألمان.

***

«مالي كوا مالي...».

وصل البائع المتجوّل -كان اسمه عبد الله- إلى مبويوني آتياً من كيكونو. كان ذلك في الساعة العاشرة صباحاً. وفور توقفه عند متجر المرطّبات في البلدة، وطلبه ماءً لحماره، وشاياً بالزنجبيل لنفسه، أتاه نقيبٌ من الألمان معه ثلّة من العسكري، فأحاطوا به، وراح النقيب ينظر إليه نظرة متعالية. نظر عبد الله إليهم، لكنه لم يفقد حسّ الدعابة الذي لديه. كان في تلك السن التي يكتسب فيها بعض الناس مظهراً موحياً بالاحترام (يصير كأنه شيخ مسلم). كان متوتراً أيضاً. أطلق نكتة، وأخذ رشفة شاي. وعلى الفور، وجّه النقيب الألماني إلى عبد الله صفعة قوية جعلته يترنّح وجعلت الشاي ينسكب من فنجانه الذي ظلّت أصابعه ممسكة بمقبضه. اعتقلوا عبد الله.

وفي كيكونو، جاء جمالي مسرعاً إلى متجر بيبا.

«اسمع، خبِّئ كل ما قد يثير الشكوك... لقد اعتُقل صاحبك عبد الله!».

«من؟ من اعتقله؟!».

«اعتقله الألمان في مبويوني. اللعنة عليه وعلى ألاعيبك السرية!».

«وهل كنتُ مخبِّراً؟ كيف عرفت؟».

قال جمالي: «أنا الموحي؛ وأنا أعرف كل شيء هنا. فلنهتمّ الآن بأمرك!».

اتفق الاثنان على أن ما من شيء كثير يستطيعان فعله غير إبقاء عيونهما وآذانهما مفتوحة. كان خط السكة الحديدية الجديد يقترب بسرعة من مبويوني جالباً معه قوة بريطانية ضخمة. وكان لا بدّ للألمان من الانسحاب من تلك البلدة. فلنأمل ألا يقرّر الألمان الانسحاب إلى كيكونو أولاً.

بعد نحو أسبوعين من ذلك، جاء جمالي إلى متجر بيبا مرة أخرى.

«هناك رسالة من موشي.. نحن أيضاً لدينا طرقٌ للتراسل في أثناء الحرب...»، كان جمالي يردّ بهذا على نظرة بيبا المتسائلة، «إن فيها شيئاً يهمّك. اسمع!». جلس الموخي، وفتح الرسالة، وراح يقرأ: «فليحفظ الرب الموخي جمالي... إلخ، إلخ... لقد رحلت والدة بيبا عن موشي مع رجلٍ وافق على رعايتها. اعتنِ ببيبا، فهو أخٌ من إخواننا الشباب؛ وقل له ألا يقلق على أمه. إنه رجل طيّب... لكن هذا الأسبوع حمل لنا صدمةً حقيقية. لقد شنق الألمان خميسي، ذلك الشيخ العربي الطيّب الذي كان صديقاً حقيقياً لجماعتنا، وذلك بتهمة التجسّس لصالح الجانب البريطاني. ذهب الجميع لرؤية الشنق، وحزن الجميع عليه. من عساه يعرف الحقيقة؟ أرجو إبلاغ بيبا بهذه الأنباء لأنه يعرف خميسي معرفة جيدة. وأيضاً، قل له إننا ندعو له ونهنّئه بولادة ابنه البكر. فليحفظه الرب! وكما اتفقنا من قبل، يا أخي، فإن من الأفضل لمن هم مثلنا أن يقلّلوا ظهورهم وأن ينزووا جانباً!».

رفع جمالي رأسه وقال: «عليك أن تكون حذراً، علينا كلّنا التزام الحذر! هذا زمان غدّار. لا يستطيع المرء معرفة من يعمل لصالح من...»، انتظر جمالي وهو يراقب الشاب بنظرةٍ يقظة، ثم قال: «ألم تفاجئك أنباء أمّك؟!».

تمتم بيبا: «لا... لا بدّ لها من الذهاب إلى حيث تجد الأمان... وأما عندي، هنا... فما الذي تستطيع فعله؟».

لكن نبأ إعدام خميسي كان مفاجأة كبيرة لبيبا. هذا يعني أن الحرب يمكن أن تمسّ شخصاً مثله أيضاً... أن تمسّه مباشرة. لقد مات خميسي، معلّمه، راعيه! شنقه أولئك الألمان أنفسهم الذين استلم بيبا منهم أوراقاً سرية وسلّمها، ثم وصلت إلى ماينارد. خميسي... هل كان يعمل مع

ماينارد؟ كيف يمكن هذا... على الرغم من صداقته الواضحة مع الآمر الألماني؟ هل خان خميسي صديقه الألماني؟ تذكّر بيبا أن خميسي هو من أرسله لرؤية الضابط الألماني الذي جعله يحمل الرسائل إلى كيكونو. كانت تلك الرسائل هي ما ورّط بيبا في هذا الأمر كلّه. يعني هذا أن خميسي لم يكن شخصاً بريئاً. هل كان على علم بأنه يعرّض بيبا للخطر؟

ما الذي يدفع أولئك الناس إلى التصرّف بطرق تجعلهم غير قادرين أن يثق واحدٌ منهم بالآخر؟ دوافعهم، مثل حربهم، غير مفهومة بالنسبة إليه.

خرج من الدكّان لكي يستطيع التنفّس جيداً، ثم سار إلى كشك باروتي، بائع الشاي. اكتشف هناك أن أنباء موت خميسي معروفة للجميع. كانوا يقولون إن شيخاً عربياً صوفياً قد شنقه الألمان.

قال بيبا: «هل كان خميسي يعمل لصالح البريطانيين حقاً؟».

ضحكوا. «أنت ساذج يا بيبا. ألم يخبرك الموخي؟»، وهكذا، رووا له كلّ شيء.

لم يعمل خميسي لصالح البريطانيين. الحقيقة أنهم أوقعوا به - أو أن ماينارد أوقع به، ذلك الإنكليزي المخادع الخبيث!

لقد كان خميسي كبير الجواسيس الأفارقة والعرب العاملين مع الألمان؛ وكان عملاؤه منتشرين على طول طريق فوي - تافيتا، بل إن منهم أيضاً أشخاصاً بين عمال السكة الحديدية. لا بدّ أن الانفجار الذي وقع في مستودع السكة الحديدية قبل بضعة أسابيع قد كان معتمداً على معلومات تفصيلية، بل حتى على وجود مرشدين. كانت خسارة البريطانيين كبيرة. وقد أقسم ماينارد على الانتقام هذه المرة؛ ثم لم يضيّع وقتاً. كتب رسالة إلى خميسي شكره فيها على خدماته، وأضاف أن البريطانيين يعتنون بزوجته في السودان. سوف يسمحون له بالعودة إلى بلدته بعد الحرب،

وسينال وساماً ومركزاً مناسباً له. وزيادة في الذكاء، كانت الرسالة مكتوبة بالعربية. وجدها الألمان مع البائع المتجوّل عبد الله عندما ألقوا القبض عليه في مبويوني. اعتقلوا خميسي وشنقوه.

سألهم بيبا: «وكيف يعرف الجميع بهذا، ولا يعرفه الألمان؟».

قيل له إن الجميع صار على علم بالأمر الآن، يا أبله! فما معنى النصر إن لم تنتشر أخباره؟

سألهم: «ماذا عن عبد الله؟ ماذا عن ذلك البائع المتجوّل؟».

«عبد الله؟». صمت الشخص الذي يجيبه لحظة. لم يصادر البريطانيون حمار عبد الله، أليس هذا صحيحاً؟ تركوه يتجوّل على هواء. الآن، صرنا نعرف السبب. لقد تركه الألمان وشأنه أيضاً، أليس هذا صحيحاً؟ لماذا؟ فكِّر يا بيبا! إن البائعين ينقلون الأشياء في الاتجاهين، دائماً – لا يعمل البائع أبداً في اتجاه واحد، ولا يمضي صفر اليدين. لقد كان عبد الله ينقل الرسائل لصالح كل من البريطانيين والألمان. لكن البريطانيين خذلوه هذه المرة، فشنقه الألمان.

تذكّر بيبا كلمات الموخي... لم يعد أحدٌ يعرف من يعمل لصالح من!

عندما عادت الراحة إلى نفس بيبا، لم تكن عودتها مبكرة. ففي يوم من الأيام، جاء الفيسي إلى كيكونو مع أعوانه، واستقرّ في بيت كوربين السابق. منذ تلك اللحظة، أنهي عمل بيبا مع القوات البريطانية، فأحسّ كأن ثقلاً فادحاً قد ارتفع عنه: لقد صار حرّاً، أخيراً.

14

إنه شهر شباط من سنة 1916. سمح خطُّ القطار الجديد القادم من فوي للجيش البريطاني الفاتح الضخم بالتوغّل غرباً حتى مبويوني التي كانت نقطة متوسطة بين الجانبين؛ فاضطرّت القوة الألمانية الصغيرة المرابطة في البلدة إلى التفرّق. كان خط الدفاع الألماني التالي في تل سالايتا الحصين القريب من تافيتا، عند الحدود. الآن، بدأ البريطانيون يهاجمون ذلك التل.

تحوّلت مبويوني إلى بلدة من خيام بيضاء على خلفية الأرض الصحراوية البنّية وأجماتها الشائكة. وفي ساعات الصباح، كانت الفرقعة الناتجة عن رفرفة قماش الخيم مسموعة على مسافة بعيدة. لكن ذلك القماش يصير أكثر صلابة مع اشتداد الشمس، ويصير سطحه الأبيض صقيلاً يعمي الأبصار.

وفي الليل، تنتشر المصابيح على امتداد ذلك المشهد، ويغنّي الرجال الجالسون حول النار، وتنبعث روائح الطعام والبنزين. أُقيمَ هناك مستشفى ميداني. وكانت القطارات تصل حاملة جنوداً ينطلقون بعد ذلك إلى القتال عند الحدود. طائرات تحلّق فوق الرؤوس. ودوريات جوّالة تأتي بالسجناء، وبالمصابين.

كانت كيكونو، الواقعة على مسافة عشرة أميال فقط، ترى كيف

اجتيحت جارتها مبويوني. صحيح أنها اجتيحت هي أيضاً، لكن ليس تماماً. لقد حلم أهل هذه البلدة الصغيرة بأن يصير لها شأنٌ لأنها واقعة بين خطَّي السكة الحديدية. لكن، ليس بهذه الطريقة! كادت الحرب تنتهي في تلك المنطقة؛ لكن البلدة لن تعود إلى سابق عهدها. وذلك أن أهلها (على الرغم من اعترافهم بتحسُّن أعمالهم نتيجة الحرب) قد تعلّموا كيف ينظرون إلى ذلك المكان نظرة نفعية خالية من أيّ عاطفة... مثلما ينظر المرء إلى عاهرة. عندما يفرغون منها، سيذهبون ويتركونها، مثلما تفعل الجيوش.

في بيت بيبا، في عصر أحد الأيام، قُرِع باب الفناء الخلفي المفضي إلى الشارع. كان جالساً مع مريامو بالقرب من سقيفة المطبخ يتناولان وجبة منتصف اليوم، وكان طفلهما نائماً في الداخل. نهضت مريامو لكي تفتح الباب. رأت امرأة واقفة هناك وقد أسدلت البويبوي[†] على وجهها.

«ماما، أريد عملاً!».

صاح بيبا غاضباً: «ليس لدينا عمل!».

«إذاً، أحسِنوا إلى المرأة المسكينة وأعطوها ماءً تشربه!».

ذهبت مريامو إلى خابية ماء الشرب لكي تجلب لها الماء، فدخلت المرأة الفناء. أغلقت الباب سريعاً من خلفها، ونزعت البويبوي فكشفت عن وجه رجل. كان رجلاً ممتلئ الجسم... وكان له شارب أيضاً.

أجفلت مريامو وقالت: «أهذا جزاء الإحسان؟!».

سأل بيبا الرجل: «ماذا تريد؟ خذ كلّ ما تريد أخذه! ليس لدينا الكثير».

ضحك الرجل: «إذاً، أرِني المخبأ! لكنّي لست لصّاً. أنا آتٍ إليك في عمل!».

أومأ بيبا برأسه: «الإنكليزي؟» – طرح السؤال بحذر. ما الذي يمكن أن يريده منه ذلك الشيطان الآن؟

لكن المقتحِم أجابه: «أرسلني بوانا جمعة».

«جمعة؟ أيّ جمعة؟ هل أنت مجنون، أم ماذا؟ لا أعرف أحداً اسمه جمعة».

لكن الرجل ظلّ مصرّاً. راح يتلاعب بالكلام: «بعد الخميس، يأتي يوم الجمعة، وبعد خميسي يأتي جمعة».

بدأ بيبا يفهم. كان الرجل آتياً من الجانب الألماني. إنه واحد من جماعة خميسي. جلس، ونظر إلى زوجته التي كانت لا تزال واقعة تحت تأثير الصدمة. لا تزال حاملة كأس الماء بيدها.

قال لها: «ادخلي البيت!»، ثم قال للزائر: «لا شأن لها بهذا. عليها أن تكون مع الصغير».

تكرّم الرجل بالموافقة، لكنّه حذّرها وهي تناوله الماء: «لكن، ابقِي في الداخل!».

قال بيبا للرجل بنبرة تكاد تكون استعطافاً: «انظر... هذه الحرب لا تعنيني في شيء. لا أريد غير أن أعيش حياتي!».

قال الرجل: «أفهم هذا، يا صاحبي. لكن، هل نحن مخيَّرون؟ لقد صار الجميع متورّطاً في الأمر». انحنى ونظر مباشرة في عيني بيبا: «لقد وقع خميسي ضحية خيانة. وهناك من أفراد جماعته -الصوفيّون- من يرى ضرورة الثأر لمقتله».

«لكن الألمان هم الذين شنقوه».

«لقد خانه أحدٌ هنا، عن طريق رسالة أُعطيت للبائع المتجوّل عبد الله. يقول البعض إنك من أعطاه تلك الرسالة».

عاد الرجل فاعتدل في جلسه، في حين انبرى بيبا مدافعاً عن نفسه: «لم

يستلم مني عبد الله أيّ رسائل يوم قبضوا عليه. أقسم على هذا، أقسم بالله وبالرسول وبأمي!».

رفع الرجل كتفيه: «وما أهمية التفاصيل؟».

قال بيبا: «كان خميسي صديقي!».

انحنى الرجل صوبه من جديد كأنه يحاول الإيحاء بالثقة. قال له ببطء: «استمع، يا بيبا! أثبِتْ لنا أن خميسي كان صديقك بأن تعمل معنا».

لم يكن مطلوباً من بيبا غير استلام الرسائل وتسليمها. ستأتي الرسائل من المعسكر البريطاني في مبويوني. سوف يتلقى الرسائل، ومعها المال المخصّص له، من زبائن يأتونه. وعليه أن يخبّئ ما يصله في أكياس توابل يسلّمها لأيّ زبون يأتيه ويقول له: «ظننت أن اليوم الخميس، لكن الجمعة يأتي بعد الخميس، وهو يوم الصلاة».

قال بيبا راجياً: «تكاد الحرب تنتهي. لماذا الآن؟ لماذا أنا؟ لماذا هذا الخداع كلّه؟ سوف تكلفني قصة 'الخميس - الجمعة' حياتي!».

لم يتأثّر الرجل بهذا. أجابه: «لكلّ شيء أهميته. وكما قلت بنفسك، ستنتهي الحرب قريباً. أسبوع، أو أسبوعان. لكن، وحتى ذلك الوقت... هذا لا شيء، حقاً لا شيء، بضع رسائل فحسب - استلِمها، وسلّمها. هذا كل شيء. ليس عليك أن تعرف المزيد. هل هذه جريمة؟ سأقول للصوفين إنك بريء، وإنك رجل طيّب!».

ظلَّ كلٌّ من بيبا وزوجته زمناً طويلاً ينظر إلى الآخر بعد انصراف الرجل. الفيسي ليس بعيداً. إنه فوق التل، في بيت المفوّض الإقليمي المساعد الذي رحل، فهل يحميه إذا أخبره بقصة «الخميس - الجمعة»؟ وإلى متى يحميه؟ سرعان ما يرحل؛ لكن أتباع خميسي باقون، وكذلك عائلة عبد الله. ذهب مع مريامو وتحدّث مع الموخي. قال الموخي جمالي

ناصحاً إن عليه أن ينفّذ ما قاله له الرجل. قد يفعلون شيئاً متهوّراً! لن يدوم الأمر طويلاً. لن يدوم الأمر أكثر من أسبوع. ثم تكون حرّاً.

بدأت الرسائل في اليوم التالي، ثم استمرت ثلاثة أيام متوالية. كان يأتي بها جندي سيخي في أوقات استراحته من العمل في المعسكر البريطاني.

كان بيبا ينظر إلى ذلك الرجل مستغرباً: يأتي متظاهراً بأنه يريد شراء سجائر. وقد اشترى مرة كيس سكر. كان الرجل قد تجاوز سنّ الشباب. وكان يبدو منهَكاً، بعض الشيء. وفي كل مرة، كان يقول شيئاً لا يفهمه بيبا. وبعد ذهابه، كان بيبا يخبّئ الرسائل في أكياس التوابل حيث تظلّ إلى أن يأتي من يأخذها.

في اليوم الرابع بعد مجيء رجل «الخميس – الجمعة» إلى بيت بيبا، تمّ صدّ هجوم بريطاني على تل سالايتا القريب من تافيتا.

وفي الليل، بعد أن سرت أنباء دحر الهجوم، وبعد أن بدأ وصول المصابين وجثث القتلى، وراح الناس، في البلدة، يتحدّثون من جديد عن شدّة بأس الجيش الألماني ومقاتليه الأفارقة، قرعت قبضاتُ أيدٍ عنيفة باب بيبا مهدّدةً باقتلاعه من مكانه. ذهب بيبا وفتح الباب. الفيسي ومساعده السواحيلي. بقي بيبا عند الباب. نظر إليهما مفزوعاً. لو كان وحيداً، لهجم عليهما. قال في نفسه إن اللعبة قد انتهت، وإن أجله قد جاء أيضاً. بدأ آكو، الطفل، يبكي في الداخل؛ فدخلت مريامو وحملته.

قرّب السواحيلي كرسياً، وقال لبيبا: «اجلِس!». لم يكن هذا لطفاً منه. كانت هذه خطوة تمهيدية.

كان آكو يتلوّى بين ذراعي أمه وهي تنظر خائفة في عيني زوجها المذعورتين. كان الرجلان في تلك اللحظة يفتّشان محتويات المتجر: علب السجائر، والسجائر، والرفوف، وصفائح الكيروسين، وأكياس

الحبوب والتوابل... قلبوا كلّ شيء رأساً على عقب. وأخيراً، جاء دور أكياس السكر والتوابل. خرجا ظافرين، حاملين الرسائل للنظر إليها في ضوء المصباح.

قال بيبا: «لقد أجبروني، لقد أجبروني! فماذا أفعل؟ قالوا لي...».

ألقى ماينارد نظرة غاضبة في اتجاه الهندي ووضع يده على مسدسه: «يمكن إطلاق النار عليه من أجل هذا».

صاحت مريامو: «لا! لا، أرجوك، لقد أجبروه على...».

قال السواحيلي: «محاكمة، بوانا. في مبويوني مع بقية الخونة!».

وهكذا أخذا بيبا إلى مكان الاحتجاز، في حين هرع الموخي، مع شخصٍ آخر أو اثنين، إلى البيت لتهدئة مريامو والطفل.

***

سمح ثقبٌ في السقف لضياء سماء الليل بالدخول إليه. كان ذلك الضوء الخافت يتسلّل عبر فجوة قاتمة في الأعلى، فينير عوارض السقف ويجعل الأشياء تبدو كأنها أشباح وظلال. وعبر تلك الفتحة، كان بيبا يرى نجوماً لامعة في السماء. مرَّ أسبوعٌ على الاحتفال بولادة القمر الجديد، لكن القمر نفسه كان خارج مجال رؤيته. كان متوتراً من الأصوات التي يسمعها، خائفاً من الأفاعي. لم يجرؤ على الحركة أول الأمر، لكنه لم يلبث أن سمع أصوات حفيفٍ واحتكاك وأنين تأتيه من كلّ صوب، فلم يلبث أن بدأ يتحرّك قليلاً. ثم ازداد جرأةً عندما حمله قطيعٌ من الضباع على ذلك. اقتربت الضباع منه وراحت تعوي غاضبة، عبر الجدار حيث كان الطين متقشّراً، وراحت تحاول إقحام أجسادها في تلك الثغرات كأنها تريد جعل الأعمدة الخشبية تبعد وتسمح لها بالدخول. دبّ الذعر في قلب بيبا، لكنه أراد إخفاءه، وراح يصفّق بيديه ويضرب الأرض بقدميه ويصرخ

على الضباع حتى يطردها. لكنه كان سجيناً، وكانت الضباع تعرف هذا. لن تنصرف عنه.

في سجنه المنسيّ، على المقعد الخشبي الصغير، وعلى السرير المكسور والحصير المتعفّن، أضنته تلك الليلة التي أمضاها محاصراً بالضباع إلى حدٍّ جعله يبدأ الصراخ مطالباً بإخراجه.

كان آمر وحدة الاستخبارات العسكرية، النقيب ماينارد، جالساً إلى الطاولة في المسكن الذي كان بيت مفوّض المنطقة المساعد، محاطاً بمساعديه المختارين، يقلّب الرسائل التي وجدها في متجر بيبا في وقتٍ سابقٍ من تلك الليلة. ومن فوق الجالسين، تدلّى من عارضة في السقف مصباحٌ من مصابيح الكيروسين القوية العاملة بالضغط ملقياً عليهم ضياء ساطعاً وهم منكبّون على عملهم. كانت قوة الجيش الذي اجتمع للتحرّك في اتجاه الشرق الألماني، وعزم اندفاع ذلك الجيش، أكبر كثيراً من أن تُحدِث هذه الرسائل التي اعترضوها أيّ تأثير على مجرى الأمور... كانت المعلومات الاستخباراتية الواردة من الجانب الآخر تشير إلى هذا أيضاً. لكن الألمان تمكّنوا من مفاجأتهم في السابق، وصدّوا عدداً من الهجمات التي كانت واثقة كلّ الثقة من نصرها، ومنها ذلك الهجوم على تل سالايتا في اليوم المنصرم.

كانت الاستخبارات الألمانية موجودة في المنطقة، وكانت قوية، حتى قبل الحرب. اكتشف البريطانيون أن الخرائط الألمانية التي وجدوها مع الأسرى الألمان بالغة الدقة، بل إنهم استخدموها من أجل تصحيح خرائطهم. وكانت الغارات الآتية عبر الحدود مستمرّة، شديدة الأثر. وكثيراً ما كان نجاحها معتمداً على المتعاونين. صحيح أن خميسي العربي قُتل، لكن شبكة الجواسيس التي كانت تحت إدارته استمرّت عاملة؛ وكانت نشطة في كيكونو، تماماً تحت أنف ماينارد.

كان لدى ماينارد أربعة معاونين، هندي وثلاثة أفارقة، وكان كلٌّ منهم على دراية بلغة أخرى غير لغته، وبقبيلة غير قبيلته. أسفر تفتيش متجر بيبا عن ستّ أوراق تحمل رسائل. كانوا قد تداولوا تلك الرسائل، ووضعوا ملاحظاتهم عليها، قبل أن تعود إلى الطاولة؛ لكنها التُقطت ووُزّعت من جديد فراح الرجال يحاولون فهم معانيها.

كانت ثلاث رسائل مكتوبة بأسلوب ترميزي مبهم: اثنتان باللغة البنجابية وواحدة بالإنكليزية. وأما الرسائل الثلاث الأخرى، فكانت مخطّطات للمنطقة أشير إلى مواقع القوات عليها برموزٍ فجّة وبكلمات. كان النقيب مايناردينظر مهتمّاً إلى تلك المخططات مبتسماً ابتسامة معوجة باهتة. إن فيها معلومة حديثة جداً: تحرّكات للقوات جرت خلال اليومين الماضيين، بل حتى في ذلك اليوم نفسه. ثم إن صاحبها (بدت كلّها من إنتاج يدٍ واحدة) كان على معرفة تفصيلية بطبيعة المنطقة. وبطبيعة الحال، كان هذا موحياً بأن الرجل موجود في المنطقة الآن. على أن ما هو أهم من ذلك، هو أنه رجل من سكّان المنطقة.. ليس هذا فحسب، فقد أوحت له تلك المخططات إيحاء قوياً بأن الجاسوس ليس إلا واحداً من رجاله.

راح مايناردينظر إلى رفاقه واحداً تلو الآخر. أيمكن أن يكون الجاسوس واحداً منهم؟ الهندي: لا، فهو غريب عن هذه النواحي. وكان واحدٌ من الأفارقة الثلاثة غريباً عن المنطقة أيضاً، وواحد آخر من سكّان المنطقة لكن الإنكليزي لم يكن مقتنعاً بأن قدراته كافيه لهذا. لم يبقَ لديه إلا الرجل الرابع، السواحيلي شوماري. رجل ماهر ذو قدرات كبيرة. لكنه موثوق تماماً؛ وقد كان مع مايناردمنذ بداية الحرب. عاد مايناردينظر إلى المخططات، ثم أعطى الآخرين اثنين منها للنظر إليهما. بقي المخطط الثالث في يده. إنه المخطط الذي أثار لديه أشدّ الشبهات. كانت

مبيّنةً عليه، على صورة رأس حصان، مواقع مجموعة الخيّالة في المنطقة المحيطة بكيكونو. كانت البلدة نفسها مرسومة على شكل دائرة مفتوحة مكتوب فيها اسمها. وتحت اسم البلدة، كُتبت كلمة واحدة، «فيسي»... كأنما من كتبها أضافها بعد إنجاز المخطط. كان الإنكليزي ماينارد يدعو نفسه «فيسي» أيضاً! لمعت عيناه عندما أعطى رفاقه ذلك المخطّط.

هناك فرقة خيّالة من جنوب إفريقيا في طريقها من أجل إعادة التجمّع على جبهة تافيتا، صحيح، يعرف هذا. ولكن، ما الأمر المميّز في ما يخصّ الضباع في هذه المنطقة؟ لماذا تذكرها تلك الرسالة الاستخباراتية؟ لا، هذا ليس تحذيراً من تلك الحيوانية الليلية المفترسة التي يسمع الآن أصواتها من حول السجن وهي تجوس القمامة وتعوي على السجناء. إنها إشارة إلى مركز ماينارد نفسه. لم يكن الرجال الذين يعرفون اسمه الرمزي كثيرين؛ ولا يجوز أن يعرفه أحد غير رجاله المقرّبين منه.

سُمع صوت بيبا ينادي: «أخرجوني! هناك أفاعٍ في هذا المكان!».

نظر ماينارد إلى شوماري وأومأ برأسه. ذهب رجلان فأحضرا بيبا.

«ماذا قال لك المراسل، عندما أتى أول مرة، عن يومي الخميس والجمعة؟».

«قال: بعد خميسي يأتي جمعة، وبعد يوم الخميس يأتي يوم الجمعة».

«كيف كان شكله... ذلك الرجل الذي كان يضع بويبوي؟».

«أسود. كان أسود اللون. قصير. يتكلّم السواحيلية جيداً».

«كم كان قصيراً؟».

نظر بيبا من حوله. وقعت عيناه على شوماري فقال: «مثله»... خمسة أقدام وستة إنشات. أجفل شوماري قليلاً.

خيّم الصمت إلا من خشخشة الأوراق والأقلام.

دوّن شوماري الملاحظات المتعلّقة بالرسائل الستّ في سجلٍّ واحد. إن لكلّ رسالة يعترضونها، رقماً في سجلّه، ومكاناً محدّداً. فعلى نحو متدرّج، يكشف بعض الجواسيس عن أنفسهم معلومات كافية لتحديد هوياتهم. قبضوا بهذه الطريقة على مدير محطة القطار الهندي في سيمبا لالا الواقعة على مسافة خمسة وعشرين ميلاً من فوي، وذلك بعد اعتراض ثلاث من رسائله كانت فيها مواعيد القطارات. وقد شنقوه.

قال له الفيسي: «كنت تعرف خميسي...»، كانت عيناه على ورقة في يده... «هل رأيت معه، هناك، أحداً من كيكونو... في المسجد، أو في بيته... أحداً رأيته في البلدة بعد ذلك؟».

فتح بيبا فمه، ثم تردّد، لكنه كان قد أوقع نفسه. حلَّ في الغرفة هدوءٌ مفاجئ، صمت مترقّب. كان مستجوبوه كلّهم ينظرون إليه.

نظر إليهم مستغرباً. من هم هؤلاء؟... ولماذا يلعبون هذه اللعبة؟ من أين لهم الحق في تقرير ما هو جيد أو سيّئ بالنسبة إليه، ما هو حقٌّ أو باطل؟!

قال شوماري: «توميتيغا[*]. لقد فهمنا!».

أومأ الآخرون برؤوسهم مبتسمين.

فتح فيسي فمه قليلاً، وشعّ وجهه سروراً، وقال: «نعم».

سأل بيبا: «ناني؟[**] من الذي رأيته مع خميسي؟».

«أوسو شيطاني»[***].

إنه صاحب الوجه الشبحي، المصاب بالبهاق، فومفراتي.

(*) توميتيغا (بالسواحيلية): ثق بنا. (المترجم).
(**) ناني (بالسواحيلية): من كان معه؟ (المترجم).
(***) أوسو شيطاني (بالسواحيلية): وجه الشيطان. (المترجم).

أتى من البعيد صوت قعقعة عربات قطار... عربات تتصادم في سيرها، وجنود يغنّون، وشاحنات تشقّ طريقها غرباً، وبضع طلقات نارية. وفي الأسفل، كانت كيكونو الصغيرة مستيقظة، لكنها محافظة على صمتها إلى أقصى حد ممكن. بدأ انبلاج الفجر؛ وجيء للرجال بمزيد من الشاي.

أجاب بيبا عن أسئلة أخرى، ثم سمحوا له بأن يغفو قليلاً. كان يفتح عينيه من حين إلى آخر. لم يكن مستريحاً في هذه الجلسة على الكرسي الذي أجلسوه عليه. فكّر في زوجته التي ظلّت مستيقظة طيلة الليل، قلقة عليه. الآن، بدا الهدوء على الرجال الأربعة من حول الطاولة. وضعوا الرسائل التي عثروا عليها جانباً، وبدا أنهم جالسون فحسب، كأنهم يلعبون الورق. كانوا يتبادلون أحاديث مهموسة. لا بدّ أنهم يضعون خطة عملهم لذلك اليوم. سرعان ما عرف بيبا أن قدره قد صار بين أيديهم. لكن غضبهم تجاهه بدا كأنه قد هدأ لأنهم شمّوا رائحة فريسة أكبر منه. كان الوقت قد تجاوز الظهر عندما قالوا له أن ينصرف.

انحدر نازلاً التلة من مقر إقامة المفوّض الإقليمي المساعد. ثم عبر شجرة المبويو الصغيرة ودخل الشارع الذي فيه الدكاكين والبيوت. كان ذلك مثل أي يوم عادي، إلا أنه أكثر ازدحاماً بسبب النشاط العسكري في المنطقة. كان عدد المتسكعين في الشارع أكبر مما هو معهود؛ وكان هذا أمراً مقلقاً. ازدحام ونشاط عند كشك باروتي للشاي، فهناك تكون أحدث الأنباء عن الحرب متوفّرة - ما رشح عن معركة تل سالايتا، وكم كانت قوة الألمان هناك. دخل بيته عبر الباب الأمامي الذي كان مصراعه الأكبر مفتوحاً. من المؤكّد أن مريامو لم تفتح الدكّان لأن كل شيء فيه كان مقلوباً رأساً على عقب بعد التفتيش الذي أجراه فيسي ورجاله في الليلة الماضية. رآها فور دخوله. بدت له ميتة. كانت في وضعية جلوس على الأرض عند

الجدار، وقد مال رأسها جانباً فوق كتفها الأيمن. كانت عيناها مفتوحتين. كتم أنفاسه، وصدر عنه صوت مخنوق. مضى إليها ببطء، ورفع إحدى يديها بهدوء. مسّ جبهتها، وداعب خصلةً من شعرها، ومسّ بظهر يده رقبتها حيث كان خيطٌ من الدم. جذب حافة ثوبها إلى الأسفل حتى يكون مظهرها محتشماً، ثم أنزل يدها برفق إلى حجرها. وبعد ذلك، جرى إلى الموخي.

عاد جمالي معه على وجه السرعة. قال له إن زوجته أتت بالصغير إلى بيتهم في وقت سابق من ذلك اليوم حتى تترك مريامو تستريح. الطفل يلعب بأمان؛ وقد أطعموه... فما مشكلة مريامو؟ كان بيبا سائراً إلى جانبه، يشدّه من كمّه متقطع الأنفاس... كان يلهث لهاثاً مختنقاً مسموعاً... لهاثاً يمكن أن يتوقف فيخنقه.

أطلق الموخي زفرةً عندما رأى المنظر: «أوه، يا إلهي! يا الله، ويا رسول الله!». لقد اغتُصبت مريامو. لكن، لا معنى لإذاعة النبأ. في وجود أولئك الغرباء كلّهم -أجلاف، من غير حياء- من أنحاء إفريقيا كلّها، ومن البنجابيين والبلوش والراجبوت، يمكن أن يكون الفاعل أيّ واحد من أولئك الرجال المحرومين. قال الجميع عند دفنها: يا لها من مسكينة بريئة! من عساه يريد هذا لها، ولماذا؟

هل يمكن أن يكونوا هم من فعلوا ذلك؟... كان بيبا يسأل نفسه هذا السؤال... صوفيّو موشي! على سبيل الانتقام! نوع من العقوبة! لكن، لماذا هي؟ لماذا يستهدفونني أنا؟

وبعد ذلك، راح بيبا يقلّب حاجات مريامو، يفتّش في صندوقها بحثاً عن أشياء يمكن التصدّق بها في المسجد حتى تثاب بما يعادل قيمتها في الحياة الآخرة. لكنه لم يجد شيئاً مناسباً غير الباتشيدي الذي كان لديها.

وبينما كان يُخرج من الصندوق ذلك الوشاح الذي سحره بريقه ذات يوم، شعر أن في داخله جسماً ثقيلاً. فتح ذلك القماش الزلق فوجد في يده كتاباً. إنه الكتاب! فوجئ كثيراً، فسقط الكتاب في الصندوق، لكنه التقطه من جديد. عرف أنه كتاب بوانا كوربين، الذي أراد، هو نفسه، أن يسرقه في ذلك اليوم، لكنّه وجده الآن مخفياً في صندوق زوجته. تذكّر ذلك الصباح عندما كان عائداً من عند بيت المفوّض المساعد فرأى الكتاب على الكرسي، ومعه قلم، حيث تركهما كوربين في غمرة استعجاله... ثم تذكّر كيف التقى مريامو وخانم ذاهبتين في الاتجاه الذي كان آتياً منه حتى يحضرا حوائجها الباقية في بيت المفوّض. لا بدّ أنها أخذت الكتاب وقتئذٍ، ومعه القلم أيضاً. كان القلم الآن داخل الكتاب، لكن، لماذا؟ فكّر في الأمر قليلاً. تفحّص الكتاب برهة وجيزة. كانت فيه بضع صور - في واحدة منها بوانا كوربين على حصانه.

لماذا؟ لماذا تسرق سرّها فتستعيده -تستعيد عارها- من الإنكليزي؟ هل فعلت هذا حتى تثبت براءتها أمام زوجها؟ أم فعلت هذا حتى تمكّن نفسها -وتمكّن زوجها- من الثأر من المزونغو؟... ثأرٌ كان، هو نفسه، عاجزاً عن أخذه. إذاً، هذه هي هديّتها له؛ هدية لعلّها كانت تعتزم أن تريه إياها ذات يوم، ذات مساء، في زمن أفضل.

كان مقتنعاً أن في الكتاب إجابةً عما يعذّبه. ما العلاقة التي كانت بين مريامو والمفوّض الإقليمي المساعد؟ وهل كان الصبي، آكو، ابنه؟ لم يكن قادراً على قراءة الكتاب، لكنه سيحمل هذه الهدية معه أينما ذهب. إنه هدية منها، ولا بدّ أن تكون حاضرة فيه، موصوفة فيه. إن في هذا الكتاب روحها.

مقاطع متفرقة (II)

من المفكّرة الشخصية لبيوس فرنانديز

نيسان 1988، موشي

مرَّ أسبوعٌ ونيّف منذ وصولي إلى موشي والتقائي جمالي الشاب. زرنا بعض المواقع معاً؛ وأخبرني قصصاً وطرائف سمعها عندما كان طفلاً في بيت أهله... لكن هناك الكثير غير هذا مما ليس مسموحاً لي أن أسأل عنه...

هُزم فريق يانغا (الأفارقة الشباب) في كرة القدم أمام منافسه القديم فريق سيمبا (كان اسمه سابقاً ساندرلاند)؛ وخلال الساعة الأخيرة، كانت محطة باصات موشي مزدحمة بالمحتفلين وضجيجهم، وباتهامات أنصار الفريق الآخر. كثيراً ما يتأخر باص تافيتا؛ وعندما وصل، كان مسافروه مبتهجين، وكان صوت راديو الترانزيستور يلعلع عالياً.

شققت طريقي مع جمالي الشاب عبر الزحام، ثم أبرزنا بطاقتي السفر وقلنا لمعاون السائق، بكلّ ثقة: «لدينا أرقام مقاعد محجوزة». قال لنا: «بالطبع، اصعدا إلى الباص فوراً». لكن الباص الذي كان آتياً من آروشا أصغر حجماً مما هو معتاد... ولم يكن مطابقاً لمخطط المقاعد الذي

رأيناه عند شباك بيع التذاكر. ما توقعنا أن يكون سفراً مريحاً في مقعدين في وسط الباص، صار في هذه المركبة سفراً في الصف الأخير من المقاعد.

طريق كثير التعرجات، يجتاز منطقةً كلّها تلال وهضاب. تمسّكنا بمقعدينا مثلما يتمسّك المرء بروحه. إننا مسافران على طريق تجاري؛ ومعنا مسافرون أقوياء، مجرّبون: شباب الماساي، ورجال ونساء تايتا. الآن، في آخر يوم السوق، يصطحب أولئك المسافرون معهم مواد غذائية طازجة قادمة من تنزانيا، ولا يدفعون عليها عند الحدود ضريبة جمركية، بل رشوة... أوراق نقدية ممنوعة يحملونها ويتبادلونها من غير عائق. يشرح لنا الشاب الجالس إلى جوارنا كيف يجري ذلك كلّه: الجميع يجني رزقه... من الشرطي المتوعّد الذي صعد إلى الباص أول الأمر، إلى موظف الجمارك الذي يحاول إخافة الناس بنظراته الثاقبة، إلى موظف الهجرة البطيء الذي يستغرق عشر دقائق حتى يضع ختمه على أوراقنا. من ذا الذي يستطيع العيش على الراتب الحكومي؟! يطرح صديقنا هذه البديهية، ويضع في فمه حبة سكاكر، ثم يلقي نظرة سريعة حتى يطمئن على حوائجه التي وضعها على الرف، ويلقي نظرة قلقة إلى الخارج خائفاً من سقوط شيء مما وضعه فوق سقف الباص. نصل إلى تافيتا قرابة منتصف الليل.

ليلة سوداء لا قمر فيها، ولا شيء غير جيوب خافتة من ضوء يتخلّلها. برودة خفيفة في الهواء. وإلى يميننا، عند انطلاقنا من محطة الباصات، ثمة منطقة مفتوحة يستخدمونها مكاناً لتجميع القمامة. يُفترض أن هذا هو مكان إقامة السوق. كانت روائح النهار قد نضجت وتخمّرت، لكن هواء الليل البارد يكتمها ويبقيها بعيدة عنا. نسير في ما بدا أنه الشارع الكبير الوحيد في البلدة (استنتجنا أن السير في الاتجاه الآخر يفضي إلى خارج

البلدة، في اتجاه فوي)، بعض أبواب مفتوحة، وأنوار مظلّلة في الداخل. أصوات موسيقا. يكاد المرء لا يرى أحداً في الطريق المحفَّر، غير المعبّد. لافتة على جدار، سينما حديثة وڤيديوهات جديدة، وإلى جانبها ملصقات تعلن عن اثنين من الأفلام في وقت واحد: سيلفستر ستالون وأميتاب باشان. هوليوود وبوليوود، متقابلتان. المباني منخفضة، قسم من طين، وقسم من إسمنت، وقسم من حجارة قرميدية -كيفما اتفق- والسقوف من صفيح مموّج. نصل فجأة إلى بناء حديث إلى حدّ مدهش. وعلى جداره الجانبي، كُتب بحروف يبلغ طول الواحد منها قدمان: «تافيتا إن». المدخل منار، برتقالي. شجرة في الخارج، وسيارات متوقفة، وعسكري. ندخل فيرحّب بنا شابٌّ في بدلة كاوندا(*) زرقاء. يقول لنا: «أهلاً وسهلاً». فوجئنا بأن غرف الفندق جيدة جداً.

لم أشعر منذ سنين بهذه الوحدة كلّها، وبأنني بعيد إلى هذا الحدّ. كانت آخر مرّة عندما أتيت إلى إفريقيا أول مرة... منذ زمن طويل. لا تزال الموسيقا مستمرة في الخارج. وفي الطابق السفلي، في ردهة الفندق، رجلان يتحدّثان متحمّسَين في البار، صوتاهما مسموعان بوضوح، من غير عائق. ثم يأتي صوت ماء من مكان ما. الشاب جمالي نائم في الغرفة المجاورة. رأيت هذه البلدة، وهذه المنطقة، مرات كثيرة خلال الأسابيع الماضية... رأيتها في ذهني مثلما يُفترض أنها كانت قبل ثمانين أو تسعين عاماً. تخيّلت آلاف الجنود والحيوانات سائرين جميعاً في هذه الأرض الجافة، يحفرون خنادق المعركة، ثم يهجرونها؛ إطلاق البنادق، والهجوم بالحراب. المرض والظمأ والموت. وأنا الآن هنا. إحساسٌ غريب، غير واقعي.

(*) بدلة كاوندا: بدلة من الطراز الذي كان يلبسه رئيس زامبيا الأسبق كينيث كاوندا. (المترجم).

إنه الصباح، بعد فطور سواحيلي. المدينة مكشوفة جداً، متألقة كلّها كأن الشمس تنسكب فيها انسكاباً فلا تترك بقعة من غير أن تمسّها. إنها البلدة الواقعة على حافة صحراء كان لا بدّ لكلّ من أراد الاستيلاء عليها في الحرب أن يجتازها.

لكن، ما من شيء يشير إلى الحرب هنا، ما من علامة على الماضي. تاريخ ضاع في الرمال وما عاد أحدٌ غير المتفانين إلى حدّ الهوس يراه ويعيد تكوينه، وإن تكن رؤاهم ناقصة، وإن تكن قصصهم هشّة. صحيح، يقول عسكري الصباح الواقف في محرسه عند المدخل، كان جدُّه يحبّ أن يحدّثهم عن الأيام الخوالي، وعن الحرب والألمان. لكنه مات منذ فترة. لو أتينا قبل شهرين، أو ثلاثة شهور...! يصل المدير مستاءً من أن تحلّ على العسكري بركةُ الحديث معنا.

يقول العسكري: «يريد الضيفان السؤال عن الماضي، عن الألمان وأشياء من هذا القبيل».

يصرفه المدير، ثم ينظر إلينا متفحّصاً، ويسألنا: «من أنتما؟».

نجيبه، فيصافحنا ويقول لنا: «أيها الصديقان، هذا مكان كلّه تاريخ!».

لا يتوقّف عن الكلام بعد ذلك. اسمه جيمس. رجل صغير الحجم يناهز ثلاثين عاماً من العمر، له شارب خفيف، يرتدي لهذا اليوم بدلة كاوندا لونها بيج. أسأله بأمل: «هل أنت من هنا؟».

يتوقف. «لا، يا سيدي. أنا من راباي، في الساحل». لن يزيد على هذه الإجابة شيئاً. يتابع كلامه: «هل تعرفان أن هذه البلدة كانت المنطقة البريطانية الوحيدة، في العالم كلّه، التي استولى عليها الألمان في الحرب العظمى؟ لقد ظلّت في أيديهم إلى أن...». واصل الرجل كلامه قائلاً لنا معلومات تاريخية معروفة لنا.

أسأله: «هل لديكم هنا أشخاص من كبار السن الذين يتذكّرون الحرب، أو لعلّهم سمعوا قصصاً عنها من آبائهم؟».

«مات آخر واحد قبل ستّة أسابيع. أشكّ في إمكانية العثور على أحد غيره... تعالا معي!».

سرنا خلفه طائعين فدخلنا البيت، وصعدنا السلّم، طابقين إلى الأعلى، حتى وصلنا إلى ترّاس على السطح. هذه أعلى نقطة في البلدة، وهي تكشف أميالاً كثيرة من حولها في الاتجاهات كلها. منظر جبل كليمنجارو من هنا يخطف الأنفاس. هناك أكواخ على سفحه، ودخان يتصاعد من عدة مواضع. القمة المستديرة ظاهرة، يكسوها الثلج: منظر مهيب جليل، لكنه شديد اللطف أيضاً. سلسلة تلال كأنها منبثقة من سفح الجبل. يقول جيمس: «في هذه التلال، تقع بحيرة تشالا. يغذّي البحيرة جدولٌ مائي تحت الأرض. يواصل الجدول مساره تحت الأرض من هناك -انظرا إلى ذلك الخط من الخضرة الممتد على سطح الأرض، فوق الجدول- ثم يتفجّر ينبوعاً هناك...» يشير لنا إلى منطقة في البعيد كثيفة الاخضرار... «وبعد ذلك، يغذّي الجدول بحيرة جيبي...» يقول هذا الآن وهو يشير إلى جهة الجنوب... «ثم يسير حتى جبل باري في تنزانيا. وهكذا، تريان أن تافيتا محاطة بنهر جارٍ تحت الأرض!». يبتسم معتزّاً بهذا.

نتجوّل في المكان، في اتجاهات مختلفة، تجذب كلاً منا تلك البانوراما الرائعة التي من حولنا. في الأسفل، تحتنا، يبدأ عالم البلدة الدنيوي الكثيف استيقاظه البطيء الواثق: شوارع ليس فيها إلا أشخاص قلائل، وسيارة رباعية الدفع وصلت قبل قليل ووقفت عند البيت، وذلك المكان الذي يعرض فيلمين معاً ينطلق منه الآن صوت الراديو حاملاً نشرة أخبار يقطعها صخب إعلانٍ تجاري من نيروبي. ومن خلف فندقنا، قضبان

خط السكة الحديدية المتوقّف الذي انتقل عليه جيشٌ في ما مضى؛ ومن خلفه مجموعة بيوت لها فناء خلفي مشترك. يخرج طفل من بيت خلاء واضح أنه من غير باب، ثم تدخل بعده امرأة في يدها صفيحة ماء. أشيح بوجهي، وأنظر في البعيد.

أمامي تماماً، فوق تل مستدير عارٍ، كنيسة كبيرة مبنية من حجارة خشنة. وفي ذلك الاتجاه، على درب يمرّ عبر الأجمات والخضرة، يسير أشخاص بسطاء، ملابسهم حسنة المظهر، ذاهبين إلى القداس. لست أدري ما إن كانت هذه هي كنيسة إرسالية جمعية المسيح التبشيرية، أو ما إن كان هذا موقعها.

وفي اتجاه الشرق، على مسافة غير بعيدة، مَعْلَمٌ متميّز جداً من معالم الجغرافيا المحلية: تل مستدير منخفض كأنه نتوء صغير على راحة يد منبسطة. لا يستغرق السير إليه زمناً طويلاً، فهو خارج البلدة مباشرة حيث تبدأ الأرض الصحراوية الشوكية. يأتي جيمس إلى جانبي ويقول: «سالايتا. جرت هنا معركة شهيرة». ثم يصحح ما قاله: «ثلاث معارك. لم يأخذه البريطانيون إلا في المعركة الثالثة».

أسأله ما إن كان هناك من يهتمّ بالتاريخ: هل له أهمية؟

«آه... للأسف، ليست له أهمية في نظر أهل البلدة. لكن زوّاراً مثلك يأتون من حين إلى حين. في الشهر الماضي، أتت بعثة ألمانية قادمة من تانغا – رجل وامرأة. التقطا صوراً لتل سالايتا».

يقول لي إنه أعدّ بروشوراً يصف للسيّاح الأماكن المتميّزة في المنطقة. يريد أن يزوروا هذا المكان من أجل التاريخ، إضافة إلى الجبل والحياة البرية. «في رأيك، لماذا أهتم بكما هذا الاهتمام كله؟ لأنكما تعجبانني. أنتما أخَوان لي قادمان من الجهة الأخرى للحدود. لكني أريد منكما أيضاً أن تخبرا الناس عنا».

وكجزء من ضيافته الغامرة، يأخذنا جيمس إلى الكنيسة بسيارته رباعية الدفع. يخرج قسيس مع جمع من المؤمنين للترحيب بنا عندما نترجّل من سيارة الجيب. أسأله بعد تبادل التحيات: «متى بُنيت هذه الكنيسة؟».

يقول القس وقد بدا عليه قدرٌ بسيط من خيبة الأمل لأننا لن نشارك في القداس: «في الثلاثينيات. بعد حريق».

«وقبل ذلك؟ هل كان هنا مركز لجمعية إرسالية المسيح التبشيرية قبل وقت طويل».

يقول: «صحيح. كان هذا قبل زمني بكثير. لكن مركزهم لم يكن هنا. أظنّه كان حيث تقع المقبرة الآن».

يرسل معنا فتاة لا تبدو عليها رغبة في تفويت قداس الصباح. تبدو الفتاة ملتزمة بالكنيسة؛ لا بدّ أنها مفضّلة عند القس. نعثر على المقبرة وسط أجمة من أشجار المانغو. لقد جرت إعادة استخدام القبور كلّها في الآونة الأخيرة. شواهد قبور قديمة، وقبور جديدة لعلّه لم يمضِ عليها أكثر من خمس سنين، أو عشر سنين. في طريق عودتنا إلى الفندق، يشير جمالي الشاب إلى شيء قديم مبني من القرميد يبدو كأنه مدخنة عتيقة. نتوقف. هذا شيء مفاجئ يكاد يكون مشهداً متميّزاً جداً على قمة تلٍّ عارٍ مثل التل الذي عليه الكنيسة، قبالته تماماً إلى الناحية الأخرى من الطريق. ترتفع المدخنة إلى جانب بناء مستطيل كئيب المظهر مغلّف بقشرة إسمنتية رمادية. لم يجد أحدٌ أنه يستحق لفت انتباهنا إليه؛ لكن من المؤكّد أنه قديم. ليس فيه شيء من الحجارة القرميدية التي رأيناها. البناء الرمادي هو مقرّ الأبرشية؛ وقسمٌ منه مؤجّر لغيرها. تتوقّف امرأة عجوز محنية الظهر عن كنس الفناء لكي ترينا المدخنة المتصلة بمطبخ عتيق يستخدم الآن مستودعاً؛ ليس له سقف. بحسب معلوماتها، فإن هذه المدخنة موجودة هنا منذ زمن بعيد.

لقد أُقيم المبنى الجديد في موقع مبنى أقدم منه، وأكثر اتساعاً. ولا تزال آثار الجدران الخارجية القرميدية للمبنى القديم مرئية في الأرض. ومن واحدة من زوايا ذلك المبنى القديم، تنهض المدخنة كأنها تذكار بسيط بالماضي.

ليس معنا مرشدون من الماساي، كالذين كانوا مع آلفرِد كوربين، حتى يأخذونا إلى بحيرة تشالالا. لكنني أتفق مع كوربين لحظة أرى هذه الجوهرة المنزوية هنا: لا بدّ أن هذا هو مكان بدء الخليقة نفسه... بحيرة شديدة الزرقة، محاطة بالتلال؛ ومياه صافية صفاء الكريستال. نسمة لطيفة باردة برودة منعشة تجعل سطح الماء يترقرق أمواجاً صغيرة. مكان لا يزال نقياً جداً. النباتات التي من حول البحيرة (شجيرات العليق الشائكة، وأشجار صغيرة) لا تثقل عليها. لا شيء هنا من صنع الإنسان عدا بقايا جدار قرميدي قديم عند حافة تلك الفوهة البركانية... جدار كادت تفوتنا ملاحظته عندما كنا نستعدّ للرحيل. يجب أن يكون هذا الجدار واحداً من مرابض الرشاشات التي صمدت منذ وقت طويل. يقتضي الأمر مخيلة واسعة حتى يستطيع المرء تصوّر هذه الأرض مليئة بالمحاربين، وسماع أصداء إطلاق الرصاص فيها. أيّ نوعٍ من الناس ذلك الذي يمكن أن يجعل هذه السفوح تكتسي بنادق ودماً وأحشاء؟ نوع غريب! أذكّر نفسي بالمذابح التي ارتكبها قادتنا أنفسهم على هذه الأرض. وفي طريق عودتنا، نرى سيارة من نيروبي خارجة من موقع من مواقع النزهات تاركة من خلفها علب البيتزا؛ ونرى شباباً من الماساي يلتقطون تلك العلب.

نمضي مسافة على طريق تافيتا - فوي غير المستوي. رحلة خطيرة لأن الطريق يكون غير مرئي في مواضع كثيرة نتيجة كثافة الغبار، ولأن السيارات القادمة من الجهة المقابلة سريعة سرعة مخيفة.

مبويوني التي كانت ذات يوم مدينة خيام عسكرية صارت الآن بوابة «منتزه تسافو الوطني». لافتة إلى جانب الطريق تشير صوب الشمال، فتأخذنا إلى بلدة قائمة في موقع لعلّ بلدة كيكونو القديمة كانت فيه. اسم البلدة الجديدة غلوري: كنيسة مربعة أنيقة، وبيوت صغيرة جميلة ممتدة في صفوف دقيقة. شجرة مبويو وحيدة (تشبه اليد شبهاً غير قليل)، من تحتها صفٌّ دراسيّ يجري. أنظر من حولي باحثاً عن جرف فأرى في البعيد تلاً. أيكون هذا التل موقع الإرسالية التبشيرية القديمة؟ لم نرَ حيواناً برياً واحداً طيلة سفرنا إلى هذا المكان.

يقول لنا جيمس عند رجوعنا إلى الفندق استعداداً للرحيل: «عودا، من فضلكما! لديّ قصص من أجلكما. تحدّثت مع كبار السن... من بينهم قسّ عجوز في الكنيسة -كان القس الذي رأيتماه هناك ابنه- لديه قصة عن السبب الذي جعل البحيرة تغور، ومتى حدث ذلك».

لم يقل لي جمالي الشاب إن أباه لا يزال حياً، وإنه في موشي، إلى أن صرنا في آخر يوم لي هناك.

إنه رجل عجوز محني الظهر، أظنّه في الثمانينات. رجل نحيل، شعره رمادي، وعيناه ذابلتان، يلفّ إزاراً على وسطه، ومن فوقه قميص مفتوح. أجلس قبالته في الفناء الخلفي في بيت يشغل غرفة من غرفه. ابنه، جماليّ الشاب، واقف إلى جانبنا، غير مرتاح. الفناء أرض ترابية عارية مسوّرة في آخرها سقيفة متهالكة: إنها مطبخ. العجوز جالس على كرسي يمضغ قطعة كاسافا ويبصق الألياف والأجزاء القاسية على الأرض. إلى جانبه صفيحة ماء. عندما ينتهي من قطعة الكاسافا، يلتقط القطع التي رماها على الأرض ويلقي بها صوب النهاية البعيدة لذلك الفناء حيث تناثرت أوساخ كثيرة. يحمل صفيحة الماء ويسير إلى وسط الفناء، ثم يصب الماء بعناية فينشره على الأرض التي تشربه كله. ثم يعود فيجلس على كرسيه.

يقول: «كان أبي زعيماً، في كينيا!».

ذكرياته عن الحرب مشوّشة. وهو يخلط بين الحرب وانتفاضة ماجي ماجي. لكنه مولود بعد انتفاضة ماجي ماجي. أقول هذا سريعاً لجمالي الشاب فيرفع كتفيه. أقول له غاضباً: «هل أنت واثق من أنه والدك؟»، يستغرب سؤالي، ثم يقول: «لعلّه ليس والدي».

يتذكّر العجوز أخاً له. يقول إنهم سرقوه.

يقول لنا: «تعالا!».

نتبعه إلى غرفة مظلمة فنتوقّف برهة إلى أن تألف عيوننا ظلمتها. أجلس مع جمالي الشاب على ما بدا لنا مقعداً غير مريح. لكن العجوز يقول لنا أن ننهض. ينزع الغطاء القماشي من فوقه فيكشف عن صندوق خشبي عتيق جوانبه منحوتة وفق الطراز الساحلي. يفتح الصندوق ويشير لنا بأن نقترب وننظر. أركع إلى جانبه.

في الصندوق أشياء كثيرة: قطع قماش، ومرآة، وصحيفة سواحيلية من غير تاريخ واضح عليها أنها من زمن الاستعمار، وقطع نقود معدنية من بينها قطعة من الفترة الألمانية. وفي الصندوق صور من بينها صورة في إطار يظهر فيها مع زوجته. هي جالسة على كرسي، وهو واقف إلى جانبها. هي في فستان، وهو في معطف وكوفية. الصورة ملتقطة في استوديو منذ أربعين عاماً، أو نحو ذلك. ثم يرفع صورة بحجم بطاقة بريدية لامرأة إفريقية عجوز -هذه هي خانم- والدته. أمسك بالصورة التي كان واضحاً أنها ملتقطة في الزمن نفسه وفي الاستوديو نفسه حيث التُقطت صورة ابنها مع زوجته. المرأة واقفة تنظر إلى الكاميرا مباشرة. امرأة قصيرة القامة ذات مظهر عنيد. يلتقط ابنها قصاصة من صحيفة صفراء قديمة مطبوع عليها كلام باللغة الإيطالية لا أستطيع قراءته. ثم يحدث شيء غريب: يبدأ العجوز

الغناء بصوت منخفض وهو ينظر إلي بعينين مسرورتين ويحرّك رأسه مع اللحن قليلاً، بينما رحت أنظر إليه غير قادر على معرفة لغة الأغنية. لكني أدرك ذلك سريعاً: إنها أنشودة هندية. يقول جمالي الشاب إن علينا أن نذهب... من الواضح أنه غاضب، وأنه أحسّ حرجاً.

أسأل جمالي الشاب بعد أن صرنا خارج البيت: «ما الأمر؟ لماذا غضبت منه؟ والدك».

«إنه عجوز معتوه».

أسأله عن أخيه الذي سُرق.

«القصة هي أن أبي كان له أخ ذو جلد أبيض اللون. لقد أُعطي للأسرة. ثم أُخذ إلى دار السلام... هذا ما يجعلني أغضب عندما يتكلّم أبي باللغة الهندية ويغني تلك الأغنية. أغضب لما فعله الهنود بجدّتي. لقد كانت إفريقية، فأنكروها عندما مات زوجها. أخذوا ابنها المتبنّى، وتركوها تموت فقيرة».

أسأله: «والصبي؟... ذلك الصبي الأبيض».

«نعم، هو ابن بيبا...».

ذهبنا عند ذلك لرؤية المقبرة القديمة. إن هذا الجزء من البلدة، الذي تظلله أشجار ضخمة، واقع حيث كان الأوروبيون يعيشون في زمن الاستعمار. تحمل البيوت القديمة ذات السقوف المرتفعة التي يغطيها قرميد أحمر شهادة من تلك الحقبة. كان البحث في المكتبة مثمراً، فقد وجدنا مذكّرات كوربين وأخذنا الكتاب معنا. المقبرة مسوّرة، ومن حولها حديقة وأشجار. إنها مكانٌ معتنى به جيداً؛ ولعلّ ذلك نتيجة تمويل أجنبي. نتجوّل في المكان.

نصب تذكاري في أحد جوانبها من أجل «الجنود الهندوس والسيخ

والمحمديّون»؛ وقبرٌ صغير لطفل. لا تخبرنا هذه المقبرة بأشياء لا نعرفها، لكنّها تستحقّ النظر إليها لأنها أثر ملموس من آثار الماضي.

نجلس عند نصب تذكاري للجنود الهنود. أفكّر في ذلك الجاسوس، خميسي الصوفي، فأسأل جمالي الشاب ما إن كان يعرف ما حلَّ بأسرته.

«نعم... ظلّوا في موشي زمناً طويلاً، حتى الستينيات... ابنه اسمه سيف، كان يدير مدرسة دينية أغلقت في ذلك الوقت. كان ولدا سيف يذهبان إلى مدرسة موشي القديمة. يعرفهما. ذكيّان. وفي ما بعد، ذهب واحد منهما إلى السويد، وذهب الآخر إلى أميركا».

نتناول صامتين طعاماً أتى به القيّم على المقبرة. ينضمّ الرجل إلينا. خلال عشرة أيام أمضيتها مع جمالي الشاب، أظن أنني صرت أعرفه معرفة جيدة مع أنه من الصعب عليّ أن أحدّد لهذه المعرفة طبيعة أو سبباً. لكن أحسن طريقة لوصفها هي القول إن هناك تفاهماً بيننا، واحتراماً متبادلاً يتجاوز ما دار بيننا من أحاديث. فبأسلوبه الهادئ، أخذني في جولة واسعة، وروى لي أشياء كثيرة، فكان بذلك يعبّر عن مساندته لما أفعله. ثم إنه كشف لي آخر الأمر عن خصوصياته: أولاً، عندما أخذني لرؤية والده؛ ثم عندما كشف لي عن غضبه الدفين إزاء الهنود. لا أعرف إلامَ يعود الفضل في هذه الصداقة (بالتأكيد، هي ليست ناتجة عن نزوع اجتماعي من جانبي)، ولعلّها عائدة إلى حاجة لديه إلى التواصل مع روح تشبه روحه.

أقول له: «وماذا عن ذلك المصاب بالبهاق، فومفراتي؟ هل أعدموه؟».

يصمت جمالي الشاب، ويطيل التفكير. ثم ينفجر صمته مفصحاً عن معلومات جديدة.

«كانت جدتي تتحدّث عنهما، عن خميسي وفومفراتي، عن الحرب، وعن زوجها. كانت عجوزاً لاذعة اللسان، لكن ذكرياتها مشوّقة. شوهد

فومفراتي في موبو بعد خمس سنين من انتهاء الحرب. كان ذلك على طريق تانغا. وكان له دكّان قريب من محطة القطار. رآه واحد من رجاله صار شرطياً في موشي. لقد شنقوه. هنا، في موشي».

تعانقنا في اليوم التالي، عند محطة الباص. قلت لجمالي الشاب: «سنلتقي».

أجابني: «سنلتقي». ثم افترقنا.

ملحقات

(1) في كتاب مذكّرات آلفرِد كوربين «القلب والروح» ثلاثة فصول عن سنواته الأولى في شرق إفريقيا. وفي الفصل الأول منها، يصف المشقّات التي يواجهها مفوّض المنطقة المساعد، لكن بطريقة جافة بعض الشيء.

(2) معلومات استخباراتية 117/ 16

ملاحظات عن ضباط يخدمون مع قوات العدو في إفريقيا الشرقية الألمانية (مع نماذج من إمضاء كلٍّ منهم).

وضع هذه الملاحظات قسم الاستخبارات: الأركان العامة في الجيش.

دار السلام، 17 تشرين الأول 1916

ملاحظة افتتاحية بقلم النقيب ف. ماينارد

(ص 11)

خميسي بن عرب (من غير رتبة). زعيم طريقة الكريمية الصوفية في موشي؛ له صلات بعناصر محرّضة في مصر والسودان. فرَّ خميسي من السودان سنة 1904. شاركت جماعة الكريمية في عمليات استخباراتية ضد البريطانيين في شرق إفريقيا، على الأقل منذ سنة 1912. وبعد اندلاع

الأعمال القتالية، شاركت الجماعة في العمليات العسكرية المعادية... كانت لعملائها مشاركة في تفجير خط القطار بين فوي وتافيتا، أربعة أميال إلى الشرق من ماكتاو، يوم 29/ 7/ 1915. ثم شاركوا في إخراج أربع عربات عن السكة باستخدام لغم عند الميل السادس والثلاثين، يوم 22/ 8/ 1915... إلخ. أعدم.

من دفتر الملاحظات الشخصي لبيوس فرنانديز

نيسان 1988، دار السلام

أعود إلى دار السلام فأجد أن ريتا قد وصلتها قبلي... أبكر مما توقّعت. فيروز شديد الإصرار على أن أعيد إليه المفكّرة. واضح أنه يريد أن يكون الشخص الذي يريها إياها. أقول له إنني أريد الاحتفاظ بها إلى أن أنهي عملي، وإنني لن أضيّعها. ماذا يتوقع أن يفعل بها - ليست لها قيمة مالية... لعلّه يريد الاحتفاظ بها تذكاراً...

لكن ريتا تركت لي معه رسالة تقول لي فيها أن أذهب غداً لرؤيتها في فندقها... فكيف أستجيب لهذه الظاهرة الآتية من ماضيّ؟ من جديد، يقول لي فيروز إنها شديدة الرغبة في رؤيتي. من ناحيتي، كنت أفضّل ألا يعكّرٍ شيءٌ سكينتي؛ لكن تلك السكينة قد تبدّدت... وأنا أيضاً توّاق إلى رؤيتها.

إنها كنّة بيبا - فما مقدار ما تعرفه من قصته؟ وما مقدار ما ستقوله لي؟ وهل لديها أيّ إجابات عن تلك الأسئلة كلّها التي أثارتها المفكّرة؟ لماذا هي هنا؟ ليس من أجلي؛ هذا أكيد. لكنها ليست آتية من أجل السياحة!

القسم الثاني

I

الأب والابن

يأكل معك، لكنه لن يموت معك
إلا إذا كان مولوداً منك.

- مثل سواحيلي

لا أقارب لي إلا السجن الذي من حولي.

- من أغنية كوجاراتية

15

مما قيل للصبي عن الحرب، كانت تلك الحرب تبدو له دائماً مشهداً واحداً من فوضى شاملة: غبار منعقد ضباباً خانقاً معلّقاً في الجو؛ ونيران... بيت يحترق، وأكوام قمامة تنفث دخاناً، ومعسكرات متناثرة على الأرض العشبية ينبعث الدخان منها؛ ناسٌ مندفعون في كلّ اتجاه، تصفع الأرض أقدامهم الحافية؛ أشخاص يصيحون وأبواق سيارات صاخبة وأجراس دراجات ترنّ، وقطارات تصفر، وثغاء ماعز... وهو ضائع، متروك، ليس على جسمه غير سروال وقميص داخليين، يجري هنا وهناك بين أرجل الناس، ويبكي. يدان كبيرتان ترفعانه بلطف وتحملانه إلى البيت. كان آنذاك طفلاً صغيراً، أصغر كثيراً من أن يتذكّر الحرب التي كانت تزمجر وترعد وتشقّ طريقها بين مواكاتي وماونغو، ثم عبر مبويوني وكيكونو، ثم إلى الجبل الذي خلفهما. ظلّ آكو يحمل في رأسه دائماً صورة الطفل التائه التي كوّنها من انطباعاته عن تلك الأيام المشؤومة التي شهدتها البلدة التي كانت مسقط رأسه.

في سني طفولته التي يتذكّرها فعلاً، كانت الحرب قد صارت مادّة للأساطير. كانوا في ذلك الوقت قد أخذوه إلى موشي. يتذكّر رجالاً جالسين هناك عند المسجد، أو عند البيوت، يناقشون تحرّكات الجيوش

ومواقعها وتكتيكاتها، ويستخدمون حجارة صغيرة وعصياً يرتّبونها على الأرض، ويتأملون نتائج المعارك مثل من يتأمل لعبة شطرنج. كان يلعب في الشوارع لعبة البنادق والمدافع والسيارات المصفّحة. ولشهورٍ كثيرة، كان يرى مصابين من غير أرجل أو من غير أذرع أو بلا عيون؛ وكان يقال إن هناك رجلاً هندياً فقد إحدى خصيتيه، ورجلاً آخر حُزّ أعلى رأسه مثلما يُحزّ أعلى البرتقالة... هكذا وصفوه؛ كانت هناك أحذية عسكرية وملابس كاكية ومناظير وأوعية مطبخ وعلب للطعام وأجزاء بنادق وإطارات وأحزمة بأبازيمها وأغلفة طلقات وكسّارات لجوز التنبول وفراشي وأمواس حلاقة ومأكولات معلّبة معروضة للبيع بصرف النظر عن حالتها. ولشهور كثيرة، كان المتسكّعون في شوارع موشي يفضّلون لعبة الصياح: «هالت! أختونغ» في وسط السوق والنظر إلى الرجال الذين عملوا جنوداً لدى الألمان يقفون وقفة الاستعداد العسكرية على نحو غريزي مُظهرين ذلك الانضباط العسكري الشهير الذي خسروا الحرب على الرغم منه.

كان طفلاً أعجوبة في كيكونو، ثم في موشي. كان الناس يشيرون إليه. وتنظر البنات إليه في المسجد بعيون حالمة بأفكار عن الزواج، فتأتين لرؤيته بأنفسهن: الصبي ذو العينين الرماديتين والجلد الأبيض والذقن المستدقّة والوجنتين المرتفعتين. طفل له ذلك المظهر المثالي الذي يُرِدنه لأنفسهن. كانت العذراوات يقُلنَ لخانم، زوجة الموخي، الوصية على الصبي: «لا تدعي لون عينيه يتغيّر، من فضلك يا ماما خانم، من فضلك!»، وكأن لديها سلطة على مظهر الصبي! أخيراً، وقبل أن يحيق به شرّ من الشرور (قبل أن يقرّر واحدٌ من الجنّ أن يستحوذ عليه، أو قبل أن يصيبه أحدٌ بعينٍ شريرة، أو يرمي عليه سحراً بدافع الحسد)، أخذته خانم إلى المعليم لحمايته. ربط المعليم تعويذة على ذراع الصبي الأيمن، لفافة أسطوانية صغيرة فيها

أوراق عليها آيات قرآنية لحمايته؛ وربط الموخي (جدّه لأمه) حول رقبته خيطاً عليه أدعية كثيرة. ثم صارت خانم تضع في عينيه كحلاً كثيفاً... من باب التحسّب.

وأما خانم التي كانت تُقسم على أنها ستظلّ تضمّه إلى صدرها حتى إن جعل الربّ الأرض تنشقّ تحت قدميها، فقد كان آكو يتذكّرها دائماً امرأة قصيرة سوداء تكاد لا تبلغ كتفي زوجها. كانت تبتعد عنه قليلاً حتى تستطيع النظر إليه، وتبتسم. كان يتذكّر أيضاً الذراعين الطويلتين اللتين تحتضنانه وتعِدانه بالكثير. والغريب أيضاً أنه لم ينسَ البتّة قصة روتها له: «تقاتل شابّان في قريتها من أجل امرأة، فقضم أحدهما أذن الآخر!». كان يضحك، ويضحك، وحتى عندما كبُر كثيراً وصار شديد البعد عن شجرة المبويو، فقد كان تذكُّر تلك القصة يجعله يبتسم.

عندما كان صبياً في موشي لم يعرف عن أمه غير ما قالته له خانم. لقد كانت أختها الصغيرة؛ ثم ماتت. وكان يعرف أن أباه رحل وتركه. كان جمالي وخانم عمّاً / أباً وخالة / أماً؛ ثم لم يلبثا أن صارا «ماما نا بابا نا» أباً وأماً، مثلما كانا بالنسبة إلى الأطفال الثلاثة الآخرين في ذلك البيت.

كيف تموت بلدة صغيرة مثل كيكونو؟!

حتى عندما كانت جيوش الجنرال سماتس زاحفة في طريقها إلى الانتصار على الشرق الألماني، عرَض جعفر، بائع الأدوية المطبّب، الذي كان من أوائل من سكنوا ذلك الموقع، خدماته على الوحدة الطبية العسكرية، وذهب معها كأنه عرف ما يخبئه المستقبل للبلدة. رحل بيبا بعد أن دفن زوجته وترك ابنه مع جمالي وخانم. ذهب في الاتجاه نفسه، إلى موشي، حتى يبدأ من جديد.

فجأة، مع رحيل الجيوش، بدا أن كلّ ما له أهمية (لا تتمة الحرب

وحدها) قد صار جارياً في مكان آخر. فخلال شهور معدودة، قُصفت دار السلام من البحر، ثم سقطت؛ ولم تلبث الحرب كلّها أن انتهت. وفي الأوقات التي تلت ذلك، صارت كيكونو، الواقعة بين خطّي سكّة حديدية يحملان وعوداً كثيرة، بلدةً منسيّة. لم يأتِ مفوّض مساعد جديد لإدارة شؤون البلدة وإدارة جوارها. كان وصول الصحف من نيروبي وممباسا بطيئاً، بل كان أبطأ من وصول الشائعات. ونشطت التخمينات القائلة إن المراكز الكبرى تشهد نمواً سريعاً في الأعمال، وإن هناك فرصاً في تانغا وموشي ودار السلام لشراء العقارات بأسعار منخفضة، بعد أن فقد الألمان وحلفاؤهم كلّ شيء.

تمسّك الموخي جمالي تمسُّكاً يائساً ببقاء جماعته، ولو حتى إلى حين. كان يعدهم بأن الأمور ستتحسّن. تذكّروا أن كيكونو في ما مضى أوشكت على حيازة اعتراف الحكومة بها بلدةً. ويمكننا، بقوة عددنا، تقديم التماس من أجل تعيين مفوّض مساعد، وأن نطلب مهاجرين جدداً. قال لهم إن شيئاً لم يتغيّر؛ لكن كلّ شيء تغيّر بالفعل! وعلى مرِّ الشهور، كانت البلدة تودّع سكّانها، أسرةً بعد أسرة.

صارت الوصاية على الصبي آكو موقع نزاعٍ كبير عندما جاءت كولسا، أخت جمالي (جدة آكو لأمه) لكي تودّعهم. لكن الموخي تمكّن من التمسُّك بالصبي بعد أن أبرز رسالةً من والده الذي ترك البلدة بعد الحرب ثم تزوّج وذهب إلى دار السلام. لقد انتصر جمالي في هذا النزاع. قال لأخته إنه لن يعطيها الصبي أبداً ما دام رشيد، عامل السكة الحديدية، معها؛ فخلق هذا شرخاً بينهما لن يزول أبداً. رحلت جدة آكو، مع زوجها رشيد في اتجاه مومباسا.

وأما الموخي الذي كان أول هندي يفِد إلى كيكونو الواقعة عند شجرة

المبويو المعوجة، والذي شهد تزايد عدد جماعته في البلدة بعد أن كان مقتصراً على زوجته وعليه، فقد رأى ذلك العدد يتناقص من جديد إلى أن صار مقتصراً عليه وعلى أسرته. وأخيراً، رحلوا هم أيضاً قاصدين موشي القريبة. كان ذلك بعد انقضاء ثلاث سنين على رحيل الجيوش.

اتخذوا طريق تافيتا ومعهم حماران وعنزة، وبضعة حمّالين، وعربة يدوية كانت قادرة على حمل بعضهم فقط. كانت أغصان شجرة المبويو المعوجة ممتدّة كأنها يدٌ تحتجّ احتجاجاً أخيراً على هذا الرحيل. كانت الغابة وتل الإرسالية يلوحان في البعيد؛ وأمامهم، ينتصب جبل كليمنجارو العظيم. كان الطريق ترابياً عريضاً، وكان مهجوراً. خلّفت الحرب على الأرض ندوباً كثيرة: أجزاء آلياتٍ صدئة، وأكواماً من القمامة تناهبتها عوامل الطبيعة ونبش الضواري، ومواقع معسكراتٍ محترقة.

وفي نقطة من طريقهم، ظهر لهم عددٌ من الماساي. كانوا واقفين إلى جانب الطريق، يراقبونهم: رجال طوال منتصبين إلى جانب الطريق، وفي أيديهم رماح وتروس! أخافهم ظهورهم. وعند اقترابهم، بدأ الماساي يتكلّمون ويشيرون بأيديهم. ذهب كبير الحمّالين إليهم. «يريدون أن نرى شيئاً -أو أن نقابل شخصاً- هناك... لم أفهم أكثر من هذا». ذهبوا سائرين عبر الأعشاب، وظلّ خادمان لحراسة حاجاتهم. تقدّمهم رجال الماساي، ثم توقّفوا عند ضفة بركة ماء جافة وأشاروا إليها - هيكل عظمي بشري! كان الهيكل العظمي مستلقياً على ظهره مستنداً إلى جذع شجرة فتية. كان شكله غريباً جداً كأن أحداً فكّكه ثم أعاد تجميعه... مفاصل غير مكتملة، وعظام سائبة؛ وأما الرأس فكان موضوعاً في مكان مرتفع على جذع شجرة. كان ذلك مشهداً غريباً مخيفاً لن ينسوه أبداً. فمن الذي تجشّم عناء تجميع هذه العظام؟ وكيف ظلّت الحيوانات بعيدة عنها؟ وما معنى هذا؟

ولماذا أتى بهم شبّان الماساي إلى هذا المكان؟ كان الماساي يضحكون في تلك اللحظة؛ ولعلّ هذا المشهد قد صار نكتةً لهم، فأرادوا جعل غيرهم يراه. وفي مكان آخر، شاهدوا عربة مهجورة في مجرى نهر جاف. قرود صغيرة تلعب فوق العربة؛ وقد تمكّنت من ثني غصن شجرة بأكمله من حولها. لم يروا عظاماً هناك. وقفوا بعض الوقت ينظرون صامتين إلى ذلك الحطام ثم تابعوا مسيرهم. سوف يتذكّرون أشياء كثيرة من تلك الرحلة. زئير الأسود، والحضور الدائم للضباع التي اعتادت أن تقتات على البقايا البشرية التي خلّفتها الحرب. كان الخدم المرافقون لهم مسلّحين بسيوف ورماح. حملت خانم هراوة. وأما الموخي، فقد سار حاملاً رمحاً (طويلٌ كأنه واحد من الماساي، لكن خطواته متمايلة بعض الشيء)، وكان الرمح في يده يجعل شكله طريفاً، مسلّياً. سنح لهم ظبيٌ فطاردوه، لكنّهم لم يتمكّنوا منه. وجدوا زرافةً ميّتة، لكنّهم لم يمسّوها. وفي آخر المطاف، ذبحوا حماراً لهم بعد أن أشرف على الموت. هربت عنزتهم... هربت إلى حتفها، ليتها كانت تعرف ذلك! كان عمر آكو آنذاك أربع سنين.

***

كان آكو يتذكّر عيداً، احتفالاً، عندما خرجت بلدة موشي كلّها إلى محطة القطار حتى ترحّب بمفوّض المنطقة الجديد. كانت هناك أعلامٌ ولافتات تعلن الولاء، وفرقتان موسيقيتان. أوروبيون ارتدى الرجال منهم بدلاتٍ بيضاء وقبعاتٍ واقية من الشمس، وارتدت النساء فساتينَ وقبعاتٍ واسعة خفيفة. كان الأوروبيون واقفين في المقدمة، مع الشرطة. وأما الإفريقيون فكانت ملابسهم متنوّعة الأشكال: كانزو، وبنطلونات رثّة وبويبوي، وخانغا... كانوا واقفين في الخلف، إلى أحد الجانبين؛ في حين كان الهنود واقفين في الجانب الآخر مرتدين بدلات ودهوتي[†] وأثواب

باتشيدي وعمائم وطرابيش. كان آكو واقفاً بين الهنود مع الموخي عندما وصل القطار ووُضعت عند باب العربة مرقاةٌ لنزول القادمين. خرج من القطار رجلٌ أبيض، ثم ساعد امرأةً بيضاء في النزول... كانت المرأة ذات رقّة يندر وجودها. بدأت الفرقتان العزف، وانفجر التصفيق، فلوّحت يدا المفوّض الجديد وزوجته للمستقبلين. ثم تفقّد المفوّض حرس الشرطة، وبعد ذلك اتجه إلى السيارة التي كانت في انتظارهما. عندما اقترب المفوّض من مكان وقوف جمالي وآكو، جذب الموخي يد الصبي وسار به مبتعداً.

كان اسم المفوّض الجديد آلفرِد كوربين.

بعد سنة من ذلك الاحتفال، انشقّت الأرض من تحت قدمي خانم، وتهاوى عالمها. لقد مات الموخي الذي شاركته زعامة البلدة في ما مضى، الموخي الذي سار بها نازلاً من تل الإرسالية إلى عالمه عند شجرة المبويو، فجعلها أمّاً لجماعته. مات الموخي مثلما يموت ملكٌ منفيّ. لم تكن له في موشي المكانة نفسها تماماً التي كانت له من قبل، لكنه كان معروفاً لدى عدد من الناس. كان جعفر باهي واحداً من أولئك الناس، على الرغم من أن مكانته قد تراجعت أيضاً بعد أن كفّ عن كونه موخي الجماعة في موشي. كان جمالي قد افتتح دكّاناً متنوّعاً بما استطاع إحضاره معه من دكّانه القديم. افتتح ذلك الدكّان حالماً بأن يستعيد سابق مجده. ولعلّه كان يمكن أن يستعيده وأن يجعل أسرته موضع احترام من جديد. وأما بعد موته، فقد تحوّلت الأسرة، بين عشية وضحاها، إلى أسرة من المتسوّلين. لم يكن المتجر مشروعاً يجوز لامرأة أن تقوم عليه، امرأة إفريقية خاصة، فانهار وانهارت معه تلك الآمال كلّها. من غير زوجها، ومن غير قدرة مادية، صارت خانم موضع تجاهل الجماعة التي كانت تعتبر نفسها، من كلّ قلبها، فرداً من أفرادها. وصارت المنزلة التي كانت

لها منسيّةً. هذا ما جعلها تبتعد عنهم وفي قلبها حزنٌ ومرارة؛ لكن من غير أن ترضى بالهزيمة. كان في عهدتها صبيٌّ هندي، وكان لها ثلاثة أطفال أنصاف هنود. كانت أمهم جميعاً. لم تكن لحقيقة أن آكو أكثر بياضاً من غيره، بكثير، موضع اهتمام لديه وسط رفقة الشوارع حيث لوّحته الشمس، وحيث يكسو الغبار الجميع.

تبيع الأرملة الفقيرة كل ما تستطيع بيعه: صارت خانم تطهو وتبيع ما تطهوه لإعالة أسرتها. كان ابنها الأكبر قد ترك البيت، وكان ابنها الآخر يعمل بأجر زهيد؛ وكانت ابنتها التي اقتربت من سن الزواج ثالث أطفالها. ظلّت الفتاة معها، تساعد أمها.

عندما بلغ آكو سنته السادسة من العمر، أي بعد سنة من موت الموخي، صار يعمل في التقاط الكرات في «النادي الرياضي» عندما يلعب البيض التنس. وكان يتلقّى منهم بقشيشاً. عُرض عليه أن يعمل «توتو[†]»، خادماً في حديقة بيت كبير من بيوت الأوروبيين. كان يذهب في التاسعة صباحاً من كل يوم إلى ذلك البيت الواقع خلف المقبرة المقفلة التي فيها عددٌ كبير من الأشجار الضخمة. تكون الممصاحب[*] جالسة على درجات البيت الأمامية حتى تستريح من تعبها في الحديقة – وجهها متورّد، وقبعتها الخفيفة موضوعة إلى جانبها. تنحدر الدرجات إلى ممرّ يعبر من تحت تعريشة ظليلة. وفي الحديقة أزهار ونباتات كثيرة لم يكن يعرف من أسمائها غير الورد وعباد الشمس.

لم يفهم الصبي أول الأمر سبب تلك العناية التي يغدقونها على تلك القطعة الصغيرة من الأرض المكتسية نباتات خضراء. لكنه صار بعد ذلك يترك عينيه تسرحان في تلك الحديقة فيرى عناقيد صفراء ذهبية، ووروداً

(*) لقب يُطلقه غير البيض على السيدة البيضاء المتزوّجة، أو على السيدة من طبقة عليا. (المترجم).

بيضاء وحمراء وزرقاء على سيقانها الطويلة، ويرى الأرض مغطاة بالأبيض والوردي وأوراقاً كبيرة ثخينة كأنها ستائر، وأوراقاً غيرها صغيرة كثيرة العدد كأنها نسيج مخرّم... نباتات تصعب العناية بها، ونباتات رعايتها سهلة. صار يرى ترتيباً في مواقيتها وفي توزُّعها؛ وصار لديه إعجابٌ بمن صنعت هذه الحديقة، واحترام لها، لهذه المرأة المتورّدة ذات الشعر الذهبي والابتسامة على شفتيها. كانت المرأة ميّالة إلى الحديث مع نفسها.

كان يتجوّل في الحديقة حاملاً مرشّة السقاية، ويكنس الممرّ، ويرتّب الحجارة على جانبيه، ويعيد تبييضها بعد المطر. كان يتلقّى دائماً كأساً من الليمونادة بعد العمل. ومرة، تعاون مع المرأة على قتل أفعى.

في ذات يوم أحد، ساعد الصبي في وضع الكراسي والطاولات على العشب، وفي مدّ المفارش ونقل الزهور. كان يجري داخلاً البيت، خارجاً منه، آتياً بهذا الشيء أو ذاك، مؤدّياً كل ما تطلبه منه السيدات القلقات. وصل الضيوف، بعضهم بسياراتهم، وبعضهم سيراً على الأقدام. كان هناك أيضاً هنود مدعوون أتوا في مجموعتين كبيرتين، مجموعة رجال، ومجموعة نساء؛ ثم وقفت المجموعتان منفصلتين، مرتبكتين تنظران إلى الأوروبيين. كان الأوروبيون في ملابس بيضاء، وبدوا متورّدين، نظيفين. كان كلامهم رشيقاً منمّقاً. جلسوا على الكراسي. وعلى الطاولات كؤوسٌ فضية ملمّعة عصر ذلك اليوم نفسه، كان بريقها يعمي الأنظار تحت الأضواء الليلية إلى حدٍّ جعل عدداً من الضيوف ينقلون كراسيهم مبتعدين عنها. نهض رجلٌ وألقى كلمة، ثم بدأ أشخاص آخرون يلقون كلماتهم. كان الخدم والهنود الواقفين في الخلف ينظرون إلى ذلك كلّه فاغرين أفواههم. قُدِّمت السندويتشات والمشروبات بعد انتهاء المراسم. كان الهنود قلقين لوجود لحم البقر والخنزير في الطعام، فذهب واحد من المزونغو وتحدّث معهم. جيء إليهم بصينية جديدة بعد قليل. قال الرجال: «خيار وخبز... لا ضرر

في هذا»، وأكلوا؛ لكن النساء كنّ وجلات، فلم يلبثن أن انصرفن. لحق الرجال بهنّ بعد قليل، وقد بدا عليهم أيضاً الوجل والارتباك. لكن آكو وبقية الصبيان القائمين بالخدمة رأوهم يكادون يركضون بعد خروجهم من البوابة، فضحكوا منهم.

كان ذلك في وقت الغسق... جوّ رمادي هبّت فيه نسماتٌ شديدة. أخرجوا مصابيح الكيروسين. راحت الأشجار تتمايل مع النسيم مصدرةً أصواتاً شديدة، فتأهّب المزونغو للدخول.

سار آكو حاملاً زجاجة نبيذ، فسمع صوتاً من خلفه يخاطبه بنبرة حادة: «سيماما!» (توقّف). توقف الصبي منكمشاً على نفسه خائفاً من التوبيخ، بل حتى من صفعة تأتيه. ثم استدار ونظر إلى الرجل. كان هو نفسه الأوروبي الذي جاء بالقطار، المفوّض الجديد. إنه ضيف الشرف في تلك الليلة، وهو الذي وزّع الكؤوس قبل قليل. كان له شاربٌ كثيف، وعينان فيهما بريقٌ لطيف. لم يكن طويلاً جداً... قبعته البيضاء في يده، وشعره الخفيف مسرّح إلى الخلف. ومن ورائه، كانت سيدة البيت الذي يعمل فيه الصبي ومعها شابٌ طويل القامة. تحدّثت المرأة مع المفوّض الذي راح يصغي إليها وهو ينظر إلى الصبي. ثم لم يلبث أن اقترب منه.

«كوجا» (تعال!)، قالها المفوّض الإقليمي بطريقته الإنكليزية، ثم توقّف، فسار إليه الصبيّ متردّداً.

«جينا ياكو ناني؟» (ما اسمك؟). كان الرجل منحنياً فوقه وهو يحدّثه؛ كان ينظر إليه.

«أكبر».

نظر إليه الرجل طويلاً، نظر في عينيه متمعّناً إلى أن أحسّ الصبي بأن تلك النظرة تؤلمه، فمسح عينيه بظاهر يده.

«بابا ياكو ناني؟» (من أبوك؟).

أجابه الصبي: «موخي جمالي».

«يوكو وابي؟» (أين هو؟).

«آمي فاريقي» (مات).

أخبره الصبي عن عمّه / أبيه الموخي، وعن خالته / أمه خانم.

تلقّت خانم في صباح اليوم التالي رسالة شفهية من مفوّض المنطقة جاء بها مراسل على دراجة. ذهبت عند الساعة الثانية، بعد الغداء والقيلولة، لرؤية المفوّض في المقرّ الحكومي. كان المكان قصراً إذا قورن بما عاشه بوانا كوربين في كيكونو: بيت كبير أبيض يقف أمامه عسكري لحراسته. عسكري آخر في الممر الطويل أمام مكتب المفوّض. وفي الداخل كان المفوّض نفسه جالساً إلى طاولة ضخمة من خلفها نافذة عليها قضبان حديدية. صورة الملك والملكة على الجدار. دخلت فرفع رأسه عن الأوراق التي بين يديه، ثم وضع قلمه ونهض واقفاً وتقدّم إليها. توقّفت خانم حائرة مرتبكة بعد أن جعلها هذا التغيّر وجلةً بعض الشيء... التغيّر الذي أصاب ما يحيط به وأصابه هو نفسه. بدا لها أكثر نظافة وهيبة وثقلاً.

«كيف حالك، ماما خانم؟ تفضّلي بالجلوس!».

جلست قبالته صامتة.

قال: «لقد مرَّ زمن طويل...».

«إيه... لقد مرَّ الكثير!».

«صحيح. كيف حال الأسرة؟ سمعت أن بوانا موخي...».

«لقد توفي. هذه مشيئة الله، أليس كذلك؟!».

«بولي سانا. يؤسفني سماع هذا!».

«وما أخبارك أنت، بوانا؟».

قال لها إنه كان في مومباسا، ثم ذهب مع الجيش المنتصر إلى ويلهمسكال وظلّ هناك لأداء بعض لأعمال، ثم صار مفوّضاً في تانغا. وبعد ذلك، ذهب إلى إنكلترا في إجازة حيث تزوّج فتاة كان قد التقاها في نيروبي (أشار برأسه إلى صورة موضوعة ضمن إطار على مكتبه). عاد إلى تانغا، ثم جرى تعيينه في موشي.

قبِلت كأس ماء. لقد تغيّرت الأمور الآن. ذات يوم، كان هذا الرجل ضيفاً خجولاً في بيتها. كان وحيداً. وكان أحياناً يأتي إلى بيتهم بذريعة من الذرائع فيتحدّث مع زوجها. ثم إنه كان مسحوراً بالمسجد دائماً، وكان يسترق نظرات توق إلى داخله في أثناء جولاته المسائية. ثم جرت تلك الحوادث. كان أولها مع المعليم؛ ثم الزفاف. أسعدته مريامو بعملها في بيته؛ وكانت تلك فكرة زوجها... فكرة كان يظنّها عبقرية إلى أن صارت لعنة شيطانية. لقد حدث ذلك كله. هم الآن في بلدة كبيرة. وهو حاكم هذه البلدة مع ملكته الشابة الجميلة. وأما هي، خانم، فصارت امرأة من غير زوج. التفتت إلى صورة زوجته: فتاة تبدو متألقة بشعرها الأشقر. كانت وقفتها أنيقة... امرأة واقفة بظهر مشدود، مائلة جانباً.

قال: «سمعت عنك من الصبي...».

أومأت برأسها: «لقد أخبرني. لم أكن أعرف أنه يعمل في بيتك».

«ماما خانم...»، بدأ جملته حذراً، مفتّشاً عن الكلمات المناسبة... «يؤسفني التطرّق إلى هذا الأمر، لكن، عرفت من التقارير الحكومية أن مريامو قُتلت في كيكونو. أرجو أن تتقبّلي تعزيتي!».

«أشكرك!».

«من قتلها؟ هل كانت لديكم أيّ شكوك؟!».

أجابت: «لا. كان في البلدة غرباء كثيرون. لكن المسألة منتهية الآن».

«والصبي...».

«إنه ابنها. أكبر... ندعوه آكو».

انتظر قليلاً، ثم سأل: «وبيبا... ما أخباره؟».

«هو في دار السلام. تزوّج مجدداً وأعطانا الطفل».

كانت تنظر إليه... صار الرجل مضطرباً.

«إذا كنتُ قادراً على تقديم أيّ مساعدة، ماما... ربما أساعد في إرسال الصبي إلى المدرسة...» قال هذا متردّداً.

كانت خانم امرأة عزيزة النفس، فرفضت عرضه. قالت له: «إنني مقصّرة بعض الشيء. هذا لأن لديّ أطفالاً غيره، لكني سأرسل الصبي إلى المدرسة».

بعد عودتها من المقر الحكومي، قالت لآكو ألّا يعمل في أشغال عابرة بعد الآن. وجدت لنفسها عملاً في بيت أوروبي صارت تساعد سيدته في الأعمال المنزلية. لم تلتقِ المفوّض مرة أخرى. ثم سمعت بعد وقت من ذلك أنه انتقل إلى دار السلام وحلّ محلّه مفوّضٌ آخر.

عندما استطلعت المدرسة الهندية، جاء لرؤيتها بعض كبار الشامسي. سألوها ما إن كانت مستعدّة للتخلّي عن الصبي. هناك أسرة هندية، أو اثنتان، يسرّها استقباله. كان الصبي حسن المظهر مجدّاً في العمل.

قالت لهم: لا... لقد انشقّت الأرض تحت قدميّ، لكني لا أقبل إحساناً من أحد، ولا أقبل ذهاب الصبي. أنا زوجة موخي ترك آكو في عهدتي بعد غياب والديه. وقد كانت لي أيضاً مكانة بارزة الجماعة. كنت أهتم بأمورها وأساهم في نشاطات مسجدها، وفي دفن موتاها، وفي استقبال ضيوفها،

وفي العناية بمرضاها وإطعامهم، وفي الطهو في احتفالاتها... وكنت أرقص مع الآخرين، وأبكي معهم. فلماذا أنتم الآن آتون لمضايقتي بعد أن مات زوجي؟ هل نقصت قيمة هذه المرأة السوداء بعد رحيل زوجها الأسمر؟ هل نقص شيء من روحي، أو من شرفي؟ هل صارت قدرات هذه المرأة، هذه الأم، أقل مما كانت في الماضي؟

كانت تعرف أن كلامها كلّه لا طائل منه. وكانت تعرف أن الزمن لن يطول قبل أن ينفطر قلبها.

ذات يوم، أتت لرؤيتها امرأتان هنديتان. كانت المرأتان من البلدة (رأتهما خانم قبل ذلك)، متوسطتا السن، لهما مظهر موحٍ بمكانتهما.

كان كلامهما واضحاً. فبعد التحيات، وبعد رفضهما تناول المرطّبات، قالت إحداهما: «أتينا لرؤية ابن بيبا. أبوه مشتاق إليه، ويريد معرفة أخباره!». ثم أضافت موضحة هذا الطلب: «تلقّينا رسالةً منه... إن كنت تريدين رؤيتها...».

لم تُرِد خانم رؤية الرسالة. نادت الصبي لكي يرى الضيفتين.

وخلال يومين متتاليين، صارت المرأتان تأخذان آكو في نزهات وتتحدّثان معه. اشترتا له أشياء جديدة، وأطعمتاه. أخبرتاه عن أبيه الذي أُبعد عنه، الذي لا يزال الآن مبعداً عنه... ولا شك في أن هذا عائد إلى سوء نوايا من يريدون الاستفادة من عمله. قالتا له: «انظر إلى نفسك!... أنت كالأوروبيين. إن لك مستقبلاً زاهراً فأبوك رجل ثريّ!».

كانت واحدة من هاتين الخالتين ذاهبة إلى دار السلام، وسوف تأخذه معها لكي يرى والده.

كان عمر آكو ثماني سنين فأغرته فكرة وجود أبٍ ثريّ في دار السلام. لكنه كان يحب ماما خانم!

قالت له خانم: «اذهب. اذهب وكن مع أبيك! إن لديك مستقبلاً هناك. لكن، لا تحسب أنك ستتخلّص مني! سوف تأتي ماما لكي تكون معك!».

وبعد بضعة أيام، صعد إلى القطار مع واحدة من المرأتين ورحل. لن يرى ماما خانم بعد ذلك.

16

أتت نهاية الحرب، وأتت معها تلك المأساة التي كانت نقطة النهاية في حياة بيبا الأولى، ونقطة البداية لحياة جديدة في عالم تغيّر.

في اليوم الذي أعقب اكتشاف بيبا موت زوجته، ذهب مع الجماعة لدفنها في المقبرة الصغيرة في كيكونو. لم تكن في البلدة آنذاك حكومة حتى تحقّق في الجريمة. ولم يجرِ البحث عن شهود؛ ولم تُعرض مكافأة لمن يساعد في البحث عن القاتل؛ ولم يجرِ جمعٌ للأدلة. افترض الشامسي أن جندياً اقتحم البيت فاغتصب الزوجة الشابة وقتلها، فاعتبروا الأمر منتهياً (كان هذا سلوكاً صائباً في نظر الزوج المفجوع بزوجته). كان القوم أشخاصاً مسالمين لم يعتادوا السعي إلى الثأر. وكانوا يلتمسون الراحة في إيمانهم بأن مريامو قد انتقلت إلى حياة أخرى أفضل من حياتها.

على نحوٍ غير مباشر (كان في نظرهم تعبيراً عن التعاطف)، جعلوا الزوج الذي فقد زوجته يشارك في طقوس الدفن وشعائره، فلم يتركوه وحيداً مع حزنه إلا بعد حين. كان بيبا قد بدأ يشعر بحب حقيقي لزوجته، فأحسّ بأنه خُذل، وبأن ذلك القرار السريع بطيّ قضية مقتلها كان إساءة إلى ذكراها. لكن الكبار اتخذوا قرارهم؛ وما كانت هناك سلطةٌ يستطيع اللجوء إليها غير سلطتهم، عدا السلطة العسكرية التي كان يخشاها. صار الآن

يرى في كيكونو بلدة تحمل ذكرى مريرة لبداية سعيدة انتهت في مهدها. وفي غضون أيام معدودة، فور تمكُّن الجيوش البريطانية أخيراً من اختراق الشرق الألماني، انطلق بيبا إلى مسقط رأسه، موشي. ترك ابنه الصغير، آكو، في عهدة الموخي وزوجته ريثما يأتي يوم يصير فيه قادراً على رعايته.

لم يمضِ إلا وقتٌ قصير بعد وصول بيبا إلى موشي في أعقاب القوات البريطانية الظافرة حتى عرض عليه راعيه القديم جعفر باهي تزويجه. ولم تكن الفتاة المقصودة بالعرض إلا ريمتي، ابنة جعفر باهي الصغرى، التي عرفها بيبا منذ أن كانت رضيعة. أعلنت ريمتي (خلافاً لمعنى اسمها، «رحمة») عمّا كانت أكثر بنات زمانها يعتبرنه أمراً صحيحاً، عمّا كان شبه مؤكّد أن أحداً لم يوجّهها إلى قوله: «لا أريد طفل تلك المرأة في بيتي!».

يكون الأطفال من زواج سابق شائبة في الزواج الجديد! وفي أكثر الأحيان، تنبري أسرة محسنة إلى القيام بالواجب الذي يفرضه الورع الديني، فتأخذ الأطفال لأن إعالة اليتامى إحسان عظيم. وفي تلك الحالة، يحرص الأب، أو الأم، على البقاء بعيداً عن الأطفال... في بلدة أخرى. كان الناس يرون هذا الثمن الذي يفرضه الزواج الجديد (ترك الطفل من أجل زوجة جديدة، أو من أجل أطفال جدد) شرّاً لا بدّ منه. ولمّا رأى بيبا نفسه في مواجهة هذا الشرط الموضوع على زواجه، بعث إلى جمالي وخانم برسالة طلب منهما فيها بقاء الطفل عندهما.

صار بيبا الآن في بلدته؛ لكنه ظلّ يعيش خائفاً. لقد كان رجلاً «مُعلَّماً» يعرفه كلٌّ من عملاء ماينارد وأعوان الألمان. ومن الممكن أن يأتي أيٌّ منهم إليه مثلما جرى في كيكونو. أقام في مكان قريب من دكّانه القديم حيث أتاه خميسي يوماً من الأيام لشراء تبغٍ إنكليزي. على نحو ما، كان ذلك العربي الطويل الوسيم هو من جعله متورّطاً مع فيسي. كان يتذكّر

كيف أوقع الإنكليز الأشرار بخميسي، فجعلوا الألمان يشنقونه. لم تصل تلك الرسالة الخائنة عن طريق بيبا؛ لكن علاقته مع فيسي جعلته مذنباً في أعين أتباع خميسي. كان يرى أطفال خميسي في الشارع أحياناً. وقد أرسل مرة مساعدة مالية إلى أرملته عن طريق جعفر باهي. سرعان ما رُدّت هديّته. جاءه فتى في ثوب أبيض، فدقّ الباب سائلاً عنه بوجه صارم؛ ثم وضع المال بين يديه بطريقة جازمة لا تقبل نقاشاً، ومن غير أن يقول أيّ كلمة. كان على رأسه طربوش طويل أخضر عليه شارة جماعته الصوفية.

أتى بيبا إلى هذه البلدة حاملاً عبئاً آخر أيضاً: الأفكار الحميمة لرجل أبيض، وذكرياته، وآلامه، مصبوبة في كلمات مكتوبة في مفكّرة... لكنه كان مفتقراً إلى القدرة على استكشاف هذا الكنز المحرَّم، وما كان قادراً على فكّ معانيه، ولا كان يعرف لغته. لقد خبّأ الكتاب جيداً، لفّه بقماشٍ متين ووضعه داخل صندوق قديم. وأما القلم الذي كان مع الكتاب فقد صار يحمله معه. كانت لديه رغبة شديدة في الرحيل إلى البعيد، إلى دار السلام، حتى تكون له بداية جديدة في تلك المدينة النشطة التي أبصر فيها، ذات مرة، آمالاً كبيرة. ستنفتح أمامه هناك فرصٌ كثيرة جداً. وعندما كانت الاستعدادات لزواجه الجديد جارية، أتت أنباء عن سقوط المدينة في يد البريطانيين الذين هاجموها من جهة البحر.

أُقيم لبيبا زواجٌ تقليديّ... زواج عادي من جميع النواحي. قال له جعفر باهي: «ليس لك أن تخشى شيئاً، فعروسك ابنتي!». كان ذلك كأن راعيه القديم يقدّم إليه ابنته تعويضاً عن بضاعة أصابها التلف. لكن ذكرى مريامو الجميلة الصامتة ظلّت ملازمة له، ظلّت مثل غيمة مخيّمة فوق الحدث المثير الذي هو زفافه... غيمة ألقت على ذلك الحدث ظلاً سوف يزداد مع الأيام.

كانت ريمتي فتاة صغيرة الجسم لها شعر كثيف متموّج؛ وكانت كلّها حيويّة ومكراً. اكتشف بيبا أنها قادرة على الإغراء، لكنها كانت أيضاً شخصية عملية تحسب كلّ شيء. لقد وجد مكافئاً له. لو كانت في مدينة أكبر، لتوفّرت لها فرص أفضل؛ لكن حياتها بقيت منحصرة ضمن موشي نتيجة الحرب، فظلّت خياراتها شبه معدومة إلى أن جاء بيبا. ولا شك في أن هذا كلّه كان منعكساً في دموع أمها خلال مراسم الزواج الأخيرة: الوداع بعد الوليمة التي أقيمت في اليوم الذي تلا ليلة الزفاف التي لم تشُبها شائبة.

لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن يأخذ بيبا عروسه الجديدة إلى العاصمة.

دار السلام، 1916. قبل بضعة عقود من ذلك، وفي نزوة من نزوات حبّ التملّك، زار سلطان زنجبار موقع هذه المدينة. كانت وقتذاك قريةً قائمة إلى جانب ميناء هادئ لا عيب فيه. أُعجب السلطان كثيراً بهذا المكان الذي أثار طموحه، فلم يلبث أن عاد بعد فترة قصيرة مصطحباً نجّارين ومخطّطين من أجل بلدةٍ أسماها: دار السلام. ثم جاء الألمان وانتزعوها من السلطان العربي، وتابعوا بناءها، فأقاموا فيها بيوتاً بيضاء جميلة، وطرقاً، وتماثيل كثيرة. وقد صارت الآن القاعدة البحرية الأولى للبريطانيين طيلة ما بقي من زمن الحرب. اختفت العربات اليدوية وعربات الريكشا، فحلّ محلّها أسطولٌ من العربات والدراجات الآلية التي تزمجر كلّها في الشوارع مطلقةً دخانها الأسود اللاذع في الهواء الحار الرطب. انتشرت قرى من الخيام في المساحات الخالية كلّها؛ وغصّت المطاعم والفنادق بالجنود؛ وآوت الحدائق والحقول آلافَ الخيول والبغال. وفي كلّ مكان، فاحت روائح الروث والوقود والجِيف.

لم يقبل الألمان البتّة التخلّي عن مستعمرتهم الثمينة. ظلّوا يتقهقرون تحت وطأة الهجوم فيتراجعون جنوباً، وتابعوا القتال تحت قيادة فون ليتو

الشهير حتى بلغوا إفريقيا الشرقية البرتغالية. كان لا بدّ من إخبارهم بأن الحرب في أوروبا قد انتهت حتى يخرجوا من الغابات.

وفي يوم من الأيام، أتت أخيراً نهاية الحكم العسكري. اختفت الخيام والبدلات والمركبات العسكرية واختفى معها آلاف الجنود. تمّ تنظيف المدينة. واستأنف سكّان دار السلام حياتهم انطلاقاً مما جرى.

كان في المدينة من أتوها محطّمين ليفرغوا مشكلاتهم ومصائبهم على الأسرة والجماعة. وكان هناك آخرون ممن ابتسم لهم الحظ في تلك الحرب نفسها، فاشتروا ما كان للألمان، واستولوا على العقارات مقابل قروضهم، وتلقّوا تعويضاتٍ ضخمة، وعملوا في التهريب، واحتكروا السلع، وموّنوا الجيوش. صارت العقارات المعروضة في دار السلام نادرة. لكن الرجل الذي عمل مع طرفي الحرب رغم أنفه كان ممن ابتسم لهم الحظ. استأجر بيتاً فيه متجر على الشارع. وهكذا، انطلق متجر بيبا من جديد.

كان زبائنه (هكذا ظلّوا طيلة حياته) من أفقر فئات الأفارقة والآسيويين، أولئك الذين يعيشون من يومٍ إلى يوم، فيشترون قليلاً من هذا وقليلاً من ذاك. لكن بيبا كان يقول إن المحيط نفسه يمكن ملؤه شيئاً بعد شيء. (حبّة حبة هوجازا كيابا). هناك من يجلسون في متاجرهم يؤرجحون سيقانهم ويعبثون بأنوفهم، أو يتلون الترانيم والأدعية ومسابحهم في أيديهم؛ وأما أنا فلديّ مغلّفاتي. قليل من الكركم، أو الفلفل، أو الكزبرة، في قمعٍ ورقيٍّ مسطّح – يلفّ تلك الأقماع، ويلفّها، ويلفّها. كلّ مغلّف جاهز يلقيه في السلّة يأتيه بقرش. صار لفُّ تلك المغلّفات التي على شكل أقماع كأنه عبادة، تأمُّل، فعل تلقائي يستطيع خلاله التفكير، والاختلاء مع نفسه، ومراقبة العالم.

كانت له مثابرة العنكبوت. وما كان يخرج من متجره إلا نادراً... حتى موعد إغلاقه، فيذهب إلى المسجد. وجد لنفسه هذا المكان في عالم لا عائلة له فيه ولا مكانة، فراح يبني حيث أقام. كانت الصفقات تأتي إليه. قمح من الفلاحين يرسله إلى المطحنة ويستعيده طحيناً يبيعه في متجره؛ وكوبرا يستخرج منه الزيت ويبيعه؛ وكاجو محمّص ونيء؛ وصحف قديمة؛ بل حتى مسامير عادية ومسامير ملولبة وصواميل. فلكل شيء من يشتريه. وإذا جاءه سوارٌ مسروق، أو سلسلة، أو مئة روبية مزوّرة، فما المشكلة؟ إنه لا يذهب بحثاً عنها! بل كان أيضاً يشتري نقوداً معدنية ألمانية قديمة صارت الآن عديمة الفائدة، وصار الناس ينفرون منها... يشتريها لظنّه أن أسعار المعدن سترتفع يوماً فيصهر تلك القطع النقدية.

وفي الأمسيات، بعد العشاء، كانت زوجته تساعده في إحصاء جنى اليوم: لفافات من نقود معدنية، وحزم من أوراق نقدية، ثم يخبّئ المال في مكانٍ آمن. أنجبا طفلة بعد حين. لكن ذلك البيت ما كان فيه شيء يجذبه أكثر من مفكّرة الرجل الإنكليزي. كانت راقدة في صندوق بيبا المعدني الأسود، إلى جانب السرير. كانت تذكاراً؛ وكانت حِلاً له. إن فيها روح مريامو. فعندما أعطته إياها (هذا ما كان مقتنعاً به)، عندما أخذتها من أجله بعد أن لم يجد في نفسه جرأةً على فعل ذلك، كانت تفضّله على الآخر، كانت تختاره هو، وكانت تهبه نفسها أخيراً. ينبغي أن يُشعره هذا بأنه اكتمل... وقد كان يشعره بالاكتمال حقاً، على نحوٍ ما. لكنه كان يحسّ نفسه مسكوناً بها: إن كانت روح مريامو في هذا الكتاب، فهي لم تمت! وإن كانت قد اختارته من خلال إعطائه هذه الكتاب، فهو غير قادر على التخلّي عنه.

كان موقناً أيضاً بأن في هذا الكتاب إجابةً عن السؤال الذي لم يزل يسكنه، إجابة كان يظن أنه يعرفها معرفة تكاد تكون أكيدة. أمر لم تتكلّم فيه

مريامو قطّ، ولم تقرّ به قطّ، ولم تنكره قطّ. سيفلح يوماً في إطلاق الروح التي في الكتاب، وستخبره. لم يكن واثقاً من أنه يعرف كيف يفعل هذا. وفي تلك الغرفة الوحيدة خلف المتجر التي كانت غرفة نوم في الليل وغرفة معيشة في النهار، كان الصندوق والسرّ المقدّس الذي فيه حضوراً مشحوناً يجعله يتوهّج ويرتعش لفرط الإثارة كلّما سمح لنفسه بالتفكير فيه. لا شك في أن صاحب الكتاب السابق كان يرى فيه قيمة كبيرة، فقد واظب على الكتابة فيه مرة بعد مرة، وكان يلتمس فيه راحته مثلما يلتمسها في امرأة، وكان مشدوداً إليه بقوة ذكرياته... لا شكّ في أنه سيأتي من أجله إن عرف مكانه.

لكن هذا لم يحدث، فأزاح بيبا الأمر من ذهنه إلى أن جاء يوم، بعد سنين، عندما كان يمزّق نسخة قديمة من صحيفة هيرالد من أجل مظاريفه، فوجد نفسه ينظر إلى وجه آلفرِد كوربين. لم يصدّق عينيه. نظر، ونظر، لكنّه هو، بوانا كوربين من غير شكّ؛ وهذه صورته في الصحيفة المحلية.

نظر من حوله جزعاً، ثم حمل الصحيفة وجرى إلى الخارج حتى يطلب من أحدٍ أن يقرأها له. أخيراً، أجاب طلبه موظف كان آتياً إلى متجرٍ مجاور. كان عددٌ من أصحاب المتاجر الفضوليين قد تجمّعوا:

«هذا من كان المفوّض الإقليمي هنا، السيد كوربين – ألم يره بيبا؟ ألم يأتِ إلى هذه المنطقة ويأمر بتنظيفها وبإبعاد المتسوّلين؟».

«أكّد اثنان من الواقفين أنها صورة كوربين».

قال بيبا: «لكنّي لم أره!»، عجب لحسن حظه، وتنفّس الصعداء أخيراً.

«هل يعني هذا أنه رحل؟».

«صحيح، رحل إلى أوغندا. انظر... إنه يودّع المنطقة. وتلك الجميلة التي معه، زوجته».

«ماذا، يا سيّد بيبا؟ هل كنت تعرف السيد كوربين من بلدتك القديمة؟ ماذا يمكن أن يريد منك؟».

«لا بأس، لا بأس! كنت أعرفه في شرق إفريقيا البريطانية، لكنه رحل الآن، ولست أعرف أين ألقاه، أو متى يحدث ذلك».

«أجابه الموظف: يصعب قول هذا. أنت تعرف أولئك "الصاحب"، يأتون ويذهبون على هواهم، أليسوا من يحكمون العالم؟».

تلا ذلك كلامٌ على غرابة سلوك الإنكليز؛ ثم انتبه أصحاب المتاجر إلى أن متاجرهم تنتظرهم، فتفرّقوا.

كان آلفرِد كوربين مفوّضاً إقليمياً في دار السلام طيلة ثمانية عشر شهراً، ثم جرى تعيينه سكرتيراً مساعداً لشؤون السكّان المحليين. كان الرجل من المؤمنين الأشدّاء بحكم المستعمرة الألمانية السابقة حكماً غير مباشر، وقدّم توصياتٍ ملحّة في هذا الشأن؛ فقد صارت المنطقة الآن في عهدة الإدارة البريطانية نيابةً عن عصبة الأمم. ومن دار السلام، أُرسِل آلفرِد كوربين إلى أوغندا سنة 1923 فبقي فيها اثني عشر عاماً.

وجد بيبا صعوبةً في التغاضي عن معرفته أن كوربين قد كان في دار السلام، وأنه كان يسير في الشوارع نفسها، بل لعلّه توقف مرّةً أمام متجره. لكن، على افتراض أن بوانا كوربين عرف بوجوده في دار السلام (افتراض، لا أكثر)، وأنه دخل متجره في أثناء إشرافه على تنظيف الشارع في الخارج، فرآه بيبا، ممسكاً قلمه الثمين في يده! فماذا؟ كان من شأن تفتيش البيت أن يكشف، على الفور، وجود المفكّرة التي كان القلم فيها. أو، لو أنه صادف بوانا كوربين في الشارع: كيف كان سيحيّيه؟... وهو حاملٌ قلمه الثمين في جيب قميصه!

كانت تلك أعجوبة! كان بيبا واقفاً على شفير مصيبة من غير أن يدري؛

لكنّه نجا. وهذا ما عزّز لديه فكرة أن الكتاب مقدّرٌ له، وأن روح مريامو تحميه.

عندئذٍ، بدأت الأخبار تأتي من موشي، أخبار عن الصبي، ذلك الصبي الملاك الذي تسيء امرأة إفريقية معاملته وتجعله يعمل خادماً، أهو الصبي نفسه؟ ما كان لدى بيبا شكٌّ في هذا. لقد سمع بموت جمالي في موشي قبل سنة مضت، وبعث إلى خانم رسالة تعزية استفسر فيها عن آكو. أتاه الرد حاملاً شكرها. قالت إن الصبي بخير.

ما كان من بيبا إلا أن بعث برسالة إلى حميه جعفر. أتاه الردّ: «إن الصبي ابنك، يا عزيزنا بيبا، وهو يعيش مع أرملة موخي كيكونو المرحوم. لقد خرجت المرأة من جماعتنا بعد وفاة زوجها. الصبي قذر، حافٍ، يعمل خادماً، ولا يذهب إلى المدرسة. إن من واجبنا أن نسرع في استعادته...».

توقّع بيبا، محقاً، أن تكون تلك النظرة إلى حال الصبي الذي في عهدة خانم ناتجة عن سوء ظروفها وعن حالة النبذ التي تعيشها. لكن، لا بدّ من فعل شيء. لقد دفعه إصرار زوجته ريمتي إلى التخلّي عن الصبي! لكن سبع سنين مضت، وما عاد الصبي خطراً عليها؛ بل يمكن أيضاً أن يكون معيناً لهما. فضلاً عن هذا، كان واجب بيبا تجاه ذكرى مريامو ألا يشيح بوجهه عن ابنهما.

كتب بيبا وريمتي رسالة يطلبان فيها معرفة ما إن كان الصبي راغباً في القدوم إلى أبيه في دار السلام، وما إن كان يسرّه أن يعيش بعيداً عن خانم. ينبغي أن يكون الصبي راغباً في المجيء؛ ولا يجوز إرغام خانم على أيّ شيء، لأنها خالته، ولأنها كانت أماً له طيلة هذه السنين. وإذا كان هذا ضرورياً، فسوف نأتي إلى موشي لمناقشة الأمر معها.

تصرَّف مَن في موشي بناء على هذه الرسالة، فتولّوا الوصاية على الصبي، وأرسلوه إليه في دار السلام.

17

لا تعبدوا الأصنام! هذا ما يقوله القرآن.

قالت ريمتي: «هذا ليس صواباً. إنه كفر؛ هذا البوجا، هذا المزار. نحن لسنا هندوساً».

أجابها: «عليّ أن أفعل هذا، وإلا فلن نعرف السكينة!».

ظلّت مريامو تسكن مخيّلته طيلة سنوات سبع مرّت بعد وفاتها. في بداية الأمر، خلال أيامه الأولى في دار السلام، كانت تظهر له جسداً مقتولاً، الجسد الذي وجده على الأرض في دكّانهما في كيكونو: رأسها مائل جانباً، وعلى وجهها نظرة ألمٍ ودهشة... خصل من شعرها ملتصقة معاً، وبقعة حمراء على عنقها، وصدر فستانها مشبع دماً. البانشيدي ملقى على الأرض إلى جانبها. كان هذا الظهور الدامي ينشب مخالبه فيه غاضباً، فينكمش على نفسه خائفاً ويقول: «هذه ليس أنت، يا مريامو؛ هذا الغضب...». فتعود إلى طبيعتها اللطيفة وتقول له لائمة: «أعرف أننا اتفقنا على البقاء معاً!».

وكان بيبا يقول في نفسه إنها تغار من ريمتي؛ سوف تألف زوجتي الجديدة عما قريب.

ارتاح بعد وقت لأن صورتها المدماة اختفت تماماً وصارت تأتيه

صورة المرأة اللطيفة التي يعرفها جيداً. كانت تجلس على كرسي إلى جانبه وتُصالِب ساقيها أمامها، فتبدو شديدة الإغراء في الباتشيدي الأخضر وحلية الأنف اللامعة. قدماها مصبوغتان بالحنّة، عليهما الرسوم نفسها التي كانت ليلة الزفاف.

وكان يسألها: «لماذا هذا الظهور بعد مضيّ تلك السنين كلّها؟!».

تقول مبتسمة: «ألست تحبّ أن تراني هكذا؟!».

كان كلّ من تكلّم معهم في الأمر -أولئك الذين يعلمون- يقولون له واثقين إن الروح التي ينتهي جسدها نهاية مفاجئة لا بدّ أن تبقى على الأرض طيلة ما كان باقياً لها من عمر، إلى أن يأتي أجلها. هناك طقوس من أجل الروح: صبيحة العيد، عندما يؤخذ أطيب الطعام إلى المسجد باسم الموتى (طعامٌ للجسد يتحوّل إلى أدعية من أجل الروح)؛ وفي ليلة القدر عندما تنزل الملائكة حاملة البركات إلى الأرض.

قالت عندما جاء آكو للإقامة عنده: «لقد أسعدتني كثيراً، إنه معنا الآن مثلما كان من قبل!».

قالت له يوماً: «أحبُّ كثيراً أن يكون في البيت ركنٌ لي. لا أطلب الكثير، زاوية بسيطة لي وحدي!».

كانت تلك الزاوية غرفة مستودع صغيرة مربعة ملاصقة للمتجر. وكان اللوح الخشبي الذي هو بابها مواجهاً لطاولة البيع. إلى يسارها ممرٌّ مُفضٍ إلى الشارع؛ وإلى يمينها المدخل المؤدّي إلى غرفة المعيشة الداخلية.

قرّر أن يُنشئ لها منزلاً في هذا المستودع الفارغ.

بعد تنظيف الغرفة وكنس أرضها، وضع فيها صندوقه الذي يؤوي الكتاب منذ عهد بعيد، فجعله عند الجدار المواجه للباب. ظلَّ الكتاب هناك، في صندوقه، بعض الوقت. صارت الغرفة لها.

وذات صباح يوم أحد، قبل أن يفتح المتجر بابه، دخل بيبا الغرفة، وأخرج الكتاب من الصندوق، وجلس على الأرض. قلب الصفحات، ونظر ملياً إلى حروف الكتابة المائلة، والتواريخ، والإعلانات المطبوعة في آخر المفكّرة. لاحظ الانتقال من قلم الحبر إلى قلم الرصاص، والعكس، ولاحظ تغيّر تواريخ الكتابات: كان هذا كلّه يشير إلى شيء، يقول شيئاً لم يدركه. أغلق الكتاب برقّة.

ذهب وأحضر ملاءة بيضاء غطّى الصندوق بها، ثم أعاد وضع الكتاب فيه بكلّ توقير. منذ ذلك الحين، أبقى باب تلك الغرفة الذي يستطيع رؤيته من نهاية طاولة البيع مقفلاً، ولم يسمح لغيره بدخولها.

هكذا بدأت لديه عبادة صنمه التي استمرت زمناً طويلاً.

***

كان آكو يرى أباه شخصاً صارماً، صامتاً، غريباً؛ لكنه لم يكن أباً غير عطوف. صار الصبي يذهب إلى المدرسة العامة في الصباح، ثم يجلس في المتجر مع أبيه بعد الظهر في المكان المخصّص له، ألا وهو الدرجة التي عند العتبة. يجلس وينظر إلى الشارع، لكنه يظلّ مستعداً لتلبية أيّ طلب مساعدة من أبيه. يخرج مساء ليلعب في الخارج. كان يجد زوجة أبيه حنوناً أيضاً، لكن بطريقة أخرى. كانت لها ابنتان عليها أن تهتم بهما؛ وكان يلعب مع ابنتيها أحياناً. ظلّ شهوراً طويلة يحسّ شوقاً إلى ذراعي خانم الطويلتين عندما تحتضنه وإلى بيتها البهيج الذي تركه.

وكان أكثر ما أوحى لآكو بغرابة أبيه تلك الغرفة المقفلة التي لا يدخلها غيره. بدأ الأمر بحادثة غريبة، بشعائر هندوسية أخذه أبوه لحضورها ذات ليلة.

كانا في غرفة كبيرة ساطعة الإنارة ملأتها سحبٌ كثيفة من البخور

وجلجلة أجراس وتمبورينات وإنشاد الحاضرين. كان رجلٌ نحيل داكن السمرة جالساً على حافة منصّة تدلّت ساقاه عند جانبها، في مواجهة جمعٍ من المتعبّدين الجالسين على الأرض. كان وسط الرجل ملفوفاً بقطعة قماش، وأما بقية جسده فظلّت عارية، لا شعر عليها. مصباحٌ معلّق غير بعيد فوق رأسه خلق حوله هالة من نور. كان المتعبّدون، من رجال ونساء، ينشدون وأعينهم متعلّقة بالرجل الذي دخل حالة من النشوة، فراح يرتجف ويرتعد وتسري موجاتٌ صاعدة من ساقيه إلى بطنه. صارت عيناه متسعتَين كبيرتين كأنهما خائفتان؛ وصار وجهه حفرة حمراء عميقة، وظهرت على جبهته خطوط بيضاء. ساد الصمت فجأة. قال الناس: «انظروا!»، بدا كأن الرجل الجالس على المنصة، بجسده المتصلّب وعينيه المتسعتين وفمه الذي ضاق وصار مدوّراً كأنه يصفّر، ويديه المستقرتين على ركبتيه، بدا غريباً جداً... وصار لونه كأنه يتغيّر فينتقل من الأرجواني الداكن إلى الرمادي إلى الأبيض الفضي، ثم إلى الأصفر، ثم إلى البرتقالي، ثم إلى الأحمر. وبعد ذلك، سرَت موجةٌ مضبوطة الخطوة صاعدة من معدته المنتفضة إلى جذعه؛ وببطء، بدأ يظهر من أعماق حلقه نورٌ كان خافتاً أول الأمر، ثم صار جسماً متوهّجاً، ملأ فمَه كلّه حتى بدا إخراجه منه غير ممكن. انفرجت شفتا الرجل حتى أقصى اتساعهما، وشدَّ ذلك الجسم وشقّ شفته حتى سال الدم منها. تبيَّن أن ذلك الجسم كرةٌ متصلة بقضيبٍ أسطواني. فقد الرجل وعيه بين أذرع الحاضرين الذين اندفعوا إليه.

كان آكو ينظر إلى هذا المشهد مذعوراً، ممسكاً بيد أبيه.

وفي الصباح، جاء الرجل نفسه مرتدياً دهوتي وقبعة. كان مبتسماً ابتسامة كبيرة، وكانت أسنانه ناصعة البياض. لم يخَف الصبيّ هذه المرة. قدّم أبوه للهندي شاياً، ثم جعله يرى ورقة، ثم أخذه إلى غرفة المستودع. بدأت روائح البخور تأتي من الداخل، ومعها صوت إنشاد. جاء الهنديّ

مرّتين بعد ذلك؛ وكان يجلب معه للأطفال حلوى عجينية القوام يؤلمهم ابتلاعها. وفي زيارته الأخيرة، رسم بالطباشير الملوّنة خطوطاً أمام المستودع، على الأرض وعلى العتبة.

هكذا كرّس بيبا المكان مزاراً لمريامو. وإن كانت الغرفة محرّمة من قبل، فقد صارت الآن حَرَماً. صارت في نظر آكو وأختيه رمزاً للغموض وللجانب الخفي في شخصية أبيهم الكئيب. وإن تحدّثوا عن تلك الغرفة، فهم يقولون إنها غرفة الصلاة الخاصة بأبيهم وإن فيها حضوراً مقدساً.

جلب وجود الصبي راحةً لبيبا. أحسّ ضعفاً مؤلماً ينبع داخله، حاجةً إلى التواصل مع الصغير؛ لكن ستَّ سنين من البعد خلّفت ثغراتٍ أكبر من أن تُردَم، إذ إنّ لغة الألفة والعاطفة ورموزها لم تنشأ بينهما. وكان هناك أيضاً ذلك الشكّ، ذلك السؤال الذي ظلّ واقفاً بينه وبين الصبي: هل هو ابنه؟

كانت مريامو تكلّمه، لكن من غير أن تقول الكثير. لم تكن يوماً ممن يحبون كثرة الكلام. والآن، كما من قبل، كانت تلتزم صمتاً تاماً في ما يتعلّق ببعض الأمور.

وهكذا صار بيبا يذهب لاستشارة كلّ من يسمع أنه اكتسب شهرة محلية من حيث معرفته بعالم الأرواح: معليم، أو جوشي، أو أيّ شخص من أيّ دين. وكان يجعل كلّاً منهم يرى جزءاً من صفحة من الكتاب، ويسأله الأسئلة نفسها. أين هي؟ وما هي؟ ومن قتلها؟ وماذا في الكتاب؟... أخبِروني عن «جيف»، الروح!

لم يستطع أحد منهم إعطاءه إجابةً دقيقة. لكنهم كانوا متفقين جميعاً: عودتها إليه، وسكناها عنده من جديد، إن جاز التعبير، دليلٌ على أن لديها أمراً باقياً لم تنجزه، أو شيئاً تأخذه من العالم الفاني، أو شيئاً تعطيه إياه.

لكن، أيُّ شيء هذا؟ هكذا كان بيبا يسأل نفسه... ولماذا لا تخبرني عنه؟

قال له المعليم مُفصحاً أكثر مما أفصح الآخرون: «يا صديقي، لا يكون كل ما تريده منا تلك الأرواح العائدة، أحياناً، إلا الصفحَ حتى تصير حرّة في الذهاب!». سمع بيبا هذا فعاد إلى البيت مرتعشاً لفكرة أنه سوف يطلق سراح مريامو ويسمح لها بالذهاب. لمَ لا؟ لقد ماتت، فلترقد في سلام! سوف يحتفظ بالكتاب الذي أعطته إياه؛ ثم إن لديه ابنها أيضاً. مضى إلى مزارها، وجلس أمام الكتاب وقال: «أسامحك، يا مريامو، إن كنت خاطئة. اذهبي الآن، وكوني في سلام!».

لكن مريامو أتته في تلك الليلة، فقلبت منطق المعليم رأساً على عقب: «ظننتك سامحتني من قبل... عندما كنا في كيكونو... فلماذا تريد الآن أن أذهب؟ وكيف تتوقع مني أن أترك ابني؟».

قال بيبا حانقاً: «أليس هو ابني أيضاً؟!».

ظنّ نفسه ذكياً، لكن مريامو لم تقل شيئاً، فازداد غضبه.

وهكذا بقيت مريامو مثلما ظلّت باقيةً أسئلةُ بيبا التي لا تجيبه عنها.

***

تعلّم بيبا أحرف الهجاء الإنكليزية من ابنه الذي صار عمره الآن إحدى عشرة سنة؛ وصار يتتبّع الحروف بإصبعه كأنه طفل كلما جلس الاثنان في المتجر بعد الظهر. وفي أوقات أخرى، كان آكو يقرأ له في كتبه المدرسية. هذا كلب. فلاح يمضي خبباً راكباً فرساً رمادية اللون. «رول بريتانيا»، القاعدة البريطانية. إنها واجب الرعايا جميعاً في الولاء للملك. لم يكن الصبي واثقاً من قدرة أبيه على الاستيعاب؛ ولم يكن يعرف النقطة التي يرفض عقله عندها أن يستقبل أيّ مزيد. لكنه كان يقرأ ويساعد أباه في نطق الكلمات معه.

رأى آكو بيبا داخل المزار مرّات كثيرة؛ رآه عبر شقٍّ عند مفصّلات الباب منحنياً فوق شيء هناك، ينظر إليه محاولاً قراءته. كان يخرج من المكان هادئاً، في سكينة. خرج من غرفة المستودع ذات مرة وقال للصبي: «هل تعرف كيف تكتب "مريامو"؟». كتب الصبي الاسم على لوحه، تلفّت بيبا باحثاً عن ورقة. لم يجد ورقة. صار متوتراً. وأخيراً انتزع واحدة من الصفحات الأخيرة في سجل الحسابات، ووجد بقية قلم رصاص. كتب الصبي مريامو. أخذ بيبا الورقة إلى المستودع ناظراً إليها في سيره. ثم ظهر بعد نصف ساعة وهو يدعك عينيه. بدا مسروراً من نفسه. لقد قرأ الكتاب كلّه. قرأ كلمة واحدة فيه.

تسارعت دقّات قلب الصبي عندما سمع تلك الكلمة، مريامو، اسم أمه... عندما سمع الاسم من فم أبيه. زادته تلك الكلمة قرباً. فحتى هذه اللحظة لم يقل له أحدٌ شيئاً غير أن أمه قد ماتت. لكنه يعرف الآن أن تعبّد أبيه كلّه في ذلك المزار كان من أجل أمه. إلا أنه خشي أن يسأله عنها.

ثم حدث أمرٌ غريب جعله أكثر إحساساً بوجودها.

كان في الحادية عشرة. وكانت قد جرت في الأيام الأخيرة أحاديث «مقنّعة» كثيرة بين بيبا وريمتي... أحاديث عن «هم»، وعن أنهم آتون لزيارتهم. كان بيبا غاضباً جداً. «يجعلوننا نرى وجوههم بعد عشر سنين! لماذا؟ هل يظنون الآن، بعد أن كاد يصير كبيراً، أنهم سيأخذونه مني، أو سيجعلونه ينقلب عليّ؟!». بدأ الصبي يتساءل في نفسه: هل «هم» أقارب أمه، وهل سيأخذونه من بيبا وريمتي مثلما أُخذ مرة من خانم؟ كان يوم وصولهم مشبعاً بالترقّب. أُعطي الأطفال ملابس جديدة لارتدائها، وأُمروا بألا يخرجوا من البيت. كُنست الغرف أكثر من مرة. وأخيراً، جاء الزوّار عند العصر. امرأة عليلة، وسيدة قوية ضخمة كبيرة الصدر أكبر سنّاً من الأولى، وفتاتان، ورجل كان مضيف المرأتين في المدينة. جلس الكبار

كلّهم على الأرض، وقُدِّم الماء للضيوف. عرّف كلٌّ من الجانبين الآخرين على أطفاله. ثم اتخذ الأطفال مواقعهم جلوساً على الأرض، مثل الكبار. بدأ المشهد البهيج عندما جاء دور آكو. قالت السيدة الأكبر سناً: «يا له من طفل جميل! الفتاتان ملاكان أيضاً! يا لها من ثروة في هذا البيت!». ثم أضافت قبل أن يستطيع أحدٌ الاستجابة لما قالته: «أوه، يا عزيزتي المسكينة... لو أنك عشت فقط حتى ترَي هذا كلّه!». راحت تدقّ على صدرها بكفّيها، مرّةً، مرّتَين، فبدأت النساء العويل؛ وأما الرجلان فقد فوجئا أول الأمر، ثم أطرقا إلى الأرض وبدت دموعٌ في عيونهما. ضحكت الطفلتان الصغيرتان لرؤية هذا قبل أن تجعلهم الفتاتان الأكبر سناً تسكتان. غمغمت ريمتي بكلمات مواساة غير واضحة.

توقّف العويل فجأة مثلما بدأ. نظرت المرأة الضخمة من حولها بعينين متسعتين: «لكن هذا ليس حسناً!». تمخّطت المرأة العليلة الأصغر سناً -إنها ابنتها كولسا، والدة مريامو- وقالت: «ما حدث قد حدث».

كان هذا «طقس النواح» الذي تأخر كثيراً بعد موت مريامو.

قالت جدة مريامو: «كانت روحاً طيبة». كانت الجدّة من ذلك النوع الذي يسمّونه «زنجيباري»... من الأشخاص الذين يعبّرون عن عواطفهم وانفعالاتهم بطريقة دراماتيكية.

صار الجو أكثر استرخاءً، فشرب الجالسون الشاي، وتناولوا البسكويت، وتحدّثوا جميعاً عن «هي»، وقالوا كلاماً يتضح منه أنها كانت روحاً عظيمة. عندما ماتت «هي» كانت على وجهها ابتسامة سكينة؛ سقط نجمٌ من السماء خلال جنازتها.

قبل ذهاب الزوّار، جيء بآكو للمثول أمامهم مرة أخرى. قُدِّمت إليه هدية، وسط المعانقات والدموع، وقيل له إن عليه أن يذهب لزيارة جدته في مومباسا.

بعد انصرافهم، صارت مريامو، أمه، شخصية حقيقية في نظر الصبي. لقد كانت له أم، وله جدة، وماذا أيضاً؟ صار يحسّ أنه منتمٍ إلى ما هو أكثر من أبيه. لكن عالم الكبار، بأساليبه الغريبة وظهوراته واختفاءاته، كان لا يزال محيّراً له. الآن، صارت ذكرى خانم غامضة بعض الشيء. لقد قالت له إنها ستأتي إليه، لكنها لم تأتِ أبداً.

***

كانت ريمتي امرأةً صبورة، تُربّي ما لديها من بنات وتتوق دائماً إلى أن تنجب صبياً. لكنها لم تكن تكره البنات، فقد كانت الكبيرات يرعين الصغيرات، ويساعدنها في البيت. كنّ يُغنّين معاً وهنّ يضعن الزيت على شعورهن، أو ينظّفن الأرزّ أو القمح من الشوائب. كانت هناك مشاجرات كثيرة، بطبيعة الحال. وأما علاقةُ ريمتي بالصبي فقد كانت أقلّ قرباً: يتذكّر كل منهما ظروف مجيئه إلى بيتها. لكنها لم تكن قاسية معه. كانت تراه يكبر فتحسّ لذعة عدم إنجابها صبياً. سرعان ما يصير في البيت رجلٌ آخر. ستتزوّج بناتها آخر الأمر؛ وأما هو فباقٍ. سيصير سيّد البيت عندما يصير زوجها عجوزاً، أو يموت، إلا إذا أنجبت صبيّاً. كانت تعرف أيضاً أن الابن هو من يرعى الأم عندما تتقدّم بها السنّ.

كان لها أسلوبها مع زوجها، مع تقلُّب مزاجه، ومع هواجسه التي كانت تتعامل معها مثلما تتعامل مع مرض من الأمراض. لقد عرفته منذ زمن بعيد، منذ زمن أطول كثيراً من زمن معرفته زوجته الأولى. تتذكّر أول يوم يأتي فيه إلى بيتها مع أمه: كان خجولاً، مرتبكاً. تتذكّر كيف راح أبوها يمازحه كأنه أخوه الأصغر. كان يريد واحدة أخرى من أخواتها، أول الأمر؛ لكن تطلعات والديها في شأن زواج تلك الأخت ثنَته عن عزمه.

كانت ريمتي امرأةً حسنة المظهر ذات روح معنوية مرتفعة؛ وكانت

تعرف، معظم الأوقات، كيف تبتعد عن طريق زوجها ذي المزاج المتقلّب. لكنها كانت تعرف أيضاً، بذكاء وتصميم، كيف تلقي بسحرها على الرجل يوم الخميس، فتُغريه: تأتي وتقف إلى جانبه في المتجر، طيّعة، قريبة، مرحة؛ وكان ينتظر منها ذلك، ويستجيب له. تمتلئ الغرفة مساء يوم الخميس بأبخرة الهلود الحلوة الناعمة، وتستحمّ ريمتي، وتغسل شعرها بالزيت، ثم تعطّره بالياسمين. تغسل ثيابه وتكويها، ويسيران معاً إلى المسجد، مع الأطفال. يعودون بروحٍ أسريّة طيبة، فيتناولون طعام العشاء في جوٍّ احتفاليّ بهيج... كلّ حركة من حركاتها بطيئة، متطاولة، مغوية في الباتشيدي والفستان الملوّن الممتلئ بجسدها السخيّ. تكلّمه كلاماً حلواً وهي تقوده إلى فراشٍ في زاوية الغرفة بعيداً عن الأطفال، بينما تطفئ ابنتها الكبرى المصابيح.

بذلك النوع من «إحساس الشوارع» الذي التقطه الصبي، كان يعرف دائماً اللحظة التي يعتلي فيها أبوه ريمتي - حفيف ملاءة السرير، وزمجرة خفيضة، وصرخة قصيرة حادة صادرة عن ريمتي، ثم لحظة توقّفٍ حذر تعقبها آهةُ نشوة عارمة. يظلّ الصبي مستيقظاً زمناً طويلاً بعد أن يحتلم في زاويته المظلمة، فيفكّر في نفسه، وفي مريامو، في الكائن الغامض الذي كان على صلة به. كلما ذُكر اسمها، وكلما قيل «هي»، كانت تتجه إليه نظرة أو نظرتان.

إن كانت ليلة الخميس ليلة عذاب الصبي وسهاده إلى أن ينهض في الرابعة صباحاً ويذهب إلى صلاة الفجر، فإن هذا كله يكون من نصيب أبيه في الليلة التي تليها. يمضي بيبا النهار كلّه في مزاج سيّئ؛ بل إن ذلك المزاج لا يوفّر حتى المتسوّلين أنفسهم في يوم الجمعة، يومهم. يذهب بعد صلاة الجمعة ليلعب الورق عند شاطئ البحر مع أصحاب متاجر

آخرين. ثم يعود متأخراً بعد تدخين البهانغ[†]. وفي تلك الليلة، تجد ريمتي ذريعة لكي تنام مع واحدة من بناتها الصغيرات.

استيقظ الصبي في واحدة من ليالي يوم الجمعة على ظلٍّ كبير فوقه. فتح عينيه على اتساعهما فرأى زوجة أبيه تستلقي بينه وبين زارينا، ابنتها الرابعة. كان رائحة العطر الباقية عليها من الليلة السابقة خفيفة جداً، لكنها حلوة. ظلَّ بضع دقائق مستلقياً على جنبه ينظر إلى ظهرها المقوّس في اتجاهه. آلمه قلبه؛ وآلمه جسده. ثم قرّب نفسه منها؛ قرّب نفسه أول الأمر حتى يشم الهلود والياسمين الباقيين فيها؛ ثم قرّب نفسه أكثر حتى لاصقها - وأخيراً، أتى انفراجه الرطب، واختناق أنفاسه، وارتباكه المعذِّب. كان جسمه منضغطاً عليها، فقالت حانقة: «ابتعد عني!». بدأ يبكي عندئذٍ، فاستدارت واحتضنته. سألته: «هل رأيت حلماً سيّئاً؟». أجابها: «أجل». لا بدّ أنها خمّنت سبب عذابه لأنها سمعت منه النخير الذي تسمعه من زوجها. ومنذ ذلك اليوم، كلّما وجدها مستلقية بالقرب منه، كان يتحرّك صوبها، ويلتصق بها، ويجد راحته، ثم يقول بعد ذلك إنه رأى حلماً سيّئاً. جعله لطفُها تجاهه يحبّها.

عند بيبا، كانت ليالي أيام الجمعة هذه ملكاً لمريامو. كان يحلم بليلة الزفاف تلك، أو يفكّر فيها، ويفكّر في المحنة التي كانتها تلك الليلة... كم كانت مختلفة عن ليلة زفافه الأخرى! كم كانت مختلفة عن ليلة زفافه إلى هذه الفتاة الجريئة المعافاة من موشي - فتاة استجابت الاستجابة التي توقّعها منها، ثم نظر بعدها إلى البقعة على الملاءة فعرف أن كل شيء على ما يرام... ثم ناول النساء المنتظرات تلك الملاءة المدمّاة.

كانت ترد إلى ذهنه صور مريامو والإنكليزي في بيت المفوّض الإقليمي المساعد في كيكونو... صور موحية إلى حدٍّ غريب. لكن تلك

الأخيلة كانت رفيقة به... كانت ظليلة، غائمة... لكنها تظلّ غارقة في الخطيئة، تظلّ مؤلمة كثيراً.

كان يحلم أيضاً بالأيام التي أعقبت ذلك... عندما ارتفعا فوق الجرح، عندما وفيا بعهودهما، فازدادا تقارباً.

لكنها لم تكن صوتاً فحسب، صورة في الماضي. كانت تكلّمه في الحاضر، مثلما قالت له مرة: «أوه، كم النسيان سهل على الرجال! أنت سعيد الآن!». أرسل إلى المسجد في اليوم التالي فاكهة مجفّفة، وحليباً، وباتشيدي. لكنها لم تهدأ!

وفي مرّة أخرى... «ألا تظن أننا لم نكد نحظى بوقت حتى نُنشئ بيتاً؟!». بدت له مغرية، جذابة، جالسة على كرسي ترفرف بيدها حتى تروّح الحر عن نفسها. حلية أنفها متلألئة، وعلى كتفيها الباتشيدي الأخضر البرّاق، (تساءل في نفسه، هل كان جميلاً هكذا؟) ابتسمت له ابتسامة حزينة، ثم أدارت وجهها. جعله هذا يرسل إلى المسجد بعض قطع الأثاث، لكنه غضب قليلاً بسبب تكلفة ذلك. أعاد شراء أحد الكراسي عندما أقام المسجد مزاداً على الأثاث، فاحتفظ به في الغرفة الصغيرة التي صارت مزارها.

قالت له: «لست مضطراً لإعطائي أيّ شيء. فأنا آتي أحياناً حتى أكون معك، حتى أحرسك. والصبي. هل يزعجك هذا كثيراً؟».

سألها مرة: «هل... أنت والمزونغو...».

اختفت.

لو لم يكن الكتاب لديه لنسيها. لكنه عنده! كم كانت ذكية –فكّر في هذا فأعجب بها كثيراً– عندما تركت له الكتاب! تركته حتى لا ينساها أبداً.

***

في ظهر يوم عطلة مدرسية، كان آكو جالساً كعادته على الدرجة عند مدخل متجر أبيه، وكان بيبا جالساً بين سلعه الكثيرة ومن حوله الصناديق وأكياس الخيش؛ ومن خلفه الميزان.

قال بيبا للصبي: «إيه، آكو! انتبه للمتجر، سأدخل قليلاً حتى أجلس وأمدّ ساقيّ!». ثم ناداه من الداخل بعد قليل: «آكو، لا تخرج من المتجر، أنا باقٍ هنا حتى آكل!».

جلس الصبي واثقاً من نفسه على كرسي أبيه عند درج المال. أتاه زبائن فباعهم ما أرادوا شراءه. كان يفعل مثلما يفعل أبوه، فيمدّ الصينية ذات المقبض الطويل حتى يتلقى فيها من الزبائن الواقفين في الخارج القطع النقدية النحاسية والذهبية، ثم يمدّها من جديد بالسلع المطلوبة وبقية النقود. توقف بضعة زبائن فأثنوا عليه. صار شاباً الآن، جالساً في مكان أبيه، فأحسّ بالفخر. وبين زبون وآخر، كان ينظر إلى الشارع في الخارج. مرّت سيارة لاندروفر للشرطة، وكانت تذيع إعلاناً عبر مكبّر الصوت. وجد الأمر مسلّياً.

وفجأة، سقط ظلٌّ على الشارع كلّه، سحابة حجبت الشمس. في نظر الصبي، صار كلّ شيء هادئاً، بعيداً جداً. سمع طنيناً في أذنيه، وسمع أصوات الشارع قادمة من مسافة بعيدة جداً كأنها آتية من حلم. أحسّ نداءً، دافعاً، شيئاً يشدّه من خلفه، يشدّه إلى غرفة المستودع، إلى ملاكه الحارس مريامو. نهض واقفاً وسار بين الصناديق والأكياس، فمرّ بالباب الذي إلى اليسار، الباب المؤدّي إلى الغرفة الداخلية حيث كان أبوه، ثم توقف لحظة عند عتبة المستودع. كان ذلك بعد أيام قليلة من احتفال بيوالي؛ وكان أبوه قد جدّد العلامات المرسومة على الأرض بطباشير زرقاء وبيضاء وحمراء وصفراء حتى يظلّ مظهرها حسناً. وفوق العتبة، كتب آية من القرآن. ظلّ

الصبي منصتاً ليعرف ما إن كان أبوه قادماً، ثم فتح مزلاج الباب، قلبه خافق ويداه مرتعشتان. دفع الباب فأصدر صريراً. رأى أمامه المزار الذي لمحه من قبل عبر شقّ الباب.

تردّد من جديد، ثم دخل. رأى الكرسي الذي كان تقدمةً لها، الذي أرسله أبوه إلى المسجد ثم اشتراه من جديد، ورأى الكتاب المقدّس موضوعاً عليه. مبخرة على كرسي إلى جهة اليمين؛ وبعض السكاكر على كرسي على اليسار. كان الكتاب نفسه موضوعاً على مفرش قطني أبيض مشغول بالإبرة. دفتا الكتاب مصفرّتان، وعلى الغلاف حروفٌ حمراء وسوداء. فتح الكتاب برفق ونظر في صفحاته محاولاً، في عجالة، أن يقرأ، لعلّه يعثر على الكلمة السحرية «مريامو»؛ لكنه لم يرَها. استدار، فرأى أباه قادماً إليه.

ضربه لأنه دنّس المكان (ضربه إلى أن هرب الفتى خوفاً على حياته)، ولأنه تجرّأ فداس الرسوم التي تجلب حسن الطالع، ولأنه فتح المزلاج ومسّ الكتاب. سمعه يقول له مع الضربات التي تتساقط عليه: شيطان، أنت شيطان، ابن حرام! لم يعد ذلك اليوم، بل قضى الليلة في المسجد وأقسم على ألا يعود. سأل خادمَ المسجد ما إن كان في حاجة إلى مساعدة. سأله ما إن كان يستطيع البقاء لخدمته. وفي اليوم التالي، أعاده خادم المسجد إلى البيت ممسكاً إياه بحزم من معصمه؛ لكنّه قال له مبتسماً: «يأتيني كثيرون غيرك طلباً للملجأ». إلا أنه وبّخ الأب: «لماذا تنجبون الأبناء إن كنتم غير قادرين على رعايتهم؟!».

فتح بيبا فمه لكي يردّ، لكنه عاد فأطبقه. نظر الابن والأب، كلٌّ إلى الآخر. نظرة الأول مستفهمة، ونظرة الآخر خاوية، لكن من غير غضب. لقد صفح عن آكو.

سأل أباه ذات يوم: «هل تريد أن أرسم لك مريامو؟».

فوجئ بيبا، نظر إلى الصبي وقال: «أريد، ارسمها!». كان يحاول مقاومة إحساسه بتلك الرقة المؤلمة التي لم يعرف كيف يتعامل معها. كان الصبي جالساً على الدرجة بالقرب من الميزان وأكياس الخيش. رسم رأساً وصدراً على قطعة ورق. جعل أباه يراها.

«ينبغي أن يكون الوجه أكثر ضيقاً. لقد جعلته مثل وجه ريمتي».

عدّل الصبيّ الرسم مستخدماً الممحاة وقلم الرصاص.

«أضِف الوجنتين. ضع حلية الأنف على الجانب الأيمن، لا الأيسر، إنها لامعة».

«ارسم حافة الباتشيدي. الكتف ليس منحدراً هكذا».

«الصدر». (كان يعني الثديين. جعلهما الصبي أكثر امتلاء).

أمسك بيبا بالرسم، ونظر إليه زمناً طويلاً. قال له: «أنت ترسم جيداً».

سأله الصبي: «هل أستطيع الاحتفاظ به؟».

«بالتأكيد، إنها أمّك! خذ إلى المسجد كلّ يوم خميس طبق سكاكر من أجلها، وادعُ لروحها!».

سأله الصبي مسترسلاً في الكلام: «لقد كانت ساتي(*)، أليس هذا صحيحاً؟»... هل كانت نقيّة، تقيّة؟

صحيح، كانت ساتي!

«وكانت طاهرة، لم ترتكب إثماً!».

نظر بيبا إلى الصبي. هنا، أحسّ أنه واقف على أرض غير ثابتة.

(*) تُستخدَم هذه الكلمة للإشارة إلى أن المرأة عفيفة، ولكن معناها يتجاوز ذلك، ففيها قدرٌ كبير من التوقير للمرأة المعنيّة. (المترجم).

«تذكّر ما يقولونه في المسجد. يقع كل إنسان في الخطيئة سبع مرات في اليوم، على الأقل، مهما يكن نقياً. هذه طبيعة الحياة. ولهذا نذهب إلى الموخي في المسجد كلّ يوم راجين غفران خطايانا!».

أخذ الصبي الرسم. جعل زوجة أبيه تراه، وكذلك أخواته. احتفظ به قريباً من فراشه. صار يكلّمها أيضاً. كانت تشغل انتباهه في ليالي الخميس عندما تتفجّر شهوة أبيه مع زوجته؛ وفي أحيانٍ أخرى، كانت شفيعاً له عبر مراهقته.

***

كبر أكبر علي، الذي كانوا ينادونه آكو، فصار شابّاً مفعماً بالحياة. خلال طفولته، كانوا يعتبرون أنه قد حظي بنعمة الحسن: ظاهرة محلية، بعينين جميلتين وجلدٍ أبيض. ظلَّ هذا الصيت ملازماً له في فتوّته وما بعدها. أعطاه إحساساً بالخصوصية والفرادة، ثم لم يلبث ذلك الإحساس أن تعزّز بالجانب التعِس المعروف: نشأته من غير أمّ، وكونه ابن تلك الأخرى، تلك المرأة الغامضة من منطقة ريفية مزّقتها الحرب. صار يعزو هذا الإحساسَ بالفرادة إلى ما لديه من توقٍ دائم إلى شيء لا يستطيع تحديده: حاجة إلى العلوّ فوق الآخرين، وإلى الهرب والحركة... شيء يدفعه إلى إثبات نفسه، إلى أن يصير فاتحاً.

صار في العشرين، وصار طويل القامة فيه شيء من الضخامة. كان يفضّل ارتداء بدلات بيضاء: نمط كان مرتبطاً بجيلٍ من الرجال أكبر منه؛ لكنه كان يرتدي أيضاً ربطة عنق سوداء لامعة. كان يسرّح شعره الأسود إلى الخلف كاشفاً عن جبهة عريضة واسعة.

صار يعمل مندوب مبيعات في شركة لتجارة الجملة في «المدينة» – منطقة الأعمال. في دار السلام، كانت الوظيفة الحقيقية الأولى، بالنسبة

إلى الشباب الهنود، مفترق طرق في حياتهم؛ نهاية عهد الفتوة. وسرعان ما تبدأ عروض الزواج تأتي من كل اتجاه: عروض زواج تقدّمها عائلات من أهم العائلات إلى متواضعها، وفتيات متنوّعات، من الذكيات الجميلات إلى المحتشمات اللواتي لا جمال لديهن. قرّر أكبر علي أن يذهب إلى مومباسا قبل أن يغرق في غياهب الحياة الأسرية، وذلك حتى يرى عائلة أمّه، فلعلّه يلتمس آفاقاً أفضل هناك. لم يوافق أبوه أول الأمر.

«هذا مكانك، معي، مع أمك».

«لكن أمي تريد ذهابي».

«لا، إنها لا تريد ذلك. لقد عرفتها فترة أطول. تركتك في عهدتي».

«لكني سأعود».

لا يستطيع الفتى أن يسافر من غير موافقة أبيه ومباركته. استمرّت حالة الجمود سنة كاملة قال أبوه بعدها: «اذهب، لكن منزلك هنا!».

اطّلع أكبر علي في مومباسا على شيء من تاريخ العائلة. عرف أن جدّة أمه أتت صغيرة من جامناغار، في الهند. أتت أول الأمر إلى زنجيبار، ثم تزوّجت في بلدة لامو السواحيلية القديمة. ومن لامو، انطلق ابنها (خال والدة أكبر علي الذي كان اسمه جمالي) برفقة مستكشف بريطاني، ثم أسس بلدة كيكونو حيث ترعرعت بنت أخته مريامو التي تزوّجت بيبا بعد ذلك. لقد ولد أكبر علي في تلك البلدة.

إن كانت لدى أكبر علي آمال في أن يعود وقد صارت له صلة أقوى مع مريامو، وفي أن يعرف أخيراً كيف ماتت، فقد خاب أمله سريعاً. هنا، كانت مريامو «ساتي»، قديسة؛ وما كانوا يتحدّثون عنها إلا بهذه الصفة. أحياناً، كان يأتي إلى بيت جدّته كولسا واحدٌ من أقاربهم اسمه رشيد. كان واضحاً

أنه يأتي لكي ينال صدقة. قيل له، على مضض، إن رشيداً هو زوج جدّته المطرود، زوج أم مريامو.

سرعان ما وجد علي عملاً في مومباسا (كان أيضاً ألهية له). مومباسا مدينة ذات تقاليد قديمة، وفيها كثرة من القبائل والطبقات والأعراق التي يوفّر اجتماعها معاً قدراً أكبر من الجاذبية والحرية، إن هي قورنت بدار السلام التي كانت أصغر منها وأكثر كبتاً للشباب. كان المرء يتعلّم دروس الحياة في شوارع مومباسا بسهولة أكبر: فيها زوايا وأزقة أكثر، و«ستائر كثيرة» للاختفاء خلفها. كانت هذه المدينة الغنية بالتجارب والخطايا والطابع الدنيوي أكثر حنوّاً على الشباب الطامح وأقل ميلاً إلى التشدّد معه. صار أكبر علي يسافر مع أصدقائه ويرتدي ملابس أنيقة فيحدث أثراً طيباً أينما حلّ. فكّر في مشاريع كثيرة - تدريب في لامو أو أوغندا أو نيروبي أو مومباسا. لكنه قرّر بعد سنتين أن يعود إلى دار السلام.

عاد علي من مومباسا شاباً أنيقاً جذاباً. ثم لم يطُل الوقت قبل أن يجد وظيفة في شركة ج. ر. مولجي، الشركة الناجحة لتجارة وتوزيع أقمشة الخانغا بالجملة. وسرعان ما تزوّج واحدة من بنات مولجي. كان اسمها شيربانو؛ وكانت متعلّمة حتى الصف الثامن. عملت معلّمة حيناً من الزمن، وكانت في «لجنة السيدات» ذات المكانة الرفيعة، وكانت تقيم أيضاً دورات في الإتيكيت و«المطبخ الإنكليزي» (مأكولات مطهوّة ومشويّة). لم تكن جميلة: هي الأكثر سمرةً بين بنات أسرة حيث يكون لكلمة «جميل» معنى «أبيض»؛ ولم تكن رشيقة مثل ممثّلات الأفلام. لكنها تحمل اسم عائلة مرموقة: كانت عروساً «لقطة».

من ابن بيبا، صاحب المتجر، إلى الشاب المتأنق الذي صار صهر «ملك الخانغا»؛ ومن مندوب مبيعات إلى شريك. كان من الممكن أن

يقع ضحية الاستغلال وسوء المعاملة من جانب عائلة زوجته، لكنه كان صاحب حضور قوي. كانت عيناه الرماديتان مصدر عجبٍ وفخر في تلك العائلة. وكانوا ينصحونه قائلين إن عليه أن يحمي جلده وعينيه من الشمس. لا معنى لأن يكون لدى العائلة صهر أبيض إن كان سيذهب ويشوي نفسه، فيصير أسمر اللون مثلهم. وكانت العائلة تتذكّر جيداً أن الآنسة شيربانو مولجي عانت كثيراً قبل أن تجد عريساً. ثم أتى عجزها عن الحمل بعد الزواج فكان نقطة قوة له أمام أهلها؛ وهذا ما كان مزعجاً لهم؛ لكنهم وجدوا السلوى في الاسم الذي اعتمده لنفسه، علي أكبر علي، ذلك الاسم الذي كان إنكاراً لأصوله المتواضعة وحماية لسمعتهم (ونبالتهم). كان لا يزال يفضّل ارتداء البدلات البيضاء، لكنه صار يضع أيضاً قبعة أستراخان سوداء ويحمل عصا. كان له نموذج يقلّده: الأمير الفاتن علي خان نفسه.

هكذا وُلدت الأسطورة في دار السلام، أسطورة الشاب الوسيم الذي يبدو مثل علي خان، لكنّه غيّر اسمه وأنكر أباه.

قال بيبا لمريامو: «قلتُ لك هذا عندما طلبتِ مني أن أتركه يرحل. لقد وضعوا في رأسه أفكاراً عجيبة. صار الآن لا يعرفني. سرقوه مني!».

وكان يدمدم قائلاً لريمتي زوجته، ولبناته: «كنت أعرف هذا».

قالت له مريامو: «كم من الوقت كنت قادراً على الاحتفاظ به سجيناً لديك؟». أيّدتها ريمتي مضيفة: «إنه يظهر حقيقته. كان لا بدّ أن يحدث هذا. هو ليس ابنك، وأنت ترى هذا الآن!».

وبطبيعة الحال، كانت تلك هي النقطة المؤلمة.

قالت مريامو: «لا تقلق، يعود الولد إلى أبيه، مهما حدث! يعود الولد دائماً إلى أبيه!».

«تتحدّثين كمن يعرف الكثير عن هذه الأمور. لكنك لم تحملي إلا بولد واحد، ولم تستطيعي رؤيته وهو يكبر».

أجابته: «إنني موجودة في مكان فيه حكمة كثيرة».

لكنه كان يتألم في قلبه. يصير هو الأب دائماً... لكن، أيّ أب؟

في عصر أحد الأيام، أتى إلى المتجر مفتش شرطة أوروبي معه ثلاثة من العسكري. كان معهم أوروبي آخر، رجل بدين أحمر الوجه في ملابس مدنية، لكنه لم يتحدّث كثيراً، بل وقف يدخّن غليونه ويتبع المفتش هنا وهناك. قال المفتش لصاحب المتجر إنهم يبحثون عن سلعٍ مهربة. أجابه بيبا من غير كبير اهتمام: «هيّا إذاً، فتّشوا!». فبدأ الرجال عملهم.

كان أصحاب المتاجر قد اعتادوا هذه النزوات من جانب الشرطة. إن لم يبحثوا عن سلع مهربة، فهم يبحثون عن أشياء مسروقة، أو يفحصون التراخيص، أو يرون ما إن كان الميزان مضبوطاً. لكن شيئاً في هيئة الرجلين الأوروبيَّين، فضلاً عن حقيقة أن أحدهما كان في ملابس مدنية، جعل بيبا قلقاً تلك المرة. هناك شيء آخر، لكنه لم يستطع معرفته. لم يكن هناك غير شيء واحد يخفيه، شيء حكم حياته كلّها قرابة عشرين عاماً. عندما بلغ التفتيش غرفة المستودع، لم يسمح لهم بيبا بدخولها. قال لهم بيبا: «هذه غرفة صلاتي. لا تدخلوا! لا تدوسوا هنا!». أشار إلى الخطوط التي على الأرض وإلى الآية القرآنية فوق العتبة. لكنهم أصرّوا على إلقاء نظرة. فُتح المزلاج، ودُفع الباب فانفتح. نظر الرجلان الأبيضان داخل الغرفة برهة. كان المكان مظلماً، عارياً ليس فيه شيء غير المزار الظاهر أمامهما: كرسي مزيّن بقلادة متدلّية على ظهره. رائحة بخور. قال الرجلان للعسكري الذين معهما: «فلنذهب!». انصرفوا جميعاً.

في اليوم التالي، عاد الرجلان إلى بيبا الذي غدا أكثر انزعاجاً؛ هما

أيضاً كانا نافذي الصبر، وكانا في مزاج سيئ. اتجها مباشرة إلى المستودع، ثم دخلاه متجنّبين الدوس على الخطوط المرسومة بالطباشير. على مقعد الكرسي الخشبي الذي كان أمامهما مباشرة، شاهدا كتاباً مغطّى بمفرشٍ أبيض. رفعا الكتاب. كان مطبوعاً عليه باللغة الكوجاراتية أنه صادر في بومباي. شيء لا يثير الاهتمام. شاهدا صورة. سأله واحد من الإنكليزيَّين: «من هذا؟»، أجابه بيبا: «سليمان بير. إنه زعيمنا الروحي». طلب الرجلان مصابيح. جيء إليهما بشموع فراحا ينظران في أنحاء المكان. كانت ظلالهما على الجدران ضخمة فجعلت قسماً كبيراً من الغرفة الصغيرة معتماً بعض الشيء. كان الرجال الثلاثة يتحرّكون في الغرفة فيصطدم واحدهم بالآخر. صاح الإنكليزي ببيبا بأن ينتظر في الخارج، لكنه لم يفعل ذلك. كانت في إحدى زوايا الغرفة كومة صحف. وكانت الأرض هناك رطبة. إنها الزاوية التي خلف المزار، في اتجاه عمق البيت.

بعد ذلك، لم يكن أحد قادراً على تفسير ما حدث. سقطت شمعة فاتقدت نارها على الأرض، ثم انفجرت النار في وسطهم فتراجعوا مرتبكين وأسرعوا صوب الجدران التي لم تلبث النار أن دبّت فيها. أتت النار على غرفة المستودع، وكذلك على جزء من المتجر والمطبخ.

مضت بضع سنين قبل أن يكسب بيبا دعواه المطالبة بتعويضه عن الأضرار التي سبّبتها له الحكومة الاستعمارية. نقل متجره ومسكنه إلى القسم الإفريقي من منازي موجا، تلك المنطقة العشوائية التي يدعونها كارياكو حيث كانت الأرض أرخص ثمناً. وهناك أيضاً، أقام غرفة مستودع مظلمة اكتسبت سمعة أسطورية لأن مداهمات الشرطة اللاحقة كلّها لم تجد فيها ما يدين صاحبها.

***

مع حلول الأربعينيات، صارت دار السلام مدينة تشهد نمواً عاصفاً جعلها عاصمة متفوّقة على زنجيبار. هنا، كانت تُجنى ثروات تعيش بضعة عقود، وأكثر. ظهرت السلالات العائلية التي ستحلّ محلّ البيوت التي كانت عريقة في ما مضى، لكن شأنها تراجع الآن: ثاريا وتوقان وسوابحاجي، وأليدينافسترام... عائلات كثيرة، من كاتش إلى زنجيبار، أفلست خلال القرن الماضي بعد أن كانت إمبراطوريات خاصة في خدمة الإمبراطوريات الأجنبية. وأما منطقة منازي موجا العشوائية التي كانت أرضاً برية متروكة من غير إعمار حتى تكون مساحة أمان فاصلة بين قسمي المدينة الإفريقي والأوروبي، وكان الآسيويون يعيشون عند حدودها، من الجانبين، فقد صارت حدّاً فاصلاً بين سكّان المدينة وسكّان كارياكو، وصارت موئلاً للصوص في الظلام. أقيم مسجد في الحيّ الهندي بالقرب من بستان الخضار وبئر المدينة، فكان بناء حجرياً من طابقين له برجُ ساعةٍ مسقوف بالقرميد مشرف على المتاجر القائمة في أسفل البناء؛ وكانت الساعة تدقّ عند تمام كل ساعة، وعند منتصفها. وشيئاً بعد شيء، حلّ الإسمنت والقرميد محل الطين والأغصان وألواح الصفيح المموّج. صارت في طرقات المنطقة سيارات وباصات ودراجات، وصار فيها عددٌ من دور السينما. كانت الهند ترسل إليها المجلّات والقصص والمبشّرين وقُطّاع الطرق والمنجّمين ومعلّمي الدين وأفلاماً سينمائية ومهاجرين جدداً. وكانت إنكلترا ترسل صحفاً (تأتي مستعملة عبر الموظفين، وغالباً ما تستخدم ورقاً للتغليف)، وكتباً مدرسية، وأفلاماً، ومعلّمين، ومديرين، وحكّاماً، وإذاعة بي بي سي، والقانون. وكانت أميركا ترسل الأفلام والكوكا كولا. كانت اللغة الإنكليزية تعني المكانة والسلطة والثروة. وأما الألمانية فصارت تذكاراً واهياً من زمن مضى. ولّت أيام الروّاد؛ ونقلت الجماعات الهندية

خصوماتها القديمة إلى ملاعب الكريكت حيث كانت تقام مباريات ودّية تتحوّل أحياناً إلى حوادث مُرّة لا ينساها الناس. صارت الآن لهم مدارسهم ومتاجر أدويتهم، ومنظّماتهم الخيرية، ومجالسهم الاجتماعية، ونواديهم الرياضية، ومنظّماتهم الشبابية؛ وكان «فتيان الكشّافة» المعتزّون بأنفسهم يحملون راياتهم إلى المهرجانات ويقسمون على الولاء لله والملك، ويتعلّمون فنون البقاء في الغابات. كانت المهرجانات الاحتفالية تستمر أسابيع كثيرة، في حين تستمرّ المآتم أربعين يوماً. يفتتحون المهرجانات بالعروض الدرامية - «دايلوك» - التي كان أشهرها، على امتداد عشرات كثيرة من السنين، دايلوك «حسن الصبّاح». إلا أن الأعمال التمثيلية الموسيقية الهندية كانت مصدراً لا ينضب للقصص والأغاني. كانت «إمباير سينما» تعرض أفلاماً من قبيل فيلم مادهوري «بلبل بغداد» و«الضيف الجميل» و«كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» و«حياتها الخاصة» (كان يدعى أيضاً «الإلهة الساقطة»)، وغيرها كثير. كانت المنتجات الجديدة تحيّر المستهلكين الجدد. كاذبِري، وزيت كبد سمك القدّ، وقهوة باغديوالا، وأقلام ستيفنسون، وملح آدين الأبيض، و«الصناديق المتكلّمة» ماركة أوديون ومعها تسجيلات بالإنكليزية والسواحلية والكوجاراتية والأوردو والعربية. ولدت يومذاك شركة «ستار برينتينغ ووركس»، ومعها صحيفة محلية فيها أخبار وطنية ودولية: وصول فتيان الكشّافة من دودوما؛ الأمير علي خان يفتتح مدرسة في كافياواد في الهند؛ مطلوب معلّم دين في نيروبي؛ أرمل في ماسيندي بورت يبحث عن شريكة وإلا فسوف يتزوّج خادمته الإفريقية، فهل تقبل به أرملة أو سيدة مطلقة ذات تجربة، من أجل «المجتمع»؟ في هذه الأيام الصعبة، أبلغ شخص اسمه لالجي رامجي المجتمع بأن أيّ شخص يستطيع أن يكسب بضعة شلنات إضافية من خلال

بيعه ما لديه من طوابع بريدية قديمة، فضلاً عن تلك النقود الألمانية القديمة «هيلر» ودولارات ماريا تيريزا؛ انهيار مسجد في تيرينغا؛ م. س. ميغجي يتولّى إصلاح الإنارة لديكم؛ سينما بهارات تناشد روّادها حتى يدعموها، فمقاعدها الجديدة مريحة، وهناك مقصورة خاصة للسيدات؛ أنفقنا مالاً كثيراً -هذا ما أعلنته سينما إمباير- على التجهيزات الخاصة بالأفلام الناطقة، فسانِدونا من فضلكم.

باختصار، بدأ عالم يبدو مألوفاً ظهوره من مياه الماضي، متكاملاً.

مقاطع متفرقة (III)



من المفكّرة الشخصية لبيوس فرنانديز

أيار 1988، دار السلام

عندما تأتي ريتا إلى المدينة، يرى واحدنا الآخر كل يوم. ليس لدينا الآن معارف كثر هنا، ولا يكون الأشخاص الذين تعرفهم أحراراً من متاجرهم إلا في الأمسيات. نتحدّث في أمور كثيرة من بينها المفكّرة - ذلك الكتاب الرقيق الذي فيه حيوات كثيرة. وبطبيعة الحال، لديها فضول في شأن ما أعرفه، لكنها تفاجئني بصراحتها في شأن ما تعرفه هي.

تقول عن علي: «أرأيت؟ لقد عاد الابن إلى أبيه، تماماً مثلما قالت مريامو إنه سيفعل. عاد بضعة أيام، على الأقل».

«ثم ماذا؟».

«تحدّثا؛ وجرى بينهما ذلك الكلام الذي لم يجرِ من قبل. ثم رحل علي - عاد».

«هل عاد إلى أبيه في إنكلترا؟».

تنظر إليّ نظرة انزعاج.

وفي وقت لاحق، نتحدّث عن والد زوجها، بيبا، كأننا نناقش حقّه

المعنوي في الكتاب. تقول لي: «كم تحمّل من مشقّات حتى يحافظ على ذلك الكتاب، وحتى يُبقي تلك الذاكرة حيّة، ذلك الاسم: مرياموا!».

«أورفيوس معاصر!».

«أمر مختلف قليلاً، بالتأكيد - صاحب متجر بسيط».

تتوقّف عن الكلام، وتنظر إليّ نافدة الصبر، ثم تبتسم وقد فوجئت بنفسها.

أقول وهي ترتشف قهوتها: «آسف».

إنني ملكٌ لها الآن، مثلما كنت ملكاً لها منذ أن وقعت عيني عليها من جديد، بعد تلك السنين كلّها، عندما ذهبتُ لتحيّتها في الفندق.

لا تزال تسحرني.

نجلس في مقهى في جادة سومورا. كان اسمها جادة الاستقلال. وقبل ذلك كان اسمها جادة الأكاسيا. يذكّرنا هذا بالكثير الذي تغيّر (على الأقل، تكاد لا توجد شجرة واحدة باقية هنا)، لكن الحياة تستمر. ثم إن هناك الآن حياة أكثر، في هذا الشارع المزدحم، في هذه المدينة التي تضاعف عدد سكّانها أربع مرات بعد أن تركَتْها ريتا.

نجلس في المكان نفسه كل يوم (هذا مستمر منذ عدة أيام)، على المقعد ذي الوسائد في الزاوية. يبدأ لقاؤنا في الساعة العاشرة صباحاً: شيء من ثرثرة كسول، وشيء من التذكّر. تروي لي قصة بيبا الأب، على دفعات صغيرة، وقصة علي الابن. إنها هي نفسها، ريتا، أقول هذا في نفسي وأنا أنظر إليها. بالتأكيد، ليس شبحها ذلك الذي أمامي.

هناك قليل من اللون الرمادي في شعرها، فوق أذنها؛ وجهها متطاول، لا يزال ناعماً، وعليه مسحة من لون درّاقي على الوجنتين، وشيء من التعب حول العينين. ترتدي فستاناً عليه أزهار، أكثر تألقاً من أيّ قطعة ثياب أخرى

في هذه الغرفة (لا أحد هنا يرتدي الخانغا). إنها جالسة منتصبة الظهر، لكن وضعيّتها غير متصلّبة. لم تعد تلميذة بل امرأة ثرية في هذا العالم.

أقول: «أنت تخبرينني بهذا كلّه، هذه الصراحة كلّها في حديثِكِ عن تاريخ العائلة، لماذا؟ أهو الكتاب ما تريدين؟».

«حسناً... لم أخبر غيرك، أليس كذلك؟ إن علاقتنا قديمة جداً! أحب الحديث معك - لعلّي لا أفعل شيئاً غير إعطائك هذه المعلومات مقابل رفقتك. ألا تشعر بالحاجة إلى الكلام بعد هذا الزمن الطويل؟».

تسكت، وتنظر إلي. وللحظة، للحظة فحسب، تبدو هشّة. «على أيّ حال، فضولك لا يُقاوَم. أنت تعرف الكثير أصلاً. وبما أنك تسألني، فسوف أخبرك بهذا كلّه - وهناك ثمنٌ أودّ أن آخذه منك». تبتسم.

«سأدفع الثمن». يقول المؤرّخ هذا وقد جُرِّد من سلاحه بلمح البصر.

تتسع ابتسامتها: «أيُّ ثمن؟».

«أيّ ثمن، إن كان ملكاً لي».

«أتساءل».

أقول في نفسي وأنا أنظر إليها، إن هذه الألفة الجديدة تثيرني. لم أعرفها هكذا من قبل. ريتا الناضجة، التي كبرت، الشخصية المكتملة.

أردّ ابتسامتها بابتسامة مثلما ينبغي أن أفعل: «القصة هي كلّ ما له أهمية. لا أستطيع التوقّف الآن. سأتابعها حتى آخرها».

***

من عساه يكون صاحب الحقّ في ملكية المفكّرة؟ يقف فيروز وريتا متقابلَين، يطالب كلٌّ منهما بها. فيروز له أحقّيّة من عثر عليها. هو من أعطاني إياها، واثقاً بي. وإليه ينبغي أن أعيدها. لكنّ ريتا تمثّل الوريث.

إلا أن مطالبتها قائمة على افتراض أن المفكّرة كانت ملكاً لبيبا؛ لكنها لم تكن كذلك، إنها مسروقة. من الممكن أن تكون المطالبة بها باسم ورثة كوربين. لكن، ما الذي يضمن لنا أن تصلهم، أو أنهم لن يتخلّصوا منها بطريقةٍ يقرّها كوربين نفسه. ومن يضمن أنه لن يتلفها؟ يمكن أن يتلف تلك المفكّرة الخاصة لموظف عمومي. ثم، من هم أولئك الورثة؟ أهم أقاربه، أم الناس الذين خدم بينهم وكان له أثرٌ على حياتهم؟ أو لعلّها الحكومة التي كان في خدمتها؟

***

أسأل فيروز مبتسماً: «كيف عرف كلٌّ منكما الآخر؟!».

في غيابها، يتحدّث عنها حديث العارف بها؛ والآن، أنظر إليهما معاً فأحسُّ أن المعرفة بينهما قديمة جداً. يحرجه سؤالي. تجيبني عنه: «أنا عمّته، أليس هذا صحيحاً يا فيروز؟»، ثم تفسّر ذلك: «إنه ابن واحد من أبناء عمومتي. أتذكّره صبياً في العاشرة عندما تركت دار السلام... كان صبياً هادئاً، وكان عوناً كبيراً في المتجر». تلتفت إلى زوجته زينب وتسألها بطريقة تكاد تكون وقحة: «هل هو ولد جيد الآن؟».

يجري هذا في أثناء تناول طعام الغداء في بيت فيروز. نحن في الطابق الثاني في واحد من مباني نسيمبازي الذي أُنشئ في أيام الرخاء في الستينيات، عندما كانت هذه المباني تجسيداً للثراء، للصعود. وبعد ذلك، استُولي على هذه المباني، وأُمّمت مثل غيرها. وجد المال سبلاً أخرى، ملاذات أخرى. لكن، على الرغم من الثروة التي جمعها فيروز (لديه حسابات في مصارف كندية وبريطانية)، وعلى الرغم من الماء الحار ومحمصة الخبز والسيارة رباعية الدفع، فإن هذا البيت... كلّ شيء فيه، من القماش المشمّع على الطاولة إلى اللينوليوم على الأرضية الإسمنتية، إلى

خزانة الطعام الخشبية وحجرة غسل الأطباق المجاورة للمطبخ المظلم، والأرائك، والأسرّة المجهّزة بناموسيات منسدلة إلى الأسفل وقد أُدخلت أطرافها تحت الفراش من كلّ الجهات... كلّ هذا منتمٍ كثيراً إلى ذلك الزمان الذي تركته ريتا وراءها.

تقول ريتا: «لم يتغيّر أبداً. تماماً مثل البيت الذي كبرت فيه. لا تقل لي...»، سارت متحمّسة على أطراف أصابعها إلى غرفة الجلوس حيث التلفزيون والأريكة و(تستدير وتنظر إلينا نظرة انتصار) السرير الكبير. تقول: «رائع!» وتصفّق بيديها مبتهجة.

بحلول هذا الوقت، يصير المضيف والمضيفة متضائلين، مكشوفين، مرتدّين إلى «سكّان كرياكو» مثلما هي حقيقتهما (لا أهمية للحسابات في مصارف أجنبية، ولا للأطفال المتعلّمين). هناك نظرة ألم على وجه زينب. تأتي ابنتها بالكوكا كولا على صينية. الغرفة مكيّفة الهواء، باردة. الستائر على النوافذ ذات القضبان الحديدية تُنسي المرء الحرّ المتقد في الخارج (ما عدا مثلث ساطع من الضوء على أرضية الليونوليوم تتخلّله ظلال تزيينات قضبان النافذة الحديدية). ترتجف الضيفة، وينتصب الشعر على ذراعيها. فستانها من غير أكمام، أبيضُ متباهٍ بحواشٍ خضراء. الحذاء أخضر وأبيض، والمحفظة خضراء. إنها تشعّ نضارةً.

مزيد من الارتباك مع الغداء. لا يستطيع الزوجان إلا أن يستعرضا أطفالهما (ليس معنا منهم الآن غير رازيا الجميلة جمالاً لا أثر له في القلب)، ويستعرضا الطعام الذي يستطيعان شراءه. زينب من المدرسة القديمة، فهي ميالة إلى إطعام الناس قسراً، ولا يستطيع ضيوفها الانصراف قبل أن يأكلوا حتى تنفجر بطونهم. لا جدوى من التأدّب؛ ففي نقطة ما، يكون عليك أن تنظر في عينيها وتقول: «لا. لن أتناول المزيد!». هناك

لحم، بالطبع. وهناك البرياني الغني، ولابسي بالزبدة. كباب. بهاجيا (بطاطس مقلية). تقول لنا زينب معتذرة عن كثرة الطعام: «نحن غير مؤمنين بتلك الأنظمة الغذائية الحديثة». يؤيدها فيروز: «إيه، أنا أقول إن في هذه البلاد طعاماً كثيراً. لدينا ما يكفي... أعرف أن في المملكة المتحدة فقراً كثيراً». هذه الملاحظة الأخيرة موجّهة إلى ريتا التي لا يبدو عليها أنها سمعتها. بعد الطعام، تُخرج ريتا صوراً لأسرتها. الأولى صورة ابنتها؛ شابة ذات جمال باهر. أسأل نفسي: هل تلد دار السلام هذا الجمال؟ هناك ثروة كبيرة ومدارس خاصة في هذا المظهر، ذلك الوجه، ذلك الجسد الطويل الممتلئ الرشيق، وذلك التشبُّه بالأميرة ديانا. اسمها ريهانا.

تقول زينب: «إنها متزوّجة من أوروبي، أليس كذلك؟».

«أراد لها أبوها أن تتزوّج ابن سفير الكويت - كما تعلمين، يريد المحافظة على صلتها بالشرق. لكن الفتاة عنيدة. إن زوجها من أسرة اسكوتلندية. يمتلكون منتجعاً في أوروبا...».

الصورة الثانية فيها صبي وبنت، في الثامنة والسادسة من العمر. هذان طفلا ريهانا. «ديفيد وليلى... أصرّ أهل زوجها على اسم الصبي...».

تتداول الأيدي الصورة الثالثة. هادي ابنها. مظهره أقل كثيراً من مظهر أخته، فهو بدين له شعر قصير وابتسامة صغيرة قاسية. تقول أمه: «لقد عاش وحده... بضع سنين. لكنه الآن مدير في شركة والده».

ثم الصورة الرابعة التي تعرضها ريتا وعلى وجهها ملمح قلق. صورة علي.

صورة في حديقة، أمام أحد البيوت: مدخل البيت، رواق ذو أعمدة. إنه واقف وحده ينظر إلى الكاميرا. ليس طويلاً جداً. يرتدي كنزة لها ياقة زرقاء، وبنطلون أسود. له وجه لطيف، معتنى به جيداً. لا ماضي في هذه

الصورة، لا شيء أستطيع تبيّنه. من أجل الماضي، هناك ريتا... هي الصلة الرابطة.

تقول: «إنها ملتقطة في بيتش غروف».

يقول فيروز: «هذا بيتك، أليس كذلك؟». ثم يقول لزوجته: «ليست لديهم أرقام بيوت في إنكلترا. يكفي ذكر اسم البيت حتى يعرفه مكتب البريد».

تضحك ريتا: «حسناً، ليس دائماً».

يقول: «أتذكّر أننا كنا نسمع عن عيش علي في قصر فيه حنفيات من ذهب و...».

تتمتم زينب: «ألا تهترئ؟».

يسأل فيروز: «أين يعيش الآن؟».

تصمت لحظة، ثم تنظر إليه مثلما نظر إليها. تقول له: «في ناتيسبرديج، بالقرب من هارولدز».

يقول فيروز: «لكنّه كان يعتني بك جيداً؟!»... يصير مدافعاً عنه فجأة.

تقول: «إنه كريم. كان من الممكن أن نتشاجر. لكن ذلك، أعني الطلاق -نحن مطلّقان الآن- كان ودّياً جداً. نلتقي كثيراً. روزيتا صديقتي في حقيقة الأمر. كثيراً ما نذهب معاً إلى التسوّق».

هناك صورة لروزيتا، الزوجة الجديدة، إلى جانب حصان. إنها أصغر من ريتا، لكن ليس كثيراً. أنظر إلى ريتا.

«لقد كان دائماً شخصاً لعوباً!»؛ تبتسم وتأخذ الصورة مني وتعيدها إلى مكانها.

تتابع كلامها، تريد التوضيح: «كما لو أن له زوجتين. أنا رابطته

الهندية... هذا سبب وجودي هنا. تتصل به جماعة الهنود عندنا عن طريقي. من أجل التبرّعات، وتلك الأشياء، كما تعرفون».

تنظر من حولها، ثم تلتقط كيس التسوّق الذي كان طيلة الوقت عند قدميها، وتبدأ إخراج الهدايا. قلم جميل لفيروز. وفستان لزينب التي تقول لها: «هاي هاي. ما كان عليك أن تتعبي نفسك!». تقول لها ريتا: «لا تعب على الإطلاق»، ثم تعطي رازيا هديتها: بدلة جميلة. تبتسم الفتاة ابتسامة كبيرة؛ تكاد تبكي فرحاً.

تقول ريتا: «وهذا لك، يا سيد فرنانديز!».

أفتح ورق التغليف - أعرف الهدية من وزنها وحجمها وشكلها: إنها كتاب، هناك أيضاً قلم، مثل قلم فيروز. لكن الكتاب...

«دار السلام: مجموعة قصائد 1930-1967»، لريتشارد غريغوري.

أقول مرتبكاً: «يا سلام! لا تقولي لي شيئاً! دار السلام مقدّمةً إلى العالم من خلال قصائد معلّم مغترب».

اسم الكتاب، ولعبة الكلمات(*) في عنوانه، والصورة على صفحة الغلاف الأخير... تعيد لي كلها ذكريات حية قوية... ذكريات عن صداقة قديمة لم أستطع تفسيرها بشكل كامل... صدر هذا الكتاب بعد وفاته؛ وهو منشور منذ فترة قريبة.

في البداية ريتا، ثم غريغوري... دخلا قصتي من غير أن أطلب منهما دخولها، إن جاز لي قول هذا. بدأتُ كتابة تاريخ ناظراً نظرة موضوعية إلى المفكّرة وصاحبها آلفرِد كوربين، الذي كان مفوّض منطقة مساعداً، ثم مفوّضاً إقليمياً، ثم واحداً من مهندسي الحكم غير المباشر، ثم حاكماً،

(*) عنوان الكتاب (Havin' a Piece). المعنى الحرفي لهذا العنوان هو «أخذ جزء»، لكن معنى «دار السلام» في الإنكليزية هو «Haven of Peace». (المترجم).

وهكذا دواليك. كنت أرى نفسي مراقباً، لا أكثر، مراقباً تفصله عن موضوعه مسافة مناسبة من حيث الزمن ومن حيث الصلة... كأنني أحلّ أحجية. لكن الأمر الغريب الآن هو أنني أحسّ نفسي قد صرت داخل القصة، تسوقني قوة جاذبة فتشدّني لأصير فيها.

«دعني أرى!». يأخذ فيروز الكتاب مني.

تشرح ريتا لعبة الكلمات في عنوان الكتاب حتى يفهمها فيروز وزينب.

أسألها: «هل تتذكّرينه؟!».

تبتسم. تقول: «لقد صرنا فطِنين، أليس هذا صحيحاً؟»؛ ثم تقول: «أوه، نعم، أتذكّر!».

II

علي وريتا

الآن، الكلّ يعرف حقيقتي...

- غيلدا Gilda

(فيلم من بطولة ريتا هيوورث وغلين فورد).

18

الآن، لن تنسي! لقد كنتِ ريتا التي هي لنا، ملكة النجوم، ملكة دار السلام، ملكة الليل. كنت مشعّةً متألّقة، ولوّحت بيدك للمحتشدين، لنا. كنت مليئة حياة، ووعوداً. كانت عربتك اللامعة المرصعة بالنجوم تأخذك بعيداً إلى الموسيقا والطبول والأبواق، وكنت تلوّحين بيدك. أنظر إلى الماضي، هذه كلها مرحلة طفولية، بناتيّة، مفعمة ببراءة كولونيالية. لكنها غير قابلة للنسيان. النظرة إلى الماضي نظرة ميتة في آخر المطاف، نظرة تغار من الذكرى التي تتنفّس.

كيف حدث أن صرت، أنا المسيحي القادم من غوا، أنا بيوس فرنانديز، كيف صرت وسط موكب مسلمي الشامسي هذا، موكب الأطواف، معلّقاً آمالي على ملكته؟

كان ذلك في تشرين الثاني 1950.

قبل ثلاث سنين من هذا التاريخ، في غوا، حصلت على إجازتي الجامعية في التاريخ والآداب، المرتبة الثانية، من جامعة لندن (طالب خارجي)؛ وصار العالم مفتوحاً أمامي. هكذا قال لي مديري. لكن ذلك العالم كان في حالة صدمة بعد حرب كارثية أخرى. كانت الإمبراطورية تتهاوى. ولم يكن أولئك الذين تماهوا، زيادة بعض الشيء مع سادتها

الكولونياليين، يعرفون أين هو انتماؤهم في النظام الجديد الذي كانت تجري صياغته في الهند التي راحت تتفكّك من حولنا. لم نكن واقفين على أرض صلبة من الناحية الاقتصادية: كانت كلّ وظيفة تجد مئات ممن يتقدّمون إليها، حتى إن كانت من أدنى الوظائف الإدارية - كنا ندعو تلك الوظائف «لعق طوابع ضريبة الدخل».

نشر مكتب المستعمرات إعلاناً في صحيفة «غوا تايمز» يدعو إلى التقدّم إلى وظيفة معلّم في مستعمرة كينيا، ومحمية أوغندا، ومنطقة تنجانيقا. نحن، أهل غوا، شعب يحب الارتحال. وقد كان في إفريقيا، منذ زمن بعيد جداً، كثير من القادمين من غوا (كانوا يدعونهم «غوانيون»). لم يبدُ ذلك الأفق سيّئاً. أتذكّر كيف كنا نمزح في أثناء انتظارنا المتوتر بعد المقابلة في بومباي. إيه، من يريد أن يستعمر كينيا؟ وأو- غان - دا؟ إنها م. ت. بالنسبة إلينا - منطقة تانجانيقا! وبالطبع، لم نكن قادرين على إدراك أن الاختلافات بين هذه البلاد الثلاثة، بين مستقبل كلّ منها، كانت كبيرة في حقيقة الأمر، كبيرة بقدر ما توحي به نكاتنا؛ وما كنا نعرف أنها ستقرّر مستقبل كلٌ منا بطريقة خاصة فريدة. جرى تعييني في م. ت.، ومعي اثنان آخران، ستفين ديزورا، وغولديب سينغ. خرجنا من المقابلة معاً واتجهنا إلى أقرب مقهى حتى نتداول التخمينات في شأن مستقبلنا. كان ديزورا عالماً، وغولديب مختصاً في الرياضيات، وأنا رجل العلوم الإنسانية... هكذا كنا ندعو أنفسنا من غير تواضع.

قيل لنا إننا سنكون، نحن الثلاثة، في المدرسة الحكومية في بلدة تابورا التاريخية في قلب البلاد. لم نكن نعرف ما الذي يمكن أن نتوقّعه؛ ولم تكن لأيٍّ منا خبرةٌ سابقة في التعليم، خاصة في ذلك الجزء من العالم الذي لم تكن لدينا عنه إلا أقلّ المعلومات... وكثيرٌ من الخيالات التي جنيناها من قراءة مغامرات من قبيل «طرزان» و«أصبغة إفريقية» وكتابات

رايدر هاغارد. لم تكن البروشورات التي قُدِّمت إلينا في أثناء المقابلات مفيدةً لنا في شيء - كنا أصلاً قد ارتدينا ذلك النوع من الملابس الذي نُصحنا بارتدائه؛ وكنا نعرف كيف نحمي أنفسنا من الملاريا. قيل لنا إن النمور لا وجود لها في إفريقيا. وعرفنا أيضاً أن الخادم الإفريقي، مثل الخادم الهندي، ليس لديه إحساسٌ بما هو «لي» وما هو «لك». علينا أيضاً أن ننتعل أحذية.

بحثنا فوجدنا معلّماً اسكوتلندياً أمضى عشرين عاماً في شرق إفريقيا. قال لنا: «يا أبنائي، خذوا كتباً، ڤولتير، وايلد، دو سادا وقبل كل شيء...»، توقّف لحظة ونظر إلينا من فوق نظارته: «فليأخذ كلّ منكم كتباً في اختصاصه!».

كنا ثلاثة شُبّانٍ ضخام منطلقين في مواجهة الريح على متن السفينة (إس إس آمرا)، في الدرجة الثانية التي دُفع لنا ثمن تذاكرها. صعدنا إلى السفينة في بومباي، وكانت الروح المعنوية لكلٍّ منّا عاليةً طيلة الرحلة كلها. بدا لنا العالم صغيراً، وكان إحساسنا بأننا نرتحل فيه قوياً. كنا مُبحرين إلى الحرية: الحرية من بلدنا القديم بأساليبه العتيقة، من أذرع أسرنا التي تُمسكنا وتقيّدنا بكثير من الحاجات والتقاليد، الحرية حتى من أنفسنا التي اعتادت حالة الاستقرار ضمن تلك العادات والأساليب العتيقة. ديزورا الطويل، الأسمر الداكن، في بدلة سفاري وقبعة، شبيه جداً بصور المغامرين التي تظهر في المجلات؛ غولديب وأنا، هنديان عاديان في قميصين أبيضين خفيفين طويلي الأكمام، وبنطلونين فضفاضين.

تجوّلنا في أسواق عدن. وسرنا في سطوح السفينة المختلفة، هنا وهناك، باحثين عن أشخاص ممن يكون تبادل الحديث معهم ممتعاً. كان في السفينة أشخاصٌ عائدون إلى إفريقيا (تعرفهم من اهتمامهم بخدمات

السفينة -البار خاصةً- ولا شيء غير ذلك)، وآخرون ذاهبون للمرة الأولى، مثلنا، مستعدّون لأن يروا مسحة رومانسية في أيّ مشهد، متشوّقون إلى التقاط أيّ معلومات تسنح لهم. كان السطح المخصَّص للدرجة الثالثة أشبه بحيٍّ هنديّ فقير وجدنا أنفسنا منجذبين إليه، لما فيه من عرائس متزوّجات حديثاً فقدن في هذا المكان المزدحم كل ما كان عليهن من مستحضرات تجميل، وكذلك قسماً كبيراً من خجلهن. عندما عبرنا خطّ الاستواء، صعدنا إلى السطوح العلوية حيث أقاموا حفلة راقصة. لم يكن لدى أيٍّ منّا حرجٌ إزاء تناول المشروبات؛ وقد تناوبنا الرقص جميعاً مع مديرة مدرسة بنات متقدّمة في السن عائدة إلى عملها. وصلنا إلى مومباسا أخيراً، فعرفنا أننا صرنا في إفريقيا. وهناك، نزل أكثر الأوروبيين من السفينة متجهين إلى نيروبي. وبعدها زنجيبار، ثم دار السلام التي خفقت لها قلوبنا. أمضينا ليلتنا في دار السلام في فندق قريب من الميناء، ثم أنفقنا فترة قبل ظهر اليوم التالي في التجوّل في شوارع المدينة قبل انطلاقنا في قطار بعد الظهر الذاهب إلى تابورا.

في تابورا، أتاني أول مرة أتذكّرها ذلك الإحساس بأنني وحيد في إفريقيا. سيعاودني هذا الإحساس بعد ذلك، لكنه سيكون أخفّ وطأة وأقل تواتراً... إحساس يتعلّم المرء تدريجياً كيف يتّقيه. أتذكّر جيداً ليلتي الأولى. كانت غرفتي في ممرٍّ في الطابق الأرضي. وأما صديقاي فكانا في أجزاء أخرى من المبنى. نقيق ضفادع، وصرير جنادب، وشجرة خونكو تهمس في النسيم. كانت الغرفة غارقة في الظلام، وكان هواء الليل مستنفداً من محتواه كأنه غاز مخلخل لا يحمل إلا أثراً من رائحة دخان حطب يحترق. لم أعد أشعر بتلك الثقة الكبيرة في نفسي؛ وبدا لي كأنني وافدٌ إلى ناحية أخرى من نواحي الكون... كأن العالم الذي تركته من خلفي، وبيتي في بانجيم في مقاطعة غوا، قد صار بعيداً كبعد أقرب النجوم في السماء.

بعد ثلاث سنين في تابورا، اختار ثلاثتنا الانتقال إلى دار السلام: ذهب غولديب إلى المدرسة الثانوية الهندية الحكومية حيث سيجعل المنهاج الدراسي وفريق الكريكت من بين أفضل ما هو موجود في البلاد. وذهبت مع ديزورا إلى المنافِسة الأولى لتلك المدرسة، مدرسة الشامسي للبنين، أو «مدرسة البنين».

كانت مدرسة البنين بعيدة عن مركز المدينة في آخر شارع سيلوس، بعد «قرية الخزّافين» والحيّ الهندي الفقير المعروف بكثرة العاهرات. وكان سكني في مقر إقامة المعلّمين الواقع خلف المدرسة. لم يُسمح لي بتعليم اللغة الإنكليزية - كان ذلك بين يدي ريتشارد غريغوري القديرتين؛ ولم أُبدِ أيّ ممانعة لأنه أقدم مني بسنوات كثيرة. كنت أعلّم قواعد اللغة الإنكليزية، فضلاً عن اختصاصي الآخر: التاريخ. لكن المنهاج الدراسي الذي طُلب مني تعليمه كان غير سارٍّ أبداً: تاريخ سلاطين المغول في الهند، ووقائع همايون الطيب، وبابور الشجاع، وأكبر العظيم... وفوق ذلك التاريخ الإنكليزي، تاريخ أسرتَي تيودور وستيوارت. لكن هذا كان أفضل قليلاً من منهاج السنوات الأدنى، إذ كان لديهم حمورابي صاحب القوانين، وخوفو باني الهرم، وفيبيبيدس العدّاء. نعم، كنا نعلّمهم هذا بعد حربين عالميّتين، بعد هيروشيما ويالطا، واستقلال الهند. لكن، على من يقع اللوم؟ تخلّف جماعة الهنود هناك، أم نصائح المفتشين الحكوميين؟ وعلى أيّ شيء يُلامون؟

انتقلت مدرسة البنين بعد سنوات من ذلك إلى موقع أفضل، متخلّيةً عن مبناها الرمادي القديم لمدرسة بنات الشامسي. لكن البنات صرن الآن آمنات، قريبات إلى بيوتهن في ذلك المبنى الذي يواجه المسجد... مبنى لا يزال قائماً بغرفه الكثيرة حتى الآن. كان لديهم نقصٌ دائم في المعلّمين

في مدرسة البنات. يذهب أفضل المعلّمين إلى مدرسة البنين، وتتدبّر مدرسة البنات أمرها بمن يبقى. وكانت نتيجة هذا أن الأولاد كانوا قادرين على التطلّع إلى الحصول على درجات تامة في امتحانات ما وراء البحار، في حين تكون البنات سعيدات بالحصول على درجات متدنية.

كان مطلوباً من بعض المعلّمين الهنود الذهاب للتعليم في مدرسة الشامسي للبنات في أوقات فراغهم. لم نكن نسأل عن السبب: من المفهوم أننا هنود وأننا نقدّر وجود تلك الحاجة إلى معلّمين. ثم إننا لم نكن مخيّرين في الأمر لأن هناك، حيث جئنا، كثير غيرنا. وهكذا كنت أذهب إلى مدرسة البنات بعد بدء العطلة يوم السبت - أسير في شارع سيلوس، فأمرّ بكيسوتو، ثم برينغ، ثم شارع المسجد. كانت البنات نشطات حريصات على التعلّم؛ وكانت أعمارهن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة. وسوف يَصِرن يوماً ما ربّات بيوت محترمة تقدمية ميسورة. كنّ «مرشدات الفتيات» وعضوات مبتدئات في لجنة السيدات وفي «جمعية تكوين الفتيات» حيث كنّ يتلقّين دروساً في «المطبخ الإنكليزي» ويمارسن الجمباز حتى تبقى أجسادهن رشيقة.

وكنّ جميعاً يرتدين «فساتين قصيرة»، فساتين تعلو حوافها السفلية قدماً فوق الأرض، لكنها كانت تمثّل ثورة، فساتين كان طرازها ورسومها على النمط الغربي؛ وكان أمراً كبير المغزى أنهن من غير غطاء رأس أو باتشيدي. لقد قرّر الشامسي، ضربة واحدة، الاستغناء عن هذه البقية الباقية من الـ«بردا»(*) (في ما يخص النساء الشابات، على الأقل)، وما تفرضه

(*) بردا (PURDAH): من الفارسية، «برده». نظام فصل النساء في بعض المجتمعات الهندوسية والمسلمة في جنوب آسيا. وهو فصل اجتماعي بين الجنسين يشتمل على أنماط من ملابس النساء تتغيّر بتغيُّر الوضع الاجتماعي للمرأة؛ لكنها قائمة كلها على ستر جسم المرأة كاملاً. (المترجم).

من أنماط لباسٍ على الفتيات والنساء المتزوّجات والأرامل والنساء اللواتي لديهن بنات عازبات، والنساء اللواتي لديهن بنات متزوّجات. وأما في الشوارع، فكانت بقية النساء يسِرنَ بالبويبوي[†] والبرقع والساري والباتشيدي؛ ولا يزال كثير منهن كذلك حتى الآن.

كنت في تلك الأيام، حتى بصفتي معلّماً شاباً، صاحب موقف صارم مع طلبتي وطالباتي. كان أكثرهم من الطلاب. لكن هذه مدرسة بنات - إناث، شرقيات، لكنهن متحرّرات تحرّراً ساراً من التقاليد التي تفرض وجود ستار مادي بيني وبين أكثرهن. وكثيراً ما كنت أجد نفسي حائراً أمام ألاعيبهن.

كان في صفّي خمس عشرة فتاة، وقد أعطى الدرس الأول مؤشراً واضحاً إلى ما سيأتي، وجعل الهواجس تملؤني.

وصلت مستعدّاً لتعليم أولئك الفتيات الهنديات في الخارج عن مملكة سلاطين المغول المسلمين في الهند. فأيُّ مدخل إلى هذا البحث أفضل من تاج محل؟

بدأت: «كم واحدة منكن سمعت بتاج محل؟».

ارتفعت الأيدي كلّها. قلت في نفسي، كم هنّ لطيفات! وكيف يرفعن أيديهن بهذا الهدوء، ولا يرفعنها إلا من المرفق!... كم هنّ مختلفات عن أولئك الفتيان المشاغبين الذين أعلّمهم في المدرسة الأخرى!

«لا بأس يا بنات. لقد اقتنعت. نعرف أن تاج محل يمثّل مجد إمبراطورية المغول - الأباطرة أكبر وهاميون وبابون».

«أخبِرنا عن سليم، يا أستاذ!».

طلب بريء، يكاد يكون طلباً أبله. لكنه كان بداية سيلٍ حقيقيّ.

نظرتُ إلى تلك الفتاة وسألتها نافد الصبر: «من هو سليم؟».

قال صوتٌ من اتجاه آخر: «الأمير سليم، ابن سلطان السلاطين أكبر. وحبيبته أناركالي!».

بطبيعة الحال، كنّ يُشرن إلى الفيلم الآتي من بومباي الذي حطّم الرقم القياسي في شبّاك التذاكر، فيلم عن حبّ غير متبادل في زمن سلاطين المغول.

«هم - هم - تم - تم».

سمعت صوتاً يدندن بأغنية من ذلك الفيلم، فأحسست بأنني واقف على أرض زلقة.

«والآن، ما هذا؟ يا بنات! أرجوكن!».

غنّت فتاة اسمها جلّنار جالسة في آخر الصف الأوسط من المقاعد: «يه زينداغي أوسيكي هاي...».

ثم بدأت البنات الغناء جميعاً: «العالم كلّه ملك من يحبّ، من يغرق في الحب، ولا شيء غير الحب...».

صحت بهنّ: «كفى يا بنات! كرمى لله!».

توقفت البنات عن الغناء وقد أحسسن بشيء من الإهانة. التقطت أنفاسي متسائلاً في نفسي عما إذا كنت سأصل يوماً إلى التمتّع بشيء من حسّ الفكاهة... ما الذي أفعله في مدرسة البنات؟

وفي مرة أخرى: «هل أنت متزوّج، يا أستاذ؟».

أتاني هذا السؤال فور دخولي غرفة الصف، بعد أن قدت الدراجة مسرعاً طيلة الطريق حتى أصل في الوقت المحدّد، وبعد أن صعدت درجات السلم جرياً. من الممكن أن تؤدي دقيقتا تأخر إلى إشاعة الفوضى في المدرسة كلّها، إن لم نقل في الحيّ كلّه.

«ربما لدى الأستاذ صديقة!».

ضحك... ضحك نشط، غير مستتر - بدأ هذا يبدو أشبه بحالة عصيان! ثم أتت جلّنار من بين المقاعد والطاولات، أتت مبتسمة وبين يديها قالب حلوى فيه شمعة؛ ثم بدأت تغني: «عيد ميلاد سعيد!».

كانت جلّنار أكثر بنات الصف جاذبية، إن أدخل المرء شخصيتها في الحساب مثلما ينبغي له فعله! جلّنار راجاني... يدعونها ريتا.

***

كان الممثّل بيت دافيس نحيلاً بالنسبة إلى الذوق المحلي، وكان مفرط التأنّق أيضاً. وكانت هناك غاربو الفاتنة، لكنها أكثر رشاقة مما تتقبّله خشونة مدينتنا الصغيرة. وكذلك بيتي غريبل صغيرة الجسم التي تميل صوبك بوركها العابث. كان دليب كومار، العاشق، وراج كابور، الأبله الساحر الذي يمكن تعلّم الكثير منه، معبودَي الجمهور من بين الممثّلين الذكور، ومعه داري كوبر، وجين كيلي، وكالي غرانت. كانت هناك أيضاً محطّمة القلوب نرجس، الغرب في صورة شرقية، فتاة الأحلام لدى المثقفين. إلا أن مخيلة دار السلام وقعت، فترة قصيرة، تحت سحر الأميركية الجميلة ذات الشعر الأسود، ريتا هيوورث، آلهة الحب، فتاة «ألقوا باللوم على مامي» الراكعة على السرير في ملابس داخلية سوداء تنظر إليك نظرة خَفَر، كأنها تقول: «هل تظنّني أفعل شيئاً خاطئاً؟» في فيلم كان أشبه بانفجار هيروشيما. كانت هي أيضاً الفتاة الغجرية كارمن التي بدت كأنها هندية. لكن علينا ألا نخدع أنفسنا: وقعت دار السلام في حبّها لأنها تزوّجت أميراً شرقياً –علي خان– وعقد شيخٌ قرانهما، في حين أشاح الفاتيكان بنظره منزعجاً. لقد أتت وزارتُنا في إفريقيا. وإذا كانت قد أحسّت حرجاً أو انزعاجاً نتيجة متطلبات التواضع هنا، ولأن النساء كنّ ينحنين لها ويتلمّسن أطراف ثوبها كأنهن يعبدنها، فقد كان ذلك أمراً مفهوماً. وإن

كانت قد غادرتنا غاضبة حرِدة، فعادت من نيروبي إلى أوروبا، ومنها إلى أميركا، فإن هذه هي أساليب العظماء والمشاهير!

لقد اختارها الأمير، فأسبغ هذا الاختيار عليها خصالاً غير عادية وعظَمةً روحية لعلّها، هي نفسها، ما كانت تدركها.

لقد احتضنتها دار السلام، وأحبّتها من كلّ قلبها، وجعلت اسمها لقباً لواحدة من جميلاتها. كانت فتاتنا ريتا نسخة مصغرة عنها، بطبيعة الحال -هذه دار السلام، وليست هوليوود- نسخة أبلغ أثراً في القلوب، في الجماعة والمسجد وشوارع السوق. كان الهيام بها أكثر عمقاً... لقد كانت حقيقية، تسير على الأرض، مثلهم جميعاً، وسرعان ما ستختار، ستتزوّج؛ فمن عساه سيكون ذلك الشيطان المحظوظ؟! كانت رفيقاتها في الصف يتحدّثن عن عروض الزواج التي تلقّتها أسرتها («أستاذ، ريتا تفكّر في مستقبلها!»)؛ لكن الفتاة كانت ترفض تلك العروض كلّها.

كان شعرها الأسود المتموّج منحدراً حتى كتفيها. بيضاء البشرة، واسعة الفم، رشيقة القوام، نحيلة إلا عند ردفيها... قليلاً (يحمرّ وجهي هنا). كانت حاضرة الابتسامة، لكن هذا ليس غريباً - أليست تلك السنوات أحسن ما في حياتنا؟ لقد جعلتْني أضبط نفسي وأنا أتفقّد مظهري قبل دخولي الصف، وألتمس قبولهن (قبولها) بدلاً من أن يلتمِسْن (تلتمس) القبول مني... ألست معلّمهن؟ لم أكن يوماً متساهلاً مع نفسي؛ ولم أكن أتردّد في تقريع نفسي عند الحاجة.

ما كانت لديّ أيّ فرصة، بالطبع! بل إن الفكرة نفسها كانت عذاباً عديم الجدوى، فعقدت العزم على كبتها. لقد كنت شخصاً دخيلاً بكلّ معنى الكلمة؛ وما كان يجمع بيننا دين، ولا طبقةٌ اجتماعية، ولا لغةٌ أمّ، ولا منشأ... كنت «عاديّاً جدّاً» تماماً، ومن كلّ ناحية. (بعد عدّة أسابيع،

وقعت لرجل وامرأة حادثة برهنت على صدق تشاؤمي في ما يخصّ إمكانية نشوء أيّ شيء بيننا). كانت الفتيات كلّهن على علمٍ بحالي. كان هذا واضحاً في تلك العيون المدقّقة والأدمغة التي تحسب كلّ شيء وتفحص عيوبي الكثيرة. ثم تلك العبارات الجانبية العارضة -«أستاذ، إنها تحلم وتفكّر في عرض زواج أتاها!»- التي كان القصد منها مناكفتي، والتي كانت مؤلمة لي.

كان والد ريتا موظفاً في مصرف في زنجيبار، لكنّه متقاعد الآن. ولعلّ ما تعنيه تلك الخلفية «التقدّمية» (مثل خلفيّتي) كان هو السبب في جرأتها وتميّزها عن غيرها. أعرف أن الناس تجمّعوا مرّة من حولها في شارع السوق مستنكرين ارتداءها فستاناً من غير كمّين، وحذاء مرتفع الكعبين. لكنها كانت ابنة مجتمعها، فتاة تغازل الخطر من بعيد؛ فخرجت إلى الشارع في اليوم التالي مرتديةً ملابس «لائقة».

نزلَتْ ورفيقاتُها السلّم معي بعد انتهاء الدروس في عصر أحد الأيام. وصلنا إلى باحة المسجد التي يصل مدخلاها بين شارعين مزدحمين. كان الشارع دائم الازدحام: أناس سائرون يتوقفون هنا لتبادل الأحاديث؛ ورجال ونساء وحيدون لا أحد لهم في هذا العالم، ولا مال، يلتمسون المأوى والرفقة على مقاعد تلك الباحة؛ والقيِّم على المسجد يوزّع أوامره على الخدم. قال أحد الناس شيئاً بصوت مرتفع عن «القادم من غوا»، فأحسست رغبةً في ركوب درّاجتي والابتعاد عن المكان.

قالت لي: «أستاذ، أعطِنا أسماء قصص حتى نقرأها!».

كادت تضع يدها على ذراعي. (لا أزال أرى ذلك: ذراعي على مقعد الدراجة، ويدها بعيدة عنها إنشاً، أو إنشين). قلت: «نساء صغيرات»، مع أن «كبرياء وهوى» لجين أوستن كان أكثر ملاءمة. ثم... «أستاذ، ما الكتاب

الذي يثبت وجود الله؟! الأولاد يعرفونه، لكنّهم لا يقولون لنا اسمه. من فضلك، يا أستاذ!».

هل كانت تستبقيني... أم كنت واهماً؟

قلت لديسوزا بعد ذلك: «لماذا لا تتركني، لماذا لا يتركُنَني... وشأني؟ لا مانع عندي من التحسّر، من بعيد؛ لكن هذه المعابثة عبر هوّة يستحيل اجتيازها...».

قال لي: «قل لهم إنك لا تريد أن تعلّم الفتيات!».

«سوف يتساءلون عن السبب».

«إذاً، اطلب إجازة من العمل حتى تذهب وتتزوّج!».

كنا جالسين على أريكة في زاوية غرفة المدرّسين نشرب الشاي وندخّن. وبينما كان ديسوزا يتكلّم، رأينا ريتشارد غريغوري يدخل ويتوقف أمامنا ناظراً إلينا من أعلى. قال لنا: «هل يزعجكما أن أشارك في هذا الحديث السرّيّ؟».

كان غريغوري واحداً من أولئك الرجال الإنكليز المتميّزين بأن الواحد منهم قادرٌ على أن يصير مؤسّسةً في حدّ ذاته من خلال إصراره المتّسق على طبيعته الغريبة (قد يقول البعض إنها طبيعة شاذة). قيل لنا إن له أسرة في إنكلترا؛ ولعلّ ذلك كان تفسيراً لوجوده خليّ البال بيننا. في تلك الأيام، كان من عادة المتعلّمين أن يسخروا من الإنكليز، خلف ظهورهم. لكنه كان يبدو لي شخصاً طبيعياً إلى حدٍّ كافٍ. وحتى إن كان قد تظاهر مرة بما هو ليس من طبيعته، فإن ذلك الدور قد لبسه واستولى عليه. كان أكبر سنّاً مني ومن ديسوزا، بقدرٍ غير قليل... رجل طويل فيه شيء من البدانة وله مظهرٌ خليع: أشعث، غير نظيف، يرتدي دائماً بنطلوناً قصيراً متسخاً كاكي اللون وقميصاً نصف مزرّر يكشف أحياناً عن جزء

من وسطه ذي الشعر الكثيف. لم تكن الشمس رفيقة به، فقد كانت تجعله يحمرّ احمراراً مخيفاً؛ لكنه مقيمٌ في إفريقيا منذ نحو عشرين عاماً من غير أيّ نية في العودة إلى إنكلترا. كان الرجل مكتبة متحرّكة من المحفوظات والمقتطفات. يحفظ أشعار بالغريف عن ظهر قلب، ويحمل في رأسه كتب شكسبير التي يتضمنها المنهاج الدراسي. مستعدّ دائماً، ينتقل نصف ثمل من صفٍّ إلى صفّ ويعبث بغليونه الذي لا يشعله إلا نادراً، ويحاول إدخال أطراف قميصه السائبة تحت بنطلونه، ويهرش رقبته القذرة.

جلس، ثم ضرط.

قال بصوته المدمدم: «هل جعلتْ واحدةٌ من الفتيات دمك يغلي في عروقك، يا فتى؟! آسف، لكني لم أستطع منع نفسي من استراق السمع. أنت تبدو شديد الاضطراب...». بدأ يخرخر بغليونه.

بدا الانزعاج على ديسوزا، وهمّ بالنهوض، لكنّي ثنيّته عن ذلك بنظرة مني.

«سيد غريغوري... ما القصة التي توصي بها من أجل فتاة آسيوية؟».

«فتاة آسيوية؟ أظنّها فتاة محترمة أيضاً! عذراء بالتأكيد! بالطبع، أنصحها بقراءة ليدي تشاترلي!».

«إنني أسألك جاداً، بلا مزاح!».

«هل ينبغي أن تكون قصة؟ هل قرأت أشعار سافو؟ وماذا عن...».

قال ديسوزا: «تقرأ أخواتي لجين أوستن، وكذلك لمازو دولاروش».

قال غريغوري كأنه يخز ديسوزا بدبّوس ردّاً على انزعاجه منه: «عليهن قراءة هذا». كان صديقي يزداد غضباً. وأما غريغوري فظلّ يعبث بغليونه.

قال: «لا أعرف كيف تكون استجابة فتياتي لشعر جون دون. عليّ قول هذا، بالطبع... إنه يثير ضجة في لندن هذه الأيام».

«ما رأيك في هذا السؤال: ما الكتاب الذي يثبت وجود الله؟ عن نفسي، لا أظن أن هناك كتاباً من هذا النوع؛ لكن، ما رأيك أنت؟».

«القديس أوغسطين. وأيضاً برتراند راسل، بالطبع، فهو يثبت عدم وجود الله». كان ديسوزا من قال هذا.

«يا عزيزي الشاب... إنه سبينوزا، إن كنت تسألني!». أمسك غليونه بين أسنانه. كان متأهّباً للذهاب.

سألته: «هل تحب أن تأتي لكي نشاهد مهرجان الشامسي الأسبوع القادم؟ ستكون فتياتي على واحد من الأطواف؛ وقد رجونني أن أحضر لرؤيتهن».

قال: «أحب أن أذهب». ثم سار مبتعداً.

قال ديسوزا بعد ذهابه: «ابن حرام! لا أعرف ما يجعلك مهتماً به. أنت مسحور دائماً بالإنكليز. حتى بذلك الذي قابلناه في بومباي. كان البحث عنه فكرتك أنت».

«لقد كان اسكوتلندياً».

«كلّهم سواء».

لم يأتِ ديسوزا للفرجة على المهرجان. وهكذا ذهبنا وحدنا، أنا وغريغوري. كانت لديه سيارة، فأتى وأخذني.

يحتفل الشامسي بالعيد مرّتين كل سنة. وعندما يحتفلون، تعمّ حالة من الفوضى السعيدة أرجاء المدينة كلّها. من جادة الأكاسيا، إلى شارع رينغ، ومن كيتشويلي إلى بينغلز.

تبدأ «البهجة» في اليوم الأول بطقس رفع العلم عند الساعة التاسعة صباحاً، وذلك على أنغام نشيد الشامسي الذي تعزفه فرقة الكشّافة. ثم

يأتي شيء يشبه استعراض حرس الشرف المكوّن من فرق بادن بوُلز كلّها -الكشّافة، والمرشدون، والأشبال، وفتيات الكشّافة الصغيرات- يسيرون جميعاً مثل وحدات الرماة الملكية الإفريقية، مع شيء من الفوضى في مشيتهم. ثم تبدأ المسيرة التي تتجوّل في منطقة الشامسي المحيطة بالمسجد، وتعزف الفرقة «نهر البجعات» وبعض ألحان سوزا؛ ويسير من خلف الفرقة مباشرةً الفتيان ومتبطّلو المدينة ومتسوّلوها.

وفي كلّ ليلة بعد ذلك، عقب انتهاء الشعائر الدينية المذاعة عبر مكبّرات صوتٍ قوية، يجري تقديم الشربات والطعام. ثم يرقصون الغاربا والداندياᵗ والراساᵗ على إيقاع الطبول وزعيق الأبواق اللذين يكونان مسموعين على مسافة أميال من المكان. يكتسي المسجد مصابيح متلألئة، وتزدحم باحته الخارجية بالناس، وترفرف فوقها الرايات.

وفي اليوم الأخير الذي يكون يوم أحد، ينطلق استعراض الأطواف التي تقودها فِرقٌ في سنّ الشباب. يكون هذا عند الرابعة بعد الظهر؛ أي في الوقت الذي تصير فيه حدّة الشمس (هكذا كنت أظنّ) قد تراجعت وصارت لطيفة باسمة. وقفت مع غريغوري في شارع رينغ حيث كان المكان أقلّ ازدحاماً، لكي ننظر إلى الموكب من هناك.

كان في المقدمة، على ظهر شاحنة، تمثالٌ لتشرشل، أكبر من الحجم الطبيعي، يدخّن سيجاراً ضخماً ويلوّح بيده محيّياً الحشد (أكّدوا لنا أن دخان ذلك السيجار كان من البخور)... شيخ عربي متكئ ضمن جوٍّ شرقيّ جداً، مستند إلى الوسائد، يشرب ويدخّن محاطاً بحوريات صاخبات ضاحكات. ساحر أفاعي معه كوبرا حقيقية. جبل عليه حسن الصباح وتلاميذه منكبّون على التخطيط لعمل شنيع، لكنه يستحقّ جهدهم بالتأكيد. ثم هوليوود بنجومها المتلألئة كلّها (وقمرها) وعلى كل نجم نجمة بشرية

تلوّح للجمهور وتبتسم ابتسامات هوليوودية. كانت أكبر النجمات، ملكة النجمات كلّها، فتاتنا: ريتا.

كان هناك متطوّعون يقدّمون المشروبات، وآخرون يرشّون العطور وينثرون على الأطواف حفناتٍ من الأرز.

كان سائراً بخطوات واسعة إلى جانب طوف هوليوود، ملوّحاً بيده تلويحة ملكية لكلّ من يعرفه، رجل وسيم باسم في بدلة بيضاء وعلى رأسه قبعة أستراخان مائلة قليلة، وفي يده عصا. إنه علي أكبر علي، نسخة دار السلام من الأمير علي خان.

كيف تستطيع الأسماء، والألقاب، أن تلقي بسحرها على حامليها فتأخذهم إلى أقدار لا مثيل لها، وإلى الوجهات نفسها؟ سنقول إن هذا مكتوبٌ في النجوم.

19

طيلة أسبوع الاحتفالات كلّه، كانت تتخلّل الشعائرَ الدينية استراحةٌ في كلّ مساء، بين الصلاتين: ينطلق موكب من المسجد فيسير في الحيّ بخُطاً مهيبة يصحبه قرع الدهول المدوّي: «دووم – دروم – دووم»، وبوقان يعزفان النغمات نفسها ببطء عجيب حلو يظلّ صداه يتردّد في الأذهان أياماً بعد ذلك. ومن بين الراقصين: فتيان وفتيات، وأمهات متقدّمات في السنّ، وأصحاب متاجر ذوو مظهرٍ نبيل بعماماتهم وأثوابهم. وتسير شاحنةٌ عليها «فتيات هوليوود» في دار السلام ملوّحات بأيديهن للجميع. يمضي الموكب مارّاً بالمتاجر المزيّنة بالأعلام والرايات وبحبال من المصابيح، لكنه يتوقف مرات كثيرة من أجل الشربات والحلويات.

أمام متجر «ملك الخانغا»، وقف علي أكبر علي، الصهر الأمير، يضيّف فتيات هوليوود، فيُغدق أفخر أنواع الشربات ويقدّمها إليهن في كؤوس مرفقاً إياها بعبارات ذكية منمّقة.

وفي العرض المنوّع «دايلوك» (بمعنى «حوار» أو «دراما») الذي قدّمته في وقت لاحق من الأسبوع عدّةُ عضوات في لجنة السيدات، ساهم الأمير في إعداد المشاهد؛ بل أدّى أيضاً دوراً صغيراً، دور طبيب يجري عملية نقل دم في مشهد يمزّق القلوب. ومع وقت عودة أصحاب المتاجر

إلى أعمالهم وقد شبعوا من الاحتفالات والشربات والبرياني، كان علي يتحدّث مع ريتا، أو يمازحها.

يصير المزاح مع فتاة أمراً حميماً – أن يعانقها المرء ويحتضنها بكلماته عندما لا يستطيع الجسدان، بل حتى النظرات، شيئاً غير البقاء مقيّدين، خبيئين. عندما تمزح يمكنك أن تكون طفلاً أو شقيقاً أو عاشقاً. تحرجها عندما تكون عاشقاً وتجعلها تحوّل عينيها وتداري عجزها عن تمالك نفسها بموجة من الضحك لا تلبث بعدها أن تتوقف ويحمرّ وجهها كأنك قبّلتها. عندئذٍ، تعرف أنها صارت لك؛ ولا يبقى عليك إلا أن تثبّت ذلك، أن تقوم بالخطوة الحاسمة الأولى. إن كنت رومانسياً حقاً، فإنك تبعث إليها برسالة فيها شيء من شعر الغزل، أو أغنية شائعة، أو حتى بيت أو بيتان من الشعر الإنكليزي. لا تكتب اسمك في آخر الرسالة، بل شيئاً موحياً بهوية مرسلها. هذا ما فعله علي.

فراشة جنّت حباً بضياء النار،
فارتمت فيها...
هكذا أنا، يا حبي!

«معجبك غير المتكتّم كثيراً».

حركة تكاد تكون صبيانية من جانب رجل في سنه، رجل متزوّج منذ اثنتي عشرة سنة... لكنه كان متيّماً بها. كان لهذا أثر كبير على الفتاة البالغة سبعة عشر عاماً؛ لكنها لم تعرف تماماً هوية ذلك المعجب.

لم يسمع منها شيئاً استجابة لرسالته، ولم يرَ شيئاً. دخل متجر أهلها مرة، وتحدّث مع أمها في حضورها، ومازحها وقال شيئاً من الشعر. ثم سار إلى جانبها على الرصيف في وقت لاحق، فأدارت وجهها حياء. أكمل لها القصيدة. تبعها ذات يوم حتى شاطئ البحر عند آزاني فرونت حيث

كانت ذاهبة مع صديقاتها. سار على الجانب الآخر من الطريق مواكباً إياهن تحت أنظارهن جميعاً. وخلال بضعة أسابيع، سرت شائعات كثيرة (لعلّها بدت ضعيفة مبالغاً فيها بعض الشيء) فانتشرت في جيوب ضمن ذلك المجتمع، بين الشباب خاصة.

لقد ظلّ زواجه من غير أطفال؛ ولم يكن فيه يوماً قدرٌ كبير من الحب. لكن ذلك الزواج أكسبه مكانةً ومالاً. ومن جانبه، قدّم لزوجته ولأسرتها زواجاً مستقراً ولم يحِد عن فراش الزوجية أبداً على الرغم من جاذبيته الكبيرة. وأما ما كان يخاطر به الآن، في أواسط العمر، فقد كان كثيراً جداً.

***

خرجت جماعة الشامسي كلّها في نزهة إلى بلدة ميناء قديمة اسمها باغامويو. وقد وصلوا في شاحنات مكشوفة ومعهم قدورٌ من الأرز والبازلاء، وجماعة من الخدم. كان الفتيان والفتيات يغنّون طيلة الطريق «آي ياي يوبي يوبي ياي ياي»، كعادتهم. وعلى الشاطئ: مباريات لعبتي هوتو توتو[†] وبيتا بيتي[†]، ومباريات كرة القدم، ومباريات الكريكت باستخدام أغصان جوز الهند بدلاً من المضارب. كان الفتيان يعابثون الفتيات بأغنيات من الأفلام. شاي وكوكا كولا، ثم مزيد من الشاي والمأكولات الخفيفة. كانت مجموعة معلّمين جدد قد وصلت من إنكلترا والهند، وكان بعضهم من المشاركين في هذه النزهة. سارت ريتا مبتعدة بعد تناول طعام الغداء، مبتعدة عن ألعاب الشباب وعن الكبار الذين يلعبون الورق ويشربون الشاي. كانت الريح تلعب بفستانها، وكانت حافية القدمين. سارت بين الأجمات وجذوع الأشجار الناتئة إلى أن بلغت بقعة رملية عند الشاطئ. كان وقت المد؛ وكان بضعة سبّاحين يصارعون الأمواج، وصيّادون إلى جانب شباك ممدودة على الأرض، وبائعو جوز الهند. جلست على جذع شجرة وطوت ساقيها تحتها. ثم

راحت تنظر إلى الأفق البعيد. تذكّرت قولهم إن المرء، عندما يرى سفينة مقتربة، لا يرى أول مرة إلا مدخنتها.

لم تكن تعرف سبباً لسيرها مبتعدة عن الناس. ولم تكن تعرف إلا أنها بائسة حزينة، مثلما يكون الشباب أحياناً. إلى يمينها مقبرة قديمة، أرواح راقدة عند البحر... فكّرت في هذا، ثم بدأت تشعر بالتوتر إذ تذكّرت قصصاً عن نساء تملّكتهن الأرواح. هناك، في آخر المقبرة، كانت الإرسالية التبشيرية القديمة. تعرف ريتا أنه كان هناك سوقٌ للعبيد في مكانٍ قريب، سوق أقدم عهداً. سرعان ما تبدأ جماعة المتنزهين جولتها الإلزامية، لإلقاء نظرة على المواقع الموجودة هنا، بعد الألعاب وقبل موعد الشاي الأخير. إن في هذا المكان بقية باقية من جماعتهم. بيت قديم، أو بيتان، منذ زمن العبودية والعاج ورحلات المستكشفين. سوف يذهبون إلى المسجد القديم ويزورون الكنيسة ويشيرون إلى المواقع التي تسكنها الأرواح، تلك المواقع التي كانت البلدة شهيرة بها.

حركة من خلفها، من أجمة إلى جهة اليمين. أجفلت. وتسارعت دقّات قلبها. ظهر من الأجمة، ضخماً، رائعاً. كان يزيح الأغصان عن وجهه. رأته مرتدياً كنزة صوفية خفيفة وقد طوى ساقي بنطلونه الكشمير قليلاً إلى الأعلى. كان حافياً، مثلها.

كان هذا مشهداً يراه المرء في أفلام كثيرة في تلك الفترة. هوليوود وبوليوود، فكانت هذه ديليوود... دار السلام ومشتقّاتها.

رجاها، وتوسّل إليها، وركع على ركبتيه. قال لها إنه سيطلّق زوجته، وإنه سيذهب إلى لندن. سألته: «لماذا؟»، أجابها: «وماذا هنا؟». قالت في نفسها: إن هذا صحيح، فماذا هنا؟ فكرة الذهاب إلى لندن، الذهاب بعيداً، الفرار إلى عالم أكثر كبراً ورقياً... لم تفكّر في هذا من قبل. نظرت إليه

من غير أن تقول كلمة واحدة. كانا قد تبادلا بعض المقطوعات الشعرية الهجائية المازحة في أثناء الاحتفالات. لكن الكلمات بدت الآن صعبة، مرتبكة بينهما... صارت الكلمات تفرض معاني كثيرة، وتلاوين كثيرة. كان فاتناً، ليس كمثل أيّ شخص تعرفه - رجال العائلة الذين في سنّه، أكثرهم أصحاب متاجر وموظفون حكوميون في أكثر الأحوال؛ أو المراهقون المتبجّحون، الشباب غير الناضجين الذين في مثل سنّها.

سارا عائدين في طريقين مختلفين، من غير قول أيّ كلمة أخرى. كانت لعبة الهوتو توتو بين الفتيان والفتيات قد شارفت على الانتهاء. سوف يؤدّون الآن بضع مسرحيات هزلية ضاحكة. في واحدة من تلك المسرحيات، يقوم فتى وفتاة بتمثيل أغنية الأطفال «أين أنت ذاهبة يا خادمتي الجميلة». عادة، كانوا يطلبون منها أداء هذا الدور، يطلبونه من فتاتهم، ريتا. وهكذا، أدّته، أدّت دور الخادمة الجميلة الخجول.

«لم يطلب منك أحدٌ أن تتزوّجي، يا سيدي... هكذا قالت،

يا سيدي، هكذا قالت...».

***

بالطبع، كان عرضُ علي أمراً لا يمكن التفكير فيه! هي فتاة في ميعة الصبا؛ فأيّ عائلة يمكن أن تقبل بزواجها من رجل «كان متزوّجاً»؟... أيّ عائلة يمكن أن تقبل بالفضيحة والعار؟ صارت ريتا أكثر هدوءاً في صفّي. لو لم يكن لها أثرٌ كبير عليّ من قبل، لما وجدتها الآن متميّزة عن غيرها. كانت ميّالة إلى الاحمرار سريعاً؛ وكان هذا مؤشراً قيل عنه بين الفتيات كلامٌ كثير مما فاتني سماعه.

صارت علاقاتي بتلميذاتي، فتيات يوم السبت، أكثر رسمية. فقدت الفتيات ألقهن، وضحكاتهن، وصرن أكثر ميلاً إلى إظهار الاحترام. أمرٌ

مُحزن أن يصير المرء محلّ إشفاق من كانوا ينظرون إليه نظرة احترام؛ بل هو محزن أكثر عندما يكون ذلك ناتجاً عن أمرٍ غير معلن، بعيد عن المتناول. إزاء تفهّمهن، وإزاء احترامهن... أولئك الفتيات الجميلات ذوات الضفائر والشعر المربوط إلى الأعلى والشعر المقصوص قصيراً كشعر الصبيان! كنّ كأنهن يقلن لي إنهن يفهمن ألمي. أردت أن أصيح بهن: «كفى! كنّ كما أنتنّ في الأحوال المعتادة!». لكن ذلك كان مستحيلاً... لقد كبرن!

وفي أثناء ذلك، كنت ماضياً في الحديث لهن عن أسرتَيْ تيودور وستيورات وعن سلاطين المغول.

***

استخدم علي وريتا منادياً ليكون وسيطاً بينهما، شخصاً ينقل رسائل كلّ منهما إلى الآخر. وقد كان منسجماً مع حب الظهور عند علي أن يلجأ إلى الشخص الأكثر علنية، إلى منادي المدينة، لكي يحمل رسائل حبه إلى ريتا. كان كريم لانغدو (كريم الأعرج) يجول في شوارع الحيّ الهندي في دار السلام معلناً عن الجنازات وغيرها من المناسبات ذات الأهمية الخاصة. كان يسير من بناءٍ إلى آخر مجرجراً ساقه المعطوبة. يتوقف عند مفترق طرق، ويبصق، ثم يُخرج ورقة بحركة مسرحية ويقرأ رسالته: تعالوا إلى الجنازة! توفي فلان الفلاني الذي أصله من بانيبات في الهند! موعد الجنازة الساعة الرابعة من يوم الخميس. الموقع كيتشويلي! نداء كان متبطّلو الشوارع يردّدونه من خلفه أصداءً ساخرة ممطوطة. «أخي كريم، من الذي توفي؟» قد تظهر امرأة من أحد المتاجر لتطرح عليه هذا السؤال. «إنه الأخ فلان الفلاني من بانيبات». يقول كريم هذا بصوت حادّ وهو يبتعد بخطواته العرجاء. لا يحبّ التكرار؛ لكنّهم كثيراً ما ينادونه طالبين منه ذلك.

كان كريم لانغدو وعلي قد ترعرعا في الشوارع نفسها. ولم يتأخر

عليٌّ يوماً، على الرغم من مكانته في المجتمع، عن استمرار صلته بذلك الرجل الأعرج وعن تبادل الأخبار معه كلما التقيا. هذا ما جعل كريم يعبد الأمير عبادة. وافق راغباً، بل شاكراً، على أن يحمل رسالة منه كلّما كان لديه إعلان ينقله إلى الناس. وهكذا، بعد أن انتهى كريم من الإعلان عن إحدى الجنازات بعد ظهر ذات يوم، ذهب إلى فناء بيت ريتا وطلب أن يسقوه ماء. ثم قال لأمها: «رسالة لريتا من واحدة من صديقاتها». أتت ريتا من غير أن تشتبه في شيء، فأخذت الرسالة وفتحتها، ثم وضعت يدها على فمها مصدومة.

سألتها أمها: «ماذا كتبت لك هذه الصديقة؟ من هي؟».

قالت بعد أن عادت إلى نفسها بالقدر الكافي لأن تبدو إجابتها طبيعية: «أوه، إنها غولي شريف - تلك الفتاة المجنونة!».

مشية حبيبي تثير جنوني،
فلندع أعيننا تلتقي،
فلندع مياهنا تلتقي!
«أميرك».

ابتعدت بعد أن أجابت عن سؤال أمها. كانت تشعّ سعادة؛ وكان قلبها يخفق عنيفاً.

صاح كريم من خلفها: «ماذا؟ أليس هناك ردّ؟».

«لا، ليس اليوم».

وفي مرة أخرى، مباشرة من أغنية في أحد الأفلام:

الزقاق الذي ليس فيه بيتك،
لا أطيق السير فيه.
«الأمير».

بل إن أشعار بالغريف التي يُعلّمها غريغوري ساهمت أيضاً في تبادل الرسائل بينهما!

كان المراسل نفسه غير متزوّج، بل كان غير قابل للزواج. ولا بدّ أن رؤية هاته الفتيات العصريات المتألقات مثل ضياء الشمس كانت تعذّبه. فأيّ طريقة للحصول على واحدة منهن لنفسه يمكن أن تكون أفضل من حصوله عليها عن طريق بطله علي؟ كانت ريتا تنتظر الرسائل نافدة الصبر، لكنّها لم تُجِب على أيٍّ منها. كانت تجد نفسها تسأل أمها: «ألم يمت أحدٌ اليوم؟»؛ فتجيبها أمها بحدّة: «كوني شاكرة لهذا، يا بنت، لا تستفزّي القدر!».

اقتضى الأمر جنازتين وعدة مناسبات خاصة في المسجد قبل أن تستجمع ريتا شجاعتها وتقول: «كريم باهي، أخي كريم، أعطِ هذه لـ...»؛ فانطلق المراسل مبتهجاً.

«أستاذ... أريد أن أستعير منك كتاباً!». لقد أتت إلى طاولتي حتى تطلب هذا الطلب، أتت فور انتهاء الدرس عندما كنت أستعدّ للانصراف. تجمّعت بقيّة البنات من خلفها، وهنّ يكبتن ضحكاتهن. لقد عُدن، تقريباً، إلى ذواتهن القديمة، عدن سرباً من بناتٍ بريئات... وأما ريتا، فلم أرَ على وجهها إلا ابتسامةً خجلى. كانت قريبة مني، فانتابني الغضب.

«ماذا؟ أيّ كتاب؟ قد لا يكون موجوداً عندي».

«أعني، إذا كان عندك، يا أستاذ».

«إذاً، ما هو الكتاب؟».

قالت بصوت خفيض: «روميو وجوليت».

نسيتُ التكتّم، فارتفع صوتي: «روميو وجوليت؟!».

سرَت ضحكاتٌ في الغرفة كلّها... ضحكات مناكفة، مبتهجة، فرفعت رأسي حتى أُظهِر شيئاً من الحزم.

«ليلى والمجنون، يا أستاذ!».

«هير - رانجا».

«نالا - دامايانتي».

بدأت البنات استعراض التنويعات المختلفة لقصة روميو وجوليت، وما كان لشيء أن يوقفهن عن ذلك.

وهكذا، كانت رسالة ريتا التالية إلى علي:

إن كنت تحبنّي حقاً،
وإن كان هدفك الزواج مني، فأخبِرني غداً!
وسوف أضع أقداري كلّها عند قدميك.
وسوف أتبعك، يا سيّدي، إلى آخر الأرض.

مضى كريم لانغدو بخطواته العرجاء سعيداً بعد أن أجاب عن الأسئلة المعهودة (سندرباي باتيل، طريق باغامويو، الجنازة غداً، في الساعة الرابعة، انتبه يا أخي من فضلك!)، لكنه سمع صوتاً من خلفه، «بست» ومعه ضحكات مكبوتة. التفت إلى الخلف، فرأى عصبة فتيان تتبعه. كانوا يقلّدون سيره الأعرج. ثم تقدّم زعيم تلك العصبة فقذفه بشتيمة ومسّ مؤخرته. هذه المرة، فقد كريم سيطرته على نفسه، فجرى من خلفهم وهو يجرّ رجله المعطوبة. تعثّر، وسقط، فهرب الصبية بعيداً. جرى عدة رجال حتى يرفعوا عن الأرض ذلك المراسل الأعرج الذي كان يئنّ ويزبد غاضباً ويقذف بالشتائم. علت قدمَه كدماتٌ حمراء وسوداء، وأحسَّ وخزاً في لحمه المدمّى. راح يزيل الحصى والتراب عن قدمه. اجتمع حشدٌ من الفضوليين.

جلس كريم، ورفع ساقه فأراحها على مقعد أمام أحد المتاجر. راح يتفحّص قدمه المصابة. جاء الحلّاق رامزاني على دراجته مسرعاً وقال: «عجباً، يا أخي كريم، ماذا فعلت؟!»، فأجابه كريم: «أولئك الأوغاد، أبناء العاهرات!».

ظلّت في الشارع ورقتان سقطتا من المراسل: واحدة فيها إعلان عن وفاة سندرباي باتيل، والأخرى رسالة من روميو. كانت الورقتان راقدتين على الأرض تنتظران أن تهبّ نسمة فترفعهما. لكن شابّين أتيا ففعلا ذلك.

كانت رسالة روميو تقول: «قولي إنني حبُّك، فيصير هذا اسماً جديداً لي!». ما معنى هذا؟ شيء غير مشروع، لا شكّ في الأمر! شيء خاطئ وسرّي؛ أي إنه خاطئ مرّتين.

بدأت عقول الشباب المتحمّسين عملها. لم يكن الشارع الذي وُجدت فيه الورقة دليلاً على مكان الخاطئين، لأن كريم الأعرج يتجوّل في منطقة واسعة. سألوه فأقرّ بالأمر، لكنه رفض إعطاءهم أيّ اسم، (كان كافياً أن يقول: «لقد أقسمت بقبر أمي»). فصار السرّ أكثر عمقاً. سألوا غريغوري فاستجاب بأن حدّد الفصل والمقطع، وزوّدهم بمزيد من المقتطفات وبتقييمه الأدبي لها، وبالقصة كلّها، وبمعنى جملة وردت في الرسالة، («لا يعرف الحبّ الوليد حدوداً، ولا قيوداً»). لم يبقَ أمامهم غير مراقبة الفتيات مراقبة دقيقة. كان الأمر في البداية فساتين من غير أكمام، وأحمر شفاه، وشعراً قصيراً. وأما الآن، فقد تجاوزت واحدة منهن الحدود.

مرَّ كريم أمام بيت ريتا. وبعد أن قال: «مجلس خاص اليوم، في وقت الصلاة: السادسة والنصف»؛ أتبع هذا بتحذير على هيئة غناء: «كونا حذرَين، أنتما الاثنَين!».

لكن المتعصّبين الشباب، الذين كانوا من الفاشلين في المدرسة،

حبيب حاجي ورفاقه، تمكّنوا من الإيقاع بضحيّتهما. على أنّ الرجل والفتاة اللذين وقعا في شباكهم فحلّ بهما الخراب كانا شخصين آخرين. لقد استفاد علي وريتا من الإنذار.

كان في المدينة محاسبٌ هندوسي شابّ اسمه باتاني يقيم في شقّة في شارع السوق، في بناء ج. ر. مولجي الذي أُنشئ حديثاً. كانت له زوجة وطفل في ضواحي أحمد أباد الهندية. وكان ينتظر استكمال أوراق الهجرة قبل استقدامهما. وضع قضيّته بين أيدي المحامين القديرين لدى «الجمعية الهندوسية». وبعد ثمانية عشر شهراً، أو نحو ذلك، من وصوله إلى دار السلام، صار الرجل محترماً محبوباً لأنه محاسب ذكي قدير، فضلاً عن كونه رجلاً هادئاً حسن المعشر، لكنه كان يشعر بالوحدة بعض الشيء. كانت في البناء نساء متقدّمات في السن يمازحنه قائلات إن عليه أن «يُروّح عن نفسه» في غياب زوجته الشابة الجميلة. لكن باتاني عثر في الشهور الأخيرة على طريقة أخرى للترويح عن نفسه. لقد وقع في هوى فتاة من الشامسي تعيش في البناء نفسه، وصار على علاقة سرّية بها.

كان اسم الفتاة برفيز. فتاة قصيرة القامة لها ضفيرتان تنحدران حتى خصرها؛ وكانت معروفة بتُقاها الذي تعبّر عنه تعبيراً مخلصاً حزيناً على طريقة الشاعرة القدّيسة الهندوسية ميرا باي. لكن سوء حظ باتاني وبرفيز شاء أن تنشأ العلاقة بينهما في الوقت الذي بدأ فيه حاجي ورفاقه بحثهم عن زوج من العاشقين غير الشرعيين. أثارت برفيز شكوك أولئك المتزمتين عندما شوهدت ذات مرة تخرج مستعجلة من المسجد فور انتهاء الصلاة. وسرعان ما اكتُشف أمرها.

كان ذلك في ليلة من الليالي الاحتفالية في مسجد الشامسي، «أفراح» أخرى فيها بهجة وطعام وشربات ورقص. وخلال تلك الأمسية الاحتفالية

-بعد الصلاة، عندما بدأ الرقص وراح الناس يتحرّكون في أرجاء المكان- خرجت برفيز وسارت مسرعة في شارع المسجد. لحق بها الشباب: كانوا أربعة، اثنان على كل جانب من جانبي الشارع، مثلما كانوا يرون في الأفلام الأميركية. دخلت الفتاة بناءها، فلاحظوا من مكانهم في الشارع أن النور في شقتها ظلّ غير مضاء. صعدوا السلم، لكنّهم لم يستطيعوا العثور عليها. قرعوا أبواباً كثيرة، لكن من غير طائل. تفرّقوا آخر الأمر وكمَنَ كلّ منهم في طابق مختلف، وانتظروا. وفي الساعة الحادية عشرة، فُتح أحد الأبواب وخرجت منه برفيز. شهقت عندما رأت شاباً تعرفه. سرعان ما نادى الشاب رفاقه.

سألوها: «ماذا تفعلين هنا؟».

«وما علاقتكم بـ...»، اختنق صوتها عندما خرج باتاني من ذلك الباب واضعاً نظارته على وجهه وقد تدلّت أطراف قميصه.

ومن جديد، بدأت الفتاة تقول: «أتيت لكي آخذ...»؛ لكن، ما كان هناك شيء يمكن أن يقال.

«تعالي معنا! أم أنك لا تريدين المجيء؟!».

ذهبت معهم.

يسمع المرء عن أهوال أشدّ من هذا... لكن، كيف له أن يقارن بينها؟ بالنسبة إلى الفتاة، من المؤكّد أن تلك كانت نهاية العالم. فما الذي عانته في طريقها في شارع المسجد مخفورة بين آسريها الأربعة؟ لا أزال غير قادر على التوصّل إلى إجابة... العار، أم الغضب الذي ينتظرها، أيّهما كان أشدّ وطأةً على قلبها الخافق؟ لقد عادوا بها مذعورة دامعة العينين لكي يحكم عليها ألف شخص.

كانت «الأفراح» قد بلغت ذروتها؛ وكانت الجولات الأخيرة من رقصة

عصي الداتني قد بدأت تسير متسارعة صوب نقطة النهاية. وفي الطرف الآخر من المانداب (الخيمة) أمام المسجد، كان هناك موكب النساء التقليدي. نساء مسنّات يسندن قدوراً نحاسية ممتلئة حلياً محمولة على رؤوس نساء أصغر سناً، نساء عازبات، وفتيات. سارت تلك النساء في صف طويل اخترق الجمع مقترباً من مكان جلوس الموخي وبقية الكبار مرتدين أثوابهم الطويلة وعماماتهم. سوف يستقبلونهن ويعطون كل فتاة شلناً.

تقدّم الشبان هذا الموكب، هذه البقية الباقية من طقس مكرّس -لا ريب- لإلهة قديمة، ومعهم الفتاة التي لطّخها العار. قالوا: «اسألوها أين كانت عندما وجدناها!».

«واسألوها عما كانت تفعله!».

«... ومع من؟!».

كانت جريمتها مركّبة. وما كانت هناك أيّ طريقة، ولا أيّ حاجة، لفكّ خيوط الذنوب المتشابكة، فكلٌّ منها يعزّز الآخر. صاحت أمها نائحة: «لم أتركها تتكلّم معه إلا لأنها أرادت سؤاله عن الصوفي نارسين ميهات. كيف لي أن أعرف أنه سيجعلها...».

صار عار الفتاة علنياً، ولن تستطيع التخلّص منه أبداً. لكن الأمر لم ينتهِ هنا. ففي مساء اليوم التالي، دقّ المتزمتون باب شقة باتاني. دخلوا الشقة، وضربوه فهرب منهم. عاثوا في الشقة فساداً. رموا الكراسي والأريكة من الشرفة التي كانت في الطابق الثالث فتحطّمت على الرصيف. الراديو، وصندوق التبريد، والمدفأة، والموقد.

في اليوم التالي، نشرت صحيفة هيرالد قصة عن الحادثة. كتب المراسل الأوروبي: «بلطجية الشامسي يخرّبون المكان. قوات العاصفة

ترهب المحاسب الهندي». سبّب هذا الانتقاد غضباً شديداً لدى شباب الشامسي. غضب حتى المعتدلون منهم. كيف يجرؤ على قول عبارة «بلطجية الشامسي»؟ جرت مناقشة نشطة بين الفتيان في صفّي. كانوا كلّهم من المتحررين، ما عدا واحداً أو اثنين من الميّالين إلى التعصّب. طرحت عليهم هذا السؤال: هل كان ذلك السلوك بلطجياً؟ أجل، كان كذلك. ولكن، لماذا قال بلطجية الشامسي، ولم يقل بلطجية فحسب؟ قلت لهم إن ذلك السلوك كان، بالتأكيد، على ارتباط بالجماعة. فقد ذهبوا باعتبارهم ممثّلين عن الجماعة وكانوا يتصرّفون بحسب تعليمات كبارهم... أم أنهم لم يكونوا كذلك؟ قال بعضهم إنه كان عليهم أن يتكلّموا مع الفتاة، ويأخذوها معهم من شقة ذلك الهندوسي -ما من شيء خاطئ في هذا- لكنهم ما كان ينبغي لهم أن يعودوا ويخرّبوا شقة الرجل. لكنه استحق الضرب، بالتأكيد. («يا أستاذ، إنه متزوّج! وبالتأكيد، كان يلعب بها فحسب!»). قلت لهم: «اكتبوا موضوعاً عن هذا!».

لكنهم فعلوا أكثر من ذلك. كتبوا إلى محرّر الصحيفة رسالة تطالبه بالاعتذار. رفض المحرر، واستفاض في الحديث عن حرية التعبير. ردّ الفتيان على ذلك بأن ذهبوا إلى المتاجر، متجراً فمتجراً، طالبين من الناس الامتناع عن شراء صحيفة هيرالد. رضخ المحرر، وعبّر عن أسفه عن سوء اختيار الكلمات.

لكن، ليت الأمر انتهى هنا!

استعادت الفتاة، برفيز، حميّتها الدينية مضاعفة عدة مرات (كان واضحاً أنها وقعت في ذلك الأمر في أثناء سعيها إلى الصوفية). صارت تذهب إلى المسجد كل يوم في ساعة مبكرة قبل الفجر، وفي المساء أيضاً. لكن هذا لم يغسل خطيئتها؛ لم يغسلها في أعين الناس. كانت النساء والفتيات

يتكلّمن عليها من خلف ظهرها. لم تكن الفتاة تنطق في المسجد إلا بأقل الكلمات، وكذلك في البيت. كان صمتها إحساساً بالذنب التفّ من حولها وطوّقها تطويقاً محكماً. وذات يوم، قالت امرأة من خلف ظهرها، لكن بصوت مسموع تماماً: «لو كنت مكانها، لرميت نفسي في المحيط ومتّ!».

وفي الصباح التالي، ذهبت برفيز إلى المسجد كعادتها. تناولت الماء المقدّس. وقفت أمام «التخت»، عرش الربّ، وتلت صلاتها. ثم نزلت السلم وانتعلت حذاءها والتفّت بشالها، ثم مضت إلى الشاطئ. وهناك، خلعت الحذاء وأسقطت الشال، ثم سارت إلى المحيط وأغرقت نفسها.

وفي عصر ذلك اليوم، سار كريم الأعرج في الشوارع منادياً: «تعالوا إلى الجنازة!». كان يقول هذه الجملة بصوت متكسّر وجِل معلناً عن الوفاة التي كان سبباً في حدوثها من غير إرادة منه.

هزّت الحادثة المدينة كلّها؛ وكان أهل الفتاة أكثر من هزّتهم. ماذا حدث؟ ولماذا حدث بهذه السرعة؟ حكم سريع، وموت سريع. ماذا فعلنا؟ وأين ذهب شعار «اصفحْ وانسَ!»، ذلك الشعار الذي كان اعتمادنا إياه في الأربعينيات أمراً صائباً! أين هي الرحمة؟ سوف يسكننا هاجس هذا الفتاة؛ ولن تعود أبداً ثقتنا في أنفسنا. هي من أصدر حكماً علينا! إنها تسخر منا! ولهذا فهي لا تزال حية.

كانت جنازة عظيمة... أكبر جنازة أراها حتى ذلك الوقت. بكت فتياتي من غير توقّف؛ وحمل فتياني النعش وهم يتلون «الكلمة»، ذلك النداء الآسر الذي صار في هذه المناسبة نواحاً، صرخة تطلب العون: «لا إله إلا هو»... صرخة تطلب الرحمة!

***

قبل بضعة شهور، عندما قال علي لريتا إنه سيذهب إلى لندن، كان

يطرح عليها خياراً لا يمكن لأي فتاة في دار السلام أن يفوتها فهمه. لقد كانت لندن ملاذاً آمناً للعلاقات غير المشروعة التي لا يقبلها المجتمع.

جرى بينهما تبادل قصير لرسائل الغزل، لا أكثر! لم يلتقيا أيّ لقاء خاص، ولم يمارسا الحب. اندفعا في لعبة الاستكشاف الفرحة. لقد ارتبط انكشاف أمر برفيز وانتحارها بعلاقتهما ارتباطاً كأنه من فعل القدر، فوضع نهاية مفاجئة للّعبة ولبراءة الحب الجديد. كان إدراكهما أن حبّهما حبٌّ غير مشروع، أيضاً، إدراكاً شديد القسوة، بل يكاد يكون وحشياً. لكنهما لن يبقيا إلى أن ينكشف أمرهما ويجلّلهما العار. سوف يفرّان.

لم يكن أمراً سهلاً، ولا بسيطاً، أن يذهبا إلى لندن من غير أن تعرف المدينة كلّها بالأمر قبل حدوثه. لكن علي وريتا أفلحا في الانسلال بعيداً من غير ضجّة. رحلا في وقت كان شهد تدفّق آلاف الناس على دار السلام للمشاركة في اليوبيل الثمين لجماعة الشامسي.

إنه تمام السنة الستّين على تولّي سليمان بير القيادة الروحية للجماعة. وقد رأوا ملائماً إقامة اليوبيل احتفالاً بهذه الذكرى –ألم يُقَم يوبيل للملكة فكتوريا أيضاً؟– وسوف يكون تتويج المناسبة تقديم ما يعادل وزن الزعيم الروحي من الأحجار الكريمة. كانت مدينتنا المحبوبة هي الموقع المختار لهذه المناسبة؛ وتمّ شراء عقار فيها من أجل إقامتها.

أتوا إلى دار السلام بالباصات والطائرات والقطارات والسفن. أتوا من نيروبي وومومباسا وكيسومو وتومبالا وتورونو ومينغو؛ من ستانليفيل وليوبولدفيل، ومن تاناناريف في مدغشقر، ومن لورنسو مارك في موزنبيق؛ أتوا من دربان وجوهانسبرغ وكيب تاون وساليزبيري، من كراتشي وومومباي وبونا وراجكوت، من رانغون وداكا. أقاموا في خيام، وتناولوا الطعام في سرادقات مقامة لهذه الغاية. وكانت في خدمتهم

جيوشٌ من الطبّاخين والخدم وعمال التنظيف والأطباء والممرضات. أكياس وأكياس من البصل والبطاطس تُقشَّر وتُقطّع كلّها؛ وقطعان من المواشي تُذبح. كان هذا أمراً شديد الاختلاف عن حالة الرحّالة الوحيد في الأدغال، الخائف من البشر والحيوانات. صاروا الآن يأتون بالمال؛ تبرّعوا بالملايين. وذهبت هذه الملايين التي جُمعت إلى صندوق من أجل بناء مدارس جديدة وبيت لكلّ أسرة، فصار القسم الشرقي من دار السلام على ما هو عليه اليوم. كان الأطفال المولودون في تلك السنة متميّزين أيضاً، لأن أسماءهم كانت احتفاء بالمناسبة. وفي السنوات التي أعقبت ذلك، كنت معلّماً لكثير ممن حملوا أسماء من قبيل «دايموند» و«ألماس» و«سيدة اليوبيل» و«جواهر»... كلّها أسماء تذكّر بذلك الزمن السعيد.

كانت مناسبة في الإمبراطورية كلها، وعرضت شركة «موفيتون» أنباءها في دور السينما الممتدة من ساراواك إلى كاملوبس، ومن واوا إلى ولونغون، وصولاً إلى لندن التي كانت، هي نفسها، شاحبة نتيجة التقنين والمطر المتواصل... أمر مفهوم أن تكون ردّة فعلها متهكّمة.

خلال ما أحاط بهذا اليوبيل من هرج ومرج، وفي وجود هذه الكثرة من الوجوه السعيدة الغريبة عن المدينة وما أشاعته مجريات الاحتفالات من إثارة وانشغال الناس بتتبع المشاهير، وما حدث من زيجات وولادات ووفيات، تمكّن علي وريتا، بهدوء، من السفر بالطائرة إلى نيروبي. وقبل أن ينتبه أحدٌ إلى مكان وجودهما، كانا قد أخذا طائرة أخرى إلى لندن.

20

بلغ النبأ بيبا في متجره عند الزاوية مثلما بلغ أكثرَ الناس في دار السلام، أي عبر الشائعات: هل سمعت؟ لقد هرب علي وريتا معاً، إلى لندن!

الصبي الذي صار يحبه، بأسلوبه الخشن، الذي كان يجلس معه هادئاً في المتجر، الذي رسم له ذات يوم صورة مريامو بكلّ إخلاص، صار الآن راحلاً إلى الأبد. لا يعود من لندن إلا قليلٌ ممن يذهبون إليها!

كان غاضباً على علي لأنه لم يستأذنه بالسفر، ولم يطلب موافقته على تلك الرحلة الكبيرة. (نسي أنه، هو أيضاً، ترك بيته ذات مرة بطريقة مفاجئة ومن غير إخبار أحد). لكنه كان أكثر غضباً على مريامو. ألم تقل له إن الابن يصير مثل أبيه؟ أهذا ما كانت تعنيه؟ أهذا ما كانت تعرفه؟! أن علي سيرحل إلى بلاد المفوّض الإقليمي المساعد ويصير إنكليزياً؟ أتراها تخبره، الآن، بعد هذه السنين كلّها، وبهذه الطريقة الخبيثة، أن علياً ليس ابنه؟!

وكأنما شاء القدر أن يخفّف من أساه، فقد وُلد له صبيٌّ بعد أن صار في سنٍّ متقدمة، وبعد سبع بنات. صار هذا الصبي، أمين، ابن ريمتي، فرحة حياته على امتداد عشر سنين أعقبت ذلك.

وخلال تلك السنين العشر نفسها، ظلّ كلٌّ من مريامو وكتابها في خلفية الصورة، أو لعلّها تراجعت بنفسها حتى تترك بيبا وريمتي يصبّان اهتمامهما

كلّه على أمين. وفي أحد الأيام، عندما كان أمين في الرابعة من عمره، أخذ بيبا الكتاب من موضعه وخبّأه في مكان آخر؛ وصار يستخدم غرفة المزار على الوجه الذي كان مراداً لها في الأصل: مستودعاً للبضاعة.

لم أكن معلّماً لأمين، لكني أتذكّره جيداً عندما كان في المدرسة الابتدائية. كان صبيّاً مدللاً كثيراً؛ وكان وسيماً أيضاً (لا بدّ أن ريمتي كانت سعيدة بهذا). كان يجلبه إلى المدرسة ويأخذه منها سائقٌ في سيارة فورد تونوس جديدة لامعة. لقد كانت الخمسينيات زمن ظهور الثروات. وحتى في ذلك المكان البعيد عن قلب المدينة، كانت المتاجر / البيوت الهندية تخلي المكان أمام أبنية قرميدية ذات طابقين يحمل كلٌّ منها اسم طفل مفضّل أو فكرة مفضّلة.

قامت بناية أمين التي أنشأها بيبا إلى جانب بناية حبيب وبناية نيفاس، وبناية بسم الله وغيرها من البنايات في شارع كيتشويلي، ذلك الشارع الهندي الذي امتد داخل الحيّ الإفريقي في كارياكو. لكن متجر بيبا في البناية الجديدة ظلّ محتفظاً بالمظهر نفسه الذي كان له عندما جاء صاحبه إلى دار السلام، والذي كان له في البيت الطيني، بعد الحريق، الذي كان في موضع بناية أمين. الشيء المختلف الوحيد هو أن الأسرة صارت الآن تعيش في الطابق الثاني.

***

كان الزمن يمضي سريعاً بالنسبة إلينا كلّنا. كانت حرب الماو ماو جارية في كينيا، مع مخاوف من انتقالها إلى تنجانيقا. صار لدينا الآن اتحاد للعمال، وبدأ نشوء الأحزاب السياسية. كان ذلك زمن اضطراب غير قليل. ففي نظر أصحاب المتاجر، كانت الحكومة البريطانية، وعلى رأسها الملكة، حاكماً مطلقاً. فكيف يتخلى البريطانيون الجبّارون عن الإفريقي، عن الخادم؟ وأما من كانوا منا على معرفة أفضل قليلاً بالعالم، فقد كانوا

يدركون أن تنجانيقا ليست إلا إقليماً تحت وصاية الأمم المتحدة، وأن وقت استقلال هذا الإقليم قد اقترب. لقد رأينا جوهرة التاج البريطاني -هندَنا- تصير بلداً مستقلاً، وإن لم يكن ذلك من غير عناء. وأما أنا، فقد رحلت في فترة قلقة، في زمن اضطراب غير قليل، فوفّرت على نفسي خيارات صعبة. لكن تلك الأوقات، وتلك الخيارات، لحقت بي الآن. ففي الآونة الأخيرة، أتانا كريشنا نينون، وزير الخارجية الهندي ذو الطبع الناري؛ أتى مع لجنة من الأمم المتحدة، وجعلنا نشعر بالاعتزاز لأننا مغتربون. كان السؤال الوحيد الآن هو كيفية حدوث الاستقلال، تلك الكيفية التي كانت في جزء منها معتمدة على المستعمرة الكينية وعلى اتحاد روديسيا ونياسالاند... المنطقتين الجارتين اللتين فيهما مستوطنون بيض.

ثم مات الإله ذات يوم - كان إلهاً في نظر كثير من تلامذتي وعائلاتهم. فبالنسبة إليهم، تغيّر العالم كلّه تغيّراً لا عودة عنه.

أتذكّر ذلك اليوم؛ لكني لا أتذكّر كيف كان منظر السماء، على الرغم من أن هناك كثيرين ممّن يتذكّرونه. يقولون إن السماء انقلبت رمادية على حين غرّة. بانت زخّات مطرٍ في البعيد، ومعها رعدٌ وبرق. ثم مرت بضع لحظات، بضع ثوان، سكن فيها كل شيء، وكل شخص، وما عادت تُسمع في الجوّ أيّ همسة. بل إن الأشجار ظلّت من غير حركة زمناً طويلاً بعد ذلك، ولم تُصدر الحيوانات أي صوت؛ وانسدلت الأعلام، وتوقفت ساعة مسجد البلدة، ثم ظلّت متوقفة أربعين يوماً. قال كثيرون إن صورة زعيمهم سقطت عن الجدار فرفعوها وقد أصابهم قلق كبير. وفي اليوم التالي، تناقل الناس أخبار حوادث كثيرة: طماطم وبيض وخيار، رأى الناس كلمة «علي» -أو «الله»- مكتوبة عليها بالعربية. نشرت صحيفة هيرالد على صفحتها الأولى صورة لواحدة من تلك العجائب.

في عصر ذلك اليوم المشؤوم، كنت أعطي الصف الثاني عشر درساً في الآداب. لقد صار هذا متاحاً لي بعد خبرتي الطويلة في التعليم؛ لكن الجميع كان محرجاً لأن تلاميذي يتلقون دروساً إضافية مع غريغوري. لم يكونوا يتلقون تلك الدروس الإضافية لأن لديهم شكوى مني؛ بل رغبة منهم في توفير ضمانة أكبر في وجه ممتحنيهم الخارجيين المجهولين في كامبردج... فمن يستطيع تزويدهم بتلك الحصانة أكثر من معلّم إنكليزي، أكثر من المعلّم المحترف العتيق غريغوري؟ على أيّ حال، كانت رواية «ديفيد كوبرفيلد» موضوع درسنا في ذلك اليوم. وفي منتصف الدرس، أتى شخص حاملاً رسالة من المدير: «على جميع المعلّمين ترك التلاميذ يعودون إلى بيوتهم فوراً». ثم أتت رسالة أخرى بعد لحظات: «اجتماع للمعلّمين بعد ربع ساعة». بدا ذلك أشبه بإجراءات حربية!

وفي غرفة المعلّمين، تلقّينا الأخبار من الأستاذ رحيم، معلّم الدين. كان السيد شول، مدير المدرسة، واقفاً إلى جانبه. كان للمدرسة «حكومتان»، دينية وزمنية. وكانت تلكما الحكومتان مستقلّتين. لقد كان رحيم دكتاتوراً، ولم يجرؤ أحد منا على التدخّل في كيفية تطبيقه التعليم الديني. وبالطبع، لم يكن هو أيضاً يتدخّل في شؤوننا. لكن التلاميذ كانوا واقعين تحت سلطتين اثنتين. أخبرنا رحيم، بجدية ووقار، أن سليمان بير، زعيم الشامسي، قد رحل عن هذا العالم.

لو كان ممكناً أن يبكي مجتمعٌ كامل، كلّه معاً، لقلت إن هذا ما حدث. فعلى امتداد أربعين يوماً، ظلّت شوارع البلدة، من كيتشويلي حتى إنغلز، ومن رينغ حتى أكاسيا، ضاجّة بالترانيم، بصلاة يؤدّيها صوتٌ واحد فلا يقطعها غير النواح على الشخص الذي كانوا يعملون بمشورته في كل شيء، من المأكولات التي يصحّ تناولها في وجبة الإفطار، إلى مخاطر

الإفراط في شرب الشاي. ومن التخلّي عن البرقع إلى اعتماد اللغة الإنكليزية في المدارس؛ وكذلك في أمور أكثر غموضاً من قبيل خلافة المسلمين بعد النبي.

لقد استمرت زعامة سليمان بير زمناً طويلاً جعله يبدو في نظر تلاميذي شخصاً خالداً. وكما قال لي غريغوري: «بعد هذا، فسوف يَصِلون إلى نيتشه». لقد كان محقاً، وإن يكن بأسلوب متهكّم؛ بل لعلّه كان يعرف ما يجعله مصيباً، وما سيجعله مصيباً. وهذا لأن من جاء خلفاً لسليمان بير كان يحيى بير: خريج كلية التاريخ في كامبردج وهارفارد، وأستاذ جامعي. قالت صحيفة في بوسطن، بطريقة ساخرة: «أستاذ جامعي مساعد يتولّى منصب الإله»؛ لكن ملامح مرحلة جديدة ارتسمت أمام تلاميذي، أمام المجتهدين منهم، لأن الحصول على شهادة الثانوية العامة ودخول المستوى التحضيري في جامعة كامبردج صار نقطة بداية فحسب. صاروا راغبين في الذهاب إلى هارفارد، وفي أن يصيروا أكاديميين. أليس شيئاً يستحقّ التفكير أن يكون كثيرٌ منهم قد فعل ذلك حقاً وأكمل الدورة كلها وصولاً إلى دراسة ظاهرتهم نفسها؟ (بطبيعة الحال، أتذكّر الآن واحداً بعينه من أولئك التلاميذ، سونا الذي يراسلني). لست أدري ما إن كانت لدى غريغوري إجابة جاهزة عن هذا السؤال!

بعد زمن طويل، صارت المدرسة التي سمحت احتفالات اليوبيل بإنشائها جاهزةً آخر الأمر. كانت مدرسة جميلة إلى حدٍّ يخطف الأنفاس. ما كانت في البلاد كلّها مدرسةٌ مثلها. وحدها مدارس نيروبي المقتصرة على البيض كانت قريبة منها. صار الناس من جماعة الشامسي يأتون في رحلات لرؤية المدرسة، لرؤية هذا الصرح الذي بنوه، فيسيرون إليها أميالاً، ثم يجلسون ويتناولون طعامهم قبل عودتهم المسافة كلّها رجوعاً

إلى متاجرهم / بيوتهم. كانت في المدرسة ملاعب للكريكت وكرة القدم، ومضمار للجري. وكان شعارها، المكتوب باللاتينية، كما ينبغي له أن يكون: «العمل يغلب كل شيء»؛ وأما رمزها فكان نار بروميثيوس. لقد تعلّم الشامسي اللعبة الكولونيالية جيداً. وقد كانوا يلعبونها وفق قواعدها، لكنهم يلعبون لكي يفوزوا. سيُحصون تضحياتهم في ما بعد، أو سيحصيها شعراؤهم؛ أولئك الذين مرّوا من بين أيدينا في تلك المدرسة.

***

فكيف كانت حياتي في تلك الأيام؟ أتذكّر سنة 1959، تلك السنة التي أرْخت فيها بلادي البعيدة التي تركتها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين، قبضتَها العاطفية عني، وتركتني. لم يكن لديّ ميلٌ كبير إلى الزواج على الرغم من إلحاح أمي الشديد في غوا، فقد كنت غارقاً في إعداد التلاميذ، سنةً بعد سنة، من أجل امتحاناتهم النهائية، ومن أجل العالم. لكني خطبت في تلك السنة فتاة من غوا تعيش في كيتشويلي... الحقيقة أن بيتها كان مقابل متجر بيبا. اعتبرتُ تلك الخطبة مواساةً لأمي التي كان من شأن قلقها الأمومي عليّ أن يهدأ إذا رأتني مستقراً «بسعادة» مع امرأة تعتني بي. لكن الأمر لم يستمرّ.

خلال فترة الخطبة القصيرة تلك، كنت أرى بيبا يحصي دقائقه مع مغلّفات التوابل... أو، هكذا كنت أتخيّل الأمر. كان يبدو عجوزاً مريضاً، ويسير بخطوات بطيئة معتمداً على ابنه أمين أو على سائقه (لم أرَه يسير على قدميه وحده إلا في مرّاتٍ نادرة).

مع اقتراب عقد الخمسينيات من نهايته، بدا أن البراءة القديمة قد بدأت تخبو شيئاً فشيئاً، أو أن الناس راحوا يتخلّون عنها، وراح يحتلّ مكانَها وعيٌ جديد يتقدّم إنشاً بعد إنش. كانت الأخبار العالمية محمّلة

بالإثارة، كالأفلام... وعلى نحو ما، كانت أكثر صلةً بنا. الحرب الباردة على أشدّها، والخطر النووي يحوم فوق رؤوسنا أيضاً. حملنا «سبوتنيك» إلى عالم جديد من الخيال العلمي. وفي أماكن أقرب إلى موطننا، كانت المفاوضات من أجل الاستقلال جارية أيضاً، فصرنا منتبهين إلى عيون العالم المصوّبة إلينا. تنافست المدارس تنافساً نشطاً على الفوز بكأس كريستوفر في الكريكت. وكان كأسا صن لايت وكوساج في كرة القدم موضع اهتمام البلاد كلها. وقد شغلت مسابقة الدراما الشبابية قسماً لا يستهان به من سنتنا المدرسية. بل إن عرضاً لإحدى المسرحيات ظهر في واحدة من الصحف المحلية في إنكلترا.

كنت صديقاً لديسوزا وغريغوري، لكن ليس للاثنين معاً، لأن ديسوزا ما كان يحب ذلك الإنكليزي. وأما أنا، فقد وجدت أن غريغوري يعجبني للسبب نفسه، تحديداً، الذي أثار غيظ ديسوزا: لقد كان غريغوري تحدّياً، شخصاً يهاجم المعتقدات الراسخة، شخصاً يلعب دائماً دور نصير الشيطان؛ وكانت تعليقاته صادقة صدقاً وحشياً... لكن باطنه كان رقيقاً، حساساً، مثل جلد وجهه تحت الشمس الاستوائية. كان شخصاً وحيداً بعض الشيء، غير قادر أبداً على اجتذاب تعاطف أيّ شخص معه، ولا على اكتساب أقلّ قدر من التفهّم أو المشاعر الإنسانية، حتى من أبناء جلدته. كان في طبعه قدرٌ من التحفّظ والسرّية: تظلّ فيه دائماً جوانب غير مكشوفة؛ خصلة كنت أعزوها إلى «الشخصية القومية». لكن، لمَ لا؟ كان لدى غريغوري دائماً، طالب مفضّل، أو طالبان مفضّلان - ولدان لامعان، بالطبع! لكن، وماذا يمكن أن يوجد أيضاً في مدرسة للبنين؟ كان هناك دائماً كلامٌ في هذا الأمر، لكني لم أحاول أبداً التحقّق مما يقال. كنت أتعامل معه بقدرٍ من الفكاهة، لكن مع تفهّم واحترام أيضاً. سرعان ما صار

غريغوري يحبّ صحبتي، ووجدت نفسي أذهب معه إلى المسرح الصغير؛ وخلال الفترة غير المستقرة لوجود «جمعية الفيلم» شاهدنا معاً عدداً من الأفلام السويدية المشبعة قلقاً، وجلسنا بعد ذلك مكتئبين نحتسي شراباً ونتساءل عمّا جعلنا نشاهدها.

كان لدى غريغوري طبّاخ ممتاز؛ وكان كريماً، بطريقته. كان له بيت صغير في منطقة سيفيو التي كان سكّانها شبه مقتصرين على البيض، لكنه كان يعطي دروسه الخاصة كلها في وسط المدينة، وفي كارياكو، حيث يعيش تلاميذه. كان ممكناً أيضاً «جرُّه» إلى المشاركة في نزهات الصف... أمر غير مناسب له على الإطلاق لأن الشمس كانت تجعله يحمرّ احمراراً شديداً على الفور. كان يشارك في مباراة الكريكت السنوية بين المعلّمين والتلاميذ، فيسدِّد رمياتٍ جيدة لا يلبث سولانكي أو أبوالي أو بانجي أو فيسرام أن يضيّعها.

في تلك الفترة تقريباً، أصابت ديسوزا المسكين سلسلة حوادث كارثية لم يستطع التعافي منها بعد ذلك. خطب فتاة لطيفة من غوا، محاسبة في مصرف؛ لكنها تركته وفضّلت عليه موظفاً في ذلك المصرف. جرحه هذا جرحاً عميقاً جعله يُحجِم تماماً، بعد ذلك، عن أيّ كلام في أمر الزواج؛ بل صار أيضاً زاهداً في النساء. وبعد شهور من تركها إيّاه، انهال ضرباً متوحشاً بالعصا على تلميذ ارتكب مخالفة بسيطة. كان يبكي عندما جاء إلى غرفة المعلّمين. ثم ذهب إلى بيت التلميذ واعتذر، فصفعه الأب وطرده إلى الشارع. تغيّر مظهر ديسوزا بعد تلك الحادثة. صار يرتدي ملابس كئيبة، رمادية أو بنية، وأطال لحيته. صار يتحدّث بصوت منخفض (صار لطيفاً، تقريباً)، لكنّه صار بعيداً أيضاً، ولم تعد تظهر عليه أيّ سعادة على الإطلاق.

وكأنما كان عذاب ديسوزا في حاجة إلى ما يزيده، مرّت أربع أو

خمس سنوات على التوالي مات في كلٍّ منها تلميذٌ في صفه نتيجة حادثة من الحوادث. لقد كان في المدينة اعتقادٌ مفاده أن المحيط يأخذ روحاً شابّة في كلّ سنة. وفي سنتين من تلك السنوات المتعاقبة، كان الولد الذي يموت من صفّ ديسوزا. كان واحدٌ منهما قد ذهب إلى الشاطئ في ساعة مبكرة من الصباح، فسمع امرأتين تستغيثان من مسافة بعيدة بين الأمواج. حاول الفتى إنقاذهما، لكنّ التيّار أغرقه. انتشل المرأتين قاربٌ كان قريباً من المكان.

وفي المرة الأخرى، كان واحدٌ من الأولاد يجري خلف ولد آخر، أو يجري هارباً منه، فاصطدمت رأسه بزاوية النافذة المفتوحة. وفي السنة التي بعدها، قال ديسوزا محذِّراً: «لا أريد أن يفعل أحدٌ منكم أشياء غبيّة، ولا أن يتعرّض لحادثة! لا أريد أن يموت أحدٌ من صفّي!». ضحك الأولاد. وفي تشرين الثاني، قبل أربعة أسابيع من انتهاء الفصل الدراسي، دهست سيارةٌ شاحنة اثنين من التلاميذ بينما كانا على دراجة، فماتا.

مع تلك التغيّرات كلّها، ومع إدخال مناهج دراسية جديدة، ووجود مفتّشي تعليمٍ جدد ومراقبين من ما وراء البحار، وجدت نفسي، لأول مرّة خلال تلك السنين الأخيرة كلّها، غير مؤهّل جيداً للتعليم. هكذا هو الأمر، بحسب الأنظمة. لقد كانت لديّ شهادة جامعية، بالطبع (المركز الثاني بين المتفوّقين)؛ ولكن قيل لي إن عليّ أن أحصل على دبلوم في التعليم. كان من قال لي هذا صاحب متجر صار موجّهاً تربوياً، فكان طبيعياً ألا تسعفني قدرتي على الإقناع. وأظن أن السبب الحقيقي كان قيام بلدان غربية (مع اقتراب استقلال البلد) بمحاولة إرضاء ضمائرها عن طريق إيفاد معلّمين؛ فصار لا بدّ لنا من أن نكون في مستواهم. بل إن حقيقة كونهم قادمين من الغرب، كانت كفيلة وحدها بجعلهم، في أعين أصحاب المتاجر، أحسن

تأهيلاً منا. وبمعونة توصية من غريغوري، حصلت على قبول في جامعة لندن في خريف 1960.

يقال الكثير عن رؤية المرء لندن أول مرة، حتى إن كان إنكليزياً. وهناك قصص كثيرة من المستعمرات، على غرار قصص ديك ويتنغتون، تتناول هذا الأمر من خلال طرائف مضحكة. لقد أتيت إلى إفريقيا قادماً من بومباي، مما يعني أن ذهابي إلى مدينة كبيرة لا يعني شيئاً كثيراً في نظري. لكن مدينة كبيرة في إحدى المستعمرات أمرٌ مختلف عن عاصمة الإمبراطورية، عن المكان الذي تؤدّي إليه الطرق كلّها. إن رؤية التاريخ يتخذ شكلاً ملموساً أمام عيني المرء (سحرَتني نصُبُ لندن وتماثيلها) لممّا يُحدث في النفس أثراً عميقاً... أن أعرف الأشياء، وأن أتعرّف عليها من النظرة الأولى، وأن أراها قريبة مني، مألوفة لي، أمرٌ عجائبي! أن أرى الإنكليز على طبيعتهم، لا معلّمين ولا مديرين ولا حكاماً، ولا آتين جميعاً من أوكسفورد أو كامبردج، أمرٌ خلق في نفسي إحساساً عجيباً. هذا كله، نعم... لكن أحسست أن خروجي نفسه من الروتين الذي كنت فيه أمرٌ منعش في حد ذاته، كأنني عشت من جديد. التقيت طلبةً آخرين من أنحاء العالم المختلفة؛ وكانت لهم أحياناً تجارب شديدة القرب من تجربتي - كم كنت مبتهجاً لسماع مناقشات في فضائل السيدين نيلكون وهولدرنس(*) ومثالبهما، مناقشات بين طلبة آتين من هونغ كونغ وبينانغ وآكرا! وكم كان رائعاً أن أناقش غريغوري فأدرك أن له «تجسّداتٍ أخرى» في لاغوس وفي الخرطوم!

لكن، لندع الخفّة جانباً! (من المؤكّد أن هناك من سيلقون باللائمة في مشكلاتنا كلّها، تحديداً، على وجود أمثال غريغوري في دار السلام

(*) نيلكون وهولدرنس: مؤلّفان شهيران لكتب تعليمية كثيرة في الفيزياء والكيمياء. (المترجم).

ولاغوس والخرطوم). كانت رؤية العالم من مكان مختلف، من هناك، أمراً في غاية الإثارة. إنه امتياز أن يتعرّف المرء على أفكار جديدة، وأن يجد نفسه مرغماً على قراءة هذه الكثرة من الأشياء وفهمها. شكرت في سرّي صاحب المتجر / المفتّش التربوي، شكرته مرّاتٍ كثيرة، لأنه جعلني أسافر.

كان في لندن كثيرٌ من تلاميذي السابقين - منهم مَن لم يكن تلميذاً في صفّي، بل ممن يرونني في المدرسة ويقولون لي مرّاتٍ كثيرة: «صباح الخير يا أستاذ!». وُجِّهت إليّ دعوة أو تمّ تهريبي إلى واحد من نشاطاتهم في الشهر الثاني من إقامتي هناك. كان لديهم مسجدٌ في حيّ كينغستون. كان مشهداً لافتاً للنظر: من محطة المترو، ومن محطة الباص في هاي ستريت في كينغستون، يتجه شباب آسيويون إلى بيت جميل له بابٌ أسود ودقّاقة باب نحاسية. كان المسجد في الداخل شديد التواضع، لكنّها لندن! غرفتان كبيرتان في الطابق السفلي، على جانبي الممرّ، مخصّصتان للصلاة. كانت غرفتا الصلاة مزدحمتين في يوم الجمعة ذاك؛ وكان أكثر مَن فيها من الشباب، رجالاً ونساءً، الجالسين في صفوف على الأرض. وبعد الصلاة، عندما نهض الجميع، صار المكان شديد الازدحام، وما عاد المرء قادراً على التحرّك فيه إلا بصعوبة شديدة.

أخيراً، خرج البعض إلى الشارع الذي كان المكان الوحيد الذي يمكن أن يلتقي فيه أولئك الشباب الذين يعيشون ويدرسون متباعدين أميالاً. عند هذه النقطة، اشتكى الجيران فجاء رجال الشرطة. قيل لي إن سلوكهم كان شديد التهذيب، كعادتهم. وبعد نحو ساعة من ذلك، رُفعت سجادات الصلاة وبدأ الرقص. وبما أن البعض كانوا قد انصرفوا، فقد صار هناك حيِّزٌ للتنفّس. بعد الصلاة، كانت مفاجأة كبيرة لي أن أرى ريتا. لكني لم أرها إلا

لحظة، عن بعد. كادت عشر سنوات تنقضي على رحيلها عن دار السلام. بدت لي أكبر سناً (بالفعل، كانت أكبر سناً)، وكان معها طفلٌ صغير جعلته يقف أمامها حتى لا يسحقه الآخرون. لم ترني حتى تلك اللحظة، فأشحت بوجهي سريعاً بحركة غير ناضجة، بل لعلّ ذلك كان تصرّفاً جباناً. لكني كنت قد آليت على نفسي ألّا أكون متطفلاً خلال هذه الزيارة إلى لندن، وألّا أبحث عنها في حياتها الجديدة مع زوجها. كانت بي رغبةٌ شديدة في المحافظة على ما كنت أعتبره «اتّزاني المتنامي». لكنّي سمعت من الناس أنها كانت تدير مع زوجها مقهى قريباً من الجامعة يرتاده طلبة أجانب، إلا أنهما تركاه. وكان يدير المقهى في ذلك الوقت رجلٌ وامرأة من اليونان. وبطبيعة الحال، كنت من مرتاديه.

كانت لي علاقةٌ بامرأة خلال الجزء الأخير من إقامتي التي استمرّت تسعة شهور؛ وقد كنت أعزو كيمياء تلك العلاقة إلى الوحدة من جانبي و«الرعاية الاشتراكية» من جانبها. انتهت هذه الصلة النفعية مع رحيلي؛ وانتهت معها الراحة الخالية من العاطفة التي كانت توفّرها لي... فكم جنّبتني من ليالي الوحدة؟ من غير تلك العلاقة، كان من المحتمل أن أبحث عن ريتا.

قبل أن أسافر، قابلت عميد الجامعة الذي كان قد قرأ التوصية التي كتبها غريغوري من أجلي، فقبِلني في ذلك البرنامج الدراسي. وخلال حديثنا الودّي الأخير، تعمّد العميد إفلات عبارة فاجأتني مفاجأة حقيقية، بل أدهشتني تماماً: كم هي قليلة معرفتنا بمن هم حولنا، وكم هي منقوصة! قال لي العميد إن غريغوري شاعرٌ معروف بشكل معقول ضمن الدوائر الأدبية.

كانت عودتي إلى دار السلام مبعث راحة في نفسي: مكان لا عائلة لي فيه حتى الآن، لكني صرت أعتبره موطني.

21

عدت إلى بلد موشكٍ على الاستقلال، إلى بلد يستعدّ للتحوّل. حُدِّد موعد الاستقلال في كانون الأول من تلك السنة، أي بعد ستة أشهر من عودتي. صارت دار السلام الوادعة، التي أعرفها، مدينةً تغلي إثارة وترقباً. كان في الجو أملٌ وثقة مبتهجة؛ وكان رمزهما مشعلٌ للحرية وعدوا بإقامته على قمة جبل كليمنجارو حتى يراه الجميع في القارة كلّها، وما بعد القارة أيضاً. كان الديماغوجيون من أصحاب القمصان الفضفاضة قد قطعوا، بإيديولوجياتهم الجدباء، الطريق على تلك الأحلام في السنوات اللاحقة. صحيح أن البيروقراطية البليدة قد استنفدت طاقتنا، لكننا، على الأقل، قد وفّرنا على أنفسنا المذابح... لكني أبتعد عن الموضوع!

كانت أوقاتاً مثيرة عندما عدت إلى دار السلام. وسرعان ما وجدت نفسي أرتدي قميص الخانغا الاحتفالي الذي من غير ياقة. هذا ما جعل غريغوري يقول: «هل صرت الآن رجلاً من الشعب، يا بيوس؟».

كان يوم السبت نصف عطلة في المدرسة. وكان المعلّمون المغتربون الذكور يجتمعون صباح الأحد في ممرّ أمام سكن المعلّمين لحلاقة ذقونهم. كان لدينا حلّاقان لطيفان، أبٌ وابنه. أمرٌ شديد الأهمية بالنسبة إليهما أن يكون لديهما في مكان واحد، وفي وقت واحد، نصف دزينة

من الزبائن من ذوي المكانة يضعون أنفسهم تحت موسَيهما. كانا يأتيان على درّاجتَيهما فيجدانا جالسين في انتظارهم مصطفّين صفّاً مستقيماً على ذلك الممرّ المفروش بالحصى. ينتظر كلٌّ منا دوره، ونتبادل النكات، ونثرثر ونتشاجر متناولين موضوعاتٍ مدرسية مختلفة؛ لكن أحاديثنا تلتقي دائماً عند الشائعة الحالية عن التغيّرات الوشيكة في البلاد.

كان لدينا إدراكٌ حادّ لكوننا من غير موطن. كان عالمنا يتضاءل مع تضاؤل الإمبراطورية البريطانية. وكنا جميعاً رحّالةً ممن اتخذوا قراراً بترك ديارهم نتيجة أسباب شخصية متنوّعة، هذا صحيح، وبالتأكيد أيضاً من أجل العمل في مهنة التعليم التي اخترناها جميعاً. وكنا معتزّين بأننا نبذل أقصى الجهد في عملنا. لقد صرنا الآن مدركين أن علينا أن نختار: العودة إلى الديار... لكن، ما هي الديار الآن؟ أو اكتساب جنسية جديدة... لكن، ما معنى هذا؟ أو الانتقال إلى أماكن أخرى في الإمبراطورية، إلى آخر ما بقي من مستعمرات ومحميات؛ أو أن ننسحب إلى حيث بدأ ذلك كلّه، إلى لندن. وبالطبع، اخترت أن أضع رهاني على الأمة الجديدة؛ ومن غير ريب، ساعدني كوني رجلاً وحيداً من غير صلاتٍ وثيقة في الثبات على هذا القرار. أما الآخرون، وحتى بعد أن استقر عزمهم على البقاء، فقد ظلّ السؤال يراودهم دائماً: نبقى أم نذهب؟ وإلى أين الذهاب؟

كان الحلّاقان يمسحان موسَيْهما وينصرفان على دراجتيهما تاركين إيّانا في الشمس، حليقي الوجوه، غير مرتاحين، مكشوفين. كنا نجلس بضع دقائق أخرى مع أسئلتنا وقلقنا، قبل أن يعقب الجملة الأخيرة التي تقال صمتٌ مثقَل بالكلام، فينهض أول المنصرفين.

بعد انتهاء جلسات الحلاقة التي صرنا ندعوها «نادي الحلاقة»، كنت أذهب مع غريغوري لتناول طعام الغداء، وكنا نقصد عادةً «كوزي كافيه»،

أو «هندو لودج»، ثم نعود أدراجنا إلى بيته في سيفيو حيث نرتاح على مقاعد الصالة ونُجهِز على ما لديه من ويسكي ممتاز، وبعد ذلك نغفو على أصوات الأمواج المتكسرة على الشاطئ، وصوت إذاعة «بي بي سي الإفريقية» وهي تختبر استيعاب المستمعين باللغة الإنكليزية أو تروي عليهم قصة. ثمّ أنصرف قرابة الساعة السادسة.

كانت بيننا نحن الاثنين -غريغوري وأنا- صداقة رجلين رماهما القدر معاً، رجلين متسامحين إلى حدّ معقول... رجلين (إن كان لي أن أمتدح نفسي) يرى كلٌّ منهما الإنسان في الآخر. لكن، كانت هناك عوالمُ لا يزال محرِجاً لنا تناولها، وقصصٌ تزعجنا... أشياء نفضّل ألا نتحدّث فيها. في ظروف أخرى، وضمن محيط آخر، كان ممكناً ألا نمضي الوقت معاً. عند عودتي من لندن، حملت له مغلّفاً من صديقه، عميد الجامعة. كانت في ذلك المغلّف رسالةٌ وقصاصة طويلة من صحيفة: أظنّها كانت عرضاً لأعماله. كنا في «كوزي كافيه» عندما ناولته ذلك المغلّف. وجهه حين فتح المغلّف لن أنساه أبداً ما حييت: في وقت واحد، خجل، وإحساس بالذنب، وندم، وحزن ساحق! لا بدّ لي من استعادة تلك الصورة، بحركة بطيئة، حتى أرى كلّ مكوّن من مكوّناتها على حدة. لو كان البكاء من طبعه لبكى. كان يوماً حاراً؛ وكان وجهه المحمرّ المنتفخ ناضحاً بالعرق. كان واضحاً أن فنّه منبع ألم كبير له. وإن كان لي أن أقول المزيد، فهذا ما أقوله: كان ذلك ألم المنفى، لا لفقده موطنه، بل لخسارته إلهامه. لم أسأله عن شعره؛ وكان ممتناً لذلك... ممتناً مرتين: لأنني لم أسأله، ولأنني لم أبُح بسرِّه لأحد. عليّ القول إنني أجد نفسي الآن في دهشة لقلّة فضولي في ما يتعلّق بشعره! أظنّني افترضت وقتئذٍ، مثلما افترض هو، أن شعره من عالم آخر.

بعد تلك الحادثة في مقهى «كوزي كافيه»، بوقت قصير، جاءني إلى غرفة المعلّمين ذات يوم وطلب مني خدمة.

«فرنانديز... هل يزعجك كثيراً أن تأخذ عني درسَ هذا المساء؟».

«أين؟... لا أظنني مستعداً لهذا... إنه عن مسرحية يوليوس قيصر، أليس هذا صحيحاً؟».

«صحيح. لا تقلق! سوف يطرحون عليك أسئلة. قل لهم أيّ إجابة يمكن أن يتعلّموا منها شيئاً».

وهكذا بدأت أشاركه إعطاء تلك الدروس الإضافية التي كانت امتيازاً له خلال سنوات كثيرة، وكانت دلالة على اعتراف التلاميذ وأهلهم بخبرته في الأدب الإنكليزي. كان أحد البيوت التي يعطي فيها غريغوري دروسه في بناية واقعة قبالة بناية أمين، حيث بيت بيبا. وفي أعقاب واحد من دروس يوم السبت، أي في يوم الأحد، أتى غريغوري حاملاً نبأً مقلقاً إلى «نادي الحلاقة» الذي كان صامتاً صمتاً غير عادي لأن ذلك النبأ قد بلغ بعضاً منا: لقد حدثت وفاة في بيت بيبا!

لم تكن مأساةً معقّدة بحيث لا يمكن وصفها: لقد تعرّض بيبا للغش من جديد؛ تعرّض للسرقة وهو في ذروة السعادة والآمال الواعدة. لكن عليّ أن أفي الرجل حقّه، وأن أروي قصته! لقد أُلقي ببيبا إلى الحضيض؛ ولن ينهض بعد ذلك.

قبل سنتين، كان رجلٌ أسود متعلّم قد جاء إلى متجره مع شخصين آخرين (كان معلّماً، في واقع الأمر، لأن الناس في الشارع كانوا يحيّونه مستخدمين هذا اللقب). وقف الرجل في الشارع أمام المتجر مواجهاً بيبا الذي كان جاثماً على مقعده المرتفع. بدا الأستاذ مبتهجاً باسماً، وبدا عليه

أنه يعرف صاحب المتجر... لكن ذلك لم يكن مفاجئاً لأن من لا يعرفون بيبا قلّة في المدينة.

«بيبا، فلندخّن سيجارة سبورتسمان معاً!».

«هل أتيت لكي تشتري أم لتصدر الأوامر؟ أيّهما تريد؟».

«أتيتك متسوّلاً!».

«يأتي المتسوّلون يوم الجمعة. وهم لا يحصلون على أكثر من قرش واحد... باستثناء صاحب الرأس الكبير».

كان المتسوّل ذو الرأس الكبير المتورّم شخصاً ذا ابتسامة كبيرة دائمة؛ كان شخصاً تتجنّبه في الشارع وتعطيه، في المتاجر، شيئاً كبيراً... عشرة سنتات... بحيث يذهب سريعاً ولا تكون مضطراً إلى النظر إليه. كان الأطفال يفرّون عند رؤيته.

ضحك الأستاذ: «ألا تعرف أن لي رأساً كبيراً أيضاً؟».

«إذا لم يكن لديك مال، فانصرف!».

قال واحد من رفيقيه بصوت خفيض مدمدم: «أخبره، يا معلّم!».

ضحك المعلّم: «هذا من حقّه. هل تعرف يا بيبا أن الاستقلال سيأتي وأننا سنجعلك تعود إلى المكان الذي جئت منه؟!».

«لقد جئت من موشي. أما أبي وأمي... فلا أعرف من أين جاءا. لعلّهما جاءا من أماكن كثيرة. أين سترسلني؟ أخبِرني حتى أعرف كيف أستعدّ. سوف تعطون هذا المتجر لشخص يقدّم سجائر مجانية للمعلّمين الكسالى... وربما يقدّم الرب لبلادكم هدايا مجانية!».

احمرّ بيبا غضباً. أتاه خادمٌ بكأس ماءٍ بارد.

«آه، يا بيبا... لقد كنت أمزح. جعلتني أخجل من نفسي. سامِحني!».

لم يكن هذا التهذيب سياسة، أو زائفاً، بل كان حقيقياً، وكان اعترافاً وفوراً بالهزيمة في المجادلة.

«بوانا بيبا - لن نجعلكم ترحلون؛ لكننا سنجعل الحكم البريطاني يرحل!».

«سأصدّقك عندما أراهم ذاهبين. أتظنهم سيحزمون حقائبهم ويرحلون إن قلت لهم أن يفعلوا ذلك؟!». بدأ بيبا يسعل.

«حسناً، لن يكون جعلهم يرحلون أمراً سهلاً. لا بدّ من السفر، ومن الحديث مع الناس، ومن طباعة البيانات، وشراء مكبّرات الصوت وسيارات لاندروفر!».

«ولهذا أتيت تطلب مالاً».

«صحيح».

ذلك الرجل العجوز، الرجل الذي لم يكن عجوزاً جداً بعد، صاحب المتجر البدين في قميصه الداخلي، دسّ يده في علبة نقوده، وراح يقلّب النقود. أخرج من الصندوق ورقة نقدية وقدّمها إلى المعلّم من غير أن ينظر إليها. كانت ورقة مئة شلن! زاد عليها بيبا بأن قدّم للرجل علبتي سجائر سبورتسمان. شهق المتفرّجون في الشارع عجباً.

تأثّر المعلّم بهذا، لكنه اختبأ خلف ضحكته الودود بأسلوبه الذي أتقنه في السنوات الأخيرة باعتباره أباً للبلاد. «أرأيت، يا بيبا، نحن لا نفشل أبداً!». سار مبتعداً وفي أعقابه حشدٌ من المعجبين. لن يلبث أن يجعلهم يسيرون خلفه آلافاً. سوف يغنّون له ويسيرون في البلاد كلّها من أجله، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء، متعلّمين وجاهلين.

مع اقتراب موعد الاستقلال، ظهرت الرايات في شارع كيتشويلي وعلى الرصيف أمام متجر بيبا... رايات باللون الأخضر والأسود، رايات الأمة

الجديدة. أُقيمت مظلّات كبيرة كثيرة الألوان على مسافات متساوية وسط الشارع، فجعلت تلك المنطقة المزدحمة المتواضعة الكئيبة أشبه ببلدة دمى، ببلدة في لعبة من الألعاب. وفي أحد الأيام، أتت سيارة لاندروفر، وتوقفت في الشارع الجانبي، توقفت على مقربة شديدة من المتجر، تقريباً تحت مظلة التاربولين. نزل منها رجل ودخل المتجر. ناول بيبا مغلّفاً وقال له: «افتحه!». فتحه بيبا حائراً. وجد فيه بطاقة بيضاء، وبالطبع، لم يستطع قراءة ما هو مكتوب فيها. قال الرجل موضحاً: «مع تحيات المعلّم -قائدنا- يمكنك القدوم لرؤية احتفالات الاستقلال ووداع المزونغو». قال له الرجل إن الاحتفال سيكون في الاستاد الوطني، بين آلاف الناس، لكن مع دعوة خاصة موجهة إليه ومع مكان مخصص للجلوس. أحضِرْ أسرتك! كم عددهم؟ عشرون، ثلاثون؟

كان بيبا قد قال للمعلّم في متجره إنه سيصدّق رحيلهم عندما يراهم راحلين. وها هو ذا الآن مدعوّ لرؤيتهم يرحلون.

ذهب مع ريمتي وأمين بسيارته الفورد تونوس ستيشن لرؤية الحدث، وأخذ معه اثنتين من بناته الكبيرات مع زوجيهما وأطفالهما. كان في الاستاد جوّ ترقّب احتفالي بهيج؛ وتحت ضياء المصابيح الكثيرة، كان الجميع ينتظرون صابرين مبتهجين أن تأتي ساعة الحرية. أعطيت العائلة مقاعد متميّزة في مدرج جانبي. وأخيراً، عند منتصف الليل، سرت بين الناس إشارة تدعوهم إلى الصمت. ولسبب ما، انصبت نظرات العيون كلها على العلم البريطاني، تلاقت كلها عند ذلك العلم المرفرف على السارية أمامهم. إنه العلم الأحمر - الأبيض - الأزرق الذي عرفوه طيلة حياتهم. لقد رآه بيبا أول مرة أمام مقر المفوّض الإقليمي المساعد في كيكونو. وفجأة، انطفأت أنوار الاستاد كلها. انطلق هدير هائل عندما

أُضيئت الأنوار من جديد، موجة بعد موجة من هتافات فرح غامر أتت متدفقة من كل اتجاه. اختفى العلم القديم، وظهر محلّه علم جديد. ألقى كلمة الوداع زوج الملكة المرتدي بدلة احتفالية سوداء شديدة الأناقة. ومن بعده، وقف المعلّم -مواليمو[1]- مغدقاً الوعود على الشعب والعالم كله. ثم بدأت الألعاب النارية فأنارت السماء.

خلال عودتهم إلى البيت بعد الاحتفال، وبعد أن انعطفوا فدخلوا كيتشويلي وصاروا في شارع أوهورو، وقعت الحادثة التي كانت بداية المأساة. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكان الأطفال لا يزالون مستيقظين، لكنهم في مزاج سيِّئ. ضرب أحد الأحفاد أميناً على مؤخر رأسه، فالتفت إليه بيبا صائحاً: «ليس على الرأس! أبداً، لا تضرب أحداً على رأسه!». إن الضرب على الرأس خطير، لأنه يمكن أن يستجلب الأرواح ويسبب الجنون! وبعد تلك الحادثة، صار أمين يعاني صداعاً متكرراً.

لم يستطع الأطباء فعل أي شيء. ففي الشهور التي أعقبت ذلك، جرّبت الأسرة أطباء كثراً. بدأت بالطبيب العتيق د. بانووكر وانتهت بالطبيب الحديث، المكلف كثيراً، د. سينغ. وصف الأطباء لأمين زيت كبد سمك القد، والمليّنات والفيتامينات بأنواعها، فحصوا نظر الصبي ووصفوا له نظارة. قالوا إن السبب هو الشمس والحرارة، وكل شيء آخر، لكنهم لم يلوموا أبويه على إنجابه في تلك السن المتأخرة. اشترى بيبا أدوية الطب الهندي العشبية؛ وبدأت امرأة عجوز تزور البيت لكي تخلّص الصغير من الصداع عن طريق صلوات خاصة. لم يُجْدِ ذلك كلّه فتيلاً.

وبعد ذلك، على نحو مفاجئ، أدرك بيبا حقيقة الأمر: إنها هي! من غيرها؟ هي التي أعطته الصبي، وهي التي تجعله الآن في هذه الحال.

خلال السنوات العشر الأخيرة، منذ أن رحل علي، بدأت تبتعد عن حياته إلى أن اختفت تماماً، فظن أنها ارتاحت أخيراً. لكن، ها هي ذي من جديد. رآها مرة في الحلم، رآها ميتة، راقدة مثلما رآها قبل سنين طويلة، مثلما رآها في أحلامه مرات كثيرة قبل أن يبدأ تقديم المأكولات وقطع الأثاث إلى المسجد. ماذا تريد أيضاً؟ لقد أخذت منه ابناً، وأعطته هذا الابن... ألا تطيق رؤيته سعيداً؟

ثم بدأت الحمّى تصيب أمين ولم تفارقه بعد ذلك. جاء الأطباء ووصفوا له أدوية الملاريا، لكن من غير فائدة. استمرّت الحمّى، متقطّعة.

كان بيبا يصلّي لها. «أعرف أنك قادرة على فعل هذا. إنه واقع تحت سحرك!». صار واثقاً من هذا بعد أن رآها في الحلم جالسة، حاملة صبياً في حضنها. قالت له بعد حين: «خذه!». أدار الصبي رأسه: إنه أمين. قالت للصبي: «اذهب!».

استيقظ بيبا مذعوراً.

مات أمين في اليوم التالي. كان ذلك في الساعة التاسعة من ليل السبت؛ وكان غريغوري يصعد السلم المظلم ذهاباً إلى درسه في الطابق الثاني في شقة مقابل بيت بيبا. كان سائراً أمامه صبي يحمل شمعة. قال غريغوري إنه سمع صرخة، صرخة اخترقت الجدران، واخترقت القلوب.

عاد علي إلى دار السلام لحضور الجنازة. كانت تلك الوفاة واقعة اهتمت بها المدينة كلها مثلما يحدث دائماً في حالات من هذا النوع. ذهبت مع غريغوري للمشاركة في الجنازة. مات واحد من أطفال هذا المجتمع، من أطفال هذه المدرسة. ملأت السيارات شارع فيونغوزي، وكان أكثرها سيارات المعلّمين. كان الناس واقفين في الخارج -فالشقة أصغر كثيراً من أن تتسع لهم- كانوا واقفين من حول سيارة الدفن... سيارة

بنية / خضراء، بابها الخلفي مفتوح، تنتظر من سيذهب فيها. ثم جاء النعش الصغير محمولاً على الأكتاف وسط هتافات باكية -«لا إله إلا هو»- ووسط بكاء رجال وأولاد ارتدوا معاطف وأثواب كانزو وقبعات قماشية. وُضع النعش في السيارة، وجلس معه علي، بقبعة الاستراخان، وآخرون أيضاً، وراحوا يتلون «الكلمة»[†]. أتذكّر هذا أيضاً: غريغوري مرتدياً بدلة، يمسح العرق عن وجهه، ويتلو «الكلمة» مع الآخرين.

هناك حوادث بعينها تجعلك جزءاً من المكان. كانت هذه المناسبة واحدةً منها بالنسبة إلى غريغوري: موت صبيّ في المجتمع الذي كان يخدمه. فما معنى أن يسأله المرء، أن يضايقه، في «نادي الحلاقة»: يا سيد غريغوري، أين ستذهب بعد الاستقلال؟ جنوب إفريقيا؟... أين، غير دار السلام؟

تحرّكت السيارة، وتبعها بيبا وأقاربه الذكور في سيارته؛ وتردّدت أصداء صرخات ريمتي على طول شارع فينغوزي. قالوا إنها ظلّت تتردد من غيرزاني حتى مركز الإطفاء، وشارع الأمم المتحدة، والمدارس.

ظلّ علي في دار السلام أسبوعاً. أمضى معظم الوقت مع أبيه. قال لبيبا: «أخبِرني! ما هو هذا السرّ؟ أخبِرني عن مريامو -أمي- من هي؟!».

أخبره بيبا.

عاد علي إلى لندن مصدوماً؛ وعلى نحوٍ ما، عاد رجلاً آخر: رجل لا يهمّه شيء؛ رجل لا يمكن إيقافه. قصّ على ريتا ما سمعه من بيبا.

لقد أخبرتني ريتا بذلك كلّه، لكن مقابل ثمن لم يُحدَّد بعد.

22

هذه هي قصة ريتا في لندن...

تعرف السماء وحدها كيف حدث هذا، لكننا وصلنا إلى لندن، علي وأنا، فوجدنا جوّ الفضيحة والإثارة في انتظارنا ضمن وسط الشامسي هناك. كلّ عينٍ علينا في المسجد... والهمس الكثير. لا يمكنك تخيّل كيف كان الأمر. لقد صرنا في لندن أخيراً، فما العمل الآن؟ لم نكن متزوّجين لأنه لم يطلّق بعد. كانت له أسباب وجيهة للطلاق... بالطبع، كانت له أسباب وجيهة. لم يثمر الزواج أطفالاً! لقد كتب لها رسالة قبل رحيلنا. لكن استجابتها الأولى كانت رفض الطلاق مهما يكن الأمر. كنت مقيمة في مركز في غلودسيستر رود. كانت في المركز بضع فتيات أتين من أجل «التعليم العالي»... كم كنّ بسيطات! لم يكن هناك في تلك الأيام شيء غير الطباعة والاختزال وتصفيف الشعر والتمريض. أقام علي في فندق قريب من الجامعة؛ وكنا في حاجة ماسة إلى المال. رضخت زوجته أخيراً -هم الذين رضخوا، أسرتها- ثم تمّ الطلاق بعد ثلاثة شهور. ظنّ علي أنهم رضخوا نتيجة تهديده إياهم بالفضيحة؛ لكن السبب الأكثر أهمية كان توسُّل عائلتي لعائلة مولجي، ملوك الخانغا، والتنازل لهم عن قطعة من الأرض. تزوّجنا في احتفال صغير في المسجد، واستأجرنا شقة. سرعان

ما نسي الوسط في لندن فضيحة وصولنا، فبدأنا نعيش حياة طبيعية. كنت على تواصل مع صديقاتي في دار السلام، كلّهن. لكني ظللت من غير صلة مع أبي وأمي، بل حتى مع أخي وأخواتي. لم يسامحني أبي وأمي البتّة. كنت أكتب لهما كل أسبوع وأتوسّل إليهما، وأبكي في رسائلي. كنت أقول لهما: أرجوكما، أرجوكما، أرجوكما، استمعا إليّ! ما حصل قد حصل ولا أستطيع إبطاله، سامحاني وامنحاني مباركتكما! لم يأتني منهما أيّ ردٌ على رسائلي. كان هذا مؤلماً كثيراً. يفترض أن يكون الزفاف مناسبة بهيجة... إنه مناسبة عائلية، مناسبة اجتماعية. هو ليس حباً فحسب، ولا يمكن أن يكون كذلك. دائماً، يظلّ قدرٌ من المرارة باقياً في الزواج الذي لا يباركه الأهل. وتظلّ الفتاة في حاجة إلى عائلة تستعين بها، حتى في أحسن حالات الزواج. لم أستطع تجاوز ذلك أبداً، بل صار شيئاً معترضاً بيننا، أنا وعلي. والآن... لا أظن أن قلبي يطاوعني على مسامحتهما، ليس تماماً... لا أستطيع مسامحتهما على نبذي.

كانت في لندن فتياتٌ مثلي. واحدة هربت حتى تتزوّج هندوسياً من جنوب إفريقيا. إنها تعيش الآن في هارو. يمتلكان هناك متجر بقالة. وفتاة أخرى من كارياكو هربت مع فتى المذهب الجعفري (جريمة أكبر كثيراً من جريمتي). إنها مطلّقة الآن تعيش مع بناتها في تورنتو. كنا نلتقي أحياناً، ونتحدّث، ونتناول القهوة معاً بعد صلاة الجمعة في المسجد. نشأن جميعاً على مجلات «مكتبة الصور» في المدرسة، وعلى أفلام إيميد بلايتون والأفلام الهندية، مع صور لساعة بيغ بن والشرطي اللطيف. حسناً، كان رجال الشرطة لطيفين في الخمسينيات؛ وكان ساعي البريد أميناً: كان يمكنك أن تلصق على الرسالة بنسين ونصف البنس بدلاً من الطابع، فتصل الرسالة في اليوم التالي! في ذلك الوقت، كان هناك نوع لطيف من البراءة. ثم إننا كنا من المستعمرات. لم نكن نشكّل أيّ خطر، لكننا ملوّنات!

تمرّنت على طباعة الاختزال وحصلت على وظيفة خلال أسابيع. كانوا يعاملوننا كالخدم، وقتذاك؛ لكنني لا أظن أن ذلك كان مزعجاً لنا، ليس في البداية، وليس كثيراً. كنا مبهورات في لندن، وكنا نشعر بأن هذا امتياز لنا. كنا نعمل حتى ساعات متأخرة، وكانوا يطلبون منا تنظيف المكان، ويقرصون مؤخراتنا. اغتُصبت إحدى الفتيات، وحبلت فتاة أخرى. ثم تعلّمنا كيف نحتجّ.

لكن الأمر كان أسوأ كثيراً بالنسبة إلى علي... عمل نادلاً في البداية... علي الوسيم المعتز بنفسه الذي له مظهر أمير. كان يخرج في السادسة صباحاً -بدلة أنيقة وربطة عنق، وروح معنوية مرتفعة؛ يخرج وهو يصفّر لحناً- ثم يعود مهدوداً... تلك القصص كلّها التي كنا نسمعها عن لندن! ما عدد الذين كانوا سيذهبون لو عرفوا الحقيقة قبل ذهابهم؟ لكن من عادوا إلى البلاد لم يلبثوا أن رجعوا إلى لندن، ولم يستطيعوا البقاء بعيدين عنها... عن الشتاء البارد وأماكن سكناهم المزدحمة المدفّأة بالغاز، تلك الأماكن التي خنق البعض أنفسهم فيها بالغاز... عمداً أو عن طريق الخطأ، فمن عساه يدري؟ هل أنا نادمة على شيء؟ أجل. فمن الذي لا يندم؟ من فتاة دار السلام المفضّلة المدلّلة، إلى هذا الشقاء. وهو؟... لم ينظر خلفه أبداً، ولا حتى في أكثر الأوقات صعوبة.

هكذا كانت حال ريتا وعلي في لندن؛ ريتا وعلي اللذين كانا محطّ الأنظار في زمنٍ مضى.

لكنكما نجحتما آخر الأمر، أليس كذلك يا ريتا؟ لو كنتما في أيّ مكان، لنجحتما، دائماً.

في آخر المطاف، تلقّى علي عرضاً جيداً: إدارة «مقهى المتحف» بالقرب من شارع غريت روسل. اقتضى الأمر أن نعمل في ذلك المكان

معاً؛ وقد كان عملاً مجزياً، لكنه شاقّ. كنا نفتح المقهى في الخامسة صباحاً من أجل توصيل الطلبات؛ ثم تأتينا فترة الازدحام الأولى في السادسة والنصف عندما يصل عمال التنظيف وسائقو الشاحنات، وفي الثامنة والنصف، يأتي الموظفون والعاملون في السكرتاريا والهاتف؛ ثم يأتي الطلبة. وبعد ذلك وقت الغداء، ثم الشاي. أوه، لقد رأيت كلّ شيء! رأيت قدور القلي، وغسل الأطباق، والممسحة. وكان علي في الواجهة دائماً. كان شخصاً لا يُقهر. فمهما بلغ به التعب والهزيمة والإفلاس وقت المساء، تراه في الصباح التالي أميراً من جديد - أو ابن زعيمٍ مخلوع مثلما كان البعض يظنّون... لم يكن يوضح لهم الأمر أبداً. أوه، كان قادراً على بيعهم تاج محل نفسه، عندما يضع قبعة الاستراخان خاصة! لكنّه لم يكن يضعها كثيراً، بطبيعة الحال. كان يضع قبعة سوداء ذات إطار عريض. تعلّم اللكنة الإنكليزية، النطق الإنكليزي الحقيقي نفسه. وكان يتعلّم الإسبانية أيضاً. كاد هذا يثير جنوني.

كنت قد أنجبت ريهانا في ذلك الوقت. وكنت حاملاً بهادي، ابننا. كان علي يذهب إلى دروس اللغة الإسبانية يوم الجمعة عندما أذهب إلى المسجد. كان قد ترك الجماعة في ذلك الوقت، نوعاً ما. التعلّم لا ينتهي، فالمرء يتعلّم شيئاً فشيئاً. لم تكن عندي مشكلة في هذا. ذات يوم، خلال تناول القهوة بعد الصلاة، قالت لي إحدى صديقاتي: «كيف تعرفين أنه يتعلّم الإسبانية؟». أجبتها: «إنه يحقّق تقدّماً جيداً». أجبتها ببراءة. لكنهن نظرن إليّ جميعاً كأنني فقدت عقلي. «في ليالي الجمعة؟! هل تعرفين من يعلّمه؟ ما الذي يتعلّمه إلى جانب اللغة الإسبانية؟».

وكم بكيت! وكم صرخت عليه. كتبت إلى أهلي. كان اسمها آليس. إنها من إسبانيا، لكن أمها أميركية. كانت تدرس في مدرسة لندن للاقتصاد،

وكانت أكبر مني قليلاً. لو أتاني ردٌّ من عائلتي، لرحلت. لكني لم أرحل. ثم تركها.

عملنا في ذلك المقهى خمس سنوات طوال. لم تكن تلك السنوات كلّها سيّئة مثل السنة الأولى. لكن، على الرغم من ذلك... لقد كان طفلاي مصدر قوّتي في ذلك الوقت. كنت أذهب إلى المسجد بعد ظهر يوم الجمعة. وكم كان ذهابي مواساة لي! التحق علي بعدة دورات، وجرّب مشروعاً أو مشروعين، إلى جانب المقهى، لكن تجاربه فشلت. لم نكن نعرف ما يمكن لنا فعله غير ذلك. جرت بيننا أحاديث عن السفر إلى أميركا أو إلى دبي.

ثم تغيَّر حظّنا أروع تغيُّر. لقد بنت بضع عائلات ثروات من العمل في مجال العقارات؛ كما تعرف... تكون يوماً صاحب متجر بقالة في شارع ستانلي، ثم تصير في يوم آخر مليونيراً في لندن. أمرٌ لا يصدَّق، أليس كذلك؟ أولئك الذين أتوا بعدنا، وهم أصغر منا سناً، نجحوا في مجال الفنادق ودور الرعاية، وفي العقارات أيضاً. لكن حظنا أتانا من تلقاء ذاته وقرع بابنا – بدا لنا أنه صائب، وأن القدر قد اختار علي حقاً. حسناً... كان يأتينا شخصٌ يهودي كلّ يوم خميس فيكون آخر زبون في المقهى، في الساعة الخامسة. السيد إيسن. كان يبدو كبير السن، لكنه لم يكن إلا في الخمسينات. كان رجلاً ضخماً. تأتي معه زوجته وابنته أحياناً. كان يطلب دائماً عشاء خفيفاً (لم نكن نقدّم وجبة عشاء حقيقية). لقد كان معجباً بعلي، وبي، كثيراً... كان يستوقفه عندما يمرّ قريباً منه. يقول له: «يا سيّد علي، كيف هي السيدة؟ قل لها إن الحساء كان لذيذاً! اشكرها على احتفاظها به من أجلي... أعرف أنها احتفظت به من أجلي!». لم يكن الرجل يظن، ولو دقيقة واحدة، أن المقهى ملكٌ لنا. قال لعلي ذات يوم: «لماذا لا تعمل

عندي؟ في هذه الحالة، تستطيع زوجتك البقاء في البيت مع الأطفال!». بهذه البساطة!

كان هذا قبل فترة وجيزة من مجيئك إلى لندن. لقد رأيتك، بالطبع -في ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى المسجد متسلّلاً- تمنّيت كثيراً أن ألتقيك، وأن أحدّثك عن مشكلاتي. أردت أن أسألك عن موطني، وعن أحوال أبي وأمي؛ وأن أحمّلك رسائل عندما تعود. كنت أريد أن أطلب منك التحدّث معهم. التوسّط لي عندهم. فهل خطر هذا في ذهنك؟ لا، لقد بقيت بعيداً. وكنت تداري جرحاً لا حقّ له في الوجود أصلاً.

لقد شُفي الجرح، يا ريتا! شُفي تماماً، ولم يبقَ مكانه غير ذكرى لطيفة. لم أرِد إعادة فتح أيّ شيء. هذا كل ما في الأمر. تقولين لي إن عليّاً كان شخصاً لا يُقهر؛ وأما في نظري، فأنت هكذا أيضاً. خشيت ما يمكن أن تفعليه بي. ربما كان ينبغي أن آتي إليك. قلب ضعيف...

كان السيد إيسن (لا أتذكر اسمه الأول لأن العلاقة كانت رسمية، وإن تكن ودية) يمتلك شركة تمويل اسمها أثينا. كان لاجئاً من ألمانيا التي تركها عندما كان في مقتبل العمر. كانت له لكنة قوية واضحة. وأما نحن، فكنا مسحورين بالتاريخ... من الأفلام والمجلّات! طرحنا عليهم أسئلة كثيرة عن ألمانيا عندما دعوناهم إلى شقّتنا أول مرة: والداه، وأشياء أخرى، والحرب. عندما كنا طالبين، قرأنا عن الماكي(*) الشجعان، وعن البيريه التي يضعونها، وعن فتيات لهنّ ضفائر يقُدن دراجاتهن ويساعدنهم على الهرب عبر فرنسا. كتابات آن فرانك. وأفلام تلك الأيام التي كانت كلها عن الحرب، ألم تكن كذلك؟... لكننا سرعان ما أدركنا أن هذا موضوع

(*) ماكي (Maquis): عناصر المقاومة الفرنسية في ريف فرنسا الشمالي ضد الاحتلال النازي. (المترجم).

لا يحبّون الكلام فيه. ستكون هناك دائماً تلك المسافة بيننا؛ كم كنا سذّجاً! كان يبدو عليهم أنهم فقراء -لم يكونوا فقراء- وأنهم منبوذون. لكنهم كانوا أصحاب ثقافة رفيعة، يعرفون أشياء لا نعرف إلا أطرافاً منها. كانوا أوروبيين كثيراً. كان لهم ابن، فنان ذهب في جولة في الولايات المتحدة الأميركية. لقد رفض رفضاً مطلقاً أن يعمل في شركة أبيه. كانت الزوجة والابنة تساعدان الأب، لكني لم أرَ أن لديهما ميلاً إلى هذا العمل. لعلّه كان عالماً «رجالياً» إلى حدٍّ كبير. كانت السيدة إيسن -اسمها إيلا- تخضع لمعالجة طبية. قالت إنه علاج من صداع الشقيقة. لكني أظنه كان اكتئاباً. كانت لديهم ضاربة آلة كاتبة، وهي الشخص الوحيد من خارج الأسرة في ذلك المكتب. عندما انضمّ علي إلى العمل، كان كأنه نسمة هواء منعشة. الأمير... حتى هم كانوا يدعونه كذلك. لقد انسجم في هذا العمل الجديد، في هذه الحياة الجديدة، كأنه بطّة وُضعت في الماء. إنه الشيء الذي هو مولود من أجله.

سأل علي السيد إيسن عندما طرح عليه الأمر أول يوم: «ماذا تفعلون؟ ما هو العمل؟».

«فلنقل إن صاحب هذا المقهى الجميل يريد بيعه، وإنه يطلب منك طرح عرض لشرائه. وبالطبع، أنت لا تملك مالاً! تأتي إلى شركة أثينا للتمويل... تأتي إليّ!».

«حتى أطلب قرضاً... لكني أستطيع الذهاب إلى مصرف لويدز!».

«وهل سيقبل؟! هل يعطونك ذلك القرض؟! أنت تدرك ما أعنيه!».

«لن يعطوني!».

«تماماً!».

أأخبرك بهذا... بهذا السرّ العائلي؟ خلف كثيرٍ من قصص نجاح

المهاجرين، هناك «ملاك حارس» في مكان ما في خلفية الصورة. كان السيد إيسن ملاكنا الحارس. أين كان يمكن أن ينتهي بنا الأمر لولا مساعدته؟ لقد كان أيضاً رجل أعمالٍ ناجحاً، بطبيعة الحال، وكان كثيرٌ من المهاجرين واللاجئين يطرقون بابه طالبين قروضاً حتى يتمكّنوا من البدء من جديد. بعض أصحاب الملايين الكثيرة الجدد في سوق العقارات، ومنهم أشخاصٌ من شرق إفريقيا، اشتروا عقاراتهم الأولى بمساعدة شركته. كان مستعداً للقبول بالمخاطرة معهم؛ وكان يفهم ذهنيّتهم. كان يقول: «هؤلاء لم يكونوا رعاعاً في البلاد التي أتوا منها. إنهم عمّال، بنّاؤون... قد يكون بينهم نصّابون، لكننا لا نقول هذا بصوت مرتفع! ثم إننا لسنا مغفّلين، أليس كذلك؟».

ليلة وفاة أمين، الأخ غير الشقيق لِعلي، تلقّى علي اتصالاً هاتفياً من بيت بيبا. كان صوت البكاء والنواح من حول المتكلّم مسموعاً لنا -كان شيئاً فظيعاً- كان شيئاً موحياً بالرهبة عبر تلك المسافة البعيدة. كانت ريمتي تلوم علي على موت ابنها... فما الذي فعله علي؟ لقد كان النبأ صدمةً كبيرة لنا، بالطبع. كنا نعرف ما يعنيه الصبي لدى أبيه وأمه. ذلك الطفل العزيز الذي كان موضع محبة الجميع. أتاهما بعد ذلك الزمن الطويل، عندما صارا قادرين على إغداق مالهما ووقتهما عليه. ثم إن علي ليس ابن ريمتي! عندما أنجبت ابنها، كان ذلك نصراً لها، نصراً على علي، وعلى مريامو... على «تلك المرأة»!

كانت ريمتي تقول مباهية بابنها إنه سيصير أميراً أكبر من علي، وإنه الأمير الحقيقي... وهكذا دواليك. أقيمت «بناية أمين»، ثم تتابعت علامات الرخاء وعلوّ المكانة: سيارة، وتلفون، وبرّاد (قد نضحك من هذا الآن، لكننا كنا فقراء، أليس هذا صحيحاً؟)... كان ذلك الخير كلّه بسبب أمين!

في ليلة سماع الخبر نفسها، أخذ علي طائرة من لندن. حدث شيء غريب عند وصوله إلى دار السلام. لقد وضع، تلقائياً، قبعته الأستراخان؛ وكان مرتدياً بدلة بيضاء. أخذ سيارة تاكسي من المطار. عندما وصلت السيارة إلى المدينة، وسارت في جادة الاستقلال، انتبه علي إلى وجود شباب كثيرين يجرون خلف السيارة. أدهشه هذا، وظنّ أنه يتعرّض لهجوم، أو أن وصوله صادف اندلاع ثورة في المدينة. لكن أولئك الذين يلاحقونه كانوا هنوداً (أكثرهم من الشامسي). أخيراً، عندما انعطفت السيارة فدخلت شارع أوهورو، أدرك الشباب غلطتهم: إنه ليس الأمير علي خان الحقيقي. أقلقه هذا. ما كانت تلك المدينة دار السلام التي يعرفها، وما كان قادراً على وضع قبعة الأستراخان بذلك الاستهتار الذي اعتاده في ما مضى.

ظلّ هناك أسبوعاً. نزل في فندق. وخلال ذلك الأسبوع، صار سائقَ أبيه. جرت بينهما أحاديث طويلة. كانا يجلسان على شاطئ البحر، أو عند مسجد أوبانغا الجديد، في حديقته الجميلة، أو في المتجر حيث اعتاد الاثنان أن يجلسا زمناً طويلاً في الماضي. تأثّر علي تأثراً حقيقياً بهذا القرب الذي نشأ بينه وبين أبيه. وأما العجوز الذي صار الآن شخصاً مريضاً كثير السعال، فقد فتح قلبه له. عندما عاد علي إلى لندن، كان شخصاً آخر. كان يعتبر نفسه في ما مضى شخصاً مختاراً. وأما الآن فقد صار مدفوعاً بقوة داخلية، صار شخصاً لا ينثني أبداً. أرْخَت تلك الجدّية ظلاً على وجهه.

طلب علي شراء حصة في شركة أثينا، فعرض عليه السيد إيسن خمسة وعشرين بالمئة من الأسهم (كانت تلك حصة ابنه الفنان). ثم بدأ علي يأتي بصفقات أعمال دولية. كانت تلك مزيتَه: قدرة على إبرام العقود سريعاً؛ حسن الملبس، حسن الكلام، يؤثّر في من يقابله. كان يقول للسيد إيسن: «انسَ أمر العقارات والفنادق الصغيرة في فكتوريا، ومدارس تعليم الطباعة

على الآلة الكاتبة! المال الكثير موجود في أعمال التمويل الدولي!». وبالتأكيد، كان في هذا النوع من العمل فتنة، وسفر، وعقود ضخمة. أتى أول عقد كبير من رجل أعمال عربي. سفينة مستأجرة للذهاب إلى شرق إفريقيا... أثار الأمر صخباً كثيراً في ما بعد -مزاعم كثيرة، غير صحيحة في حقيقة الأمر- لكن البحرية الملكية البريطانية ردّت السفينة عندما كانت قادمة من ميناء عدن وجعلتها تعود على أعقابها.

كان ذلك بين سنتي 1963 و1964. وقد وقعت ثورة عنيفة في زنجبار أطاحت بملكها العربي، بمساعدة من الروس والكوبيين والألمان الشرقيين. وكانت هناك شكوك في أن السفينة المستأجرة (اسمها «سيد سعيد») تحمل أسلحة ومرتزقة أوروبيين. كانت هناك غواصة روسية في المحيط الهندي؛ وكانت بلدان شرق إفريقيا الثلاثة متوترة بسبب ذلك الانقلاب. هذا الوضع المشحون هو السبب الحقيقي الذي حمل البحرية الملكية على ردّ السفينة من حيث أتت.

إلا أنّ شركة أثينا لم تخسر شيئاً، لأن الثمن كان مدفوعاً مقدماً؛ لكن الخطر كان قريباً! استاء السيد إيسن وتوتّر كثيراً وطلب من علي أن يكون أكثر احتراساً. وعلي أيضاً، خاف قليلاً... لأن الأمور جرت بسرعة زائدة. لقد صار حذراً منذ ذلك الوقت.

توفي السيد إيسن سنة 1966. باعت زوجته وابنته حصّتيهما، ثم ذهبتا للعيش في فلسطين.

تغيّر حظّنا بين عشية وضحاها. كان الطفلان، ريهانا وهادي، يذهبان إلى المدارس العامة؛ لقد انتقلنا إلى إكلستون سكوير، ثم إلى بيتش غروف في هامستد. صحيح، نشرت صحف الجماعة كلها نبأ شرائنا ذلك البيت في بيتش غروف... صحيح ما قالته، حنفيات مياه ذهبية، وشمعدانات راج

الأثرية، وسيارة رولز رويس استخدمها بانديت نهرو في هارو، وأشياء أخرى. كما قلت لك، صار علي شخصاً لا يتوقف عند حدّ؛ ولم يكن ذلك الكلام الكثير عنه مزعجاً له على الإطلاق. «نوفو ريش»، وماذا؟... لا يزال يقول هذا حتى الآن. ألا يعني هذا أنه ثري؟ ألم يكن النورمان جدداً (نوفو) ذات يوم؟ ألم يعش الإنكليز في الكهوف في زمن مضى؟ لكنّه لم ينسَ أبداً -لم ننسَ أبداً- من كانه. في إنكلترا، هويّتك هي طريقة كلامك وملبسك وجلوسك... كلّه مهمّ.

أظن أن شركة أثينا للتمويل فريدة من نوعها. إن مقرّها في كارلتون بليس، بالقرب من ساحة ترافالغار. ترى من النافذة استعراض خيّالة الحرس الملكي في الصباح. كان لهذا أثره على عملاء الشركة، دائماً. تلك الشخصيات البارزة من دول أجنبية. تتولى الشركة مشاريع دولية. هي مصرف ومقاول معاً. تقوم بتسهيل عمليات شراء الحكومات خدمات ما وراء البحار. أولاً، من خلال التمويل عندما يكون التمويل مطلوباً. ثم من خلال الإشراف على المشروع -مقاولات من الباطن، وشحن، وهكذا دواليك. إن القروض مرتفعة المخاطر مضمونة بطبيعة الحال- مضمونة من جانب حكومات أو وكالات معونة دولية أو مصارف أخرى. كانت للشركة مشاريع في إيران الشاه، وفي مانيلا، وفي أميركا الجنوبية. لم ينقطع تدفّق المشاريع عليها بعد أن صارت شركة معروفة. يعرف علي أمراء ووزراء. وبالطبع، كان أميرنا؛ وكان كثيرٌ من عملاء شركته (بل كلّهم) يصدّقون ذلك. بل إن الصحافة الإنكليزية نفسها تصدّق ذلك أحياناً. عندما أوردت الصحف الشعبية نبأ خطوبة ريهانا، أشاروا إلى علي باعتباره ابن زعيمٍ شرقيّ.

الأسلحة: لو رأى علي ذلك آمناً، فلعلّه عمل في هذا المجال. إنه

رجل حذر. أتاه عالمٌ من قطر كان يريد إنشاء «قنبلة قطرية». كان يريد أن يسمّيها «الجبر 1»، فكلمة «جبر» مأخوذة من اللغة العربية. لم تقبل شركة أثينا هذا المشروع. ثم أتاه رجل من كيبك يريد بناء مدفع طويل. لم يمسّ علي ذلك العرض. اغتيل هذا الرجل في ما بعد. بُنّ من أوغندا. كان هناك مزيج نشربه تلك الأيام. وكنا ندعوه مازحين «أوغندي - كولومبي». كان عيدي أمين في السلطة آنذاك، وكانت القهوة تُصدّر تهريباً...

يصعب عليّ أن أحدّد ما باعد بيننا تحديداً دقيقاً... أظنها أشياء كثيرة. الزواج نوع من الموت. ألا تظن هذا؟! إنه نهاية الشباب والحرية وكل ما يجعلك جميلاً جذّاباً... بداية المسؤولية. كانت المرارة والخيبة الناتجتان عن نبذ أبي وأمي لي تصاحبانني دائماً؛ وكان أيضاً ذلك الكدح والعناء عندما بدأنا في لندن. غرفة بائسة، صاحبتها امرأة فظّة، وشتاءات باردة، وملابس شتوية مستعملة ليست على مقاسنا تماماً، وفوق هذا كله... طفل رضيع. لا شيء أقدر من المشقّة على قتل الرومانسية بسرعة مضاعفة! وعندما بدأت التشقّقات، ظننا أننا قادرين على البدء من جديد. في أيام المدرسة، كانت كلٌّ منا تكتب في أوتوغراف الأخرى: «الصداقة كالخزف!»، حسناً، الحب كذلك أيضاً، بل أكثر من ذلك. لقد انجرف مبتعداً عني. لم تكن الحياة البيتية البسيطة شيئاً كافياً ولا نقطة يريد التوقّف عندها... لقد أراد المزيد، والمزيد، إلى أن بدأت أظن أنني، حتى أنا، لست كافية له.

لا أظنني صرت مثله تماماً حتى بعد كلّ ما تلقّيته من دروس في الإتيكيت. كنت لا أزال نفسي القديمة... لم أستطع اعتياد وضع القبعات، ولم أستطع التصرّف مثلما تتصرّف أميرة! ثم إنني بقيت متديّنة. ومع المشكلات السياسية في البلاد، هنا... ومصادرة الممتلكات، اضطرت أسرتي آخر الأمر إلى التواصل معي لأنها صارت آخر الأمر في حاجة

إلى عون. وقد أعنتهم، وكنت أستضيفهم أحياناً في بيتي... أبناء وبنات إخوتي وأخواتي ممن يزورون لندن... أستطيع القول لك إن هذا لم يكن مستساغاً تماماً في نظر علي. في ذلك الوقت، كان علي يسخر من أسلوب الحياة الهندي. وقد بدأ يقيم علاقات نسائية عابرة على نحو أكثر علنية من ذي قبل. وكان يسافر كثيراً. كان في بيرو عندما التقى روزيتا. أدركت فور عودته أن هذا كان شيئاً خاصاً، مختلفاً. إنها أرجنتينية، لكن لها بعض الأسلاف البريطانيين. وبالطبع، فهي أصغر مني سناً، بعض الشيء. لها طفلان من زواج سابق. امرأة في غاية اللطف. وهي فاتنة أيضاً... مثالية بالنسبة إليه. ربّاها أهلها بطريقة أوروبية. أصرّت روزيتا على أن ينهي علي علاقته معي بسخاء وبطريقة ودية. وهكذا، لا أزال فرداً من أفراد العائلة! كأنما له زوجتان!

منزل بيتش غروف ملكٌ لي. إنه بيت رائع. جصّ أبيض من الخارج. وخشب البلوط الداكن من الداخل. بُني في الثلاثينيات. أمامه ممرّ طويل لدخول السيارة ومن حوله حديقة بسيطة جميلة. إنه ذلك النوع من البيوت الذي كنا نراه في المجلّات أيام صبانا. عندما تنظر إلى الخارج في صباح يوم صيفي، بعد المطر خاصة، ترى منظراً يملأ قلبك سكينة وفرحاً بالحياة. تأتيني دائماً عروض لشرائه، من السفارات. هادي وريهانا أيضاً يريدان أن أبيعه، حتى أصير أقرب إلى المدينة. لكني لن أبيعه.

تقول جاكي إن البيت مثل أمّ (جاكي هي خادمتي الفلبينية) لأنك تعود إليه دائماً، لأنه يظلّ موجوداً دائماً، ولأنه دافئ لطيف. لديّ سيارة صغيرة أذهب بها لكي أتسوّق، وأذهب بها إلى المسجد.

أحياناً، تدور بيني وبين جاكي أحاديث طويلة. إنها توافيني دائماً بآخر أخبار الفتيات الفلبينيات في الجوار. من أحبّت، ومن طُردت من عملها،

ومن ستعود إلى موطنها، ومن حصلت على عرض عمل في الخليج أو اليابان أو كندا. لا أريد أن أخسرها، لكنها ستذهب عاجلاً أو آجلاً. أتناول غدائي مع ريهانا يوم السبت، ونذهب معاً إلى التسوّق. وبعد ظهر يوم الأحد، يأتي هادي ويبيت عندي.

العام الماضي، كان اسم علي ضمن قائمة الشرف للسنة الجديدة... أخيراً، بعد عدة سنوات من حرب فوكلاند. عندئذٍ فحسب أحسست أنني مظلومة وتألمت لأنني لم أكن إلى جانبه. لكن هذا ليس كل شيء، أليس كذلك؟ لا أزال «السيدة علي»!

تظلّين دائماً زوجة هندية تقليدية، يا ريتا؛ وتقولين دائماً: «هو»، عند الإشارة إلى زوجك. لكن، ما قصة حرب فوكلاند؟ هل كانت لعلي صلة بالشؤون الأرجنتينية من خلال روزيتا؟ أهي خدمة قدّمها في أثناء الحرب؟

لم تعلّق ريتا بشيء.

مقاطع متفرّقة (IV)

من المفكّرة الشخصية لبيوس فرنانديز
أيار 1988، دار السلام

اشترت ريتا أقمشة خانغا من أجل جاكي، خادمتها الفلبينية. واشترت لعلي منحوتة ضخمة من فن الماكوندي. واشترت لنفسها حلياً ذهبية («لا أستطيع مقاومتها!»). المقهى مزدحم، دبق؛ لكنه ملجأ جيد من الحرارة المتوهّجة في الخارج، في جادة سومورا. من حينٍ إلى آخر، ينظر إلينا عبر واجهة المقهى الزجاجية، حيث نجلس، بائعُ حليّ رخيصة في الشارع وعدته ريتا بأن تشتري منه شيئاً. أراه مستميتاً لأن يبيعها شيئاً؛ وأظنه مستعدّاً للانتظار أسبوعاً، إن اضطرّ إلى ذلك. أمرٌ مؤسف... فمن ناحية الجودة، لا يُقارَن ما لديه بما يمكن العثور عليه لدى بائعي الجملة الهنود في شارع السوق.

سوف تذهب ريتا إلى المحميات الطبيعية في آروشا حيث تبقى عدة أيام، ثم تعود بعد ذلك لكي تسافر، على الفور تقريباً، إلى لندن.

لا تزال هناك أسئلة من غير إجابة... أسئلة عن هذه الفتاة التي حجزت لنفسها ذلك الموقع بيننا: مريامو، التي سرقت مفكّرة الإنكليزي، ثم

رفضت أن تُدفَن، مثلما رفضت المفكّرة أن تُدفَن. من قتلها بتلك الطريقة الفظيعة بعد أن قضى وطره منها؟ وما العلاقة التي كانت لها مع كوربين؟ وأيضاً -من المؤكّد أن هذا أهم الأشياء بالنسبة إلى ريتا- من هو والد علي؟ تنظر ريتا إليّ من فوق فنجانها الذي رفعتْه إلى فمها.

«إن للقهوة هنا مذاقاً بدائيّاً! يمكنك شراء قهوة تنزانية في سيلفريدجز، كما تعلم، لكنها ليست هي نفسها!».

يحصل المشترون هنا على أسوأ خيارات المحصول المحلي! أريد أن أقول لها هذا، لكني لا أقوله. الحاجبان الطويلان، إنهما يأسرانني، والعينان اللامعتان - هل كانتا دائماً بنّيتين هكذا، هاتان العينان؟

لعلّ هذه آخر مرة أراها هكذا، وأُعجَب بها صراحةً، في هذه السن، بطريقة لم أجرؤ عليها من قبل. أرغمتني مازحة على أن أعِدها بدفع أيّ ثمن لقاء هذه الجلسات، وجهاً لوجه، لقاء المعلومات التي لديها. ولطالما كنت أخمّن الثمن: الصمت، وحفظ ما جرى بيننا في حرز أمين. وسوف تقول لي هذا الآن، هنا، لكن كيف؟

أسألها: «أتظنّين أن بيبا عرف إجابة السؤال الوحيد الذي كان هاجساً حمله طيلة حياته؟».

تأخذ نفساً سريعاً، ثم تقول: «لست أدري».

«أودّ الظن أن مريامو أخبرته آخر الأمر، وأراحته من عذابه قبل أن يموت. ربما عبر إشارة أو علامة».

تقول بشيء من الاستعجال، على ما أظن: «لن نعرف هذا أبداً، أليس كذلك؟».

تصمت، وترتشف قهوتها. إن في ذهنها شيئاً -أشياء كثيرة- وأنا أرى هذا، وأرى أنها ستتركني أتلمّس طريقي إلى معرفتها.

تقول بعد طول صمت: «ماذا أيضاً؟».

«الأمر كلّه غير مكتمل، على نحو يصيبني بالجنون... غير مُرضٍ أبداً، ألا ترين هذا؟ صورة نصف متشكّلة، وشكوك...».

«لا نستطيع معرفة كلّ شيء عن الماضي، أليس هذا صحيحاً؟».

«ليس الأمر هكذا. لكن هناك بعض الأشياء، على سبيل المثال، الفتاة مريامو، التي اغتُصبت، التي قُتلت، هل تساءلتِ يوماً...؟».

«لعلّه جندي من أولئك الجنود... على الأرجح، أليس كذلك؟ لم تتوصل العائلة إلى أيّ شيء آخر في ذلك الوقت».

«لكني أتساءل. لعلّه كان عليهم أن يتوصلوا إلى شيء».

«حقاً؟ ولِمَ تقول هذا؟».

«لعلّي أضفي أهمية زائدة على آراء كوربين...»، أصمت قليلاً حتى أحذّرها، «قد لا يعجبك قولي هذا، يا ريتا...».

«استمرّ، الآن...»، تحاول توبيخي، تبتسم، ثم تضيف: «قل لي أولاً، ثم دعني أقرّر!».

تستند إلى الخلف وتجلس منتبهة بحركة معابثة... تنتظر أن أزيد على ما قلته.

«لا بأس. الأمر متعلّق بزوج الأم... رشيد. لم يعجبني أبداً. فحتى الآن، لا يزال يلوح في الظلّ. يلاحق الفتاة هنا وهناك، ويزعم أنه يتكلّم مع الروح التي سكنتها... يجعلها تفعل أشياء فظيعة... من المؤكّد أنه لا يفعل هذا كلّه انطلاقاً من مشاعر المحبة الأبوية».

«أخبرَني علي شيئاً عن سمعته العائلية. لقد كان شخصاً غريباً. لكن، هل يقتلها؟ ولماذا يقتلها؟».

«في نوبة غيرة، مثلاً!».

«توقعت أن تقول هذا. شكّت العائلة في هذا الأمر، لكنها ظلّت صامتة. نعم، محتمل. لكن، كيف يمكن التأكّد؟».

خلف الواجهة الزجاجية، أرى ذلك البائع يجتاز الشارع ذاهباً للوقوف إلى جانب معروضاته. لكنه يراقبنا مستعدّاً للمجيء والانقضاض على هذه السيدة السائحة فور خروجنا.

«هل حاول علي يوماً...؟».

تجيبني سريعاً: «ماذا؟».

«كنت على الدوام راغباً في طرح هذا السؤال. هل حاول علي يوماً أن يتواصل مع كوربين بعد ما باح له بيبا به؟ أم أن الأمر كان محرجاً جداً؟».

«لقد التقينا السير آلفرِد كوربين في لندن في الستينيات؛ التقيناه مرة واحدة في الاحتفال السنوي المقام بمناسبة يوم الاستقلال. كان شخصاً رسمياً، متكبّراً. لم يجرِ أيّ لقاء آخر... بحسب معرفتي. كانت زوجته هناك أيضاً... امرأة مسنّة شبه معتوهة».

«وماذا أيضاً؟ ماذا جرى من حديث؟ ما الذي تحدّثتم عنه؟».

«الأمور المعتادة فحسب -كلام عن البلد القديم- لا شيء شخصياً. كانت تلك مقابلة قصيرة، فهو يعرف أشخاصاً كثيرين جداً من أبناء المستعمرات الذين كانوا يتقاطرون للسلام عليه ومصافحته...».

«مدهش! وعلي... كيف كان شعوره في ما بعد... شعوره لرؤية آلفرِد كوربين؟».

«ينبغي أن تفهم علي. هو غير متعلّق بالماضي. لم يَرِد ذكر هذا الأمر في بيتنا على الإطلاق. وأنا لم أكن مهتمة به أيضاً. كانت لدينا أسرتنا ومستقبلٌ نفكر فيه. كنا في هذا العالم الكبير؛ وقد حققنا لأنفسنا شيئاً فيه».

لولا ظهور المفكّرة من جديد -هكذا كنت أقول في نفسي- لما اضطررتِ إلى التعامل مع الماضي، أليس ما أقوله صحيحاً يا ريتا؟

يداها على الطاولة، بيننا، وأصابعهما متشابكة. أظافر غير طويلة كثيراً، مطليّة.

إنها محلّ انتباه أشخاص كثيرين، لست وحدي في هذا. رجل وامرأة جالسان على مسافة بضع طاولات منا؛ ناشران يأسفان لموت مهنتهما. أعرفهما، كليهما. كانا ينظران إلى ريتا بشيء من الريبة. تدخل المقهى متسوّلة مرتدية أسمالاً، وتتجه مباشرة صوب رفيقتي ذات الملابس الحسنة، لكن نادلة وبضعة زبائن غاضبين يطردونها. تأتي النادلة بفطيرتَيْ لحم. آخذ واحدة منهما. خلف الواجهة، عاد ذلك البائع حاملاً منحوتة عملاقة غريبة الشكل من منحوتات ماكوندي.

«أوه، يا إلهي، أظن أن عليّ أن أشتري منه شيئاً، في آخر الأمر؛ لكن ليس هذا؟». تنظر إليّ وتبتسم.

الابتسامة المتشاقية الساحرة التي عرفتها منذ زمن بعيد. تختفي ابتسامتها. نعود إلى أنفسنا، وننتظر صامتين. هل كان ممكناً أن يحدث تقاربٌ بيننا؟ أم من الممكن أن نعيش من جديد ذلك الزمان ونقرّر ما كان ممكناً، أو غير ممكن، حدوثه؟ تتكلّم.

«لم تسألني أبداً عن... عنا - أنا وأنت. أتساءل عمّا يجعلك محجماً عن السؤال!».

أتمتم قائلاً: «أخشى الإجابة!». ثم: «لو كنت أنا، فهل كنت تقبلين أن...».

تقول: «لن تعرف هذا أبداً!».

«أهو شيء لن أعرفه وحدي، أم شيء لا تعرفينه أنت نفسك؟».

لا تجيبني؛ وتظلّ صامتة برهة، وبعدئذٍ: «دعني أسألك هذا: هل كان ممكناً أن تهرب إلى لندن مع فتاة، وتغامر بكل شيء، مثلما فعل علي؟».

لا أجد شيئاً أقوله. لا أظنّني كنت مستعداً لفعل ذلك! لماذا هذا العذاب الآن؟... لكني طلبته بنفسي... سألتها ما إن كانت تقبل؟

«وبالطبع، كان هناك غريغوري أيضاً!». تبتسم ابتسامة معابثة.

«ماذا عن غريغوري؟».

«حسناً، كانت صداقتك معه غريبة بعض الشيء في نظرنا، نحن الفتيات. لقد كان غريغوري شاذاً، كما تعلم. إنهم يستخدمون اليوم كلمة مثليّ».

«هل تلمّحين إلى...؟!»، تصيبني الدهشة عندما أرى نفسي موضوعاً لهذا التلويح... لكن، ما الذي جعلني أحسب أن الناس لن يظنّوا بي هذا؟ «لقد كان لي نصيبي من النساء، إن كنت تريدين معرفة هذا».

«ما كان بينك وبين غريغوري... أمرٌ تعرفه وحدك، إن كنت تعرفه!».

عيناها كلّهما ألقٌ، حماسة، كأنها الفتاة التي كانتها ذات يوم. تميل ريتا صوبي. لكنها شديدة الثقة هذه المرة، تعابير وجهها شديدة العمق، شديدة الاختلاف، شديدة الأثر. يبدو لي كأنها تقول: لقد عشت!

«وإذا كنت لا تعرف هذه الأشياء عن نفسك...».

وهكذا، نصل إلى زبدة الأمر.

إذا كنت لا تستطيع معرفة هذه الأشياء عن نفسك -هكذا تقول لي- فأيّ غرور، يا فرنانديز، في محاولتك استراق النظر إلى حياة الآخرين!... أن تضعهم في العراء، ثم تصل بين تلك النقاط الكثيرة كي تكوّن صورة! ثمة أسئلة ما من إجابات عنها؛ ولا نستطيع أبداً معرفة الأسرار العميقة في

أي قلب بشري. كل نقطةٍ عالمٌ لا نهاية له، يا بيوس؛ وتاريخك الذي تكتبه ليس إلا سطحاً خارجياً.

ما أشدّ ظلم هذه التخمينات التي يكون موضوعَها أناسٌ يعيشون بعمق أكثر قليلاً من جيرانهم! أناس يكشفون على الملأ قدراً من أنفسهم أكبر قليلاً مما يكشفه غيرهم! ماذا عن احترام أسرارهم؟ وماذا عن احترام بشريّتهم؟ إن للماضي أهمية بالتأكيد؛ وهذا هو السبب الذي يوجب علينا دفنه أحياناً. علينا أن ننسى حتى نستطيع البدء من جديد.

نعم، لماذا نجعل ماضينا مباحاً للجميع، ونُصغّر أنفسنا، بعد أن مضينا بعيداً إلى هذا الحد؟ وماذا لو لم يكن علي ابن زعيم منفيٍّ؟... ماذا لو لم يكن صبياً من كارياكو يكسوه غبار التوابل؟ جامع كرات للأوروبيين؟ خادم حديقة؟ بعد أن تصل، لا يريد أحد معرفة شيء من هذا. انظر إلى الأميركيين! ليس إلى الأميركيين فحسب، انظر إلى النبلاء جميعاً، إلى البارونات والدوقات، وحتى إلى الملوك! من عساه يعرف من أين أتوا، ومن عساه يهتم بهذا؟! إذاً، لماذا أجعل ابنتي ريهانا تخجل من نفسها، ولماذا أعرّض مستقبل هادي للخطر؟

«لا يا سيدي -يا بيوس- هذا هو الثمن الذي سأطلبه منك – الثمن الذي كنت تعرفه بنفسك، الثمن الذي أطالبك به. دعه راقداً في مكانه، هذا الماضي. المفكّرة والقصص المحيطة بها صارت الآن لي، وسأدفنها!».

***

بعد أن تناولنا العشاء في بيت فيروز، عدت معه إلى متجره، متجر الأحذية، متجر بيبا السابق في أوهورو. يقدّم لي الشاي من ثرموس جلبه معه. بعد ذهاب ريتا إلى المحميات الطبيعية، صرت أحسّ كأنني جالس مع فيروز في تلك الأيام من شهر آذار عندما وضع المفكّرة بين يدي.

أقول له إن عليّ أن أعطي ريتا المفكّرة. يومئ برأسه ناظراً إليّ نظرة تفهّم. لقد أدرك منذ مجيء ريتا، ومنذ بدء جلساتها المفردة معي، أن المفكّرة لم تعد في يده.

يقول مؤكّداً: «لا قيمة لها بالنسبة إلي. وهي تريدها لأسباب عائلية، أليس هذا صحيحاً، يا أستاذ؟».

أقول: «صحيح». ولا أرغب في الإطالة. أقول في نفسي إن من الممكن أن تكون ريتا قد تحدّثت معه أيضاً، وشرحت له، وأقنعته بألا يجعل من الأمر قضية. ثم إن له ابناً في إنكلترا. ومن الممكن أن تشمله برعايتها.

«هكذا الأمر إذاً، يا أستاذ. كأنني لم أعثر على تلك المفكّرة أصلاً!». في عينيه مكرٌ ودهاء. يعرف أن ما قاله الآن يمكن أن يكون صحيحاً. لكني أرفض التقاط الطعم. أسأله عن شيء يشغل ذهني، منذ اليوم الأول الذي جعلني فيه أرى المفكّرة.

«لم تقل لي، يا فيروز، كيف عثرت على الكتاب؟ أين عثرت عليه؟».

ينظر إلي لحظة، ثم يقول: «سوف أخبرك. سوف أريك... تعال معي إلى المستودع!». أتبعه إلى الغرفة التي في الخلف، إلى غرفة بيبا المظلمة التي تحدّث الناس عنها كثيراً. صارت الغرفة مضاءة الآن. وعلى جدرانها، رفوف صُفّت عليها علب الأحذية.

«هل ترى في هذه الغرفة شيئاً غير معتاد؟» يطرح فيروز هذا السؤال وهو يفتح ذراعيه على اتساعهما كأنه موشكٌ على أداء خدعة.

أقول مذعناً: «لا. لا أرى شيئاً غير معتاد. ما الأمر؟».

ينادي الخادم: «سعيدي!».

بشيء من المشقّة، يجرّ سعيدي وشخصٌ آخر قسماً كاملاً من رفوف المستودع بما عليها من علب الأحذية، ثم يخرجانه إلى الممرّ. يبدو

الجدار الأصفر العاري عادياً أول الأمر... لكن، لا! أستنشق نفساً سريعاً؛ ويشهق واحد من الخادمين بصوت مسموع، ثم يتمتم بدعاء. في أسفل الجدار، ستة إنشات فوق الأرض، أرى باباً عتيقاً من الخشب المعاكس، طوله قدمان وعرضه قدم واحدة - باب بحجم أربعة حجارة قرميدية كبيرة. الباب مثبّت في مكانه بطريقة ما، لكن ثغرة في موضع مكسور عند زاويته توحي بوجود حيّز مظلم من خلفه... حيث ينبغي أن يكون فيروز قد عثر على الكتاب.

«... مدفون ومغلق عليه خلف الجدار... طيلة ذلك الزمن... مدفون ومغلَق عليه!». فيروز واقف إلى جانبي، يقول هذا بنبرة انتصار.

ألتفت إليه. لقد تراجع الخادمان مبتعدَين حتى الباب، مستعدّين للخروج من الغرفة إن قيل لهما ذلك. يتابع فيروز موضحاً: «ذات يوم، بعد سنوات عديدة من مجيئي إلى هذا المكان، كنا نركّب هذه الرفوف الجديدة، فلاحظت ثقباً صغيراً في الجدار - قطعة إسمنت ساقطة من ذلك المكان. بدا الثقب أشبه بثقب مسمار. وضعت إصبعي فيه فتساقط المزيد من الإسمنت، ثم تساقط المزيد. خلف ذلك الإسمنت الذي تساقط كلّه، وجدت هذه الخزانة الصغيرة. أخيراً، هكذا ظننت، عثرت على ثروة ذلك العجوز المقتّر التي لم يهتدِ أحد إليها. لكني لم أجد غير هذا الكتاب ملفوفاً بصحيفة».

«مدفوناً في الجدار طيلة تلك السنين كلّها...».

العجيب في الأمر هو أن أحداً غيره كان يمكن أن يعثر عليه. وكان من الممكن أن يلقى الكتاب مصيراً مختلفاً تمام الاختلاف. كان ممكناً أيضاً ألا يعثر عليه أحد أبداً.

«هل تعرف قصة أناركالي، يا أستاذ؟».

نظرت إليه: «هيّا، أخبِرني بها!».

«نعم، يا أستاذ. في الهند، أيام سلاطين المغول، كان للسلطان العظيم، السلطان أكبر، ولد اسمه سليم أحب خادمة اسمها أناركالي، أحبّها حباً جارفاً. ما كان ممكناً التسامح إزاء هذا الحب بين خادمة وابن أسرة حاكمة عظيمة. قرر السلطان إنهاء هذا الحب، فأرسل ابنه إلى الحرب. لكن لقاءات العاشقين تواصلت سراً. وأخيراً، حُكم على أناركالي بعقوبة نتيجة عصيانها أمر السلطان، فحُبست في كهفٍ مغلق. لكن السلطان، قبل سنين كثيرة من ذلك، كان قد عرض على أم أناركالي أيَّ شيء تطلبه لقاء خدمات قدّمتها له. والآن، بعد إغلاق الكهف على أناركالي، ذهبت أمها طالبةً الرحمة لابنتها. كان السلطان أكبر شهيراً بعدله، فأمر بترك الكهف مفتوحاً، لكن من الجهة الخلفية. صارت أناركالي حرة... لكن كان عليها أن ترحل بعيداً. مضت الفتاة وهي تغني: 'العالم ملك من يحبّ...'!».

أتذكّر ثلّةً من بنات المدرسة عندما كنّ يغنّين هذه الأغنية نفسها في صفّي. كنّ يناكفنني. ريتا ورفيقاتها، في ريعان صباهن، في أسعد أيامهن، منذ قرابة أربعين عاماً. «العالم ملك من يحبّ»... الحب المحرّم!

لعلّ الحقيقة أن «كلّ حبٍّ محرّم!»، هي حقيقة، لأن الألم الذي توقعه بنا يجعلنا نعيش.

***

ملحقات

(1) في شهر آذار من سنة 1964، مات فون ليتو فوربيك، الذي كان قائد القوات الألمانية في شرق إفريقيا الألمانية. مات في ألمانيا الغربية. وعند

موته، صوّت البوندستاغ(*) على قرار قاضٍ بمنح العسكري الذين كانوا عنده تعويضاً مالياً. أُرسل إلى دار السلام مسؤولٌ مصرفي من هامبورغ حتى يدفع لهم المال. وحتى يتمكّن الرجل من تحديد العسكري السابقين، أعطى كلّ من ادّعى ذلك مكنسة لها عصا طويلة، وبدأ يلقي عليهم إيعازات عسكرية. قيل إن ما من عسكري يمكن أن ينسى كيفية الاستجابة للإيعازات العسكرية الألمانية.

(2) شُخِّصت إصابة الممثّلة الأميركية ريتا هيوورث (اسمها بالولادة مارغريتا كانسينو) بداء الزهايمر، ووُضعت سنة 1981 تحت وصاية ابنتها ياسمين (ابنتها من علي خان). ماتت الممثّلة في نيويورك، في شهر أيار 1987. ومات الأمير في حادث سير في أوروبا سنة 1958.

(*) المجلس التشريعي الاتحادي لجمهورية ألمانيا الاتحادية. (المترجم).

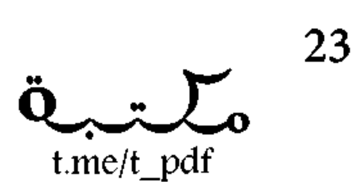
III

غريغوري

أعليك حقاً،
يا رفيقي الذي ألِفته كثيراً
يا رفيقي ذا الحضور الكثيف
أن تكون هنا دائماً؟
لا شك في أن الرابطة التي تجمعنا
ليست إلا وهماً:
لكني غير قادرٍ على كسرها.

– و. هـ. أودين (W. H. Auden)

23



في أواخر الستينيات، أول سني استقلال البلاد، كانت الثقة الطروب بالنفس لدى الطبقة الحاكمة الجديدة ممزوجةً بإحساس متوتّر بقلّة الأمان. كان لا بدّ من إعلان الولاء على نحو واضح تماماً ومن غير أيّ مواربة - بالنسبة إلى من خدموا النظام القديم خاصة. هناك بلاد تسمح بازدواج الجنسية؛ لكن الجمهوريات الجديدة المتعطشة إلى الاعتراف بعظمتها، التي تعيش قلقاً دائماً من الاستعمار الجديد، كانت ترفض تلك الازدواجية سعياً منها إلى قطيعة تامّة مع مَذلّة الماضي. كانوا يطالبونك بإنكار جنسيتك السابقة، الكفّ عن كونك واحداً من الرعايا البريطانيين المتميّزين مفضّلاً على ذلك انتماءك إلى عالم جريء جديد. لم يقبل الجميع بهذا، فرحل بعضهم مفضّلاً المحافظة على كرامته؛ وكان من بين الراحلين أول وزير مالية في البلاد (كان إنكليزياً). لم يفاجئنا هذا لأن المرء لم يعتد رؤية الإنكليز يتخلّون عن جنسيتهم الإنكليزية، على الرغم من أن العالم تغيّر منذ ذلك الوقت. ولهذا، أصابتني الدهشة عندما تخلّى غريغوري عن جواز سفره البريطاني.

قال لي: «لقد عشت هنا القسم الأكبر من حياتي. هذا هو موطني الآن!».

ثم نظر إليّ نظرة حادة: «وفوق هذا، إذا حدث لي شيء وطُردت من هنا، فإن إنكلترا -تلك العاهرة- سوف تقبلني دائماً. لكن لن تقبلك، يا بيوس، لأن لونك ليس مناسباً لها!».

هكذا تكلّم ذلك الساخر المطلق الذي لم يستطع جعل العالم يسير على هواه ولم يستطع السير على هوى العالم، فظلّ يعيش فيه بأحسن ما يستطيع ومن غير إلزام نفسه بأي شيء. هنا تكمن مأساته... هذا ما كنت أراه، حتى في ذلك الوقت: رجل هشٌّ من كلّ ناحية، لكنه لم يحتفظ لنفسه بمكان يعود إليه. والحق أنه ما كان صعباً أن يُطرد شخص مثله (لم يكن لدى زعمائنا متسع لأيّ غموض ساخر، أو غير ذلك من التزويقات الأدبية؛ وخاصة من جانب من كانوا يحكمونهم). سخر محرّر صحيفة «هيرالد» من استجواب برلماني عن حوريات البحر، فصار شخصاً غير مرغوب فيه ورُحّل إلى أستراليا.

مرّت سنوات طويلة منذ لقائنا الأول في مدرسة البنين، لكني ظللت أدعوه السيد غريغوري، وظلّ يدعوني فرنانديز. كان أكبر سناً مني بكثير، بل لعلّه كان في سنّ تسمح بأن يكون معلّماً لي في المدرسة. كان يبدو لي أن هناك هوّة بيننا، غير واسعة، لكنها عميقة. فعند نقطة ما، من غير افتعال من جانب غريغوري، أصير بيوس بالنسبة إليه، أما هو فيظلّ السيد غريغوري بالنسبة إلي... ثم يصير غريغوري بعد قليل، وأخيراً يصير غريغ. لكني لم أكن أدعوه هكذا إلا عندما أخاطبه مباشرة، وعندما يكون ديسوزا، كاره البريطانيين، غير موجود.

واصل ثلاثتنا، في الوقت نفسه، التعليم في مدرسة الشامسي للأولاد، أو «مدرسة البنين»، التي صارت تحقّق نجاحات أكبر من ذي قبل من حيث إنجازات طلبتها. وقد صار لدينا، من بين زملائنا الجدد، عددٌ ممّن

كانوا طلبة عندنا. لكن مدرسة البنين، بعد أيامها الماجدة تلك، لم تلبث أن وقعت ضحية السياسة المحتدمة من حولنا.

كانت سنوات الاستقلال الأولى سنوات بهجة سياسية وثقة بالنفس وبالأمة الجديدة. فعندما راح الغرب والشرق يحاولان استمالة تنزانيا، صار البلد قادراً على لعب دور عدم الانحياز الجذري. لكن ما اتضح بعد ذلك هو أن الانحياز أمرٌ لا بدّ منه؛ وقد قرّروا الانحياز إلى الشرق، فبدأت في أواخر ذلك العقد حقبة سادتها سياسة اشتراكية جادة. أتت التغيّرات بسرعة كبيرة جداً، ففكّكت البنى القديمة ومضت تدفعنا سريعاً في اتجاه اليوتوبيا المساواتية التي كان مؤكّداً -هكذا قيل لنا- أنها تنتظرنا.

وكان من بين هذه التغيّرات استيلاء الحكومة على مدرسة البنين. اعترضنا على هذا، بالطبع: لم نعترض على سيطرة الحكومة على المنهاج الدراسي (كان هذا أمراً مفهوماً ضمن المناخ السياسي ذي الحساسية الشديدة)، ولكن على الاستيلاء على المدرسة التي أقيمت بذلك الإخلاص كلّه، وكانت صرحاً يرمز إلى اجتهاد جماعة الشامسي وطموحها. كان السيد غرين الإيرلندي مدير المدرسة بضع سنوات؛ ثم تلاه السيد بيترز الذي كان كاتباً إفريقياً من موشي. لكن انحدار المدرسة الحقيقي بدأ مع مجيء السيد جوزيف، الذي كان كادراً حزبياً لا تعني له إدارة المدرسة أكثر من تولّيه منصباً حكومياً (منصب عزّزه بصحيفته الحكومية «موافريكا[†]»)، وليس إدارة مدرسة اشتهرت بمعاييرها ومرافقها. فما المفاجأة إذاً في أن تحتلّ سقيفةُ تخزين مكانَ ملعب الكريكت، وتنمو أعشابٌ كثيفة في ملعب التنس، وفي أن تظلّ النوافذ المكسورة من غير إصلاح، وفي اختفاء جرس المدرسة، وفي أن تُزال لوحة تخلّد ذكرى بطولة واحد من تلامذة ديسوزا ضحّى بحياته، وفي أن تنزل من مكانها

لوحات عليها قوائم بأسماء خريجي المدرسة السابقين... لم يكن هذا من أجل قضية المساواة بقدر ما كان إزالة للماضي المزعج. عشنا زمناً صعباً كان فيه الجناح الشبابي في الحزب، الحرس الأخضر، على طريقة الحرس الأحمر عند ماو تسي تونغ(*)، يضايق الناس في الشوارع ويحاول التحكّم بحياتهم.

أخوض في هذه التفاصيل لأنها تعود فتسكنني، ولأنها كانت هدّامة جداً. إنها في نظري مميّزات مرحلة -مرحلة قصيرة- تغيّر فيها الكثير الكثير. لم يبقَ شيء على حاله. بدأ الأصدقاء والزملاء الرحيل، يرحلون ثم تنقطع أخبارهم. ثم سقط غريغوري.

في ذلك الوقت، جرى تخصيص قطعة أرض لكلّ مدرسة من أجل زراعة الخضراوات «لدعم صندوق المدرسة وتقوية شخصيات التلاميذ». كانت كل قطعة أرض مقسّمة إلى قطع أصغر حجماً بحيث تكون لكل صف واحدة منها. وفي كل أسبوع، تأتي مرتين فترة الشامبا[†]، في مدرسة البنين، فيسير أبناء المدينة، أولئك الذين لم يروا رفشاً إلا -ربما- في متاجر آبائهم... يسيرون في الحرارة الحارقة ثلاثة أرباع الساعة في طريق صاعد يمرّ بالبيوت الجديدة حتى يصل إلى المنحدرات الواقعة خلف مدرسة جانقواني للبنات.

أتذكّر من تلك الفترة التي لم تستمر طويلاً صورة السيد كبير، مدرّس الرياضيات ذي الجسد الضئيل، منحنياً انحناء شديداً تحت ثقل رفشين اثنين. وأتذكّر صورة غريغوري حاملاً منجلاً كأنه يطارد لصاً أو وحشاً؛ وكذلك ديسوزا الرمادي الملتحي حاملاً مجرفة كبيرة ناظراً إلى التلة التي

(*) ماو تسي تونغ (1893-1976): مؤسس جمهورية الصين الشعبية، وقد حكمها، من خلال قيادته للحزب الشيوعي، منذ تأسيسها في عام 1949 حتى وفاته عام 1976. (المترجم).

أمامنا كأنه موسى هذا الزمان. أتذكّر كيف كان الأولاد يحفرون ويحفرون بهمّة، لكن من غير أن يثمر ذلك العناء ذُرة أو بامياء أو يام، أو أيّ محصول آخر.

وخلال واحدة من فترات الشامبا هذه، بينما كان غريغوري يشرف على ثلة من الأولاد وهم يحفرون الأرض الحمراء («أنا لست فلاحاً، يا بيوس، لكني واثق من أن ما من حاجة إلى هذا الحفر العميق من أجل زراعة الذرة...»)، سقط في واحد من تلك الخنادق المتصلة البالغ عمقها ثلاثة أقدام وقد أصابته ضربة شمس. كاد يصيب حافة مجرفة حادة كانت على الأرض.

أخرجناه من الخندق، نصف محمول نصف مجرور على الأرض، وسكبنا على رأسه ما كان لدينا من ماء قليل، ثم أرسلت صبيّين إلى مدرسة جانقواني حتى يحضرا أحد معلّميها. جاء معلّم الرياضيات الذي كان من ألمانيا الشرقية، جاء بسيارته فأخذنا غريغوري إلى مستشفى الأغا خان الذي كان قريباً من بيته.

خرج غريغوري من المستشفى في اليوم التالي، وكان بادياً عليه شيء من الضعف وشيء من الخجل. لكنه عاد إلى المستشفى عدة مرات بعد ذلك لأن نوبات من الدوار كانت تصيبه. لم يكن يتعافى جيداً. وبسرعة كبيرة، صار يبدو هشّاً، كبير السن. بدأ الأزيز في صدره، وصار نحيلاً بحيث كان لا بدّ له من ربط بنطلونه القصير الضخم بحزام جلدي... ذلك البنطلون الذي كان نكتة المدينة ذات يوم. كان هذا منبئاً بتدهور وضعه، وبما هو أسوأ من ذلك. أُعفي من واجباته في المدرسة؛ وشيئاً بعد شيء، صار مفهوماً أنه لن يعود.

كنا في سنة 1971. وفي ذلك الوقت تقريباً، أتت إلى مدرسة البنين

دفعة معلّمين جديدة من إنكلترا. تولّى واحد منهم، اسمه فليتشر، أمور جمعية الدراما. لا يسعني القول ما إن كانت قدرات الطلاب هي السبب، أو مواهب فليتشر، لكن الدراما شهدت انتعاشاً لم تعرفه قطّ لا في ظلّي، ولا في ظلّ غريغوري. للمرة الأولى منذ سنوات كثيرة، فازت المدرسة بالجائزة الأولى في مهرجان الدراما الشبابية عندما قدّمت مسرحية مستوحاة من «بغماليون» كتبها فليتشر مستعيناً بأفكار غريغوري.

في ليلة منح الجوائز، وكانت ليلة أحد، ذهبت إلى غريغوري حاملاً إليه النبأ السعيد. كان بيته في سيفيو لا يفصله عن الشاطئ غير الطريق، وكان بيتاً صغيراً فيه غرفتا نوم قائماً خلف فناء أمامي فيه ممرّ للسيارة له عمودان إسمنتيان للبوابة، لكن من غير بوابة. كان حارسٌ ليليّ جالساً في الخارج مثل ظلٍّ عند الدرجات الأمامية؛ وكانت غرفة المعيشة مضاءة. عند دخولي، كان اثنان من الفتيان خارجين من البيت (فتح أحدهما لي الباب). قال لي واحد منهما: «أستاذ... إنه مريض جداً. عليك أن تطلب طبيباً!». أومأ الآخر برأسه مؤكّداً كلام صديقه بجدّية تامّة.

أغلقت الباب فصرت في مواجهة غريغوري الجالس على الأريكة، ثم وضعت الطعام الذي أتيت به معي (طعام غير مناسب أبداً في هذه اللحظة) -سمك وشرائح بطاطس مقلية من مطعم ويمبي الجديد- وأبلغته بالنبأ الطيّب، نبأ الجائزة. ابتسم ابتسامة كبيرة. أحسست وقتئذٍ أن وجهه فحسب ابتسم تلك الابتسامة العابرة وظهر فيه شيء من الحياة، شيء من الحضور، لكن بقية جسده كانت واهية لا حضور لها من تحت ملابسه المتسخة.

انتصب جالساً، وجرّب تناول شريحة بطاطس، ثم وضعها من يده: «هات الويسكي، من فضلك!».

قلت له بحزم ودود: «لا! أنت في حاجة إلى الراحة، يا صديقي! سوف

آتيك بشيء من الماء الدافئ. ثم تتناول الشاي والبسكويت. وبعد ذلك ترقد في الفراش».

ظهر على وجهه تعبير استياء شديد. «دائماً تريد فعل ما هو صحيح، أليس كذلك؟»، كان صوته خشناً... «افعل ما هو صحيح بالنسبة إلي، من فضلك -أنت أيها الجزويتي البارد اللعين، الذي لا يخاطر بشيء أبداً- الحريص على اللياقة دائماً، سيد غريغوري... سيد غريغوري... أنت، أيها...».

انسكب بعض الماء على قميصه، فناولته منشفة المطبخ وقد فوجئت، بعض الشيء، بردّة فعله، لكني لم أُرِد أخذها على ظاهرها.

شرب الشاي بهدوء أكبر، وتحدّثنا عن المسرحية. كان يدعوها مسرحيته. قال لي إن التلميذين اللذين انصرفا وقت حضوري جاءا لوداعه: إنهما ذاهبان إلى الولايات المتحدة بعد حصولهما على منحة دراسية. إنهما آخر طلبته المفضّلين، فقد رحل الآخرون جميعاً ولم يعد منهم أحد. كان جالساً هناك، حانياً ظهره، وقد بان الألم على وجهه كأن العالم قد انهار من حوله فصار جالساً وسط حطامه. لم أكن قادراً إلا على التقاط لمحة بسيطة مما يشعر به... لكني كنت أصغر سناً، وأقل انجذاباً إلى الكحول.

«قل لي، يا فرنانديز -يا بيوس- إن أتيح لك الاختيار من جديد، فهل تفعل هذا؟ اللعنة... هل تنفق عمرك في التعليم... هذا ما أعنيه... أكثر حتى مما كنت تتخيّله؟ هل تفعل ذلك؟!».

لم أجد شيئاً أقوله. وللمرة الأولى، أتتني هذه الفكرة: ما الذي حقّقناه بالضبط؟ بعض الرضا عن الذات، نعم، فقد أنشأنا جيلاً... لكن، أيّ راحة يجدها المرء في هذا عندما يصير وحيداً، مُسنّاً؟ «لماذا تسأل؟ نعم... ألم تفعل ذلك أنت؟ أنت تغدو كئيباً إلى حدّ غير ضروري؟». لم يكن مصغياً.

كان يبكي. ثم مسح عينيه ونهض واقفاً على قدمين غير ثابتتين. ارتعد قليلاً. كان جاهزاً للذهاب إلى الفراش. ساعدته. أمسكت به من كتفيه وأجلسته على سريره الذي كان في حالة فوضوية. أسرعت فبحثت عن بيجامته. وجدتها على الأرض. ثم بدأ يرتعش ويتعرّق. ساعدته في تبديل ملابسه. استلقى على ظهره، فغطّيته ببطانية، لكنه أبعدها ولم يترك فوقه إلا ملاءة خفيفة.

تأهّبت للذهاب، فقال لي: «انتظر، اجلس من فضلك!».

جلست على السرير، ورحت أنظر إليه. كان العرق ينساب على وجهه. ذكّرت نفسي بأن الجو دافئ، لكنه ليس دافئاً أكثر من الحد المعتاد. كانت تأتيه نوبات من القشعريرة، ثم يسترخي بعدها. لم أكن أعرف المدة التي ينبغي أن أمضيها جالساً إلى جانبه. قلت: «كان عليّ أن أستدعي طبيباً!».

قال: «لا، ابقَ فحسب!».

من غير أن أعرف سبب ذلك، استلقيت إلى جواره، على جانبي، واحتضنته. وعندما أغفى آخر الأمر، كان ذلك مع ارتعاشة وزفرة هائلة... كأنه خسر معركة.

لا أتذكّر من تلك اللحظة غير إحساسي بالأسى، إحساسي بالعطف... إحساس بأنني وحيد وحدة مطلقة على الرغم من احتضاني كائناً بشرياً بين ذراعي. صوت الأمواج في البعيد. وأحياناً، صوت سيارة تمرّ في الطريق، أمام البيت.

لم أذهب إلا صباح اليوم التالي، كان لا يزال في سريره يغطّ في نوم عميق.

لم أرَ غريغوري مرّاتٍ كثيرة بعد ذلك؛ ولست أدري سبباً لهذا. ليست لدي سوى أفكار غير مكتملة، أنصاف تفسيرات... إلا أنني لم

أستطع نسيان نظرة الكره وتلك السخرية المرّة، ولا أزال غير قادر على نسيانهما. لكننا تصالحنا في تلك الليلة، وتلامسنا. فماذا بعد؟ أحسست بالذنب لأنني لم أره أكثر، لكني ارتحت عندما علمت أنه كان في رعاية بعض السيدات ممن لهن صلة بالكنيسة الأنغليكانية. تُفاجئني، الآن، هذه القسوة من جانبي؛ وكثيراً ما أسأل نفسي ما إن كانت نتيجة خشيتي من المزيد الذي كان هناك، أو لعلّه كان يمكن أن يكون! صدقاً، لست أدري. لقد كان غريغوري مثليّاً. لم أهتمّ أبداً بالاستفسار عن علاقاته مع تلاميذه المفضّلين؛ ولم أُعِر التلميحات التي تتناوله إلا أذناً صماء. من بين من عرفتهم في دار السلام، كلّهم، كان وجودي معه هو الأسهل. كان يعجبني. نزواته الغريبة التي كنت أتعامل معها برقة... رقة مازجها أحياناً شيء من الغضب. ريتا هي من كانت تربكني وتعذّبني، ويتركني سحرها وجمالها عاجزاً، حتى الآن... ريتا هي موضوع أسفي الحقيقي غير الخفيّ.

***

تأتي صور الموت الآن، تأتي على نحو طبيعي تماماً، مع ذكرى حادثة كانت بالنسبة إلى الكثيرين رمزاً للموت... موت حلم، أمل، أسلوب حياة. شهدت سنة 1972 بلوغ سياسات الحزب الحاكم الاشتراكية ذروتها عبر تأميم العقارات المؤجّرة. أولئك الذين أقاموا بنايات من طابقين -أكثرهم آسيويون- لتكون صروحاً شاهدة على كدح عائلاتهم، أولئك الذين كانوا بهذا يرسّخون أقدامهم في البلاد التي جعلوها وطناً لهم، الذين كان كل منهم يستثمر في بناية من طابقين أو ثلاثة طوابق يؤجّرها، رأوا أحلامهم تتحطم في خيانة كبيرة للثقة التي وضعوها في هذه البلاد. مدخرات جيل كامل، أو جيلين اثنين، أُخذت منهم. قالوا لهم إنها الآن صارت ملكاً للشعب...

وخلال وقت قصير جداً، وقعت حالتا وفاة ربطهما الناس بهذه الأنباء. كانت الأولى موت هاسام دونجا، الذي لعلّه كان أغنى شخص في دار السلام، فقد كان صاحب بنايات كثيرة ومطاحن ومصانع (كان الرمز البارز لإنجازاته بناية ظلّت سنوات طويلة أعلى بناء في دار السلام؛ إنها ذلك الهرم الضخم الأصفر المطل على منطقة منازي ماجو). وبعده مات نور محمد بيبا. بيبا الذي صار عجوزاً ميالاً إلى السخرية والتهكّم بعد موت ابنه أمين. عندما سمع أن القسم الأكبر من «بناية أمين» صار ملكاً للشعب، قال: «بَسّ! أهذا فحسب؟ فليأخذني أنا أيضاً! فليأخذني الآن!»؛ ثم مات في اليوم التالي.

أُقيمت جنازتا الشامسي معاً، فكانتا مناسبة ضخمة في مسجد المدينة. لقد بدأ الرجلان فقيرين: يعرف الجميع أن هاسام دونجا كان يبيع الفول السوداني في الشوارع، وأن بيبا بدأ حمّالاً. كان الرجلان راقدين، معروضين أمام جماعتهما في كفنين أبيضين. وما كان ظاهراً غير وجهيهما.

نأتي عراة، ونرحل عراة... كان الشامسي يرددون هذا في أنشودتهم الجنائزية؛ لكنهم كانوا يتمتمون بأصوات منخفضة أن ذلك المعلّم، مواليمو[†]، الذي صار رئيساً للبلاد، ما كان عليه أن يعجّل بموتهما. وفي ما بعد، صار كثيرون يقولون مستغربين إن بيبا لم يبدُ بديناً هذه المرة، وإن هاسام دونجا لم يكن قصيراً جداً في حقيقية الأمر... فكم نحن ميّالون إلى المبالغة!

على مرّ السنين، كان الناس الذين يعيشون بالقرب من «زاوية بيبا» ينظرون إلى تلك البناية الصفراء القائمة في منطقتهم ويتساءلون كثيراً عن ذلك المقتّر الذي بناها بعد عقود من العمل في متجر التوابل الذي يديره. كم هي ثروته؟ وما مقدار ما اكتنزه بيبا؟... ما حجم ثروته؟ لكن

بيبا ظلَّ الآن، في موته مثلما كان في حياته، قادراً على تضليل أصحاب تلك الأسئلة. بعد جنازته، ظلّت أنوار الطابق العلوي مضاءة في الليل. وفي الأسفل، في المتجر، أصوات كثيرة تقترح تحريك قطع الأثاث، أو تفكيكها. لكن ريمتي وبناتها وأزواج بناتها لم يعثروا على الكنز الخبيء... لا مجوهرات مسروقة، ولا ماس مهرّب، ولا قطع نقدية ألمانية قديمة! كان ما تركه بيبا لزوجته وبناته أكبر قيمة من أيّ كنز يمكن أن يكون موجوداً هناك: بناية أمين... لكنها صارت الآن ملك الشعب.

وقعت وفاة ثالثة في ذلك الأسبوع المشؤوم، لكن أكثر الناس لم ينتبهوا إليها. لو وقعت قبل بضع سنين، لكانت حدثاً محلياً كبير الأهمية والمعنى... ذلك المعلّم الذي كان مؤسسة في حد ذاته، الذي ظلَّ يعلّم أولادهم عشرين سنة، أو أكثر، وما كانوا ليستطيعوا النجاح في امتحان الأدب الإنكليزي من غيره. لكنها وقعت الآن؛ فكانت، من حيث الأساس، حدثاً يخصّ المغتربين. السيد غريغوري من مدرسة البنين، أوه، ألم يرحل؟ لقد مات!

شارك في الجنازة نحو مئة شخص (مغتربون مقيمون في المدينة وبعض طلبة الصفوف العليا في مدرسة البنين) دفعهم إحساس بالواجب إلى المجيء إلى الكنيسة الإنغليكانية لحضور دفن غريغوري. ألقى فليتشر كلمة رثاء، وألقى أحد طلبة غريغوري كلمة أخرى؛ وأتت برقيتان من خارج البلاد. وبما أنني لم أكن شخصاً معروفاً جيداً لدى الحاضرين (مثلما لم يكن المتوفى معروفاً جيداً بالنسبة إليهم)، فقد وجدت أن لا كلمات لديّ أقولها لهم، ولم يطلب مني أحد أن أقول شيئاً.

بعد بضعة أسابيع من الجنازة، ذهبت إلى القبر لإلقاء نظرة على شاهدتِه التي قدّمها عددٌ من زملائه وطلبته السابقين، فأخبرني القيّم على

الكنيسة، السيد أنسكومب، بأن غريغوري ترك لي علبة. قال إن في العلبة أوراقاً وكتباً. افترضت أنها النصوص التي كان يدرّسها على مرّ السنين، والملاحظات التي كتبها من أجل الطلبة. فقد فكّرنا مرّة في نشرها، وذلك قبل أن يفوت زمانها بفعل إدخال مناهج تعليم جديدة تشتمل على كتابات أتشيبي وسوينكا وميلر وإبسن(*). يومذاك لم آخذ تلك العلبة، ولم أنظر في محتوياتها. قلت في نفسي آنذاك: دعها تظلّ مدفونة في المستودع! بقايا عديمة النفع من حياة انطفأت، فكان صاحبها سعيداً بانطفائها.

(*) تشنوا أتشيبي (Chinua Achebe) روائي نيجيري، وول سوينكا (Wole Soyinka) روائي نيجيري، هنري ميلر (Henry Miller) روائي أميركي، هنريك إبسن (Henrik Ibsen) كاتب نرويجي. (المترجم).

24

واصلت التعليم في مدرسة البنين خلال السنوات التي أعقبت ذلك، في السبعينيات وجزء من الثمانينيات. في تلك السنين، في ظلّ نظام اشتراكيّ في البلاد، رأيت القيم التي حملتها وعملت كثيراً لغرسها في المدرسة تصير، على نحو متزايد، في غير محلّها. كان إظهار التواضع والابتعاد عن أيّ تميّز هو النظام الجديد، وكذلك «الصلاح الإيديولوجي». وكان تلاميذ الجيل الجديد الآتين إلى المدرسة أشخاصاً أرسلتهم حكومةٌ تريد موظفين، وليس كما كانوا في الماضي، أشخاصاً آتين من جماعة توّاقة إلى شقّ طريقها في العالم. الآن صار الشامسي الذين بنوا المدرسة وأداروها لكي تكون رمزاً لطموحهم، يحزمون أمتعتهم ويرحلون بأعداد كبيرة إلى أميركا الشمالية. رأيت أفضل طلبتي يأتون لكي يودّعوني، ولا يعودون أبداً. وواحداً تلو آخر، رحل أيضاً القسم الأكبر من زملائي المعلّمين المغتربين. سمعت من خلال سونا، تلميذي السابق، أن واحداً منهم صار معلّماً في مدرسة في «غيتو» في نيويورك. وسمعت عن واحد آخر يبيع بوليصات التأمين في كندا. ذهب بعضهم إلى زامبيا قبل أن يعودوا إلى الهند. وأخيراً، في سنة 1980، رضخ ديسوزا أمام مجريات الأمور بطريقته المعهودة الحادة.

كان قد انتقل إلى مدرسة خاصة في المدينة. وصرت أراه أقل من ذي قبل. ثم لم نلبث بعد موت غريغوري في سنة 1972 أن صرنا نمضي مزيداً من الوقت معاً؛ لكنّا تباعدنا من جديد على الرغم من بقائنا صديقين. الظاهر أنه قد حدث لنا الكثير مما أخذ كلاً منا إلى عوالم خاصة به لم نتمكّن من تشاركها.

وذات يوم، أتاني واحدٌ من طلبته وقال لي إن ديسوزا لم يخرج من شقّته منذ ثلاثة أيام، فهل أستطيع أن أفعل شيئاً؟ ذهبت مع الصبي إلى شقة ديسوزا. دققت الباب كثيراً، بشدّة، وصحت منادياً صديقي، لكن من غير طائل. وأخيراً، وافقت على أن يفتحوا الباب بالقوة، بعد أن احتشد حولنا كلّ من كان هناك (خدم وباعة ومتجوّلون) وأكّدوا أن المعلّم موجود في الشقة، بالتأكيد. وجدنا ديسوزا في سريره، مرتعشاً، يتضوّر جوعاً، بل شبه ميت. لم يكن في الشقة أيّ طعام، ولا حتى شاي أو سكر. كان واضحاً أنه مصاب بالملاريا. وعلى الرغم من ندرة الأدوية في ذلك الوقت، فقد جرى تطبيبه سريعاً بمساعدة طبيب كان في ما مضى تلميذاً في مدرسة البنين. وبعد ذلك بفترة قصيرة، خلال شهر كانون الأول، ذهب ديسوزا إلى الهند لكي يقيم مع أخته ريثما يستعيد صحته. لكنه لم يعد أبداً. كتب لي مرة قائلاً إنه يواجه مشكلة في الحصول على تأشيرة للعودة إلى تنزانيا. كان واضحاً أنه لم يجشّم نفسه عناء الحصول على الجنسية. والآن، رأت الجهة التي تمنح تأشيرات الدخول أنه أكبر سناً من أن يعود إلى التعليم.

***

قبل ثلاث سنين من الآن، طلبني مدير المدرسة إلى مكتبه وسألني ما إن كنت أعرف أنني تجاوزت سن التقاعد الذي هو خمسٌ وخمسون سنة. قلت له إنني أعرف، لكنني ما زلت قادراً على مواصلة التعليم سنوات كثيرة.

ابتسم الرجل وقال إن القانون هو القانون، فانحنيت أمام هذه السلطة العليا ووافقت على إحالتي إلى التقاعد.

والآن، أشعر منذ سنوات كثيرة بأنني وحيد... بل إنني أعاني الوحدة أيضاً. لم يكن الاعتراف سهلاً عليّ: أظنني كنت يمكن أن أرحل بعد موت غريغوري. لكن... إلى أين؟ وبأي هدف؟ وحده الإحساس بالواجب تجاه أبي وأمي كان يمكن أن يجعلني أعود إلى الهند؛ لكنهما كانا متوفَّين في ذلك الوقت. ثم إن الإحساس بالوحدة مع التقدّم في السن يمكن أن يصيب المرء أينما كان. لقد كبرتْ كثيراً في داخلي هذه المدينة التي حططت الرحال فيها منذ ثلاثين عاماً، وصارت كأنها جزءٌ مني. لن أتخلّى عنها أبداً.

إلا أن فكرة واحدة كانت بلسماً لي في أيام وحدتي: لا أزال حيّاً من خلال مئات الطلاب الذين مرّوا من بين يدي. هكذا كان الزمن الذي خدمت فيه؛ وهكذا كانت طبيعة الثقة الموضوعة فينا، نحن المعلّمين. لو كان غريغوري موجوداً لفهم هذه الفكرة عن الإحساس بالرضا في خضمّ هذا التفتّت الأخير للذات؛ لكنه لم يكن بالشخص الذي يعتمد على فكرة من هذا النوع لكي يشعر بالراحة. «هل صرت تفكّر في بعثك التالي، يا بيوس؟ أهو شيء من مستر تشيبس؟[*]...». أسمع خرخرة غليون، وأرى ذلك البريق في عينيه.

سألني غريغوري قبل سبعة عشر عاماً: «قل لي، يا بيوس، هل كنت لتفعلها من جديد؟ هل كان الأمر يستحق هذا؟».

وقتذاك، كنت قادراً على فهم السؤال، لكني لم أستطع الإحساس

(*) إشارة إلى قصة لجيمس هلتون (James Hilton) بعنوان «وداعاً سيد تشيبس» صدرت سنة 1934 وكانت عن معلّم يحمل هذا الاسم. (المترجم).

بالقلق وبالإلحاح الكامنين من خلفه. والآن، بعد أن صرت أقرب إلى وضعه، أسمع سؤاله بوضوح شديد جداً.

لو سألني أحدٌ هذا السؤال منذ ثلاثة أشهر لأجبته بجعله يرى رسائل من طلبتي السابقين... أداؤهم في الخارج جيد، كلّهم... شهادة كافية لأن تدفئ قلب أي معلّم متقاعد. وكان ممكناً أن أشير إلى طالب سابق، أو اثنين، عائد في زيارة إلى البلاد، أو إلى مدير شاب في مصرف باعتباره واحداً من آخر إنجازاتي. كنت سأقرّ بأزمتي المالية الشديدة، نعم، لكني سأكون قادراً على إظهار الرضا التام لأنني أنجزت عملي جيداً وتركت أثراً على جيل من الطلبة. من المؤكّد أن هناك ما يمكن أن يقال في هذه الأمر، حتى في هذه السن التي يصير فيها المرء ميّالاً إلى التهكّم.

لكن في حياتي ما هو أكثر من الرضا الذي حقّقه لي التعليم. هناك ريتا، الفتاة التي أوقعتْ المعلّم الجاد الذي كنته؛ وهناك أيضاً ديسوزا الغاضب، الذي صار حزيناً بعد ذلك، ديسوزا الذي لم تصل صداقتي معه إلى الكمال بسبب غريغوري؛ وهناك أيضاً غريغوري الذي كانت رفقته كبيرة القيمة في نظري، على الرغم من بقائي غير قادر على فهمه تماماً.

لست شخصاً يتشبّث بدروبٍ لم يسلكها، ويسترسل في تخمين ما كان يمكن أن تقوده إليه. أنا هنا، حيث وصلت؛ هذا مبدئي. لو كان غريغوري هنا لقال: «أن تعيش يعني أن تغامر، وهذا يعني أنك لم تعش!». وأما فتياتي في سنة 1950، فسوف يضفين على هذا ألقاً سينمائياً: «العالم ملك من يحبّ!».

لكني حظيت، في وقت متأخر من العمر، على الأقل، بهذه الرقة، بهذه الهدية غير المتوقّعة، بل ربما غير المستحقة: جلست مع ريتا مثلما لم أستطع الجلوس في الماضي، وأعجبت بها صراحة، وناقشنا الأسئلة التي

كنت أخشى طرحها على نفسي قبل ذلك... أسئلة عن علاقتي بها وما كان يمكن أن تكونه. وتركت نفسي تعود إلى تلك الأمسية في بيت غريغوري، فصرت الآن غير قادر على الإشاحة عنها.

صرت أغوص مراتٍ أكثر، وباهتمامٍ متزايد، بين صفحات مجموعة غريغوري الشعرية الصادرة بعد موته، ذلك الكتاب الذي أهدتني إياه ريتا. لقد أعاد إليّ ذكريات كثيرة من دار السلام التي كانت. عاد بعض تلك الذكريات، ببساطة، من خلال وصف شيء مألوف في قصيدة من القصائد؛ وعاد بعضها الآخر بطريقة غير مباشرة. فعلى سبيل المثال، تصف قصيدة «بيلي - بيلي بيزاري[†]» [هذا تلاعب بالكلمات على طريقة غريغوري المعهودة: لعب على كلمتي «بيزاري» (توابل) و«بازار»] متجراً للتوابل مثل الذي كان لبيبا، ذلك المتجر الذي لا تزال في بعض الزوايا متاجر تشبهه. وهناك قصيدة حانقة، يعوزها الاحترام وإن تكن مؤثّرة، قصيدة «كلمة» التي تبدأ هكذا: لا إله إلا هو / الذي يمزّق قلب امرأة / ويصنع موسيقا الليل من صرخاتها. أظن أن هذه القصيدة تشير إلى جنازة أمين، ابن بيبا، تلك الجنازة التي يبدو أنها كانت ذات أثر عميق على غريغوري؛ فضلاً عن كون القصيدة شهادة على إنكاره وجود الرب ورحمته. ولست أشكّ أبداً في هوية الرجل الأسمر الذي تتحدّث عنه هذه القصيدة الصغيرة:

الرجل الأسمر

سوف يستمرّ
ببراءته الحلوة التي لوّحتها الشمس
ومن غير تأثّر بشيء
سيغرس بنشاط

تحت الشمس الجديدة التي طلعت على المنطقة
أما أنا
شاحبَ اللون، ناعماً مثل يرقة
فإنني أذوي
في حرارة إفريقيا.

كانت قصائد دار السلام هذه متناثرة تناثراً عشوائياً في الكتاب؛ وكانت كأنها تصرخ طالبة سياقاً يفسّرها. ربما أُجري، في وقت ما في المستقبل، دراسة على هذه القصائد من أجل صديقي، فأوضح صلاتها بهذه المدينة التي خدمها طيلة تلك السنوات كلّها.

لم يكن تذكير غريغوري لي ببيبا، عبر قصائده، أمراً مهماً على الإطلاق؛ لكنه يشير إلى ضيق زماننا ومكاننا. على أن ما حيّرني في هذه المجموعة هو وجود عدة قصائد مهداة إلى «أ. ك.». كان واضحاً أنه اسم امرأة. حملتْ إحدى هذه القصائد إشارة صريحة إلى تامبالات، عاصمة أوغندا. لقد قال لي غريغوري إنه كان في أوغندا في أوائل الثلاثينيات؛ وبالطبع، كانت هناك أيضاً أسرة كوربين الذي انتقل من دار السلام إلى أوغندا. هل يمكن أن يكون غريغوري قد عرف أسرة كوربين، وأن تكون «أ. ك» في هذه القصائد هي آن كوربين نفسها؟ لم تكن هذه الفكرة أول الأمر أكثر من احتمالٍ غائم؛ لكنّها ظلّت تعاودني بقوة أكبر، وبقدر أكبر من الإقناع. نعم، لمَ لا؟ ففي نهاية المطاف، ما عدد البريطانيين الذين كانوا في أوغندا في أوائل الثلاثينيات؛ وإذا كنت محقّاً، فقد كان غريغوري على معرفة بكوربين طيلة السنين التي عشتها معه، على علاقة بذلك الرجل الذي استعدتُ تاريخه بعد عقود من ذلك!... كيف تقاطعت دروبنا، ثم تقاطعت من جديد!

بعد مرور أيام على لقائي الأخير مع ريتا في المقهى، ذهبت أخيراً إلى الكنيسة الإنغليكانية حتى أستلم العلبة التي تركها لي غريغوري. وفي طريقي، توقفتُ برهةً، بشيء من الإحساس بالذنب، عند قبره الذي لم أرَه منذ أكثر من عشر سنين. كان قبره معتنى به عنايةً حسنة مثل بقية القبور هنا؛ وكانت زهورٌ مقطوفة قد وُضعت عليه في ذلك الصباح. بدت لي شاهدة القبر أكثر تواضعاً مما كنت أتذكّرها؛ وبدت الكتابة المحفورة عليها باهتة: «ريتشارد غريغوري، 1908–1972». دخلت مكتب الكنيسة، وقلت اسمي للقسّ الشاب (قيل لي إن سلفه الذي عرفته، السيد آنسكومبي، قد توفي) فأخذني الرجل إلى غرفة المستودع. ارتحت كثيراً لأننا نجحنا في العثور على علبتي المصنوعة من ورقٍ مقوّى من غير أن نبذل جهداً كبيراً. كانت عند الجدار البعيد وقد تشوّه شكلها الخارجي قليلاً، لكنها ظلّت سليمة في أسفل كومة من علب تشبهها. كان مكتوباً عليها «إلى السيد بيوس فرنانديز (سيأتي لاستلامها)» وكانت مربوطة على نحوٍ متقن بحبل من السيزال. لم أستطع منع نفسي من التفكير، ممتناً، في أن السيد آنسكومبي العجوز، الذي أخبرني منذ زمن بعيد بأن غريغوري قد ترك لي علبة، كان ذا بصيرة متميّزة ليقينه من أنني سآتي يوماً لاستلامها.

ومثلما توقّعت منذ زمن بعيد، كان أكثر محتويات العلبة كتباً تعليمية ومصنّفات ملأتْها ملاحظاتٌ على الدروس. لكني وجدت فيها أشياء أخرى أكثر شخصية جرّتني، على الفور، بعيداً عن شكسبير وديكنز. وجدت حزمةً ثخينة من صور معلّمي مدرسة البنين. بعثَت رؤيتُها واحدةً تلو أخرى إحساساً غريباً في نفسي عندما رأيت المعلّمين يكبرون، صورة بعد صورة. في صوره الأولى، لم يكن غريغوري مشعّثاً بديناً مثلما صار في آخر أيامه، على الرغم من أنه كان على الدوام ضخماً. وأما شبابي في بعض

تلك الصور فقد كان صدمةً لي. وجدت ثلاثة أعداد من صحيفة «مانشستر غارديان» التي كان غريغوري يكتب لها عموداً بعنوان «رسائل بوانا». ثلاثة دفاتر ذات غلاف من الورق المقوى فيها مسوّدات قصائد، وما أظنّه رواية بدأ كتابتها ثم تركها. كان في العلبة أيضاً قصاصات صحف فيها مراجعات لاثنين من كتبه. وأخيراً، وجدت حزمة رسائل مرتّبة بحسب تواريخها ترتيباً تقريبياً. كانت الحزمة مربوطة بخيط. من بين تلك الرسائل أربع رسائل كتبتُها له عندما كنت في لندن، وكذلك عشرات الرسائل من تلاميذه في مدرسة البنين. ثم أتت رسائل من أشخاص مختلفين لا أعرفهم، لكني وجدت بينها بضع رسائل من آلفرِد وآن كوربين، فتأكّد ظنّي بأن الثلاثة كانوا على صلة في أوغندا.

في تلك المرحلة، لم يكن هذا اكتشافاً كبير الأهمية. لكنه أراحني... كان نصراً صغيراً؛ كان هدية لي، إن شئنا القول، من ريتشارد غريغوري. ثلاث رسائل فقط من آلفرِد كوربين تفصل بين الواحدة والأخرى أسابيع قليلة من سنة 1935؛ وثماني عشرة رسالة من آن مكتوبة في فترات مختلفة بين 1937 و1970.

كان تأثّري بهذه التركة عميقاً بعد أن رفضتها مرة، ثم نسيتها ذلك الزمن الطويل كلّه. ومثلما ظننت، كانت في العلبة بقايا حياة؛ لكن هذه البقايا ثروة! لست أدري ما سأفعله بهذا كله - لعلّ فيه مشروعاً جديداً من أجل معلّم مدرسة متقاعد! وربما أكون قادراً على الإجابة، من أجل غريغوري، عن سؤاله هو... إجابة أكثر استفاضة وسعة مما كان يستطيعه.

25

لقد كان غريغوري مَعْلماً ثابتاً من معالم مدرسة البنين؛ وكان جزءاً من الحياة والفلكلور المحلّيين. ولهذا كان مفاجئاً لي، دائماً، هذا التذكير بأنه عاش أيضاً في مكان آخر في إفريقيا. صحيح أنه لم ينكر هذا (لقد كان في أوغندا قبل دار السلام)، لكنه جعلني أرى بوضوح أنه لا يحب الخوض في هذا الأمر... أمر ليس من شأني!

لقد كانت إقامة قصيرة، 1933–1934؛ وقد كنت أفترض دائماً أنها لم تكن إقامة سعيدة جداً. لم يكن صعباً تصوّر غريغوري عندما كان أصغر سناً وأقل تجربة... شاعراً قادماً مباشرة من لندن تورّط سريعاً في إثارة نفور جماعة الموظفين الإنكليز الصغيرة، فظلّ من غير أصدقاء. لكن أسرة كوربين كانت تحبّه، آن خاصة.

***

عنتيبي – 15/ 3/ 1935

عزيزي ريتشارد،

لا بدّ أنك صرت الآن مستقراً في عملك الجديد في دار السلام. وأنا على ثقة من أن المدينة وسكّانها أقرب إلى ما يعجبك.

يجري تداول مقتطفات من مقالتك بين أشخاص في أعلى المراتب

(بين «الآلهة»). وقد سألني هـ. إ. نفسه ما إن كنت اشتراكياً بالفعل! لا حاجة إلى ذكر ما قلته له رداً على سؤاله؛ لكنك حظيت بالتسامح باعتبارك شخصاً أدبياً ذا طبع خاص، وباعتبارك على صلة بالصحف اللندنية.

أخشى أن يكون المفتش بارنيز قد قصدك قبل أن أتمكّن من الكتابة إليك وإخبارك بنفسي. لقد رأيته هنا في الشهر الماضي في مؤتمر للشرطة. أخرج الرجل قلم حبر، ووجدت مظهره مألوفاً إلى حدٍّ غريب. لقد كان قلم واترمان ذا تصميم خاص جداً؛ فقلت لبارنيز (انتبه الرجل إلى تحديقي في ذاك القلم) إن قلمه يذكّرني كثيراً بقلمٍ فقدتُه منذ سنين. أجابني، من الممكن أن يكون قلمك بالفعل. قال إن موظفاً في شرطة دار السلام اشتراه من بائع هندي اسمه بيبا، منذ بضع سنين، وقدّمه إليه هدية. قلت له إن شاباً اسمه بيبا كان لديه متجر في بلدة كيكونو التي عملت فيها مفوّضاً مساعداً في بداية الحرب. وقلت إنني فقدت مفكّرتي والقلم معاً. جعل هذا تفكير مفتش الشرطة يتخذ وجهة بعينها. حسناً، أقول باختصار إنه قرر الإغارة على متجر ذلك الهندي. إن هذه الإغارات بحثاً عن ممتلكات مسروقة أمر شائع جداً؛ وقد شاركت في عدد منها في موشي ودار السلام. قلت لبارنيز -إن وجد مفكّرتي، على الرغم من أن احتمال عثوره عليها قليل جداً- فعليه أن يسلّمك إياها فوراً...

آن تتذكّرك كثيراً. توقّفت «مجموعة القراءة للسيدات» وهذا ما أزعجها كثيراً. حلّت محلّها «عيادة رعاية الأطفال». ليس غسل أطفال السكّان المحليين وقياس أوزانهم من الأمور الواقعة ضمن اهتماماتها؛ وهذا ما يجعلها تأمل في تقديم «عرض المسرح الصغير» لمسرحية شو: «بغماليون».

حديقتنا في حالة ممتازة.

المخلص لك، آلفرِد.

***

عنتيبي - 17/ 4/ 1935

عزيزي ريتشارد،

أعتذر لما سبّبته لك من إزعاج. لم أتصوّر أبداً أن يأخذك مفتش الشرطة معه في تلك الغارة. أعتذر لك من جديد لأنني ورّطتك في هذا الأمر السخيف. لعلّك مصيب في أن نشوب النار لم يكن مصادفة. إشارتك إلى أن بيبا من ذلك النوع من أصحاب المتاجر الذي يمكن أن يخفي المفكّرة عنده أمرٌ مقلق بعض الشيء. آمل أن تكون مفكّرتي قد ماتت ودُفنت. يزعجني حقاً تفكيري في أنها قد تكون مخفيّة في متجر هندي.

تضمّ هذه المفكّرة (أتتني هدية من أمي)، مُدخلات بدأت كتابتها عند سفري إلى جنوب إفريقيا؛ وأكثرها تسجيل لوقائع عملي مفوّضاً إقليمياً مساعداً في بلدة كيكونو القريبة من الحدود الألمانية. لقد التقيت صاحب المتجر بيبا في ظروف غريبة هناك، إذ تورّط في مشاجرة مع طبّاخي واثنين من العسكري، بعد اعتراضهم على قيامه بنقل كمية كبيرة من الرسائل الألمانية عن طريق نظامنا البريدي. وفي ما بعد، تزوّج فتاة محلية من الشامسي كانت تعمل عندي في ذلك الوقت. أذنت لهما بالإقامة ضمن منطقتي عندما اندلعت الحرب. وفي ما بعد، استفادت الاستخبارات العسكرية من صلات ذلك الرجل في الشرق الألماني. لكني أخليت موقعي وتراجعت إلى فوي بعيد احتلال الألمان تافيتا، وذلك بحسب الأوامر التي أصدرها مفوّض المنطقة هناك. وفي فوي، اكتشفت ضياع المفكّرة فتذكّرت أنني كنت أكتب فيها، في كيكونو، تماماً قبل اجتماعي مع وفد من وجهاء البلدة. لقد وضعت المفكّرة والقلم على كرسي قبل خروجي من أجل ذلك الاجتماع. فقدت أيّ أمل في استعادتها.

آن ترسل إليك أطيب تحياتها. لقد أثار اقتراحك استخدام فتاة محلية

للقيام بدور إليزا دوليتل بعض الضحك هنا. إن زوجة نقيب الشرطة لدينا قادرة على تقليد لهجة الكوكني تقليداً جيداً جداً.

المخلص، آلفرِد.

***

عنتيبي – 3/ 5/ 1935

عزيزي ريتشارد،

المرأة التي رأيتَها في المتجر هي زوجة بيبا الثانية. وأما الزوجة الأولى (أظنّني كتبت لك هذا من قبل)، فقد كانت امرأة جميلة جداً، اسمها مريامو. لقد كانت تلك المرأة تعيش أسوأ ظرف يمكنك تخيّله، وتلقى سوء المعاملة من أسرتها، من زوج أمها خاصة. قبل أن تبدأ عملها عندي، أنقذتها من طقسٍ مُفزع لطرد الأرواح الشريرة.

وبعد رحيلي عن البلدة، لقيَت مريامو مصيراً مأسوياً - قُتلت قتلاً وحشياً. وبعد الحرب، أجريت تحريات وجيزة في شأن مقتلها (عندما كنت مفوّضاً في موشي) لكني لم أصل إلى نتيجة مقنعة. لكن ما هالني كان قلة اهتمام عائلتها بمتابعة الأمر. لم يبلغوا السلطات العسكرية أو المدنية بالجريمة، إلا أن هذا كلّه صار تاريخاً قديماً.

نحن الآن نستعد للذهاب في إجازة إلى الديار؛ وبعدها أستلم منصبي الجديد... مهما يكن ما يقدّره الربّ. هناك شائعات تقول إنهم لن يعيّنوني في شرق إفريقيا هذه المرة.

آن ترسل إليك أحرّ تحياتها.

المخلص لك، آلفرِد.



***

كم كان كوربين قريباً من مفكّرته المفقودة!... أول مرة عندما كان

مفوّضاً في دار السلام؛ فقد كان محتملاً أن يدخل متجر بيبا بنفسه في أيّ يوم، مصادفة، لكن هذا لم يحدث؛ ثم بعد اثني عشر عاماً، بعد رحيله عن دار السلام، عندما أغار رجال مفتش الشرطة بارنيز على متجر بيبا، لكن مكر بيبا تغلّب عليهم، فتركوا خلفهم حريقاً تمكّن بيبا من تقاضي تعويض عنه في ما بعد. لا أملك إلا أن أبتسم عندما أتخيّل وجود غريغوري في ذلك المتجر بين صناديق التوابل وأكياسها، سائراً خلف مفتش الشرطة وهو يتشمّم المكان هنا وهناك ملاحظاً أشياء كثيرة من غير أن يمدّ يده إلى شيء منها خيفة أن تتّسخ. هل أحسّ نفسه وقتئذٍ مغفّلاً، أم كان مستمتعاً بتلك التجربة؟ أتذكّره في جنازة أمين، ابن بيبا الصغير. كان يمكنه وقتئذٍ أن يفصح عن أنه يعرف شيئاً عن والد الصبي، لكنه لم يفعل. كان يتلو الكلمة مع الآخرين من خلف النعش؛ وقد كتب قصيدة ساخطة عن عبثية موت طفل.

في رسالته إلى غريغوري، يُظهر كوربين ذلك التحفّظ الذي يمكن توقّعه منه؛ لكنني أتساءل ما إن كان يخفي خلف تلك الرسالة المحايدة التي تكاد تتحدّث عن مريامو فحسب، أيّ مشاعر تجاهها! يبدو كأنه غير مبالٍ بضياع المفكّرة؛ لكننا نكتشف اهتماماً أكبر بالأمر (في وقت لاحق من حياته، على الأقل) من خلال رسالتين من الرسائل الكثيرة التي كتبتها آن إلى غريغوري.

إن رسائل آن كوربين إلى غريغوري أكثر حيوية؛ وهي موحية بوجود صداقة حميمة ظلّت متحفّظة في السنوات الأولى، ثم لم تلبث بعد ذلك أن صارت معبّرة عن قدرٍ أكبر من الاهتمام والإعجاب والثقة. على المرء أن يستنتج أنها كانت علاقة طبيعتها مفتوحة أمام تساؤلات من هم مهتمون بالحياة العاطفية للشاعر.

***

23 تشرين الأول، 1946
مقرّ الحكومة
عنتيبي، أوغندا

عزيزي ريتشارد،

كم هو رائع أن نلتقي من جديد. المؤسف أن إقامتنا في دار السلام كانت قصيرة جداً، بل كانت إقامة مفاجئة أيضاً! لكني أؤكّد لك أن الأمرين كانا خارجين عن إرادتنا. المهم أننا رأيناك من جديد!

أشكرك كثيراً لأنك أتيت؛ هذا لأنني أفترض أنك أتيت من أجلنا – لكني أتذكّر أيضاً أنك تستمتع بعض الشيء بهذه المناسبات، من حينٍ إلى آخر، أليس كذلك؟ حتى لو لم يكن ذلك إلا من أجل بعض الوخزات للمسؤولين وزوجاتهم.

ما الذي قلته للمصاحب الشابّتين فأخجلهما كثيراً؟ لقد جاء فريدي لنجدتك وقال شيئاً عن حرارة الفنان... لكن، اسمح لي بقول هذا يا ريتشارد، كان الناس ينظرون إليك كأنك قنبلة متحركة موشكة على الانفجار في كل لحظة!

كانت رؤيتك من جديد أمراً لطيفاً، وكان حضورك لطيفاً. يبدو لي أنك سعيد في دار السلام. عليك أن تحكي لي في يوم من الأيام. اكتب لي عن هذا، من فضلك.

غريب جداً أن نعود إلى أوغندا. أراها من جديد فأحسُّ أنني أعرف هذا كلّه. لكن كلّ شيء مختلف بالتأكيد. تقول الشائعات إن الإمبراطورية ستبدأ عما قريب حزم أمتعتها من أجل الرحيل؛ ولهذا نحن هنا. لا يزال فريدي موضع ثقة القادة الكبار، وقد يكونون في حاجة إليه عندما يأتي الوقت. وبعد ذلك، نتقاعد في إنكلترا العتيقة الطيبة؛ لكني أتساءل ما إن كنا

نستطيع التأقلم مع تلك الجزيرة الصغيرة، بعد عمرٍ من غربتنا في المناطق المدارية.

يحب فريدي أن يعود إلى شرق إفريقيا. إن لديه حنيناً إلى دار السلام؛ وقد طلب أن يقوم بجولة في الأحياء الهندية والإفريقية. أظن أنه كان يبحث عن المتجر الذي عثروا فيه على قلمه. لا بدّ أنه وجد المتجر، لكنني لم أسأله عن هذا، لا يزال القلم لديه... إنه ذو قيمة خاصة بالنسبة إليه.

أشكرك مجدّداً على الكتاب، لقد أعجبني كثيراً!

لكن عليّ أن أسرع الآن لأن «فتيات الكشّافة» ينتظرن شاراتهن. لا يجوز تركهن منتظرات.

مع الحب، آن.

***

6 نيسان، 1965

عزبة سِڤن سيز

بيرنتوك

سوراي

عزيزي ريتشارد،

لا يزال التأقلم مع الفصول صعباً، لكن الربيع موضع ترحابٍ دائماً. تفتّح النرجس، نرجس كثير؛ وأزهار أخرى أيضاً... الياقوتية وشقائق النعمان. لم يبقَ إلا أن تخرج الشمس من احتجابها فتتألق الألوان. الحياة هنا هادئة؛ ليس فيها ضجيج ولا قيود مثلما كانت الحياة في الخدمة. لكن بيتنا، سِڤن سيز، ليس مثل المقر الحكومي تماماً، ليس مثل مسكن ممثّل بريطانيا على شاطئ جميل من الشواطئ الاستوائية.

مُنحتْ رتبة فارس لبعض الحكّام السابقين، لكنّهم تجاوزونا. على

الرغم من كونها ضربة مؤلمة له، فإنه لم يتكلّم كثيراً، بل بعث برسالة تهنئة إلى السير إدوارد في تنجانيقا. كانت هذه الدفعة التي جعلته يعود إلى كتابة مذكّراته. إنه الآن منكبّ على العمل فيها. هناك صور ومفكّرات كثيرة لا بدّ من البحث فيها؛ ولا يزال بعضها في صناديقه. توقظ هذه المواد ذكريات كثيرة. لقد حزن من جديد على تلك المفكّرة المفقودة. يقول حزيناً وهو يرفع رأسه عن أكوام الأوراق والصور: «ليتها كانت عندي!». إن للقدر سبلاً غامضة... مصادفة غريبة جداً حدثت معنا في الآونة الأخيرة. في حفل استقبال أُقيم في لندن في مناسبة متعلّقة بالمستعمرات، تعرفنا على رجل وامرأة ساحرين من تنجانيقا. وعندما قال فريدي إنه خدم في موشي سنة 1920، قال له الرجل إنه كان طفلاً في موشي آنذاك. اسمه علي أكبر علي، وهو رجل ساحر، وإن يكن على نحو جامد بعض الشيء. لقد تحدّث فريدي معه. سأله أين ولدت؟ أجابه السيد علي: «ولدت في مكان غير موجود على أيّ خريطة. بل لعلّه لم يوجد أبداً!». ألم أقل لك إن هذا شيء غريب؟ أجابه فريدي بطريقته المعتادة: «جرّبني!»، فاحزر ما قاله الهندي: «كيكونو». بعد ذلك التقى فريدي السيد علي أكبر مرة أو مرتين في المدينة... للحديث عن الماضي، لكني لم أرغب في الذهاب.

اكتب لي يا عزيزي، ريتشارد، اكتب كثيراً! أرحّب دائماً بالقصائد والكتب المنشورة، لكن رسالة بسيطة منك قادرة على حمل فرحة أكبر إلى هذه الروح الهائمة.

مع أطيب التمنيات من صديقتك المخلصة آن.

***

إذاً... التقى علي وآلفرِد كوربين على انفراد، لكن علي لم يخبر ريتا بهذا. هل قال كوربين لآن شيئاً عما دار بينهما؟ أرى الآن رجلين جالسين

إلى طاولة في نادٍ منعزل، لكنه مقتصر على علية القوم... مكان مناسب لحاكم سابق في المستعمرات، لموظف يحمل رتبة فارس. لا بدّ أن علي قال في نفسه وهو ينظر إلى ذلك الإنكليزي الكهل، المزونغو: لقد كان ملك الملوك في المستعمرات؛ وأما هنا، فهو ليس أكثر من عضو محترم من أعضاء المؤسسة. يتذكّر علي هذا الرجل تذكّراً غامضاً من أيام طفولته في موشي. لكن بيبا أخبره أشياء أكثر عن كوربين. يتذكّر علي زوجتَه أيضاً، فقد كان يساعدها في حديقتها أيام طفولته. لكنها لم تأتِ إلى اللقاء، ولعلّها لم تتذكّره. على أن السير آلفرِد تذكّره وبادر إلى اقتراح هذا اللقاء. ماذا يرى في الرجل الأصغر سناً الجالس قبالته؟... ملامح من مريامو؟ والتمدّن والتأنّق والطابع الإنكليزي المكتسب لدى هذا الهندي... أم أحسّ أن في هذا كلّه شيئاً يسخر منه، هو الإنكليزي الحقيقي، عندما يستحضر إلى ذاكرته حوادث جرت قبل خمسين عاماً؟... عندما قال لتلك الفتاة، أينما كنتِ، إذا وجدت أنك في حاجة إليّ، فلا تتردّدي في الاعتماد عليّ! لن يكون صعباً العثور عليه، على هذا المسؤول في المستعمرات... في أي مكان في العالم. والآن، في لندن، ها هو ذا ابنها جالس معه يرتشف نبيذاً غالي الثمن ويتحدّث عن حكومة حزب العمال وآفاقها، وعن السوق الأوروبية المشتركة والكومنولث. أسئلة في ذهن واحد منهما، وإجابات في ذهن الآخر. ماذا قيل أيضاً؟ وكم مرّة التقيا بعد ذلك؟ وهل كان هناك إقرار بالعلاقة التي تربط بينهما، مهما تكن الطبيعة الدقيقة لتلك العلاقة؟

مقاطع متفرّقة (V)

ملحقات

(1) «كثيرة هي الحالات التي نصادفها في الحياة، ثم تبدو لنا اليوم أموراً يصعب تصديقها؛ وكثيرة هي الأمور المألوفة التي رأيناها لكنها اختفت من على وجه الأرض. صارت كلمة إمبراطورية كلمة محرّمة اليوم؛ وفقدت كلمة استعمار مكانتها. ولا وجود اليوم لأعراق خاضعة، بل هي أمم متخلّفة. لقد طُويت صفحة من تاريخ العالم. ذهبنا بأطيب النوايا لكي نقدّم أفضل ما...».

من خاتمة كتاب «القلب والروح» (1966)، مذكّرات آلفِرد كوربين.

مراسلات

كامبردج، ماساشوستس

2 أيار 1988

السيد فرنانديز:

... توفي السير آلفِرد كوربين في بيته في سوراي في شهر تموز 1970.

كان في ذلك الوقت يقدّم المشورة إلى هيئة الإذاعة البريطانية في ما يخص عملاً دراميًاً بعنوان «سادة واسين غيشو» مبنياً على حياة المستوطنين الأرستقراطيين البيض في كينيا. ظهر العمل هنا، بعد وقت طويل من ذلك، على شاشة التلفزيون العام في سنة 1982، وذلك ضمن برنامج اسمه «مسرح ليلة الأحد» الذي يُقدِّم إلى الجمهور الأميركي كلّ أسبوع «بنوع من التوق الحزين» صورة إنكلترا القديمة وإمبراطوريتها. توفيت آن كوربين سنة 1980 - لهما ابنان وابنة واحدة.

أتمنى لك حظاً طيباً في عملك على إعادة إنشاء التاريخ -هل لي أن أدعوه هكذا؟- ينبغي أن أراه - فهل أراه؟ وأما عن نفسي، فقد انتهيت من معركة كبيرة في شأن «أصالة النص وصاحبه الحقيقي»، وذلك في مؤتمر في تورنتو حيث كان السؤال الكبير المطروح: هذه النصوص التي لدينا، هل أتتنا مع تغييرات أضافتها أجيالٌ لاحقة؟ إنه سؤال عن «إعادة الإنشاء» من نوع آخر؛ لكن هناك بعض نقاط التماثل بينه وبين ما تقوم به أنت الآن، ألا ترى هذا؟ احزر أيّ جانب اتخذت؟... معركة لا يمكن أن تصل إلى نتيجة حاسمة، فأيّ نتيجة تعني الكثير! ترقّب مني أنباء مزيد من التطورات...

مع التحية،

سونا

خاتمة

مرّت ثلاثة شهور منذ أن رأيت ريتا آخر مرة؛ قرابة ثلاثة شهور منذ أن سلّمتها مفكّرة آلفرِد كوربين مثلما وعدتها. كان ذلك لقاء سريعاً في صالة المطار قبيل رحيلها. استلمت المفكّرة شاكرة، ثم سألتني بنبرة حادة: «وماذا عن كلّ شيء آخر؟». أجبتها: «لن أكشف شيئاً». هكذا افترقنا. رحلت عائدة إلى لندن.

ما لا أستطيع الكشف عنه، وما لا أستطيع تقديمه إلى العالم، لم يعد موجوداً لديّ إلا بصفته وديعة عندي. حضور دائم يذكّر بعالم أنشأته وبتاريخ لن يعرف راحة البوح عنه ... ليس له إلا أن يعذّبني. لهذا، قرّرت التخلّي عنه. عندئذٍ فحسب، أصير قادراً على النظر إلى ما بقي من حياتي وعلى فعل أحسن ما يمكنني فعله إزاء الفرصة الجديدة التي ظهرت أمامي.

بعد قليل، سيدقّ بابي رجلٌ حتى يأخذ هذه الحزمة من المواد... ملاحظات ونصوص وأبحاث جمعتها معاً من أجل ريتا. إنها «كل شيء آخر»... هذا هو التعبير الذي استخدمته ريتا... كل شيء كتبته أو جمعته في ما يتصل بالمفكّرة - إنه ما صرت أعتبره نوعاً من كتاب أسرار جديد. كتاب غير مكتمل مثلما كان الكتاب القديم، غير مكتمل مثلما ينبغي لأيّ كتاب أن يكون. كتاب من أنصاف الحقائق، وأنصاف الحيوات، والتخمينات،

والتفسيرات، وربما بعض الأخطاء. فأيّ تكريم للماضي أكبر من أن نقرّ له بأنه هكذا، من أن ننقذه ونعيد خلقه من غير محاولات وقحة لإصدار الأحكام، بل بأقصى ما نستطيعه من صدق، لكن ربما (على نحو غير كامل بقدر ما نعرف بأننا لسنا كاملين) باعتباره جزءاً من الحياة التي نحن كلنا جزء منها؟ إذاً، هذا كله من أجل ريتا. فلتفعل به ما تشاء، ولتدفنه إن كان عليها أن تدفنه (هذا إن تركها تدفنه).

بعد أن أُسلِّم هذه المواد التي أخذت حياتي على امتداد الشهور الماضية، سأخرج في نزهة في شارع أوهورو، بل ربما أعرّج أيضاً على المنادا، سوق الأسعار المنخفضة المزدحم الذي بدأ الأمر كلّه فيه عندما رآني فيروز، تلميذي السابق، فتوقف كي يقلّني معه. ثم وضع بين يدي مفكّرة رجل إنكليزي. قد أجد في السوق الآن بعض العروض المغرية. في نهاية رسالته الأخيرة، دعاني سونا إلى زيارة كندا والولايات المتحدة، فهو يقول إن فيها طلبةً سابقين كثيرين متشوّقين لرؤيتي. لقد عُرضت علي بطاقة سفر مجانية، فقبلت العرض شاكراً. في هذا الوقت، لن أفوّت فرصة قضاء عطلة في الخارج.

عند رجوعي إلى دار السلام، ستكون عودتي إلى هذه الشقة نفسها، بفضل فيروز. وأهم من هذا أنني سأباشر وظيفة جديدة تمكّن أخيراً من العثور عليها من أجلي بعد جهدٍ شاقّ بذله. إنها وظيفة معلّم بدوام جزئي في مدرسة خاصة ظهرت لكي تلبّي الطلب الذي يتزايد في الآونة الأخيرة على استعادة معايير التعليم الصارمة التي كانت لدينا في ما مضى. مدير هذه المدرسة من كينيا؛ وقد اصطحبني في جولة لكي أرى المكان. عليّ الاعتراف بأنني أجريت مقارنة غير منصفة إلى حدّ ما: مساحة هذه المدرسة تكاد لا تبلغ خُمس مساحة مدرسة البنين القديمة؛ لكنني سأعلّم

جيلاً جديداً من التلاميذ، أولاداً وبناتٍ من أعراق مختلطة، لامعين، مع آمال ووعود جديدة... لا بدّ أن تكون منظوراتهم وخبراتهم العصرية تحدياً وإنعاشاً، حتى بالنسبة إلى هذا المعلّم العجوز. لست أعلم القصة الكاملة لهذه الوظيفة، ولست أعرف ما استُخدم من وسائل من أجل تأمينها لي؛ ولن أحاول تخمين ذلك عند هذه النقطة. لقد قلت للمدير إنني سأتغيّب شهراً خارج البلاد قبل العودة لمباشرة أداء مهامي. أتوقع أن يتيح لي هذا العمل الجديد تنفيذ بعض المشاريع التي وعدت نفسي مؤخراً بأن أعمل عليها.

لكن عليّ أن أتوقف الآن لأن الرجل قد وصل لاستلام الرزمة.

بيوس فرنانديز،
12 آب 1988
دار السلام

شكر وتنويه

هذا الكتاب عمل من نسج الخيال. فبلدة كيكونو، والمفوّض المساعد فيها، وبقية الشخصيات، خيالية كلّها. الإطار التاريخي والمواضع الجغرافية هما العنصر الحقيقي الوحيد، على الرغم من أن المدقّق يمكن أن يكتشف بعض التصرّف من جانبي.

أودّ أن أشكر مكتبة «رودوس هاوس» Rhodes House Library في أوكسفورد، ومكتبة «إمبريال وور ميوزيم» Imperial War Museum Library في لندن، على إتاحة مرافقهما لي بكلّ كرم؛ وأودّ خاصة التنويه بفضل قيّم المكتبة ومساعده في «رودوس هاوس»، إذ وضّحا لي بعض الأمور المتعلّقة بالبوانا الذين يرد ذكرهم في هذا الكتاب. إن هذا أيضاً مقامٌ مناسب لتوجيه الشكر إلى بيجوم وبيارالي اللذين رافقاني إلى تافيتا في رحلة جلّلها الغبار، وكذلك إلى أشخاص كثيرين في تانغا رحّبوا فجر ذات يوم برحّالة مجهول، فضوليّ، قلق، معه سائق سيارة تاكسي أُرغم على مرافقته. أشكر أيضاً زهير دالا الذي عرّفني على أشخاص كثيرين. وأشكر أيضاً كارولين آفينز وبقية العاملين في «هينيمان» في أوكسفورد على كرم ضيافتهم.

وعليّ أن أشكر أصدقاء كثيرين ساعدوني: آرون موخرجي، وعيسى شيفجي، وولتر بوغويا، وفاطمة آلو، وفرانسيس إنبوغا.

وقد كان «مجلس كندا» كريماً معي.

وكذلك كان نورجيهان وأميل كريمين معي بطريقتهما الخاصة، إذ شجّعاني وظلّا صابرين معي حتى في الأوقات الصعبة. عليّ أخيراً أن أشكر أليكس شولتز لحساسية قراءته المتأنية لمخطوط هذا الكتاب. وبطبيعة الحال، أشكر أيضاً ألين سيلغمان التي كانت مدقّقة في تحرّي كلّ سرٍّ في هذا الكتاب... لقد بذلت جهداً صبوراً، شاملاً، متواصلاً؛ أشكرها أجزل الشكر.

إن المقتطف المعنون «مذكّرة الحاكم الموجهة إلى مفوّضي المناطق ومفوّضي الأقاليم (1910)»، الوارد في الفصل الثاني مأخوذ من «مذكّرة سرية إلى المفوّضين الإقليمين ومفوّضي النواحي»، بتاريخ 1910، وبتوقيع الحاكم إ. ب. ك. غيروارد؛ كما أن العبارات القرآنية مأخوذة من ترجمة محمد مارمادوك بيغثال (منتور بوكس)؛ وأما ما هو مأخوذ من مسرحية «روميو وجولييت» في الفصل التاسع عشر، فهو من «إلكساندر تكست» (كولينز، 1951).

أخذت الحكمة الواردة في صدر الكتاب من ترجمة رباعيات الخيام لبيتر آفيري وجون هيث ستوبز (بنغوين، 1981)؛ والكلمات الشعرية الواردة في بداية الجزء الأول مأخوذة من السير ثوماس براون في «قاموس أوكسفورد للمقتطفات»، (1979). استعرت الأحجية السواحيلية الواردة تحت عنوان «الجزء الثاني (الأحجية الكبرى)» من كتاب «حكايات سواحيلية» لإدوارد ستيل (جمعية تشجيع المعارف المسيحية، 1933)، لكني أدخلت تعديلاً عليها. وأما المثل السواحيلي الذي يقول «يأكل معك، لكنه لن يموت معك إلا إذا كان مولوداً منك»، فهو صياغتي الخاصة لمثل سواحيلي معروف ولجملة من «الجنان الإسماعيلية». المقتطف المنسوب

إلى فيلم «غيلدا» مأخوذ من ملصق إعلاني لذلك الفيلم؛ وعبارات الشاعر أودين مأخوذة من قصيدة «أنت» في «أشعار مختارة لـ و. هـ. أودين»، (فينتج، 1971). وأخيراً، فإن البيت المأخوذ من أغنية آناركالي في الفصل الثامن عشر وفي «مقاطع متفرّقة (IV)» فهو من صياغتي.

قائمة ببعض التعابير

ترد في هذا الكتاب كلماتٌ مأخوذة من اللغة السواحيلية (يُشار إليها بالحرف «س»)، وكلمات من اللغة الهندية (يُشار إليها بالحرف «هـ»). إن هذه الكلمات، الكلمات السواحيلية خاصة، يمكن أن تكون من أصول عربية.

أڤاتار (avatar) (هـ): تجسُّد.

أوغالي (ugali) (س): إعداد دقيق الذرة لتناوله مع اللحم المطهو.

إتي (eti) (س): كلمة مستخدمة للفت الانتباه أو لافتتاح الكلام؛ «أقول...».

باتشيدي (pachedi) (هـ): غطاء رأس للمرأة.

بارازا (baraza) (س): اجتماع عام.

بازّي (baazi) (س): نوع من التوابل.

باغالا (bagala) (س): قارب.

بانديت (pandit) (هـ): عالم هندوسي.

باو (bao) (س): لعبة ذات رقعة (كالشطرنج).

بايزا (paisa) (هـ): وحدة نقود هندية، أصغر من روبية.

بِرياني (biriyani) (هـ): طبق أرزّ هندي بالتوابل.

بندقي (bunduki) (س): بندقية.

بهاجان (bhajan) (هـ): أنشودة دينية.

بهانغ (bhang) (هـ): عقار مخدّر.

بوانا (bwana) (س): سيّد؛ يا سيّد - مستخدمة عند توجيه الخطاب إلى شخص بطريقة فيها احترام: «يا سيد».

بومبيه (pombé) (س): شراب كحولي.

بويبوي (buibui) (س): وشاح نسائي أسود اللون.

بيتا بيتي (pita- piti) (هـ): لعبة تُلعب في النزهات.

بيلاو (pilau) (هـ): طبق هنديّ من الأرزّ المقليّ.

بيلي بيلي بيزاري (pili- pili bizari) (س): التوابل والمنكهات.

تابالتشي (tabalchi) (هـ): ضارب الطبلة.

تامبي (tambi) (س): معكرونة، سباغيتي.

تشانا (channa) (هـ): نوع من التوابل.

تعويذ (tawith) (هـ): تعويذة، حجاب.

توتو (toto) (س): ولد خادم. من كلمة «موتو» السواحلية التي معناها «ولد، صبي».

جامبو (Jambo) (س): كلمة للتحية.

جِن (djinn) (س، هـ): جنّي، جنّ.

جوما (Juma) (س): جمعة.

جومبا (jumba) (س): بيت.

جيف (jiv) (هـ): روح.

حوري (houri) (س): حورية.

خانغا (khanga) (س): قماش مطبوع كثير الألوان عليه كتابات.

خميسي (Hamisi) (س): الخميس.

دانديا (dandia) (هـ): رقصة تقليدية بالعصا.

داو (dhow) (س): مركب ذو شراع مثلّث.

دهوتي (dhoti) (هـ): إزار الوسط.

دهول (dhol) (هـ): من أنواع الطبول.

دودو (dudu) (س): حشرة.

دوكا (duka) (س): دكّان.

راسا (rasa) (هـ): رقصة تقليدية هندية تشبه رقصة الغاربا.

رمضان (Ramadhan): شهر رمضان.

سردار (sirdar) (هـ): شخص ذو رتبة رفيعة، عسكرية أو سياسية.

سيمبا (simba) (س): أسد.

شيطان (shaaytan) (هـ): شيطان، روح شريرة.

شيطاني (shetani) (س): أرواح، شياطين، شيطان.

شيكامو (shikamoo) (س): كلمة تحية.

صوفي (Sufi): صوفي، جماعة صوفية، الصوفية.

طبلة (tabla) (هـ): طبلة، طبل.

عسكري (askari) (س): حارس، شرطي، ناطور.

عيد (Eid) (س): عيد.

غاربا (garba) (هـ): رقصة تقليدية هندية.

غاري (gharry): عربة يجرّها إنسان.

غوبي (gopi) (هـ): البقرة/ الفتاة (البقرات/ الفتيات) الخاصة بالإله الهندوسي كريشنا الذي تكون له بها صلة جسدية وروحية.

غيان (gyan) (هـ): ترنيمة.

فترة الشامبا (shamba period): فترة عمل التلاميذ في الحقل.

ڤيتومبوا (vitumbua) (س): خبز حلو مقلي.

فيسي (fisi) (س): ضبع.

كاروم (carom) (هـ): لعبة هندية يلعبها شخصان أو أربعة أشخاص على رقعة مربّعة باستخدام أقراص سوداء وبيضاء.

كامبا (kamba): من شعوب إفريقيا.

كانزو (kanzu) (س): ثوب قطني، أبيض اللون عادة.

كلمة (kalima): تعبير يعني «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، لكنه مستخدم هنا ببعض التوسّع بحيث يشتمل على الأدعية والأذكار وتلاوة القرآن.

كوفية (kofia) (س): غطاء للرأس عليه تطريز يدوي.

كونداليني (Kundalini) (هـ): قوة من الأرواح.

كيبوكو (kiboko) (س): سوط.

كيكابو (kikapu) (س): سلّة.

كيكوي (kikoi) (س): نوع من القماش له حاشية.

ليلتو القدر (Layl-tul-qadr): ليلة القدر.

ماتاتا (matata) (س): هرج ومرج، مشكلة، مشاجرة.

ماجي ماجي (Maji- Maji): انتفاضة إفريقية (تنزانيا) ضد الاحتلال الألماني سنة 1905. من الكلمة السواحيلية (Maji) التي تعني «ماء».

ماغرب (maghrab) (هـ): وقت المغرب.

ماغو (maago) (هـ): طلب الزواج، خطبة.

مانداب (mandap) (هـ): خيمة كبيرة للاحتفالات.

ماندازي (maandazi) (س): خبز مقلي ومحلّى.

مبويو (mbuyu) (س): شجرة الباوباب.

مرحبا (Mrhaba) (س): مرحباً.

مزونغو (mzungu) (س): أبيض، البيض.

مزي (mzee) (س): كبير السن، «ختيار». مستخدمة في الخطاب لإظهار الاحترام.

مشايري (mshairi) (س): شاعر.

معليم (maalim) (س، هـ): معلّم، مدرّس، طارد الأرواح الشريرة.

مغانغا (mganga) (س): مطبّب، طبيب.

مفالمه (mfalme): ملك، يا سيدي.

منادا (mnada) (س): سوق.

موافريكا (Mwafrica): «الإفريقي»؛ صحيفة تنزانية موالية للحكومة (في الستينيات والسبعينيات).

مواليمو (mwalimu) (س): معلّم، زعيم. لقب لرئيس تنزانيا يوليوس نيريري الذي كان في الأصل معلّماً.

موخي (mukhi) (هـ): زعيم زمني وديني لدى جماعة الشامسي. لا يتقاضى أجراً نظير أداء مهامه.

ميرا باي (Mira Bai): روحانية هندية شهيرة من العصور الوسطى.

ناماسته (namasté) (هـ): كلمة للتحية يرافقها ضمّ الكفين معاً.

نغالاوا (ngalawa) (س): زورق شراعي.

نكاح (nikaa): المراسم الإسلامية لعقد النكاح.

نيانيي (nyanyi) (س): قرد البابون.

هلود (halud) (س): نوع من الطيب.

هوتو-توتو (hutu-tutu) (هـ): لعبة محلية تدور بين فريقين (في النزهات خاصة).

هيلر (heller): وحدة نقدية منخفضة القيمة أدخلها الألمان إلى مستعمرتهم الإفريقية.

وازّي (wazee) (س): كبار السن.



م.ج. ڤاسانجي

وُلد م.ج. ڤاسانجي في كينيا، وترعرع في تنزانيا. وقبل قدومه إلى كندا سنة 1978، درس في معهد ماساشوستس للتقنية (M.I.T) ثم كان «كاتباً مقيماً» في جامعة آيوا ضمن «برنامج الكتابة الدولي» الذي يحظى باحترام كبير. كما نال ڤاسانجي «جائزة مهرجان هاربرفرونت» سنة 1994، وذلك إقراراً بمساهمته في الأدب العالمي وبإنجازاته فيه؛ وقد اختير في السنة نفسها واحداً من اثني عشر كندياً في «قائمة ماكلين للشرف».

من أبرز مؤلّفاته: رواية «كيس الخيش»، التي فازت بـ«جائزة كتاب الكومنولث الإقليمية»؛ رواية «أرض غير جديدة»؛ رواية «كتاب الأسرار»، التي كانت من أكثر الكتب مبيعاً في كندا وفازت بـ«جائزة غيلر» في دورتها الأولى عام 1994؛ رواية «عالم ڤيكرام لال الواقع بين عالمين»، التي فازت أيضاً بـ«جائزة غيلر» في عام 2003.

الحارث النبهان

مترجم سوري، حائز على شهادة في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. تفرّغ للترجمة منذ عام 2004، ويقيم حالياً في بلغاريا.

ترجم عن اللغة الإنكليزية عدداً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «مغامرات أوجي مارتش» سول بيلو، «بابت» سنكلير لويس، «الحسّون» دونا تارت، «حكاية أمريكية» فيليب روث، وغيرها.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



يتلقّى المدرّس المتقاعد "بيوس فيرنانديز" من أحد طلّابه، مفكّرةً قديمة وُجدت في الغرفة الخلفية لمتجرٍ في شرق إفريقيا، ويتبيّن أنها مذكّرات ضابط بريطاني عاش قبل سبعة عقود في البلدة الصغيرة "كيكونو". تأسر المذكّرات المعلّم فيحاول إعادة خلق العالم الموجود فيها، وبثّ الحياة في الأرواح المحبوسة هناك، مكتشفاً سرّاً قاتماً متوقّداً، سرّ رجلٍ بسيط يدعى "بيبا" صارت حياته، بعد زواجه من "مريامو"، مرتبطةً ارتباطاً مؤلماً بحياة الضابط الإنكليزي. وفي أثناء تتبّع "فيرنانديز" درب المفكّرة، يصبح آخر الأمر هو نفسه واحداً من حكايات كتاب الأسرار.

في هذه الرواية التي حازت جائزة "غيلر" في دورتها الأولى، عام 1994، يكتب "ڤاسانجي" عملاً مؤثّراً غنيّاً بالأسئلة، عن عالمٍ شديد الغنى والتعقيد، نابضٍ بصورٍ ملوّنة، على خلفية تغيّراتٍ تاريخيّة كبيرة.





دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع





ISBN 978-9933-641-16-0

9 789933 641160 >